جامعة البترا

منشورات جامعة البترا

عمادة البحث العلمي

ندوة

القدس بين الماضي والحاضر

بحوث ندوة جامعة البترا

٢١-٢٢/٥/٢٠٠١م

القدس بين الماضي والحاضر

GIFTS OF 2002

جامعة البترا
الأردن

جامعة البترا

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ١٠٧٥ / ٢٠٠٢/٥

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية ١١١٦ / ٢٠٠٢/٥

الصف والطباعة

دار المناهج
للنشر والتوزيع

تلفاكس: ٤٦٥٠٦٢٤ (٦٢٢٦٩٠٠)- ص.ب ٢١٥٣٠٨ عمان ١١١٢٢ الأردن

جامعة البترا

كلية الآداب

القدس
بين الماضي والحاضر

بحوث ندوة جامعة البترا

٢١-٢٢/٥/٢٠٠١

جامعة البترا

هاتف ٥٧١٥٥٤٦ - ٥٧١٥٥٤٩ فاكس ٥٧١٥٥٧٠

ص. ب ٩٦١٣٤٣ عمان الأردن

المحتويات

الجزء الثالث
القدس وانتفاضة الأقصى في الأدب والصحافة

الجزء الرابع
العمارة والآثار في القدس

المقدمة

للقدس مكانتها الأثيرة الخالدة في نفوس العرب والمسلمين، ولها موقعها الراسخ في تاريخ أمتنا العربية وفي ثقافتها وحضارتها وأدبها.

وقد كانت القدس، وما تزال، في القلب من هذه الأمة في صراعها الطويل مع الأعداء من كل جنس ولون.

وكان لنا معها هذا الارتباط الأزلي الذي يضعها في الضمير والوجدان والاستعداد الدائم لبذل التضحيات الجسام حتى تظل منارة للحضارة ومركزاً للإشعاع.

وقد سعت جامعة البترا الأهلية إلى تقديم بعض الواجب والوفاء تجاه هذه المدينة المقدسة، بعقد الندوة العلمية الموسومة بـ (القدس بين الماضي والحاضر) في شهر مايو/ أيار ٢٠٠١، في رحابها، تتناول قضية القدس من مختلف الجوانب في التاريخ والثقافة والتعليم والأدب والصحافة وملكية الأراضي والعمارة الإسلامية، إضافة إلى إضاءة مختلف جوانب الصراع حول مدينة القدس.

وكان انعقاد تلك الندوة، التي نسعد بنشر ما تضمنته من أوراق بحثية في هذا الكتاب، في غمرة أحداث الانتفاضة المباركة التي أطلق عليها بحق انتفاضة الأقصى.

وكلنا أمل ورجاء أن يكون هذا الجهد العلمي الذي تقدمه هذه الأوراق، بمحاورها العديدة الثرية، إضافة قيمة للمكتبة العربية الخاصة بالقدس والقضية الفلسطينية.

والله نسأل أن يمدنا بعونه وتوفيقه إنه سميع مجيب الدعاء

أ.د تيسير أبو عرجة

رئيس اللجنة التحضيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة معالي الأستاذ الدكتور محمود السمرة رئيس الجامعة في افتتاح أعمال الندوة

ضيوفنا الأكارم

الأخوات والإخوة الحضور

فهذا صباح جميل، يطيب فيه لجامعة البترا أن تشرع أبوابها، للترحيب بضيوفها، ضيوف الندوة الأولى للقدس بين الماضي والحاضر، ولتتوجه بخالص الشكر وعظيم الامتنان لهذه الكوكبة من رجال العلم، والفكر، والأدب ممن لبوا دعوتنا –مشكورين– تحدوهم رغبة صادقة وعزم أكيد للدفاع عن عروبة بيت المقدس، وعن مقدساته، وعن حاضره ومستقبله.

وحين يكون الحديث عن القدس، فهو حديث عن الهوية، وحديث عن الحضارة وعن التاريخ الذي نستلهم منه حكمة الصبر في مواجهة التحدي، ونستلهم منه رؤية مستقبلية متفائلة، فما يحدث على أرض بيت المقدس ما هو إلا موجة لها نظائرها في تاريخ المكان، وستنجلي –بإذن الله– كما انحسرت موجات قد خلت من قبلها.

فنحن على يقين بأن الأوراق التي أعدت لهذه الندوة: سيكون لكل منها دوره في إضاءة جانب من الحقيقة، التي يسعى العدو المحتل بشتى السبل إلى طمسها أو تشويهها. وبيت المقدس بحاجة إلى المزيد من جهود المخلصين من أبناء أمتنا على شتى الصعد. وإيمانا منا بدور الجامعات والمؤسسات الأكاديمية في هذا الصدد، فقد رأت جامعتنا أن تكون هذه الندوة فاتحة لسلسلة ندوات مستقبلية، تصب في هذا الاتجاه،

حتى تظل القدس عربية الوجه، واليد، واللسان، وحتى تظل القدس مدينة للمحبة والسلام، تتعانق على ثراها الطهور مآذن المساجد وأبراج الكنائس في وحدة روحية عز نظيرها.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أشيد بالدور الكبير الذي نهضت به كلية الآداب بجامعتنا، وبالجهد الذي بذلته للخروج بهذه الندوة على هذا النحو. فقد عودتنا هذه الكلية على تقديم مثل هذه الفعاليات العلمية، والأدبية المتميزة، فبوركت جهودها، وجزاها الله عن بيت المقدس خير الجزاء وأحسنه.

كما أتوجه بخالص الشكر لمركز الدراسات بجامعتنا، الذي سخر كل إمكاناته للتعاون مع كلية الآداب في تفعيل هذه الندوة، فإلى القائمين عليه، والعاملين فيه تقديري وامتناني.

أكرر ترحيبي بالسادة الضيوف، وأكرر شكري وعظيم امتناني للسادة الأفاضل المشاركين في هذه الندوة، وباسمكم جميعا نرحب بالأخوة الكرام القادمين من فلسطين، مقدرين لهم تلبيتهم لدعوتنا وسط هذه الظروف الأكثر من صعبة، التي يعيشها أهلنا هناك، في مواجهة ما نراه بأم أعيننا، وما يتناهى إلى مسامعنا، وما نلمسه بكل جوارحنا من أذى وظلم.

سائلين المولى – جل ثناؤه– أن يرفع هذا الكرب عن أهلنا في فلسطين، وأن يحقق لهم ما يصبون إليه من حرية، وكرامة، وسلام دائم.

متمنيا لهذه الندوة المباركة التوفيق والسداد...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الجزء الأول

القدس منذ الفتح الإسلامي
إلى نهاية العصر العثماني

الفتح العربي الإسلامي

لبيت المقدس

أ.د. صالح موسى درادكه

قسم التاريخ – الجامعة الأردنية

تختص هذه الورقة بالفتح العربي للقدس، ويجد الباحث أن من الضرورة بمكان التعريف باختصار بشيء من تاريخ هذه المدينة، حتى لا يبقى السؤال حائرا، ممن فتح العرب القدس، ومن هم سكانها؟

تقول التوراة (العهد القديم) أن سكان فلسطين من غرب نهر الأردن، هم من الكنعانيين والأموريين، وأن أدوني صادق هو ملك أورشليم اليبوسيه عند دخول اليهود إلى أورشليم (القدس)(١).

وهذه الاعترافات التوراتيه وغيرها في المصادر اليهودية، تؤكد أن اليهود (بني إسرائيل) لم يكونوا من بين الشعوب التي استوطنت فلسطين، قبل خروج عائلة يعقوب (إسرائيل) والأخلاط السكانية من مصر.

وفي حقبة الوجود اليهودي في فلسطين، لم يكن هذا الوجود مستقرا أو شاملاً لأن الكيانات اليهودية تأثرت بنفوذ القوى الكبرى في المنطقة مثل: الآشوريين، والكلدان والمصريين، كما استمر صراعهم مع سكان فلسطين الأصليين من العرب.

تعرض اليهود ثلاث مرات للسبي من فلسطين تمثلت الأولى بالغزو الآشوري لفلسطين في القرن الثامن قبل الميلاد، مما أدى إلى إخلاء الشمال الفلسطيني من الإسرائيليين وتمثلت الثانية بالغزو البابلي لفلسطين في القرن السادس قبل الميلاد مما أدى إلى إخلاء الجنوب الفلسطيني من الإسرائيليين. وقد أدى هذان السبيان الآشوري والبابلي إلى تغيير حاد في بنية سكان فلسطين بعامة ويهوذا بخاصة. ويؤكد البرايت انخفاض عدد سكان يهوذا من ٢٥,٠٠٠ إلى نصف هذا العدد تقريبا في الفترة من القرن الثامن إلى عام ٥٨٧ ق.م الذي شهد خراب أورشليم وترحيل بقية أثريائها، وأصحاب الحرف فيها إلى بابل(٢).

أما السبي الثالث أو الشتات، فيتمثل بالبطش الروماني باليهود وبخاصة يهود

القدس، ويعتبر الإجراء الروماني الحلقة الأخيرة من حلقات إخلاء فلسطين من السكان اليهود في التاريخ القديم[٣]. وتفيد المصادر اليونانية واللاتينية أن سكان فلسطين في الفترة الرومانية الأولى أي حتى سنة ١٣٥م، كانوا من العرب والمصريين واليهود والفينيقيين، ومع الزمن أخذ يتناقص عدد اليهود بينما يتزايد عدد السكان من الأقوام الأخرى كما يقول يونيور فيلوسوفس[٤] الذي كتب عنهم في سنة ٣٥٠ بعد الميلاد.

وخلال السيطرة الرومانية على المدينة، فرض على السكان الديانة النصرانية، كما استبدل اسم القدس (أورشليم) بالاسم الروماني (ايليا كابيتولينا) ورغم التشديد الروماني على حمل السكان على الديانة الرسمية للدولة، إلا أننا نجد دلائل على عبادات وثنية كعبادة سيرابيس (Serapis) اله الشفاء المصري اليوناني، كما نجد بين الأساقفة من يحملون أسماء عربية مثل: مازابانيس، وزبداس من أساقفة القرن الثالث الميلادي، وهم من العرب الأنباط[٥].

ومما يشير إلى الطابع المحلي العربي لسكان القدس في الفترة الرومانية، أن الصلوات العامة كانت تقام باللغة اليونانية بحضور ترجمان يردد الكلمات بالآرامية[٦]. وهي لغة العرب السوريين.

نخلص إلى القول بأن الوجود اليهودي في القدس في نهاية القرن الثالث الميلادي لم يكن يزيد على ٩٪ من السكان[٧] أي أنهم كانوا أقلية صغيرة في فلسطين بعامة وأورشليم بخاصة، وأن هذه الأقلية كانت آخذة في التناقص. كما أن الجهود التي بذلتها الدولة الرومانية لتنصير سكان أورشليم (القدس) وفلسطين لم تلق النجاح المأمول، فقائمة القرى التي جمعها أوسايبوس القيسراني سنة ٣٣٧م تفيد أن أغلب هذه القرى كانت على الوثنية[٨] وفي مصادرنا العربية نجد أن بلاد الشام تعربت منذ القرن الثالث الميلادي وأن فلسطين كغيرها كانت موطناً للقبائل العربية من لخم وجذام وكلب وبلقين وغيرها[٩].

وعندما جاء الفتح الإسلامي لفلسطين كان معظم سكانها من العرب الذين يدينون إما بالوثنية أو بالنصرانية، وكان في القدس رهبان وقسس وعائلات مقيمة بجوار الأماكن الدينية من غير العرب، ولكن لا شك بأن غالبية السكان كانوا من العرب الذين يشكلون سكان فلسطين وباقي أجزاء الديار الشامية.

وفي الإسلام احتل بيت المقدس مكانة خاصة في قلوب المسلمين وفكرهم، وتعاظمت هذه المكانة عبر التاريخ الإسلامي، وتعتبر حادثة الإسراء والمعراج في العهد المكي، الانطلاقة الكبرى لشد انتباه المسلمين إلى بيت المقدس، فقد ظهر اسمه جليا في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الذي أَسْرى بِعبدِهِ لَيْلاً مِنَ المسجِدِ الْحَرامِ إِلَى المسْجِدِ الأقصا الذي بارَكْنا حوله لنُرِيهُ من آياتِنا إِنَّهُ هو السَّميعُ البَصيرُ ﴾[الإسراء:١].

فعلاوة على الاقتران بين المسجد الحرام – محج المسلمين– والمسجد الأقصى، نجد مباركة رب العالمين للمكان وما حوله. كذلك لعبت الأحاديث النبوية دوراً كبيراً في إبراز عظمة المكان وقدسيته، وبخاصة الحديث القائل: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام بمكة، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)، فكان الأقصى قبلة المسلمين الأولى.

وزاد من أهمية المدينة عناية الأمويين بها، وبناؤهم مسجدي الصخرة، والأقصى، حتى أصبحت المدينة كعبة يؤمها المسلمون من كل مكان في مناسبات معينة للاستفادة من فضائلها، والفوز بالحسنات المضاعفة للمتعبدين فيها. ومن العوامل التي أججت مشاعر المسلمين وعلقتها بالمكان ما تعرض له بيت المقدس من نكبات. لقد كان بيت المقدس على الدوام عاملاً فاعلاً في جمع المسلمين وتوحيدهم، ولا غرابة أن نجد القدس والأرض المباركة من حولها تسكن أعماقنا، وتفجر فينا أدبا نثرا وشعرا وفنا خاصا

يحفر في وجداننا وضمائرنا صور الأقصى والأرض المقدسة، وتملأ أجواءنا بالأصوات الصاعدة من المآذن والأجراس، لتبقى رسالة الأرض التي باركها الله في كل نبضة من نبضات قلوبنا.

لكل الذي أسلفناه أصبح كل ما يتعلق بتاريخ القدس متأثراً بحرمة المدينة وما تثيره من عواطف ومشاعر. لذلك تضاربت الروايات في الحديث عن فتح المسلمين لهذه المدينة في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب (١١/٦٣٢-٢٣/٦٤٣). وقبل الدخول في الحديث عن فتح بيت المقدس، لا بد من التأكيد على قضية هامة تتعلق بالتذكير بعروبة بلاد الشام قبل الإسلام، فقد ذكرنا أن القبائل العربية كانت قد استقرت منذ قرون قبل الإسلام، وطبعت البلاد بالطابع العربي، و لم يزد الوجود الروماني عن حاميات تحفظ المصالح الرومانية، لذلك كانت بلاد الشام تحت سلطان القبائل العربية الحرة (اللقاح) أو القبائل التي تتبع نفوذ الروم أو الفرس كالمناذرة.

ومن هنا يصح القول بأن حركة الجيش الإسلامي من الجزيرة العربية نحو سوريا والعراق، تحمل في طياتها هدف تحرير العرب في سورية والعراق من سيطرة المستبد الأجنبي. ولغاية ترتيب الروايات التي تعرضت لحادثة فتح بيت المقدس، نذكر أن أخبار الفتح جاءت في مصادر عربية شتى لرواة من أمصار مختلفة، أما المصادر الأجنبية التي أوردت الخبر، فهي متأخرة ومحدودة، ولا تقارن بمنهجيتها وتنوعها بالمصادر العربية *.

ففي كتاب فتوح الشام المنسوب للواقدي، نجد أن فتح بيت المقس جاء بعد معركة اليرموك. فقد ورد أن قادة الفتح احتاروا بعد اليرموك، أن يتوجهوا لفتح قيسارية أم لفتح بيت المقدس؟ ورأوا أن يكتب أبو عبيدة إلى الخليفة عمر يستشيره في الأمر، وكان جواب عمر أن يبدأوا بفتح بيت المقدس [١٠].

(*) سنكتفي بالإشارة للمصدر عند وروده لأول مرة في الهامش، ونشير إليه في المتن مختصرا.

وذكر الأزدي رواية عن الحسين بن زياد عن أبي إسماعيل محمد بن عبد الله قال وحدثني الحسن بن عبد الله... جاء فيها أن أبا عبيدة بعد أن انتهى من اليرموك، بعث برسالة إلى الخليفة عمر يبشره بالنصر، ويخبره بأنه قد بعث إلى أهل إيليا يدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا، وإلا فليؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا فسيسير إليهم حتى ينزل بهم، ثم لا يزال حتى يفتح الله على المسلمين إنشاء الله[١١].

وانتظر أبو عبيدة رد أهل إيلياء أن يأتوه فأبوا ذلك وعزفوا عن صلحه، فسار إليهم وحاصرهم حصارا شديدا، وضيق عليهم من كل جانب، وكان الذي تولى قتالهم خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان، كل واحد منهما في جانب (الأزدي ص٢٤٥).

يورد ابن أعثم رواية مماثلة لرواية الأزدي السابقة دون ذكر مصدره أي أن أبا عبيدة سار إلى أهل بيت المقدس بعد اليرموك، ولما وصل بمن معه من المسلمين بلاد الأردن نزل هناك، وكتب إلى أهل إيليا كتاباً يدعوهم إلى الإسلام، أو الجزية أو الحرب، ولكن أهل إيليا رفضوا عروض أبي عبيدة، فسار إليهم وحاصرهم[١٢].

أما ابن خياط (٢٤٠هـ/٨٤٥م) فيورد رواية عن ابن الكلبي مفادها أن أبا عبيدة بعد أن صالح أهل حلب شخص في جيشه وعلى مقدمته خالد بن الوليد وحاصر أهل إيلياء [١٣].

وفي رواية نقلها البلاذري (٢٧٩/٨٩٢م) في فتوحه (عن هشام بن عمار عن الوليد عن الأوزاعي) أن أبا عبيدة فتح قنسرين وكورها سنة ١٦هـ/٦٣٧م، ثم أتى فلسطين فنزل إيلياء، فسألوه أن يصالحهم فصالحهم في سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م على أن يقدم عمر بن الخطاب فينفذ ذلك ويكتب لهم به[١٤].

أما اليعقوبي (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) فيورد رواية مختصرة مفادها أن أبا عبيدة كان

على حصار بيت المقدس، وكتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه مطاولة أهل إيليا وجدهم، وفي رواية أخرى بسند قال بعضهم: "أن أهل إيليا سالوه أن يكون الخليفة المصالح لهم" (١٥).

وفي رواية لسيف بن عمر في الطبري (٣١٠/٩٢٢م)، أن أهل بيت المقدس طلبوا من أبي عبيدة أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام، وأن يكون المتولي للعقد عمر ابن الخطاب (١٦).

نرى أن هذه الروايات السابقة تتفق في أن أبا عبيدة هو الذي كان على حصار بيت المقدس، وأن شدة الحصار وصبر المسلمين جعل أهل إيليا يقبلون الصلح والأمان الذي أعطي لأهل مدن الشام، ثم يعززون طلبهم بأن يكون صاحب أمانهم الخليفة عمر، وهذا الطلب يبدو ملحقا ومتأخرا وربما لإضفاء مزيد من الأهمية على المدينة المقدسة.

وقد وردت روايات أخرى تفيد بأن عمر أمضى لهم كتاب الصلح وهو في الجابية، فقد أورد الطبري رواية لسيف بن عمر (عن أبي عثمان وأبي حارثه عن خالد وعباده) أن خالداً وأبا عبيدة انصرفا إلى حمص من فحل ونزل عمرو وشرحبيل بيسان فافتتحاها وصالحته الأردن، واجتمع عسكر الروم باجنادين وبيسان وغزة وكتبوا إلى عمر بتفرقهم. فكتب إلى يزيد بأن يدفىء ظهورهم بالرجال وأن يسرح معاوية إلى قيسارية وأن عمر كتب إلى عمرو بن العاص وهو في أجنادين أن يصدم الأرطبون وإلى علقمة أن يصدم الفيقار وتراجع الأرطبون إلى القدس، وأن عَمْراً استمد عمر بن الخطاب، فنادى في الناس وخرج حتى نزل الجابية ودعا الأمراء إليها. وهناك جاءه وفد أهل إيليا، وطلبوا الصلح وصالحوه على الجزية (الطبري ٦٠٣/٣-٦١٠) (١٧).

وفي رواية لسيف أيضاً عن خالد وعبادة، قالا: كان الذي صالح فلسطين العوام من أهل إيليا والرملة وذلك أن ارطبون والتذارق لحقا بمصر مقدم عمر الجابية وأصيبا

بعد في بعض الصوائف (الطبري ٣/٦٠٨).

بالسند نفسه أورد الطبري عن خالد وعبادة، قالا: صالح عمر أهل إيليا بالجابية، وكتب لهم فيها الصلح، لكل كورة كتابا واحدا ما خلا أهل إيليا (المرجع السابق ٣/٦٠٩).

وعن عبادة وخالد قالا: ولما بعث عمر بأمان أهل إيليا، وسكنها الجند، شخص إلى بيت المقدس من الجابية (المرجع السابق ٣/٦١٠).

نلاحظ أن سيفاً أورد روايات يستدل منها أن عمر أعطى أهل إيليا أمان الصلح وهو في الجابية، ثم بعدها حضر إلى بيت المقدس.

ووردت إلينا روايات تفيد بأن أهل إيليا طلبوا من قادة فتح الشام، أن يكون صحلهم على يد الخليفة عمر، ومن هذه الروايات ما يشتم منه رائحة الإسرائيليات والتنبؤات، ففي رواية سيف عن سالم بن عبد الله في الطبري (٣/٦٠٧) أن يهوديا قابل عمر بعد مقدمه الجابية وقال له: "يا أمير المؤمنين لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيليا، فبينا عمر بن الخطاب بها، إذ نظر إلى كردوس من خيل مقبل، فلما دنوا منه، سلوا السيوف، فقال عمر: هؤلاء قوم يستأمنون فأمنوهم، فاقبلوا فإذا هم أهل ايليا فصالحوه على الجزية وفتحوها له... وترد الرواية عن سالم في صيغة أخرى تقول: "لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق، فقال: السلام عليك يا فاروق أنت صاحب إيليا، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء، وكانوا قد أشجوا عَمْراً وأشجاهم، ولم يقدر عليها ولا على الرملة ثم يذكر وفد أهل إيلياء بالسلاح.. فأعطوه واكتتبوا منه على أهل إيلياء وحيزها، والرملة وحيزها، فصارت فلسطين نصفين: نصف مع أهل ايلياء ونصف مع أهل الرملة، وهم عشر كور وفلسطين تعدل الشام كله وشهد ذلك اليهودي الصلح..." (الطبري٣/٦٠٨).

وفي الرواية نفسها عن سالم بن عبد الله أن عمر جعل علقمة بن مجزز على ايليا، وعلقمة بن حكيم على الرملة في الجنود التي كانت مع عمرو، وضم عمرا وشرحبيل إليه بالجابية (٣/٦١٠).

وتأتي رواية لابن الكلبي في ابن خياط عن سالم بن عبد الله، أن أهل إيليا خرجوا إلى عمر فصالحوه على الجزية وفتحوها (تاريخ ابن خياط ١/١٠٥).

يورد أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ/٨٣٨م) عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن يزيد بن حبيب، أن عمر بن الخطاب بعث خالد بن ثابت الفهمي في جيش إلى بيت المقدس، وهو يومئذ بالجابية، فقاتلهم فأعطوه على أن يكون لهم ما أحاط به حصنها على شيء يؤدونه، ويكون للمسلمين ما كان خارجا منها، وأن خالد بن ثابت وافق إن رضي أمير المؤمنين، ولما كتب للخليفة أجابه بالتوقف حتى يقدم عليه، وجاء عمر فأقر ذلك، قال: فبيت المقدس يسمى فتح عمر بن الخطاب[١٨]. وترد هذه الرواية عند البلاذري في كتاب الفتوح (١٤٤-١٤٥) ولأبي عبيد القاسم بن سلام رواية أخرى تفيد بأن عمر وهو بالجابية، أرسل رجلا من جديلة إلى بيت المقدس فافتتحها صلحا (الأموال: ص ٢٢٥-٢٢٦).

وهناك اكثر من رواية تجعل زيارة عمر للجابية لتنظيم أمر الفيء والإدارة في البلاد، وأن تسليم القدس حصل في تلك الفترة. فابن عساكر عن يزيد بن عبيدة يذكر فتح بيت المقدس أولا ثم قدوم عمر للجابيه[١٩]. وفي رواية لأبي زرعة عن الوليد بن مسلم وأخرى عند اليعقوبي تفيد جمع الغنائم في الجابية، وكتابة الأمراء للخليفة عمر. ويذكر ابن اسحق خبرا وهو يقص أخبار القادسية: "قد كان عمر بن الخطاب خرج في تلك السنة إلى الشام فنزل الجابية، وفتحت عليه ايليا مدينة بيت المقدس". وبعث فيها أبو عبيدة بن الجراح، حنظلة بن الطفيل السلمي إلى حمص، ففتحها الله على يديه، واستعمل سعد بن أبي وقاص على المدائن رجلا من كندة يقال له شرحبيل بن

السمط... (الطبري ٥٧٩/٣. الدوري المرجع السابق ص ١٠-١١) ويورد محمد بن سعد عن الواقدي خبرا يفيد بأن عمر خرج من المدينة إلى الجابية في صفر سنة ١٦هـ/٦٣٧م فأقام بها عشرين ليلة يقصر الصلاة، وحضر فتح بيت المقدس، وقسم الغنائم [٢٠].

ويظهر من خلال النظر في الروايات السابقة، أنها تمثل اتجاهين، الأول يجعل فتح بيت المقدس على يد الخليفة عمر بن الخطاب، ويمثل هذا الاتجاه جميع الروايات الشامية ،أبو حفص الدمشقي، عن سعيد بن عبد العزيز، وهشام بن عمار والقاسم بن سلام والأوزاعي في البلاذري، (١٤٤-١٤٥) وهشام بن عمار عن الهيثم بن عمار العنسي الدمشقي في ابي عبيد القاسم بن سلام (ص٢٢٥)، ويزيد بن عبيدة، وأبو زرعة، عن الوليد بن مسلم (في ابن عساكر ٥٥٣/١-٤ خط) والأزدي عن الحسين بن زياد الرملي، عن أبي إسماعيل (ص٢٥٤)، وابن الكلبي (مثل رواية الأوزاعي) في خليفة بن خياط (ص١٠٥/١) تجعل فتح القدس على يد عمر بن الخطاب.

أما الاتجاه الثاني فيجعل فتح بيت المقدس على يد قادة عمر بن الخطاب (أبو عبيدة وعمرو بن العاص وخالد بن ثابت الفهمي) ويمثل هذا الاتجاه الروايات المدنية (سالم بن عبد الله في الطبري) (٦٠٧/.)، وفي خليفة بن خياط (١٠٥/١) وابن اسحق في الطبري (٦١٨/٣) وهشام بن عمار عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب في أبي عبيد (ص٢٢٤) وكذلك نجد الروايات الكوفية (من مصادر كوفية ومدنية عادة)، مثل روايات سيف في الطبري وروايات اليعقوبي (١٣٦/١) فتجعل تسليم بيت المقدس على يد قادة عمر. ولا تخفى الرغبة في إبراز بيت المقدس، وتميزه عن سائر المدن بإظهار أن الخليفة عمر بن الخطاب تولى بنفسه عقد الأمان مع أهل هذه المدينة المقدسة اعترافا منه بتميزها وحرمتها وإقرارا بالالتزام بعهودها، وهذا الاتجاه يوافق ما جاء في أدبيات وقصص أهل الكتاب، لمكانة القدس وحرمتها عندهم أيضا.

وكما اختلفت الروايات حول من فتح المدينة، اختلفت أيضا في تحديد التاريخ الذي تم فيه هذا الحدث، وجعلت هذه الروايات تاريخ الفتح ما بين ١٥-١٧هـ. فروايات سيف في الطبري تجعل الفتح سنة ١٥ هـ (٦٠٧/٣-٦١٣ أحداث سنة ١٥هـ)، وبعضها يجعل سنة الفتح ١٦ هـ (روايات ابن سعد، وخليفة بن خياط، واليعقوبي، وابن عساكر والواقدي والبلاذري)، وسيف في الطبري (الدوري، المرجع السابق).

ويذكر ياقوت (٢١) أن الحصار كان سنة ١٦ هـ/ ٦٢٧م وأن الصلح كان سنة ١٧هـ/٦٣٨م. وترد سنة ١٧هـ، عند البلاذري (في رواية هشام بن عمار وأبي حفص الدمشقي) وعند ابن اسحق وسيف عن هشام بن عروة، والطبري، والمهلبي).(الدوري المرجع السابق عن: معجم البلدان، ج٥، ٥٩٨-٥٩٩، "بيت المقدس"، والبلاذري: فتوح ص ١٣٨-١٣٩، ابن اسحق في الطبري ٥٧٩/٣، والمهلبي في مجلة معهد المخطوطات العربية ١٩٥٨، ص٤٩، والسيوطي عن ابن جرير، مطبعة المدني، ١٩٦٤، ص ١٣١).

ومما يجدر ذكره أن جيوش الفتح وصلت إلى شمال سورية، إلى حلب وقنسرين بعد فتح دمشق، وأبقت على بعض الجيوب في بلاد الشام مثل القدس وقيسارية التي كانت معسكرا رومانيا، أما القدس فلم تذكر لنا المصادر وجود حاميات عسكرية فيها. ويبدو أن الهدف من الحركة السريعة لجيوش الفتح إلى شمال بلاد الشام هو قطع الإمدادات عن المراكز الرومية، مما يجعلها محاصرة ومن ثم يسهل سقوطها، ومما يعزز ذلك أن قادة فتح مدن فلسطين بعد اليرموك لم يطلبوا مددا من الخليفة .

والذي يمكن استنتاجه من خلال هذه الروايات المتضاربة في تحديد تاريخ فتح بيت المقدس، هو أن حصار المدينة كان في نهاية سنة ١٦هـ، وأن تسليمها كان سنة ١٧هـ، أو أن سنة ١٧ هـ هي سنة زيارة عمر لبيت المقدس وإبرامه الصلح مع أهلها.

تواجه الباحث أيضا صعوبات في شروط الصلح التي تم بموجبها تسليم المدينة، فنجد بعض المصادر تحدد هذه الشروط وبعضها يتوسع بها على غير المألوف في عهود الأمان السابقة مع مدن بلاد الشام والعراق، ومرد ذلك الرغبة في إضفاء مزيد من الأهمية والقدسية على المدينة.

يذكر الأزدي (٢٣١هـ/٨٤٥م) أنه بعد وصول عمر إلى بيت المقدس، ووقوفه إزاء البطريق والجاثليق (مقدمي أهل المدينة) عرف البطريق عمر بصفته، وطلب من أهل ايلياء النزول إليه، وعقد الأمان والذمة "هذا والله صاحب محمد بن عبد الله".

وخرج الروم وفتحوا الأبواب وسألوا عمر: "العهد والميثاق والذمة، ويقرون له بالجزية" وأجابهم عمر: "ارجعوا إلى بلادكم وذويكم ولكم الذمة والعهد إذا سألتمونا وأقررتم بالجزية" (فتوح الشام ص٢٥٨-٢٥٩).

أما ابن خياط (٢٤٠هـ/٨٥٤م) في روايته عن ابن اسحق فقال: "خرج أهل ايلياء إلى عمر فصالحوه على الجزية وفتحوها" (تاريخ ١/١٠٥).

وفي رواية أبي حفص الدمشقي في البلاذري (٢٤٩هـ/٨٩٢م) "أن أهل إيلياء طلبوا من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم، على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر ابن الخطاب" (فتوح ص١٤٤).

ويورد اليعقوبي رواية بصيغة "قال بعضهم" وهو في العادة لا يذكر مصدره، أن عمر لما صار في بيت المقدس افتتحها صلحًا وكتب لهم كتابا هذا نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس، إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم، وكنائسكم لا تسكن، ولا تخرب، إلا، أن تحدثوا حدثا عاما"، واشهد شهودا (تاريخ اليعقوبي ١/١٣٦-٧).

وفي رواية سيف عن خالد وعبادة في الطبري (٣١٠/٩٢٢م) تأتي صيغة الكتاب أكثر تفصيلا والشروط أكثر سعة لصالح أهل إيلياء كما هو واضح من نص كتاب الصلح:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين... أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص)؟ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة (الطبري ٦٠٩/٣، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص ٣٧٩-٣٨٠)[٢١].

وعن سيف في الطبري أيضا أن أهل إيلياء عندما قدموا إلى عمر بالجابية، صالحوه على الجزية وفتحوها له (٦٠٧/٣). وعن القاسم بن الوليد في ابن أعثم (٣١٤هـ/٩٢٧م) "أن الذي تولى المصالحة مع عمر رجل من المستعربة يكنى أبا الجعيد، فصالحه عن القوم على أداء الجزية والقرار في البلد، فأجابه عمر ﷺ إلى ذلك، وكتب لهم كتابا يتوارثونه إلى يومنا هذا" والله أعلم (كتاب الفتوح ٢٩٦/١).

ومما يجدر ذكره أن موضوع فتح بيت المقدس قد طرق من قبل بعض المؤرخين غير المسلمين، فقد ذكر افتيشيوس المكنى بسعيد بن البطريق (ت ٣٢٨/٩٣٩م) نص الصلح كما أورده اليعقوبي (التاريخ المجموع، ص١٧).

وينفرد أغابيوس بن قسطنطين المنبجي (من القرن ٤هـ/١٠م) بالتأكيد على بعض الشروط، فيقول: "خرج صفر ونيوس بطريرك أورشليم إلى عمر وطلب منه الأمان لبيت المقدس وجميع مدن فلسطين، فأعطاه عمر الأمان، وأسجل لو سجلا وكان في السجل: برئت الذمة من يهودي وجدناه بأورشليم من يومنا هذا، فمن وجدناه فقد حلت به العقوبة في شعره وبشره وماله[٢٢]".

أما بورفيرو جنتيوس "قسطنطين السابع" فيورد رواية مشوشة، تفيد بأن عمر حاصر بيت المقدس لمدة عامين وفتحها بالمكر والحيلة، ذلك أن صفرونيوس Sophronius أسقف المدينة الذي يتصف بالحماسة الدينية والذكاء والفطنة، أخذ عهدا مؤكدا من عمر بألا تمس الكنائس بسوء فلا تخرب ولا تنهب وعندما رآه صفرونيوس قال له: الحقيقة أن هذا هو الخراب الفظيع الذي تحدث عنه النبي دانيال صاحب المكانة المقدسة[٢٣]. وتجدر الملاحظة أن هذا الكتاب مملوء بالسباب والشتائم على المسلمين ونبيهم مما حمل المترجم على حذف كثير من العبارات، ولهذا خرج المؤلف عن المنهج في رواية الأخبار التاريخية.

إن العهود المألوفة بين المسلمين وسكان البلاد المفتوحة لا تخرج عن إعطاء الأمان والذمة مقابل الجزية، وكما وردت في معظم الروايات باستثناء رواية سيف في الطبري، حيث ترد فيه شروط زائدة على المألوف مثل: "لا تسكن كنائسهم ولا تخرب ولا ينتقض منها ومن حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم... إلى آخر هذا الاستطراد. ويلفت النظر في نص سيف شرط" ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود، وكذلك شرط إخراج الروم واللصوت من المدينة. ويعلل الأستاذ الدوري

توسع صيغة كتاب الصلح إلى ما استدعته ضرورات وتطورات تالية، ويرجح ظهور ما سمي بالعهد العمري إلى وجود اسقف في القدس، مع أهمية كنائسها للمسيحيين فنحن نسمع منذ فترة مبكرة بوجود (عهد للمدينة، وابن أعثم أعطى أول إشارة له بقوله: "وكتب لهم كتابا يتوارثونه إلى يومنا هذا والله أعلم". (فكرة القدس في الإسلام، ص١٣). أما شرط إخراج الروم، فيأتي مستجيباً لحالة الحرب القائمة بين العرب والروم، ولعل إشارة الأزدي إلى خروج الروم من المدينة إلى عمر وطلبهم الصلح، جاءت في سياق اعتبار النصارى روم، كما هو جار الآن في المغرب العربي، أو أن الذين خرجوا من الحاميات الرومية، ولا بد من الإشارة إلى أن سكان بيت المقدس كانوا خليطا من العرب وغيرهم من العناصر الأجنبية النصرانية التي استقرت بالمدينة لقداستها.

وقد توسعت صيغة العهد حتى عن حدود صيغة سيف السالفة، التي اعتبرته عهدا لكافة نصارى الشام، ومروروا بالنصوص التي أوردها ابن عساكر، إلى نص مجير الدين الحنبلي(٢٤)، وانتهاء بالشروط العمرية لابن قيم الجوزية(٢٥)، كل ذلك يعكس متطلبات أهل الذمة، وبيان حقوقهم وفق هذه الوثيقة ، منعا من الجور عليهم، وإلزام الحكام بمعاونتهم وفق تعاليم الدين الإسلامي.

ومهما يكن تعليلنا لبعض صيغ كتاب الصلح، فإن الروايات كافة تؤكد فتح القدس ودخول عمر بن الخطاب إليها، ورفضه الصلاة في كنيستها حفظا لها من تملك المسلمين فيما بعد، بل صلى خارجها حيث بني المسجد المعروف بمسجد عمر. ومن سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م وحتى الحرب العالمية الأولى وسيطرة إنجلترا على فلسطين والمدينة المقدسة عربية بسكانها وثقافتها ومنشآتها. وعلى الرغم من احتلال الصليبيين لها لمدة قرنين من الزمان إلا أن القدس حافظت على عروبتها وقداستها. ورغم هول العدوان الواقع عليها حاليا فأملنا أن تخرج من محنتها لتعاود سيرتها الأولى، أولى القبلتين وثالث الحرمين وبلد الشهداء والقديسين وعنوان التسامح والتسامي للمؤمنين.

الهوامش

١- انظر سفر يشوع، وبخاصة الإصحاحات، ٥، ٩، ١٠، ١٥.

٢- سفر الملوك الثاني، صح ١٤:٢٤-١٦، وانظر د. محمد خليفة حسن أحمد، عروبة فلسطين في التاريخ القديم، بحث قدم للندوة العالمية لشؤون القدس ٢٦-٢٧-١١/١٤١٠ هجري ١٩-٢٠-٦/١٩٩٠ ميلادي عمان الأردن.

٣- المرجع السابق، صفحة ٢٠.

٤- Philosophus, cd Ariese, Georaphi Minores, Heilbron, 1878, 11 of. Roiunuj.

٥- انظر جون ولكنسون، القدس تحت حكم روما وبيزنطة (٦٣ق.م-٦٣٧ب.م) من كتاب القدس في التاريخ، تحرير وترجمة: د. كامل العسلي، عمان – الأردن، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص٩٥-١٢٨.

٦- Euscbius, Eccd. Hist. 4.6 Ltr. Megiffertin scrics NPNF-Nicene and post-Nicene Fathers.

وانظر جون ولكنسون المرجع السابق.

٧- Egeria, s Trabels, tr. Jwikinson, 47, 3-4, 146 وانظر ولكنسون المرجع السابق.

٨- المرجع السابق.

٩- انظر الدوري، عبد العزيز، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر-بيروت ١٩٧٤م.

١٠- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م) فتوح الشام، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت ١٩٦٦م، ١/٢١٣.

١١- الأزدي، محمد عبد الله، تاريخ فتوح الشام، تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٤٥.

١٢- ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد (ت٣١٤هـ/٩٢٦م) كتاب الفتوح، دار الندوة

الجديدة، بيروت، ص ١/٢٨٩-٢٩٠.

١٣- ابن خياط، خليفة تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب في النجف الأشرف ١٣٨٦هـ/١٩٦٧، ص١٠٥.

١٤- البلاذري، ابو الحسن، فتوح البلدان، بعناية رضوان محمد رضوان، م. السعادة بمصر، ١٩٥٩م، ص١٤٥.

١٥- اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، تقديم محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ص١/١٣٦.

١٦- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ت٣١٠هـ/٩٢٢م، تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٣/٦٠٨.

١٧- وانظر الدوري، عبد العزيز، فكرة القدس في الإسلام، قضايا عربية، العدد الثاني، السنة الثانية، بيروت شباط، (فبراير ١٩٨١م، ص٩). وانظر مقالته، القدس في الفترة الإسلامية الأولى (من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر) كتاب القدس في التاريخ، تحرير وترجمة د. كامل العسلي، عمان-الأردن (١٤١٣هـ-١٩٩٢م).

١٨- أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، تحقيق خليل محمد هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، ص٢٢٥-٢٢٦.

١٩- ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن (٥٧١هـ/١١٧٥م) تاريخ مدينة دمشق (خطية) ج١، ص٥٥٣-٥٥٤، وانظر رواية أبي زرعة ١/٥٥٦، وانظر اليعقوبي ٢/١٦٠-١٦١، والدوري، المرجع السابق، ص١٠.

٢٠- ابن سعد، محمد (٢٣٠/٨٤٤) الطبقات الكبرى، دار بيروت ودار صادر، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م،ص٣/٢٨٣.

٢١- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي الخلافة الراشدة، الإرشاد ١٩٦٩م، ص٣٧٩-٨٠.

٢٢- المنبجي، غاليوس بن قسطنطين (من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي المنتخب من تاريخ المنبجي، انتخبه وحققه د. عمر عبد السلام تدمري، دار المنصور، طرابلس لبنان

١٤٠٦هـ/١٩٨٦م،ص٥٠.

٢٣- قسطنطين السابع، بورفيرو جينيتيوس، كتاب إدارة الإمبراطورية البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت/ لبنان، ١٩٨٠م، ص٧٧.

٢٤- الحنبلي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب عمان – الأردن، ١٩٧٣م، ص٢٥٣-٢٥٤.

٢٥- ابن قيم الجوزية (٧٥١-١٣٥٠م) شرح الشروط العمرية مجردا من كتاب أحكام أهل الذمة، تحقيق وتعليق الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

منزلة القدس في الإسلام

الشيخ الدكتور عكرمة صبري

المفتي العام للقدس والديار الإسلامية

وخطيب المسجد الأقصى المبارك

﴿سُبْحَانَ الذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَا الذي بَارَكْنَا حوله لِنُرِيَهُ من آيَاتِنَا إِنَّهُ هو السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الإسراء: ١].

المقدمـة:

هذه الآية الكريمة هي أول سورة الإسراء، وهي من السور المكية التي اهتمت بشؤون الإيمان والعقيدة والتوحيد شأنها في ذلك شأن سائر السور المكية.

لقد تصدرت سورة الإسراء بذكر معجزة الإسراء التي كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلهي لرسولنا الأكرم ﷺ وتطييباً لخاطره وتثبيتاً لفؤاده – هذه المعجزة التي تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى في صنع العجائب والخوارق والغرائب.

التسمية:

إذا ما نظرنا إلى أسماء السور القرآنية فسنجد العلاقة الواضحة بين اسم السورة وبين أهم الموضوعات البارزة فيها. وقد سميت هذه السورة بالإسراء بسبب تلك المعجزة الباهرة، معجزة الإسراء التي كرم الله سبحانه وتعالى بها رسوله الكريم ﷺ. وكما أنها سميت بسورة بني إسرائيل لأنها تعرضت إلى إفساد بني إسرائيل في بلاد فلسطين. وسميت كذلك بسورة (سبحان) لسببين، هما:

١- **السبب الأول:** لأن سورة الإسراء هي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي بدأت بلفظ (سبحان) في حين هناك عدة سور بدأت بلفظ سبح أو يسبح، . ولكن لفظ سبحان انفرد بهذه السورة.

٢- **السبب الثاني:** هو أن السورة قد بدأت بذكر معجزة ربانية فورد لفظ (سبحان) الذي يوحي بقدرة الله عز وجل وينزهه عن الضعف والعجز والنقص، فكان الانسجام والاتساق والتوافق.

مكان الإسراء والمعراج

لقد تناول علماء التفسير حادثة الإسراء والمعراج بالتفصيل، وتعرضوا إلى المكان الذي أسري منه: فرأي يقول: كان الإسراء من المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر والراجح. ورواية أخرى تقول: أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب. وللتوفيق بين الروايتين فأقول: لقد كان الرسول ﷺ ليلة الإسراء في بيت أم هانئ، وقبل حصول الحادثة انتقل عليه الصلاة والسلام من بيتها إلى المسجد الحرام، فكان الإسراء من المسجد الحرام بعينه أخذاً بظاهر الآية الكريمة. وأما المعراج فكان من المسجد الأقصى إلى السموات العلا عند سدرة المنتهى. وبعد هذه الرحلة الإيمانية رجع عليه الصلاة والسلام إلى بيت أم هانئ.

شرح الآية الكريمة بإيجاز

(سبحان) هو علم جنس للتنزيه والتقديس، وهو منصوب بفعل مقدر، والتقدير سبحت سبحانه أو منصوب على المصدر أسبح الله تسبيحاً، والمقصود هو تنزيه الله عز وجل عن صفة العجز عن هذا الأمر العظيم الخارق للعادة وهو الإسراء.

(الذي أسرى بعبده) أي أن الله عز وجل قد صير عبده محمداً ﷺ سارياً في الليل فكان الإسراء بالروح والجسد لأن ظاهر النص يشير إلى ذلك فإن العبودية تتحقق بالروح والجسد، ولا تتحقق بالمنام ولا بالرؤى والأحلام.

وقد أورد القرآن الكريم لفظ العبودية دون لفظ النبوة والرسالة لأن العبودية المضافة إلى الله سبحانه وتعالى هي أشرف المقامات والأوصاف، وللتأكيد أن موضوع الإسراء هو موضوع عقدي يوضح علاقة العبد بخالقه علاقة الصفاء والنصاعة والسمو ولتنزيه الذات الإلهية عن مظاهر الشرك وشوائبه وأدرانه.

(ليلاً) نصب على الظرف للفعل أسرى. وأما الفائدة من ذكر (ليلاً) مع أن ذلك معلوم من لفظ الإسراء، فإنما لبيان أن المدة الزمنية كانت قصيرة أي بجزء قليل من الليل.

(من المسجد الحرام) بمكة المكرمة، وحرف الجر (من) يفيد هنا الابتداء.

(إلى المسجد الأقصى) في بيت المقدس، وحرف الجر (إلى) يفيد هنا الانتهاء.

ومعنى (الأقصى) الأبعد أي الكثير في البعد، وكان الأقصى هو أبعد مسجد في الأرض عن أهل مكة يقصد للزيارة، ولم يصف القرآن الكريم المسجد الأقصى بالمسجد القصي وإنما وصفه بالأقصى أي بالأبعد.

وأرى أن الحكمة من ذلك للدلالة على وجود مسجد بعيد ألا وهو المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم وهو المسجد القصي أي البعيد، فالأقصى هو الأبعد عن مكة، والمسجد النبوي هو البعيد عنها فالآية قد حرصت بذكر مسجدين وأشارت إلى المسجد الثالث وهذا القول هو استئناس بقول الرسول ﷺ "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى"(٢).

(الذي باركنا حوله) لقد ذكر المفسرون رحمهم الله أن البركة تشمل بلاد فلسطين من البحر الأبيض المتوسط وحتى نهر الأردن. ورأي يتوسع في ذلك ليشمل بلاد الشام. وما دامت المباركة حول الأقصى، فالمباركة في الأقصى أشد وأولى.

(لنريه من آياتنا) إن حرف الجر (من) يفيد التبعيض، وبالرغم من أن الذي رآه عليه الصلاة والسلام كان جليلاً عظيماً إلى أنه قليل بالنسبة إلى تعدد آيات الله سبحانه وتعالى وعجائب قدرته، والرؤية في هذه الآية هي الرؤية البصرية.

(إنه هو السميع البصير) فالله سبحانه وتعالى سميع وسمعه مطلق، وبصير وبصره مطلق فإنه سبحانه وتعالى يسمع ويرى كل ما لطف ودق وخفي على الأسماع والأبصار.

وفي هذه الآية الكريمة أسلوب بلاغي يعرف بأسلوب الالتفات وذلك ليلفت نظر القارئ أو السامع إلى معنى جديد والذي يتمثل بإيراد ضمير الغائب (الذي أسرى بعبده) ثم إلى ضمير المتكلم (باركنا). وأحيانا من ضمير المتكلم (لنريه) إلى ضمير الغائب (إنه هو السميع البصير). وأسلوب الالتفات من باب تلوين الخطاب وتنويعه كما يقول علماء البلاغة.

الحكمة من الإسراء إلى القدس

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما الحكمة من أن الإسراء كان إلى القدس وأن المعراج كان منها، ولماذا لم يكن المعراج من مكة المكرمة إلى السموات العلا مباشرة؟

لقد ذكر علماء التفسير والتوحيد عدداً من الحكم منها:

١- لأن بيت المقدس أرض المحشر والمنشر فوطأ عليه الصلاة والسلام بقدمه الشريفة مدينة القدس، وذلك ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم على أرضها ببركة آثار قدمه الشريفة عليه الصلاة والسلام.

٢- لأن بيت المقدس جمع أرواح الأنبياء عليهم السلام.

٣- لإمامة الرسول محمد ﷺ بالأنبياء عليهم السلام في الصلاة، لأنه هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسالته آخر الرسالات التي شملتها جميعها.

٤- للإعلان عن إسلامية القدس والديار الفلسطينية، ولربط القدس بمكة المكرمة رباطاً وثيقاً: عقيدة وعبادة فالعقيدة من خلال معجزة الإسراء والمعراج، والعبادة لأن القدس هي قبلة المسلمين الأولى، ومكة المكرمة قبلة المسلمين الدائمة.

هذا هو الإسراء آية من آيات الله وهو نقلة عجيبة، إنه معجزة من المعجزات الربانية، ومن الخطأ أن نعقد مقارنة بين المعجزة وبين نواميس الطبيعة، فالذين حاولوا تفسير الإسراء والمعراج بأنه بالروح لا بالجسد قد وقعوا في خطأ القياس والمقارنة لأنهم لم يتصوروا أن الإسراء والمعراج معجزة فلا يجوز أن تخضع المعجزات للتفسيرات الدنيوية والمادية. نعم هناك تقدم علمي وتكنولوجي كالأقمار الصناعية والصواريخ عابرة القارات،ولكن هيهات أن يقاس ذلك على المعجزات الربانية لأن المعجزة هي أمر خارق للعادة يظهر على النبي فقط لإثبات صدقه وليتحدى بها المكذبين له فيعجزون عن الإتيان بمثلها، وهي لا تخضع لنواميس الطبيعة ولا للتجارب والمختبرات البشرية. ثم إنه يوجد ما يشبه الإسراء والمعراج في القرآن الكريم وذلك من معجزة نقل عرش الملكة بلقيس باليمن إلى سليمان عليه السلام في فلسطين بلحظات فهذه معجزة وتلك معجزة من الله سبحانه وتعالى . أما التقدم العلمي فهو من صنع البشر ويخضع لقوانين طبيعية معلومة، وديننا العظيم يؤيد المكتشفات العلمية ويشجعها ولكن لا تقع ضمن دائرة المعجزات.

هذا عرض موجز للآية الأولى من سورة الإسراء.

ولتوضيح منزلة القدس في الإسلام ولاكتمال هذه الصورة لا بد من التعرض إلى الارتباطات الوثيقة والحقوق المتينة والعلاقات الوطيدة التي تربط المسلمين بالقدس، أذكرها على شكل نقاط وهي:

أولاً:- الارتباط العقيدي (نسبة إلى العقيدة)

يتمثل الارتباط العقيدي بالقدس في عدة أمور اذكر أمرين اثنين هما:

١- معجزة الإسراء والمعراج:

فقد أسري بالرسول محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى المبارك بمدينة القدس، وعرج به من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، فكانت القدس محوراً لهذه الحادثة الربانية وذلك لبيان أهمية القدس ولرفع شأنها ومنزلتها، وبما أن الحادثة معجزة، والمعجزة تمثل جزءاً من العقيدة الإسلامية كان ارتباط المسلمين بهذه المدينة ارتباطاً عقدياً، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿سُبْحَانَ الذي أَسْرَى بِعبدِهِ لَيْلاً مِنَ المسجِدِ الْحَرَامِ إِلَى المسْجِدِ الأقصا الذي بارَكْنَا حوله لنُرِيَهُ من آياتِنا إِنَّهُ هو السَّمِيعُ البَصِيرُ ۝﴾ (٣) ويقول أحد الصحابة معقباً (لو لم يكن لبيت المقدس من الفضيلة غير هذه الآية لكانت كافية، لأنه إذا بورك حوله فالبركة فيه محققة ومضاعفة).

ومع ذلك فقد ورد ذكر مدينة القدس وفلسطين بمسميات أخرى في القرآن الكريم، منها قوله سبحانه وتعالى ﴿ يا قَومِ ادخُلُوا الأرضَ المُقَدَّسَةَ﴾(٤) والأرض المقدسة هي فلسطين.

وقوله عز وجل ﴿ ادْخلوا هَذِهِ القريَةَ فَكلوا منها حيثُ شِئْتُم رَغَدا﴾ ٥

والقرية هي مدينة القدس ولا بد في هذا من التنويه إلى نقطتين:

النقطة الأولى: أن الارتباط العقيدي ليس لأهل فلسطين فحسب بل لجميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فالمسؤولية تكبر وتتسع لان بيت المقدس ليس مرهوناً بثمانية ملايين فلسطيني في الداخل وفي الشتات، بل هناك ما يزيد عن مليار

ومائتي مليون مسلم في العالم. أما **النقطة الثانية** حول مساحة المسجد الأقصى: فحينما نذكر "المسجد الأقصى" لا نعني به البناء المغطى فحسب بل نعني منطقة المسجد جميعها والتي تبلغ مساحتها (١٤٤) دونماً.

٢- القدس أرض المحشر والمنشر:

ستكون مدينة القدس يوم القيامة أرضاً للمحشر والمنشر ففيها يجمع الناس وفيها يعرضون للحساب فعن الصحابية ميمونة بنت سعد رضي الله عنهما قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس، فقال: أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه.(٦) وبما أن يوم القيامة يمثل جزءاً من العقيدة كان ارتباط هذه الديار بالعقيدة الإسلامية.

ثانياً: الارتباط التعبدي (نسبة إلى العبادة).

يتمثل هذا الارتباط في ستة أمور:

١- استقبل المسلمون بيت المقدس في صلواتهم مدة ستة عشر شهراً (أي مدة سنة واحدة وأربعة أشهر) وذلك من بدء مشروعية الصلاة حتى نزول قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾(٧)
فأصبحت قبلة المسلمين: المسجد الحرام، لذا اعتبرت مدينة القدس أولى القبلتين.

٢- اعتبر الرسول ﷺ ثواب الركعة الواحدة في المسجد الأقصى -أي في منطقة المسجد كلها- بخمسمائة ركعة في غيرها من المساجد لقوله عليه الصلاة والسلام (فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة وفي مسجدي ألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة)(٨) ولهذا الحديث عدة روايات يقوي بعضها بعضاً مع اختلاف بسيط في الألفاظ.

٣- حث الرسول ﷺ على زيارة المسجد الأقصى المبارك بقصد العبادة، وربط المسجد الحرام بمكة المكرمة وبالمسجد النبوي في المدينة المنورة بقوله: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)[٩].

٤- ربط عليه الصلاة والسلام المسجد الأقصى بمناسك الحج والعمرة بقوله (من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غفر له ما تقدم من ذنبه)[١٠].

٥- إن المقيم في مدينة القدس له ثواب المرابط في سبيل الله للحديث الشريف (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا ما أصابهم من اللاواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا، يا رسول الله وأين هم؟ قال ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس)[١١]. ولقول الرسول ﷺ في حديث نبوي آخر (يا معاذ إن الله سيفتح عليكم الشام من بعدي من العريش إلى الفرات رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام أو بيتِ المقدس فهو في جهاد إلى يوم القيامة)[١٢].

٦- إن الحسنات تضاعف في بيت المقدس، كما تضاعف السيئات لشرف المكان وتعظيمه.

ثالثاً:- الارتباط الحضري والثقافي

يتمثل هذا الارتباط بأربعة أمور:

١- البناء الفريد لكل من المسجد الأقصى المعقود (المغطى) ومسجد قبة الصخرة المشرفة بالإضافة إلى اللواوين والمساطب والأدراج والسبل والآبار في المسجد الأقصى، وأؤكد ما قلته سابقاً بأن جميع المنطقة والتي تبلغ مساحتها (١٤٤) دونماً تعتبر كلها المسجد الأقصى المبارك.

٢- وجود مئات العقارات الوقفية والأثرية التي تعود إلى العصور الصلاحية والمملوكية والتركية حول المسجد الأقصى من الجهتين الغربية والشمالية وفي البلدة القديمة.

٣- وجود العشرات من المساجد في البلدة القديمة من مدينة القدس شيدت في عصور متعاقبة، ويعود بعضها إلى العهد العمري.

٤- إشادة مئات المدارس والمعاهد والزوايا والأربطة والتكايا حول المسجد الأقصى المبارك وفي البلدة القديمة منذ العهد الصلاحي وحتى يومنا هذا.

رابعاً: الارتباط السياسي

يتمثل ذلك في أمرين اثنين:

١- العهدة العمرية التي وقعت عام ١٥هـ/ ٦٣٧م، وذلك بعد أن تسلم الخليفة الراشدي العادل عمر بن الخطاب ﷺ مفاتيح مدينة القدس من صفرونيوس بطريرك الروم وقتئذ، ولم تكن هناك أي علاقة بين المسلمين واليهود في مدينة القدس حين الفتح العمري لهذه المدينة، وتمثل العهدة العمرية أعدل وأوضح وأشهر وثيقة سياسية عبر التاريخ.

٢- حكم العرب والمسلمون هذه المدينة منذ الفتح العمري وحتى عام ١٩٦٧م (وذلك حين وقوع المدينة تحت الاحتلال الإسرائيلي باستثناء فترة الحروب الصليبية التي حكم فيها الصليبيون مدينة القدس مدة ثمانية وثمانين عاماً إلى أن حررها صلاح الدين الأيوبي من رجسهم عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م). وتمكن الإسلام من تحقيق العدل والاستقرار والأمن والأمان للمسلمين وغير المسلمين في هذه المدينة خلال حكم العرب والمسلمين لها.

خامساً: – الارتباط التاريخي

إن العرب اليبوسيين هم أقدم الشعوب التي سكنت فلسطين وذلك سبعة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد (أي منذ العصر الحجري) وأن الرقوم الحجرية تثبت ذلك. ولم يدون التاريخ أقدم من اليبوسيين والكنعانيين العرب في هذه الديار، فقد اتفق المؤرخون على ذلك وأقروا بأن اليبوسيين هم أول من أسسوا مدينة القدس وأن أول اسم لها هو "يبوس" نسبة لهم، ومن أسماء هذه المدينة (اورو–سالم) وهي تسمية كنعانية ومعناها مدينة السلام. ولا غرابة في ذلك فإن الهجرات العربية السابقة من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام كانت مستمرة منذ الوجود العربي في الجزيرة، ولا يوجد حائل طبيعي لا جبال ولا بحار ولا أنهار يفصل الجزيرة العربية عن بلاد الشام بعامة وفلسطين بخاصة، وبالتالي كانت الهجرات من الجزيرة العربية وإليها سهلة وميسورة. ومن المعلوم بداهة أن الهجرات كانت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام أوسع من الهجرات من بلاد الشام إلى الجزيرة لأن العرب كانوا يبحثون عن الماء والكلأ وهما متوفران في بلاد الشام أكثر من الجزيرة العربية.

مزاعم اليهود حول القدس

يدعي اليهود بأن حقاً دينياً وحقاً تاريخياً لهم في مدينة القدس ويزعمون بأن مدينة القدس لهم وحدهم لذا فنحن مضطرون للعودة في بحثنا إلى الوراء لأنه مرتبط بوضعنا الراهن، كما أن لنا نحن الفلسطينيين حقاً تاريخياً كما لنا حق ديني وحق سياسي وحق واقعي في هذه البلاد كما أسلفنا.

العبرانيون

أول نقطة يرتكز عليها ادعاء اليهود بأنهم أتوا إلى هذه البلاد منذ زمن بعيد،

وكتب التاريخ توضح بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام، مع مجموعة من أصحابه قد عبروا نهر الفرات من بلاد العراق واتجهوا إلى فلسطين، وسموا بالعبرانيين لأنهم عبروا نهر الفرات وليس لأنهم عبروا نهر الأردن – كما يتوهم البعض– وكان عبورهم نوعا من الهجرة، ولم يكن فتحا أو اتفاقا من أهل البلاد الفلسطينيين الأصليين وهم الكنعانيون. بل دخلوا كضيوف ولاجئين، فلم يأخذ عبورهم طابعا سياسياً ولا عسكرياً بالإضافة إلى أن عددهم كان قليلاً ومن ثم رحل يعقوب بن اسحق وأولاده (الأسباط) إلى مصر باعتبار أن بلاد فلسطين مرت عليها سنوات من القحط وكانت مصر منطقة خصبة، فانتقلوا من مناطق جدب إلى مناطق خصبة، وهذه إشارة إلى أن الذين عبروا من بلاد العراق إلى فلسطين ولم يكن عبورهم على اعتبار أن فلسطين بلاد مقدسة، كما لم يكن في حسبانهم أنها حق من حقوقهم، فهاجروا إلى مصر وتركوا فلسطين ببساطة.

وخلاصة القول أن لفظ العبرانيين لم يكن له أي مدلول سياسي كما أنه لا يشكل حقا تاريخيا لأنهم جاؤا إلى فلسطين كلاجئين وضيوف، وقد أحسن الكنعانيون –أهل البلاد الأصليون– معاملتهم، وبقيت السلطة والحكم للكنعانيين.

إسرائيل

ولفظ إسرائيل (كانت نسبة إلى يعقوب بن إسحق الذي لقب بلفظ "إسرائيل")، وهي عبارة عن كلمتين (إسرا +ئيل) وإسرا بمعنى عبد أو جندي، وئيل بمعنى الله، أي عبد الله أو جندي من جنود الله، ويسمى النسل الذي جاء من يعقوب بالإسرائيليين.

اليهود

لفظ (اليهود) أو (اليهودية) جاء نسبة إلى يهوذا[١٣] وتذكر كتب التاريخ بأن الفرس هم أول من أطلقوا عليهم لفظ (اليهود) لأنهم –أي اليهود– من ابناء يهوذا

الذين استوطنوا هذه البلاد فيما بعد، واتبعوا الديانة الموسوية، فأطلق على كل من آمن بموسى عليه السلام لفظ يهودي . فيكون هذا الفظ معربا من الناحية اللغوية. وفي رواية أخرى أن لفظ (يهود) مأخوذ من الفعل (هاد) إذا تاب وسموا بذلك حينما تابوا من عبادة العجل في عهد موسى عليه السلام، فيكون اللفظ عربيا –من الناحية اللغوية– وعليه لا يعتبر إسحق إسرائيليا لأن إسحق أب ليعقوب فلا يأخذ الأب لقب الابن ولا يعتبر يهوديا لأن اسحق جد ليهوذا فلا يأخذ الجد لقب الحفيد. كما أن يعقوب لا يعتبر يهوديا لأنه أب ليهوذا، فلا ينسب الأب للابن.

فلم تكن هذه المسميات (العبرانيون) و (إسرائيل) و (اليهود) تحمل أي ادعاء لحق الشعب اليهودي في هذه البلاد حتى وبعد خروج موسى عليه السلام من مصر إلى صحراء سيناء.

موسى وبلاد فلسطين

في سنة ١٢١٣ ق.م. خرج موسى عليه السلام مع قومه من مصر متوجهين إلى فلسطين عبر صحراء سيناء، وحينما كانوا في الصحراء توجه موسى إلى سفح جبل الطور الأيمن في سيناء للصيام والعبادة ولمناجاة ربه مدة ثلاثين يوما ثم أمره الله أن يتم المدى إلى أربعين يوما، وخلال هذه الأيام كلف أخاه هرون ليشرف على قومه قائلا له: كن خليفتي في قومي وأصلح أمرهم واحذر أن تتبع المفسدين.

بعد مضي أربعين يوما رجع إلى قومه فوجدهم يعبدون العجل بخداع من رجل ماكر من بني إسرائيل يدعى (السامري) فغضب غضبا شديدا على تصرفهم فقال له قومه: لقد أضلنا السامري وغلبنا على رأينا وقد تعرض القرآن الكريم إلى هذه الحادثة في سورة طه (الآيات من ٨٥–٩٧). ثم طلب موسى من الله أن يغفر لقومه فاستجاب الله لمطلبه.

ثم أمر الله موسى أن يذهب ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة (فلسطين). وقبل أن يطلب موسى من قومه دخول الأرض المقدسة أرسل روادا للاستطلاع وليأتوه بخبر أهل فلسطين فلما رجعوا أخبروه أن قومها أقوياء طوال القامات وأن مدنها محصنة، فارتاع بنو إسرائيل من ذلك ولم يتمثلوا لأمر موسى بل قالوا له أن في هذا الأرض جبابرة منها فإنا لن نلبي طلبك وندخلها. وقد أخبرنا القرآن الكريم عن الحوار الذي دار بين موسى وقومه فقال تعالى: ﴿ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝ ﴾[١٤] وقد حاول موسى جاهداً لإصلاحهم ولكن لم يستجيبوا لأوامر الله واستمروا على تمردهم، فتألم لذلك ووجه شكواه لله قائلاً : رب لا سلطان لي إلا على نفسي وأخي فاقض بعدلك بيننا وبين هؤلاء الفاسقين. فاستجاب الله له وأخبره بأن الأرض المقدسة محرمة عليهم وأنهم سيتيهون في الأرض في صحراء سيناء أربعين سنة، فلا يأخذه الحزن على هؤلاء الخارجين على طاعة الله، فيقول عز وجل ﴿ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝ ﴾[١٥].

ويقرر أكثر الباحثين أن التيه قد حدد بأربعين عاما، أما تحريم الأرض المقدسة على بني إسرائيل فهو مطلق أبدي ومن اجل هذا يوقف حين القراءة بعد قوله تعالى (محرمة عليهم) وقال بذلك الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه (قصص الأنبياء) والدكتور أحمد شلبي في كتابه (مقارنة الأديان ج١) والأستاذ عفيف طبارة في كتابة (مع الأنبياء). ونضيف بأن لفظ (أبدا) ورد على لسان بني إسرائيل فقد ارتضوا هذا الحكم على أنفسهم. وبعد هذا القرار الرباني أمضى موسى مع قومه مدة أربعين عاما تائهين في صحراء سيناء ورغم انتهاء المدة لم يدخلوا فلسطين بل توجهوا إلى جبال مؤاب (جبال الكرك ومأدبا) عبر وادي عربة ووقف موسى عليه السلام على تلة مرتفعة من جبال مؤاب فشاهد مدينة القدس متألماً متحسراً لأنه حرم من دخول بلاد فلسطين رغم مضي مدة التيه (أربعين سنة) وقد صرحت التوراة بذلك (قال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم واسحق ويعقوب قائلاً لنسلك: أعطيها قد أريتك إياها بعينيك، ولكن هناك لا تعبر)(١٦) وبعدها بقليل توفي موسى عليه السلام في تلك المنطقة ....فرغم السفر الطويل والمعاناة القاسية لم يدخل موسى وقومه بلاد فلسطين، ويأتي اليهود في هذا العصر يطلقون على فلسطين أرض الميعاد ويعتبرونها حقا لهم زاعمين أنه لا يجوز لأحد أن ينازعهم فيها فبالرغم من حرمان الله لهم بدخول فلسطين يعتبرونها أرض الميعاد فكيف لو منحهم الله هذه البلاد؟

ومما تقدم يظهر لنا تفاهة هذا الحق المزعوم.

يشوع بن نون

وتولى يشوع بن نون قيادة بني إسرائيل وكان موسى قد اختاره قبل وفاته خليفة له واصر يشوع على دخول فلسطين فجاء إلى جهة الغور ودخل مدينة أريحا بعد قتال مرير ومعارك طاحنة أمر اتباعه بألا يبقوا أي إنسان فيها حتى أمرهم أن يذبحوا الحيوانات والبقر والغنم (وقد ورد صريحا في التوراة ما يشير إلى جرائمهم البشعة في اريحا) ثم حاولوا دخول مدينة القدس عدة مرات ففشلوا، فاتجهوا إلى منطقة نابلس

(ويطلقون عليها السامرة) واحتلوا قسما منها بعد أن حصلت فيها مجازر أيضاً، واستمرت المعارك بين اليهود وبين أهل فلسطين الأصليين وهم الكنعانيون، وبينهم وبين المجاورين من السوريين، إلى أن جاء الملك داود وتمكن من دخول مدينة القدس عنوة وأخذها من اليبوسيين(١٧) عام ١٠٤٩ ق.م.

واستقر الملك داود في جبل صهيون (أحد جبال مدينة القدس). وكانت هذه المدينة تقع على أربعة جبال وهي: جبل صهيون (منطقة الملك داود وسميت بمدينة داود أيضا) وجبل موريا منطقة (المسجد الأقصى المبارك). وجبل اوفل (الهضبة التي تقع ما بين سور مدينة القدس من الجهة الشرقية الجنوبية وسلوان). وجبل بزيتا (منطقة باب الساهرة وحارة السعدية حاليا). وهذه اسماء قديمة من أيام اليبوسيين وليست أسماء عبرية. وحكم اليهود هذه البلاد فترة من الزمن بعد وفاة الملك داود وسليمان حتى عام ٥٣٨ ق.م.

وخلال سيطرة اليهود على هذه البلاد فقد حكمت عن طريق القضاة ثم عن طريق الحكام والملوك. ثم انقسمت دولتهم إلى قسمين: دولة إسرائيل وعاصمتها شكيم (نابلس)، ودولة يهوذا وعاصمتها أورشليم (القدس) واحتدم الصراع بين الدولتين حتى أن دولة إسرائيل تحالفت مع السوريين ضد دولة يهوذا، وبقي الوضع المتردي حتى سقطت القدس بأيدي الأشوريين أولا ثم بأيدي البابليين ثانيا عام ٥٣٨ ق.م.

هذا ملخص لعلاقة اليهود بفلسطين من الناحيتين، الدينية والتاريخية، فنلاحظ أن ادعاءهم الديني يرتكز على نقطة واحدة فقط هي أرض الميعاد، ويتبخر هذا الإدعاء في موقفهم المتمرد على أوامر الله وحرمان الله لهم بدخول القدس، والادعاء التاريخي كله قائم على سفك الدماء من أيام يشوع بن نون إلى زوال دولتهم على أيدي الأشوريين والبابليين بالإضافة إلى أن العرب أسبق منهم في هذه البلاد بما يقارب (٤٠٠٠) عاماً.

علما أن أهل فلسطين العرب الأصليين لم يعترفوا باحتلال اليهود لأجزاء من فلسطين منذ دخول يشوع بن نون وكانوا يقاومونهم كلما سنحت لهم الفرصة وذلك للدلالة على أن مجيء اليهود لهذه البلاد غير مرغوب فيه.

الخاتمة

هذه أبرز الارتباطات والعلاقات التي تربط العرب والمسلمين بمدينة القدس، مدينة السلام، وتتضح من هذه الارتباطات منزلة القدس في الإسلام عرضتها بإيجاز، فليست القدس كسائر المدن، إنها أم المدن، إنها أساس وجودنا في هذه الديار المباركة. مؤكدين على أن مدينة القدس، رغم محاولات التهويد منذ عام ١٩٦٧م حتى هذه الأيام ستبقى عربية إسلامية، وستعود إلى حظيرة العروبة والإسلام في المستقبل القريب إن شاء الله ، وإننا نرفض المخططات الإسرائيلية الرامية إلى تهويد هذه المدينة المباركة المقدسة، وأنه لا يمكن أن يكون هناك حل عادل ولا سلام في الشرق الأوسط إلا بعودة هذه المدينة إلى السيادة العربية الإسلامية مع توفير الحرية الدائمة لاتباع الديانات السماوية جميعا.

توصيات ومعالجات

مما لا شك فيه ولا خلاف أن تحرير البلاد والعباد من احتلال اليهود عن طريق الجهاد بشتى صوره وأشكاله يعتبر الطريق الأمثل لرفع الظلم عن المستضعفين وإعادة الحق إلى نصابه وتحرير البلاد من ربقة الظلم والعدوان. وإلى أن يحصل هذا الأمر ويهء الله سبحانه وتعالى له أسبابه ينبغي الأخذ ببعض الأمور للحفاظ على هذه المدينة المقدسة أو ما يمكن الحفاظ عليه منها:

العمل على تركيز المؤسسات العربية والإسلامية الفلسطينية الرسمية ومنها والخاصة في مدينة القدس وأن تكون الإدارة المركزية لكل المؤسسات في تلك المدينة حتى تبقى حاضرة البلاد وعاصمتها ومحط أنظارها.

تشجيع الإسكان للعرب المسلمين في القدس وفي كل شبر من أرضها حتى لا يكون عرضة لأطماع اليهود ويتحقق ذلك بتشكيل لجنة فاعلة لهذه الغاية تقوم بدفع تكاليف رخص البناء عن المواطنين والتي تصل أحياناً إلى مبلغ ثلاثين ألف دولار

أمريكي ودفع الغرامات المالية التي تفرضها سلطات الاحتلال على من بنى بلا ترخيص ويزيد عددها عن أربعمائة بيت وكذلك توفير قروض للبناء بدون فوائد ربوية تسهيلاً على المواطنين ويجب إنشاء المساكن من خلال شراء الأراضي الشاغرة والبناء عليها وتمليكها لمن لا يملكون أرضاً ولا بيتاً وعددهم يزيد على التسعين ألفا من المواطنين وكذلك ترميم البيوت والعقارات في البلدة القديمة وأشغال البيوت المهجورة بعد ترميمها وإصلاحها.

المجال التعليمي: نظراً لما للعلم من أهمية في الحفاظ على هوية البلاد فيجب العناية بمختلف عناصر العملية التعليمية من خلال إصلاح وإنشاء المدارس ودعم المعلمين برفع رواتبهم وعمل دورات لهم وكذلك دعم المؤسسات التعليمية الخاصة التابعة للجمعيات الخيرية وعددها (٥١) مدرسة.

المجال الصحي: ويتم ذلك من خلال تحديث المستشفيات والمستوصفات الموجودات وإيجاد عدد آخر منها وتكون على مستوى ينافس الموجود لدى الإسرائيليين وجعل الضمان الصحي إلزامياً لجميع المواطنين وتحسين أوضاع العاملين في الجهاز الصحي.

السياحة: إن السياحة فرصة جيدة لعرض أفكارنا على العالم وتعريف السياح بواقع المدينة المقدسة وحال أهلها وإعطائهم الصورة الصحيحة عن الإسلام والمسلمين وهذا يتطلب الحفاظ على المرافق السياحية من خلال دعم الفنادق الفلسطينية وإصدار الدراسات والنشرات حول المواقع الأثرية والدينية والحضارية باللغة العربية وترجمتها إلى لغات أخرى وكذلك تأهيل العاملين في هذا المجال لنقل الصورة الصحيحة للسياح وهنا لا بد من التذكير بضرورة تنفيذ وتطبيق قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالحفاظ على الموجودات الحضارية والتاريخية للبلاد الواقعة تحت الاحتلال لأن سلطات

الاحتلال الإسرائيلي تحاول وبكل قوتها طمس كل ما هو إسلامي في المدينة من خلال تزوير الآثار وتغيير الأسماء والعبث بالمباني والقصور الإسلامية.

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) (التوبة ١٠٥). صدق الله العظيم

الهوامش

١- سورة الإسراء الآية (١) الجزء ١٥.

٢- متفق عليه عن الصحابي ابي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٣- سورة الإسراء الآية (١) الجزء ١٥.

٤- سورة المائدة الآية ٢١) الجزء ٦.

٥- سورة البقرة الآية (٥٨) الجزء ١.

٦- رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن الصحابية ميمونة بنت سعد رضي الله عنها.

٧- سورة البقرة الآية (١٤٤) الجزء ٢.

٨- رواه أحمد وابن خزيمة عن الصحابي أبي الدرداء رضي الله عنه.

٩- متفق عليه عن الصحابي أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

١٠- رواه أبو داود والبيهقي عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها.

١١- رواه أحمد عن الصحابي أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

١٢- رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، والطبراني، وفي الكنز للمتقي عن الصحابي أبي الدرداء رضي الله عنه.

١٣- يهوذا هو من أبناء يعقوب ، وكان ليعقوب اثنا عشر ولداً ويعرفون بالأسباط.

١٤- سورة المائدة الآية ٢٠ و ٢١ والمراد بالارض المقدسة فلسطين. ومعنى كتب: أمر وفرض. والقوم الجبارون هم أهل فلسطين الأصليون. وفي ذلك إشارة إلى أن بني إسرائيل يريدون أرضا بلا شعب، وأنهم يستاثرون الأمور لهم خاصة.

١٥- سورة المائدة الآيات (٢٣-٢٦) ويفهم من هذه الآيات والتي قبلها أن بني إسرائيل يريدون بلادا بلا شعب. لذا حرم الله عليهم دخول فلسطين.

١٦- سفر التثنية الأصحاح، ٣٤.

١٧- هم من الكنعانيين، والكنعانيون من العرب ، والمعلوم لدى كتب التاريخ بأن العرب أقدم الأقوام في هذه البلاد فكانوا فيها قبل ٧٥٠٠ سنة ق. م. ولم يعرف المؤرخون قبل هذه التاريخ أقواما غير العرب استقروا في فلسطين.

المؤسسات التعليمية في القدس والحركة الثقافية

د. نعمان محمد جبران

قسم التاريخ – جامعة اليرموك

مُقدِّمة:

تهدف هذه الدراسة للتعرف على المؤسسات التعليمية ودورها الثقافي في مدينة القدس منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية عصر دولة المماليك. وسيتم استعراض الدور الرائد والمساهمة البارزة لمدينة المقدس في الثقافة الإسلامية منذ أن غدت مركزاً من مراكز الإشعاع الفكري مع بداية الدولة الإسلامية.

كما ستتطرق هذه الدراسة إلى فترات عانت فيها القدس من آثار الضعف الذي أصاب محيطها العربي الإسلامي والذي قاد إلى وقوعها فريسة للاحتلال الصليبي الذي أعاق وعطل دورها الرياضي في ميادين العلم والثقافة.

ثم تشير الدراسة إيجازاً إلى مرحلة الانبعاث الجديدة التي عاشتها القدس في مجال العلم والثقافة بعد أن تحررت من الاحتلال الصليبي على يد القائد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ، ولم تتعطل مسيرة عطاء القدس رغم أنها عاشت في فترات من تفريط البعض بها لصالح الأجنبي.

وتشير الدراسة بعد ذلك إلى التطور الهائل في أعداد المؤسسات التعليمية وتعاظم دورها في مدينة القدس خلال عصر دولة المماليك منذ ١٢٦٠-١٥١٦م.

وسنلاحظ أن مدينة القدس خلال الفترة الواقعة ما بين بداية الفتح الإسلامي وحتى نهاية دولة المماليك قد أسهمت بقسط وافر في مجالات العلم والثقافة تعدى كونها مقصداً لطلاب العلم والعلماء بل كانت مساهمة في نهضة علمية في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي.

وسنوجز فيما يلي المراحل التي مرت بها القدس في تاريخها الإسلامي في شارات لمعالم تطور المؤسسات التعليمية الثقافي المتنوع:

١- العهدان الراشدي والأموي:

صلة العرب بالقدس قديمة وتمتد لآلاف السنين، وصلة الإسلام بهذه المدينة كانت أسبق من زمن تحريرها زمن الفتوحات الإسلامية، وقد تأكدت هذه الصلة من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة إذ ارتبطت مدينة القدس بمنطلق الإسلام في مكة وجاء مصداق ذلك في قوله تعالى في سورة الإسراء:

﴿سُبحَانَ الذي أسْرَى بِعبدِهِ لَيْلاً مِنَ المسجِدِ الْحَرامِ إلَى المسْجِدِ الأقصا الذي بارَكْنَا حوله لنُرِيَهُ من آيَاتِنا إنَّهُ هو السَّمِيعُ البَصِير﴾[الإسراء: ١].

ثم جاء الفتح الإسلامي لبلاد الشام مؤسساً على هذه الصفة، وقد توج ذلك بفتح مدينة القدس في سنة ١٦هـ حيث دخلها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب معلناً بداية عهد تسامح وانفتاح عاشته المدينة المقدسة في ظل الدولة الإسلامية. وقد أكدت إجراءات الخليفة أهمية هذه المدينة والعمل على أن تكون في موقع ريادي يوازي أهميتها وقدسيتها فجاءت نصوص العهدة العمرية مؤكدة على التسامح والعدالة محترمة لعقائد الناس، حامية لأماكن عبادتهم مؤمنة بالتنوع الثقافية والعرقي والديني. كما تبنت سياسة الدولة الإسلامية العمل على تثبيت عروبة مناطق الفتح وإسلاميتها.

وعليه كان لا بد من الاهتمام بنشر الإسلام والعربية، فجعلت مراكز الأجناد مراكز إشعاع فكري فأرسل العلماء والفقهاء والقراء والكتابة والمعلمون إلى دمشق وحمص والرملة وبيت المقدس، وقد ساهم من شارك في الفتح الإسلامي في نشر الإسلام وتعليم العربية والعلوم المرتبطة بالدين من فقه وتفسير وقراءة، وكان نصيب القدس من ذلك وافراً حيث عمل الخليفة عمر على اختطاط مسجد في المدينة اعتبر أول مؤسسة تعليمية مبكرة في المدينة المقدسة. وإدراكاً منه لحاجة أهل الشام إلى العلماء الذين ينشرون الدين ويفقهون الناس في أموره نجده يستجيب لطلب يزيد بن أبي سفيان بإرسال نخبة من العلماء منهم معاذ بن جبل وأبو الدرداء وعبادة بن

الصامت الذي جاء إلى القدس قاضيا ومعلما والذي كان يجلس في صحن المسجد ببيت المقدس ويلتف حوله الناس بعد كل صلاة يستمعون إليه ويتعلمون منه. واستمر عبادة مؤيدا لهذا الدور حتى كانت وفاته في مدينة القدس سنة ٣٤هـ، فكان بذلك أول المساهمين في حقول الثقافة والعلم في المدينة المقدسة. وتبعه مجموعة من أمثال شداد بن أوس فقيه الأمة الذي سكن فلسطين وتوفي فيها وعبد الرحمن بن غنم الفقيه غزير العلم والمعرفة والذي استحق لقب شيخ فلسطين والمتوفى سنة ٧٨هـ. وقد كانت مدينة القدس مقصدا للعلماء وطلاب العلم كما جاء بعضهم تقربا إلى الله لإدراكهم أهمية وقدسية هذه المدينة فرغب جمع كبير منهم في الإقامة والوفاة فيها.

وفي فترة حكم الأمويين ٤٠-١٣٢هـ حظيت مدينة القدس باهتمام خاص لأسباب سياسية ودينية أحاطت بقيام هذه الدولة فحرص أكثر من خليفة أموي على أن تكون بيعتهم بالحكم في هذه المدينة. وقد أبدى خلفاء بني أمية اهتماما بالحركة الثقافية في بيت المقدس وقد أشار إلى ذلك يعلى بن شداد بن أوس بقوله: "شهدت مع معاوية ببيت المقدس، فجمع فإذا جل من في المسجد من أصحاب رسول الله"، فكان هناك من يعظ ويدرس أمثال ريحان الغرظي الأزدي وابنته ريحانه وشداد بن أوس.

وازدادت الحركة العلمية والثقافية في مدينة القدس بعد أن تم بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك.

وقد أصبح المسجد الأقصى مركزا علميا هاما تدرس فيه علوم القرآن من قراءات وتفسير وأسباب النزول والوعظ واشتهر من علمائه رجاء بن حيوه القاضي والعالم، وسليمان بن عبد الله الأنصاري القارئ، ومقاتل بن سليمان المفسر، وأصبح المسجد الأقصى قبلة للعلماء وطلاب العلم والمجاورين في ظل تشجيع أموي وعناية من خلفاء بني أمية. فقد أورد ابن هلال المقدسي أن الوليد بن عبد الملك كان يعطي إبراهيم بن عبلة المقدسي (ت١٥٢هـ) قصاع الفضة ليقسمها على قراء مسجد بيت المقدس.

كما شهدت القدس زيارة العديد من العلماء والفقهاء والقراء بغض النظر عن مكان إقامتهم، فها هي أم الدرداء هجينة بنت حيي الأوصابية (ت٨١هـ) والتي كانت تقيم في دمشق تحرص على أن تقيم ستة شهور في بيت المقدس وقد أخذ عنها القراءات إبراهيم بن أبي عبلة.

ولنا أن نعتقد أن هذا الحشد من العلماء الذين عاشوا في مدينة القدس أو زاروها قد اتخذوا من المسجد الأقصى وقبة الصخرة مكاناً لنشر علمهم وتعلم الجديد من علماء بيت المقدس، كما أن هذه المؤسسات لا بد وأنها ساهمت في تعريب القدس وجعل اللغة العربية بدءاً لغة الدين والحكام ثم لغة الأدب والعلم حتى فرضت نفسها لغة لسكانها كافة بعد إجراءات الدولة الأموية في سياستها لتعريب الدواوين والنقود.

وفي ظل أجواء من التسامح والتشجيع نشطت الحركة العلمية في مدينة القدس في العهد الأموي لتشمل العلوم التطبيقية ولتشمل سكان المدينة كافة بغض النظر عن ديانتهم فصنف بعض علماء النصارى كتباً تتعلق بأمور دينهم ومنهم يوحنا الدمشقي صاحب كتاب "ينبوع الحياة" وكان من العلماء المعتكفين في ديرمارسابا في مدينة القدس.

٢- العصران العباسي والفاطمي:

شهدت هذه الفترة اهتماماً عباسياً بالمدينة المقدسة، تمثلت بدءاً بزيارة بعض الخلفاء العباسيين لها، فزارها الخليفة العباسي المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) مرتين في سنة ١٤٠هـ و ١٥٤هـ وزارها الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ) سنة ١٦٣هـ، كما أجرى بعضهم ترميمات وإضافات إلى أماكنها المقدسة، كما حصل في عهد الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ).

وازدهرت الحياة الثقافية والعلمية في مدينة القدس وازداد أمر تعظيمها مع ألف في فضائل القدس وتعظيم أمر زيارتها والرحلة إلى أماكنها المقدسة، وقد أثمر ذلك زيادة

في رحلة العلماء وطلاب العلم إليها ليأتي موافقاً لحرص أهلها ورغبتهم في الإفادة من هؤلاء العلماء وتقديم الأموال في سبيل ذلك، وهذا ما أشار إليه مجير الدين الحنبلي، حيث يقول: إن أهل القدس كانوا يقدمون مساعدات مالية للعلماء، ومن ذلك أنهم جمعوا ألف دينار للعالم بكر بن سهل الدمياطي (ت٢٨٩هـ) ليروي لهم التفسير.

كما شهدت مدينة القدس زيارة العديد من أعلام التصوف من أمثال رابعة العدوية، وبشر بن الحارث الحافي، وذو النون المصري، وإبراهيم بن أدهم، ومحمد بن كرام السجستاني المتكلم، وقد ساعد ذلك على انتشار الزوايا والخوانق كمؤسسات ساهمت في الحياة الثقافية والعلمية في بيت المقدس.

وفي بعض فترات الضعف السياسي والعسكري الذي أصاب جسم الدولة العباسية تأثرت مدينة القدس بحركات الانفصال عن الدولة العباسية دون أن يلغي ذلك دورها الثقافي الذي بقي مرتبطاً بقدسيتها وأهميتها الدينية، فبرز من علمائها في هذه الفترة أبو بكر المقدسي –جد الجغرافي الفلسطيني شمس الدين أبو عبد الرحمن بن أحمد المقدسي– الذي برع في فن البناء في الماء وساهم في أعمال تحصين مدن الساحل الفلسطيني.

كما أن مدينة القدس شهدت خلال العصر العباسي إنشاء مؤسسات دينية واجتماعية علمية للنصارى من سكان والقادمين إليها كما حصل في فترة خلافة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) وعلاقته مع شارلمان (٧٦٨-٨١٤م) والتي أثمرت عن إقامة نزل (فندق)، ودير للاتين على جبل الزيتون، ومكتبة وبيمارستان لخدمة الحجاج. ولا شك أن هذه المؤسسات المسيحية قد أسهمت مع المؤسسات الإسلامية القائمة في المدينة في تشجيع الحركة العلمية والثقافية.

ومع بداية السيطرة الفاطمية على بلاد الشام بعد سيطرتهم على مصر سنة ٣٥٨هـ حظيت مدينة القدس باهتمام فاطمي لأسباب سياسية ودينية واستراتيجية.

وقد أشارت المصادر إلى عناية فاطمية بشؤون العلم ومؤسساته في بيت المقدس حيث يشار إلى إنشائهم داراً للعلم تعمل على نشر مذهبهم في القدس وفي فلسطين، كما يشار في هذه الفترة إلى إنشاء بيمارستان فاطمي لعله الأول في القدس- يقدم خدماته للمرضى إضافة إلى مهامه التعليمية. وقد أشار لهذه المؤسسة الرحالة ناصر خسرو الذي زار المدينة في الخامس من رمضان سنة ٤٣٨هـ، بقوله: "وفي المدينة صناع كثيرون، لكل جماعة منهم سوق خاص... وفي بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديد من العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الموقف".

كما أتاحت الدولة الفاطمية للسكان النصارى إقامة مؤسسات خاصة بهم كان لها بلا شك دور في إثراء ثقافة القدس المتنوعة بتنوع سكانها، ومن ذلك ما منح لتجار أمالفي من قطعة أرض أقيم عليها دير القديسة ماري اللاتينية، ودير القديسة مريم المجدلية ومأوى وكنيسة القديس يوحنا.

كما ساهم الفاطميون في إدخال توسعات وترميمات على الأماكن الإسلامية المقدسة كما حصل في المسجد الأقصى في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ). ويصف لنا المقدسي الحياة الثقافية والعلمية في مدينته فيقول أنها قليلة العلماء، وأن مسجدها خلا من الجماعات والمجالس، وربما كان ذلك تعبيراً عن قلة زوار القدس من علماء وطلاب الإسلام المناهضين للفكر الشيعي الذي كانت ترعاه الدولة الفاطمية أثناء سيطرتها على القدس. ولكن المقدسي نفسه يشير إلى نواحي علمية متطورة في مجالات منها الطب، حيث شهدت هذه الفترة أطباء مقادسة منهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي والذي تلقى علومه على جده سعيد وعلى طبيب مقدسي هو أبو محمد ابن أبي نعيم وطبيب نصراني هو الأنبا زخريا بن ثوبه. وقد لعب التميمي دوراً مهماً في دراسة نباتات فلسطين واستخداماتها الطبية، وأقام في مصر وكان على علاقة مع حكامها الفاطميين، وألف

مجموعة من الكتب في الطب، منها كتاب "مادة البقاء" ومقالة في "ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه". كما نبغ خلال هذه الفترة كل من المطهر بن طاهر المقدسي كمؤرخ ودارس للأديان، وكذلك الجغرافي الشهير شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي الذي ولد في مدينة القدس سنة ٣٣٥هـ وتلقى تعليمه فيها وطوف في أنحاء العالم الإسلامي متعلماً ومعلماً، وقد شكلت كتاباته مصدراً هاماً حول جوانب متعددة من حياة مدينة القدس الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

كما شهدت هذه الفترة تشجيعاً وتسهيلاً لزوارها إقامة مؤسسات وقفية منها ما يعود إلى سنة ٤٤٥هـ، حيث أوقف أحد أمراء ديار بكر من بني مروان بيوتاً مجاورة لسور الحرم خصصت لخدمة الزوار الذين يقدمون على القدس من مناطق ديار بكر. وسنلاحظ لاحقاً أن الأوقاف تعددت على زوار مناطق أخرى مما أسهم في خدمة مؤسسات تعليمية ارتبطت بالأوقاف وما تدره من أموال على هذه المؤسسات.

ومع انحسار النفوذ الفاطمي عن بلاد الشام بفعل التقدم السلجوقي في المنطقة ما بعد سنة ٤٦٣هـ، تصبح القدس في دائرة النفوذ السلجوقي وتبدأ فيها نهضة ثقافية عالية. فقد شهدت لأول مرة في هذا العهد إنشاء المدارس كمؤسسات تعليمية تسهم في حقول الثقافة والعلم إلى جانب المؤسسات الأقدم من مساجد وكتاتيب وزوايا.

فإلى هذه الفترة يعود إنشاء مدرستين إحداهما للشافعية وهي المدرسة النصرية وتنسب إلى مؤسسها الشيخ نصر المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠هـ وهي التي تعرف بالزاوية النصرية وموقعها على برج باب الرحمة من أبراج سور الحرم، والمدرسة الثانية للحنفية وهي المعروفة بمدرسة أبي عقبة وتقع قرب كنيسة القيامة. كما شهدت هذه الفترة ازدهاراً في مجال الدراسات الدينية والفقهية لم تشهده في فتراتها السابقة.

وقد حظيت مدينة القدس بزيارة عدد من العلماء من مختلف مناطق العالم

الإسلامي وقد وصفوا لنا في مؤلفاتهم طبيعة الحياة الثقافية هذه المدينة، ومن هؤلاء أبو الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي ٤٨٦هـ، والذي سكن مدينة القدس ونشر فيها وما حولها مذهب الإمام أحمد بن حنبل. وأبو بكر الطرطوشي الأندلسي، ثم أبو بكر بن العربي الذي رافق والده الإمام عبد الله في زيارة إلى الحجاز ولكنه آثر البقاء في القدس مستفيداً من علم علمائها مساهماً في نهضته الثقافية، وقد عبر عن رغبته في البقاء في القدس بقوله لوالده "لست برائم عن هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها وأجد من ذلك دستوراً للعلم وسلماً إلى مراقيها".

وقد أشار ابن العربي إلى مدارس القدس وحلقاتها العلمية وأوضح أن الدرس والمناظرة في اقدس وحلقاتها العلمية وأوضح أن الدرس والمناظرة في القدس كان شاملاً لجميع السكان بغض النظر عن مذاهبهم وأديانهم، وأشار إلى الاهتمام بعلوم الكلام وأصول الفقه. كما زار القدس حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠–٥٠٥هـ) حيث شرع في تأليف كتابه إحياء علوم الدين، ويقال أنه ألف فيها "الرسالة القدسية في قواعد العقائد".

وبرز في القدس عدد من العلماء في مجالات مختلفة منهم عالمها الأول نصر بن إبراهيم بن إبراهيم المقدسي الشافعي (٤٩٠هـ) وقد برز في مجال الإفتاء والتدريس وخاصة في المدرسة المنسوبة إليه، وشيخ علماء الشافعية عطاء المقدسي وكان من علماء الأقصى ومدرسيه، وأبو القاسم مكي بن عبد السلام الرميلي (٤٩٢هـ) والذي اشتهر كعالم حديث ومدرس ومؤرخ، وأبو الفضل محمد بن طاهر القيسراني (٥٠٧هـ) واشتهر في علم الحديث واللغة والتصوف.

إن هذه النهضة العلمية والحركة الثقافية التي شهدتها مدينة القدس في القرن الخامس، والتي جاءت إكمالاً لما بدأ به المسلمون منذ فتحهم للمدينة، كانت أشبه بعلو شعلة السراج قبل انطفائه، فلقد تعرضت مدينة القدس- أكثر من غيرها-

لمحاولات تغييب لحضارتها ومساهمتها الحضارية الإنسانية، وقد جاءت هذه المحاولات على يد قوى الاحتلال الصليبي منذ سنة ٤٩٢هـ. فكان قدر القدس أن تدفع ضريبة العجز العربي الإسلامي، دفعتها من دماء سكانها ومن طمس لمعالمها الإسلامية وتحويل مؤسساتها الدينية والعلمية إلى مقار للصليبيين وقوات احتلالهم وكنائس لمتطرفيهم. وهكذا توقفت مساهمة بيت المقدس في الحركة الثقافية الإسلامية وامتد هذا التوقف ما يزيد على ثمانين سنة. ولكن أهل القدس وعلماءها ممن هجروا إلى مناطق إسلامية مختلفة حملوا معهم ما لم تستطيع قوى الاحتلال مصادرته أو إلغاءه، حملوا علمهم وثقافتهم فساهموا في مهاجرهم في نهضة ثقافية إسلامية ركزوا فيما ركزت عليه من ضرورة تحرير القدس والأرض الإسلامية من الاحتلال الصليبي.

٣- العصران الأيوبي والمملوكي:

لم يكتب للاحتلال الصليبي لمدينة القدس أن يستمر بعد أن زالت الأسباب التي قادت إليه، فبعد جهود الوحدة التي بذلها آل زنكي وصلاح الدين مدعومين بمساهمات وعلماء الدين واللغة والأدب وآرائهم ومنهم علماء بيت المقدس في مصر والشام أثمرت هذه الجهود مجتمعة تحقيق وحدة قادت إلى النصر في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ التي حررت مدينة القدس من الاحتلال الأجنبي.

لقد كانت أولى مهمات صلاح الدين بعد تحرير القدس تتمثل في بذل الجهد في سبيل إعادة الحياة العربية الإسلامية لهذه المدينة وإزالة آثار الاحتلال وبناء المؤسسات الخادمة للعلم والعلماء. ومن جهود صلاح الدين في هذا المجال تقريبه للعلماء وحضوره مجالسهم والمشاركة معهم، وفي هذا الصدد يقول عبد اللطيف البغدادي في كتاب "الإفادة والاعتبار" ، "وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو -صلاح الدين- يُحسن الاستماع والمشاركة".وقد أسهمت جهود

صلاح الدين في بناء المؤسسات التعليمية في مدينة القدس، نذكر منها:

- **المدرسة الصلاحية:** وتقع في باب الأسباط وقد أوقفها صلاح الدين على الفقهاء من المذهب الشافعي منذ سنة ٥٨٨هـ وكانت في الأصل كنيسة للنصارى تعرف بـ "صندحنه"، وقد أوقف عليها أوقافاً طائلة تكفل لها الاستمرار في أداء رسالتها العلمية الدينية.
- **الخانقاة الصلاحية:** وقد جعلت وقفاً على المشايخ الصوفية الشيوخ والكهول والشباب البالغين والمتأهلين والمجردين من العرب والعجم، وعلى الواردين من سائر البلاد من الصوفية المعروفين من الخوانق.
- **البيمارستان الصلاحي:** وقد كانت مهماته تشتمل على معالجة المرضى وصرف الأدوية بالمجان، إضافة إلى أنه شكل مدرسة طبية لتدريس العلوم الطبية. ولقد كان كثير من أطبائه من علماء الطب الكبار ومن ذوي الكفاءات العالية في ميدان الطب وعلم الأدوية، مثل الطبيب يعقوب بن صقلاب المقدسي (ت٦٢٦هـ) ورشيد الدين الصوري (ت٦٣٩هـ)، وقد استمر هذا البيمارستان مؤدياً لدوره حتى القرن التاسع للهجرة.

كما أوقف صلاح الدين مكتباً لتعليم أولاد المسلمين القرآن وعلومه وأوقف على ذلك داراً تعرف بدار أبي نعامة.

إن المؤسسات التعليمية التي أنشئت في عهد صلاح الدين شكلت جسراً للتواصل الثقافي بين القدس وغيرها من المدن الإسلامية وبخاصة في مصر والشام، وأن استعراض شيوخ المدرسة الصلاحية وطلابها وأطباء البيمارستان الصلاحي ليؤكد هذه الحقيقة المتماشية مع دور القدس الحضاري الإنساني.

وتابع بعض أفراد الأسرة الأيوبية انتهاج سياسة صلاح الدين حيال مدينة القدس،

فأنشأوا فيها المدارس والمساجد والزوايا بحيث تتلاءم مع طبيعة التركيبة السكانية للقدس أو تنوع زوارها والمهاجرين إليها، فجاءت مدارسها خادمة للمذاهب المختلفة ولصنوف العلم المتعددة، فلم تعد أغراض المؤسسات العلمية وقفاً على العلوم الدينية بل تعدتها إلى علوم مختلفة.

ومن أمثلة هذه المؤسسات في عهد خلفاء صلاح الدين ما أنشأه الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين (ت٦٢٢هـ) حيث عمل على إقطاع المغاربة حارة كاملة غرب الحرم القدسي وذلك سنة ٥٨٨هـ، وقد أوقفها على المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكورهم وإناثهم وحجاجهم وفقهائهم وطلابهم غنيهم وفقيرهم. ومن ضمنها المدرسة الأفضلية الواقعة في وسط حارة المغاربة وجعلها وقفا على المذهب المالكي.

ومنها المدارس التي أنشأها الملك المعظم عيسى والذي كان من أتباع المذهب الحنفي فأنشأ خدمة لأتباع هذا المذهب المدرسة المعظمية في القدس، كما أنشأ مدرسة أخرى تهتم بعلوم اللغة العربية مع التركيز على النحو وعرفت بالمدرسة النحوية. كما ساهم في الوقف على المدارس حيث يشار إلى أنه أوقف كتبا على المدرسة النصرية ومنها كتاب إصلاح المنطق لأبي يوسف يعقوب بن اسحق السكيت وذلك في سنة ٦١٠هـ.

إن الإحياء الثقافي والعلمي الذي شهدته القدس في العصر الأيوبي عانى من انتكاسات وانقطاع حين دخل أفراد الحكم في الأسرة الأيوبية في صراعات بينية قادت بعضهم إلى الاستقواء بالأجنبي ضد الأخوة وأبناء العمومة، مما جعلهم يفرطون في حقوق المسلمين ويتنكرون لجهود الأوائل من الأيوبيين، وجعلهم يسلمون ويتنازلون عن القدس لقوى احتلال صليبية، كما حصل فيما عرف بصلح يافا سنة ٦٢٦هـ، بين الملك الكامل محمد والامبراطور الألماني فريدريك الثاني. وهكذا قدر للقدس أن تعيش أجواء النكبة مجددا ويتوقف عطاؤها الفكري والثقافي لسنوات، حتى عادت محررة منذ سنة ٦٤٢هـ لتستمر بعد ذلك مدينة إسلامية دون انقطاع حتى كانت أحداث الحرب

العالمية الأولى حين دخلها الجنرال اللنبي في شهر ديسمبر ١٩١٧م.

إن إعادة الاحتلال الصليبي للقدس منذ سنة ٦٢٦هـ سبب ركود الحركة العلمية والتعليمية في المدينة، كما هجرها كثير من العلماء خوفاً من الصليبيين أو أنفة من البقاء تحت حكمهم. ومن هؤلاء المهاجرين شيخ المدرسة الصلاحية تقي الدين ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ)، والشيخ شرف الدين محمد بن عروة الموصلي الذي هاجر إلى دمشق وعمر فيها دار الحديث العروية في جامع دمشق، كما نقل الأمير عز الدين أيبك المعظمي (ت٦٤٥هـ) أوقافه التي خصصها لإنشاء مدرسة له في القدس للصرف على حلقة التدريس في جامع دمشق كما عرفت باسمه هناك المدرسة العزية الحنفية.

وهكذا نجد أن علماء القديس لم يقتصر دورهم على خدمة مدينتهم بل تعداه إلى خدمة العلم ومؤسساته حيثما تواجدوا.

وبالإجمال فإن المؤسسات التعليمية الهامة التي يمكن رصدها من المصادر خلال الفترة ما بين تحرير القدس على يد صلاح الدين حتى انضوائها تحت سيطرة المماليك كانت تزيد على العشر، وهي بذلك تبقى متواضعة مقارنة بما تم إنشاؤه في عهد دولة المماليك وذلك لأن عهد السيطرة الأيوبية على القدس جاء متقطعاً بعكس الحال في عهد المماليك.

ولم تمض سنوات على تحرير القدس سنة ٦٤٢هـ حتى خضعت المدينة وبلاد الشام للسيطرة المملوكة بعد انتصارهم على المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ. ومن هذا التاريخ فصاعداً بدأت مدينة القدس تلقى اهتماماً من قبل المماليك انعكس إيجاباً على حياتها الثقافية ودورها العلمي الريادي، وشهد عصر المماليك أكبر نهضة معمارية في القدس شملت العديد من المدارس والزوايا والمساجد التي لا تزال آثارها دالة على هذا التطور الذي شهدته المدينة تحت حكم المماليك.

إن إنشاء المؤسسات التعليمية في القدس في عصر المماليك لم يكن حكراً على

السلاطين والأمراء، بل كان مجالاً شارك فيه تجار وعلماء رجالاً ونساء من المذاهب المختلفة والمناطق المختلفة في الدولة الإسلامية. وقد رصد لنا مؤرخ القدس مجير الدين الحنبلي ما يزيد على أربعين مدرسة في بيت المقدس وأكثر من عشرين زاوية إضافة إلى مكاتب الأطفال والمساجد والمكتبات. كما أن المشاهد والترب اتخذت كمؤسسات تعليمية، ومنها على سبيل المثال التربة الطازية التي تقع بجوار المسجد الأقصى من ناحية الغرب، وقفها الأمير طاز المتوفى سنة ٧٦٣هـ ودرس فيها جماعة من علماء الشافعية أكثرهم من آل القلقشندي.

وما هو جدير بالذكر أن المؤسسات التعليمية على مختلف أنواعها في العصر المملوكي أمكن لها الاستمرار بأداء دورها لاعتمادها على مصادر دخل دائمة للانفاق عليها من خلال نظام الأوقاف الذي شاع في فترة حكم المماليك.

واشتهرت القدس في عصر المماليك بانتشار مجالس العلم في بيوت الأمراء والعلماء وإن كان أكثرها ما يعقد في المجلس الأقصى حيث كان الأمر هنا يدور حول العلوم الشرعية من فقه وحديث وأصول ووعظ.

كما ألحق بالمدارس عدد من المكاتب كما هو الحال في مكتب التنكزية الذي الحق بالمدرسة التنكزية التي أنشأها الأمير تنكز الحسامي سنة ٧٣٠هـ، وقد تطورت هذه المدرسة لتضم بين جنباتها أكثر من مؤسسة تعليمية، فهي تضم مدرسة ورباطاً وخانقاه ودار حديث ومسجداً. كذلك مكتب المدرسة الباسطية الواقعة شمال الحرم وهي من أوقاف القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي سنة ٨٣٤هـ وكانت تضم مقراً للصوفية (خانقاه) وبها متسع لتعليم عشرة من أيتام المسلمين تصرف لهم مخصصات شهرية، ويتعلمون فيها القرآن والخط.

إن استعراض المؤسسات التعليمية في القدس خلال العصر المملوكي أكبر من هذا

البحث علاوة على أن دراسات متخصصة قد نشرت حول هذا الموضوع، نذكر منها الدراسات التي قام بها المرحوم الدكتور كامل العسلي، والدراسات عن مدارس القدس في العصرين الأيوبي والمملوكي والحياة الفكرية في مدينة القدس وغيرها للدكتور عبد الجليل عبد المهدي.

لقد ساهمت هذه المؤسسات التعليمية -بغض النظر عن الهدف من إنشائها- في العهد المملوكي في جعل مدينة القدس مركزاً من المراكز الهامة في حقل الثقافة التي اتخذت طابعاً مميزاً بحكم أن مدينة القدس شهدت تنوعاً عرقياً للسكان وتنوعاً دينياً ومذهبياً مما جعلها عالمية الثقافية، كما أن المدينة المقدسة أصبحت مقصداً لكبار العلماء من العالم الإسلامي بأنواعها معلمين ومتعلمين. ومن أمثال هؤلاء المؤرخ المشهور شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) وشهاب الدين ابن حجي فقيه الشام (ت٨١٦هـ) والمؤرخ البدر العيني الذي سافر إلى القدسي سنة ٧٨٨هـ للقاء علمائها أو العلماء الوافدين عليها والإفادة منهم.

إن هذه النهضة في فروع المعرفة المختلفة في مدينة القدس وتعدد مؤسساتها التعليمية كان لا بد أن تترك آثارها في بروز العديد من الأشخاص والأسر التي اشتهرت في حقول المعرفة المختلفة. وقد أحصى لنا علي السيد علي في دراسته عن القدس في العصر المملوكي عدداً من هذه الأسر التي ذاع صيتها في أرجاء العالم الإسلامي لمساهماتها العلمية المتنوعة، ومنها أسرة بنوكيكلدي وأحد نوابغها صلاح الدين أبو سعيد خليل بن عبد الله العلائي والمتوفى سنة ٧٦١هـ والذي ألف في حقول الحديث والتفسير، وبنو القلقشندي واشتهر منهم تقي الدين القلقشندي (ت ٧٧٨هـ) واشتغل العديد من أفرادها في الإفتاء والتدريس، وبنو قدامه وبنو غانم وغيرهم.

كما برز في مدينة القدس العديد من العلماء في مجالات تعدت مجال العلوم الدينية، ومنهم أبو شامة المقدسي صاحب كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين"، وابن

سرور المقدسي صاحب كتاب مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ومجير الدين الحنبلي صاحب كتاب "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل". وفي العلوم التطبيقية العلمية، برز في مجال الرياضيات موسى بن محمد الخليلي شرف الدين، صاحب كتاب "تلخيص في معرفة أوقات الصلاة وجهة القبلة عند انعدام الآلات"، وجمال الدين يوسف بن أحمد بن عبد الهادي صاحب كتاب "الإتقان في أدوية اللثة واللسان".

ولا يكاد يخلو علم من العلوم المعروفة آنذاك إلا ونجد عدداً من المشاركين والمؤلفين فيه من علماء القدس ومحيطها.

ونختم ذلك بالإشارة إلى أن علماء بيت المقدس تعددت أدوارهم ومشاركتهم في التدريس والتأليف لتشمل بأن يكون لهم مواقف حيال جوانب الحياة المختلفة الخاصة بمدينتهم وبمحيطهم الإسلامي، فنراهم مراقبين لجوانب الحياة المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فقاوموا الظلم ونبهوا على مواطن الخلل، وهكذا كان دأبهم بعدم الوقوف سلباً إزاء المشاكل التي تظهر في مجتمعهم، فكان لهم رأي فيما يخص دينهم ودنياهم في فهم واضح لدور العالم ومسؤوليته في مجتمعه.

كما يجب أن يشار هنا إلى أن النهضة العلمية والثقافية في مدينة القدس لم تكن من صنع طيف واحد من سكانها بل هي نتيجة مشاركة جميع أبنائها مسلمين ومسيحيين في ظل أجواء التسامح والتفاعل التي غلبت على مدينة القدس في العصور الإسلامية.

وقد استمرت مدينة القدس مؤدية لرسالتها الثقافية في وقت تراجعت فيه مراكز أخرى في بلاد الشام خلال عصر دولة المماليك، وقد كان وراء هذا الاستمرار العديد من الأسباب يمكن أن نذكر منها:

- **العامل الديني:**

وهو العامل غير القابل للتراجع، فقد احتفظت مدينة القدس بقدسيتها منذ

اللحظات الأولى لانطلاق الدعوة الإسلامية وهي مستمرة إلى قيام الساعة، وهذا العامل جعلها في كل العصور مهوى أفئدة المسلمين بغض النظر عن أوطانهم أو مذاهبهم، ودعم هذا العامل في القدس مقارنة مع أماكن مقدسة أخرى طبيعة القدس ومناخها وإنتاجيتها كما أنها حازت على قدسية واحترام أتباع ديانات أخرى وهذا تفرد للقدس قل نظيره في أي مدينة في العالم.

- **العامل الأمني والسياسي:**

فمدينة القدس تخلصت من الاحتلال الصليبي أسبق من العديد من المدن الأخرى، كما أنها كانت بمنأى عن أخطار أحاقت بمدن إسلامية أخرى في بلاد الشام، فهي لم تتعرض لهجمات المغول في غزواتهم في عهد هولاكو خان سنة ٦٥٨هـ وغزو غازان سنة ٦٩٩هـ، وأخيراً غزوات تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ، كما أنها كانت ملجأ للعديد من العلماء وطلاب العلم الذين وفدوا إليها بعد أن تعرضت بلادهم لهذه الغزوات فاستقبلتهم مدينة القدس –كعهدها دائماً– بالترحاب وشاركوا مساهمين في نهضتها العلمية والثقافية.

كما ساعد في ازدهار ذلك في العصر المملوكي موقعها المتوسط بين العاصمتين السياسيتين والثقافيتين للدولة المملوكية وهما القاهرة ودمشق.

- **العامل الإداري:**

حيث حصلت القدس في عهد دولة المماليك على استقلالية إدارية و لم تعد تابعة لدمشق أو غيرها، فأصبحت نيابة مستقلة ويكون أمر التولية عليها من اختصاصات السلطان المملوكي في القاهرة، وأصبحت مركز حكم لتتمتع بأهمية سياسية إلى جانب أهميتها الدينية والاقتصادية والثقافية. ومما لا شك فيه أن ذلك انعكس إيجاباً على إنجازات مختلفة في مدينة القدس والنواحي التابعة لها.

وهكذا نجد أن مدينة القدس قد لعبت دورا مهما في حقول الثقافة المختلفة، هذا الدور الذي يتماشى مع أهميتها الدينية ومكانتها لدى المسلمين وأتباع الديانات الأخرى. ووضح أن الازدهار الثقافي والعلمي في مدينة القدس تمحور في البداية حول معهدها العلمي والديني الأول وهو المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وتتابع بمؤسسات أخرى كالكتاتيب والزوايا وأخيرا المدارس. وأن أية إحصائية للمؤسسات العلمية في القدس في عصورها المختلفة قياسا إلى عدد السكان سيكون لصالح أن الحركة الثقافية كانت زاهرة في هذه المدينة في معظم عصورها الإسلامية، ولا شك أن هذا التعدد في المؤسسات والتنوع في الثقافات نابع من أهمية القدس وموقعها وطبيعة تركيبتها السكانية.

وثبت لنا أن مدينة القدس ونهضتها العلمية والثقافية كانت دائما أقوى من كل محاولات المحتلين وأصلب في مواجهة من يخونها، كما ظلت عصية على من يحاول تزوير تاريخها أو تشويه صورتها العربية الإسلامية. كما أن ما حققته القدس من نهضة لم يكن محصورا بجهود أبنائها بل هي مشاركة من جميع العرب والمسلمين. وحين ضعفت القدس واحتلت لم يكن ذلك من جراء تقصير من سكانها أو سكان فلسطين بل كان نتيجة ضعف وتخاذل من أطراف عربية وإسلامية عدة.

وبعد،

فالقدس في يومنا المعاش يشتد بها الطوق، وصيحات الألم والحزن تنبعث من كل شارع وحارة في القدس. الحقد والقتل والعنصرية هي التي تسود في القدس في ظل أبشع احتلال عرفه التاريخ. القدس تطمس معالمها التاريخية ويغيب عنها التسامح في ظل حقد صهيوني لم تعرف البشرية مثيلا له، يحصل ذلك في ظل صمت مريب من القريب والبعيد.

ولكن القدس مدينة الصلاة والتاريخ والعلم والتراث يجب أن تبقى عربية

إسلامية. ربما يكون ذلك حين نتعلم درس التاريخ الذي يقول أن ازدهار القدس ونجاحها في أداء الثقافية الإنسانية، كما أن النجاح بكل أشكاله لمنطقتنا مرهون بوحدتها، فالنصر على الصليبيين والمغول والحفاظ على القدس مؤدية لدورها لم يكن إلا بوحدة مصر والشام، وبالمقابل فإن الفشل الذي عانت منه المنطقة الإسلامية وجعل القدس تخضع للاحتلال الصليبي كان بسبب الفرقة والتشرذم وحالنا من ضياع فلسطين وتهويد القدس لا يخرج عن هذا الإطار.

مصادر البحث ومراجعه

١- الأصفهاني، عماد الدين: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

٢- ابن أبي أصيبعه، أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

٣- الإمام، رشاد: مدينة القدس في العصر الوسيط، تونس ١٩٧٦.

٤- بكار، يوسف: بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، م١، عمان، ١٩٨٣.

٥- التازي، عبد الهادي: حي المغاربة في القدس، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، م١، ع٣، بغداد ١٩٧٢.

٦- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: فضائل القدس، حققه وقدم له جبرائيل سليمان جبور، دار الأوقاف الجديدة، بيروت ١٩٧٩.

٧- حمارنة، سامي: الطب العربي في فلسطين زمن الفاطميين والأيوبيين، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، م٢، عمان ١٩٨٣.

٨- الحنبلي، ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق حامد الفقي، القاهرة.

٩- الحياري، مصطفى: القدس تحت حكم الصليبيين، في كتاب: القدس في التاريخ تحرير كامل العسلي، عمان ١٩٩٢.

١٠- الخالدي، أحمد سامح: رجال الحكم والإدارة في فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرن الرابع عشر الهجري، المطبعة العصرية، القدس (ب.ت).

١١- الخالدي، أحمد سامح: أهل العلم والحكم في ريف فلسطين، عمان ١٩٦٨.

١٢- ابن خلكان، أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، ٨ج، تحقيق إحسان

عباس، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٨-١٩٧٢.
١٣- خليل، عماد الدين: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ٤٦٥-٨١٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠.
١٤- الدوري، عبد العزيز: القدس في الفترة الإسلامية الأولى من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر، في كتاب: القدس في التاريخ ، تحرير كامل العسلي، عمان ١٩٩٢.
١٥- زيادة، نقولا: عالم العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٤.
١٦- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل: الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجليل بيروت، (ب.ت).
١٧- العارف، عارف: تاريخ القدس، دار العارف، القاهرة، ١٩٥١.
١٨- عباس، إحسان: الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٨٣.
١٩- العبدري، محمد بن محمد الحيحي: رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ٦٨.
٢٠- عبد المهدي، عبد الجليل حسن: المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ٢ج، عمان ١٩٨١.
- الحياة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٨٠.
- العلوم الدينية واللسانية في ظل المسجد الأقصى في العصر الأيوبي المملوكي، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، ص١، عمان ١٩٨٣.
٢١- عبد المهدي، عبد الجليل حسن: بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، دار البشير، عمان ١٩٨٩.
٢٢- العسلي، كامل جميل: معاهد العلم في بيت المقدس، عمان ١٩٨١.
- وثائق مقدسية تاريخية، عمان، ١٩٨٣.
- الأوقاف والتعليم في القدس، في كتاب الحضارة الإسلامية ، ج٣، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت عمان، ١٩٨٧.

- القدس في التاريخ، منشورات الجامعة الأردنية ١٩٩٢.
٢٣- العلمي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد: الأنس الجليلي بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان ١٩٨٧.
٢٤- علي، السيد علي: القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع (ب.ت).
٢٥- العمد، هاني صبحي: معجم النابهين في جنوب بلاد الشام، عمان ١٩٨٥.
٢٦- عمرو، يونس: رقوم المسجد الأقصى، في كتاب: القدس دراسات فلسطينية إسلامية مسيحية، منشورات مركز اللقاء للدراسات الدينية، القدس، ١٩٩٦.
٢٧- العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩٢٤.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٨٥.
٢٨- عوض، محمد مؤنس: الحروب الصليبية –دراسات تاريخية ونقدية- عمان ١٩٩٩.
- الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام ، عين للبحوث والدراسات الإنسانية ١٩٩٥.
٢٩- غوانمة، يوسف: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياه، عمان ١٩٨٢.
٣٠- الفيتري، يعقوب: تاريخ بيت المقدس، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي دار الشروق، عمان ١٩٩٨.
٣١- كفافي، زيدان وآخرون: القدس عبر التاريخ، منشورات جامعة اليرموك- قسم التاريخ، ٢٠٠٠.
٣٢- كوهين، أمنون (محرر): القدس ، دراسات في تاريخ المدينة، القدس ١٩٩٠.
٣٣- لي سترانج، غوي: فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمود عمايرة، وزارة الثقافة والإعلام، عمان ١٩٧٠.
٣٤- المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة المثنى، بغداد (ب.ت).

٣٥- محاميد، حاتم محمد: التطورات في التعليم والمدارس في القدس خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، يوم القدس، الندوة الرابعة، جامعة النجاح، ١٩٩٨.

٣٦- ناصر خسرو، علوي: سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥.

٣٧- النعيمي، عبد القادر بن محمد: الدارس في تاريخ المدارس، نشر وتحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٨-١٩٥١.

٣٨- اليراسطي، محمد بن أحمد: فضائل البيت المقدس، تحقيق أ، حسون القدس ١٩٧٩.

٣٩- اليعقوب، محمد أحمد سليم: ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ٢ج، منشورات البنك الأهلي الأردني، عمان ١٩٩٩.

ملكية الأرض والأوقاف في القدس الشريف

مع مطلع العهد العثماني

(٩٢٢هـ/١٥١٦ - ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م)

د. هند أبو الشعر

جامعة آل البيت

ملكية الأرض والأوقاف في القدس الشريف مع مطلع العهد العثماني

(٩٢٢هـ/١٥١٦ - ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م)

مدخل:

ابتداء، فإن تناول هذا المحور يحتاج إلى دقة وجدية وصبر، ويتطلب من الباحث سعة الإطلاع على المصادر المبكرة، ومقارنتها واستنطاقها بروية، لتتوفر له المقدرة على قراءة الجزئيات والتفاصيل بعمق وبخاصة موضوع الضرائب، ويجب عليه أن يحصل على دربة كافية بالتعامل مع السجلات المبكرة (دفاتر المفصل والإجمال وسجلات المحاكم الشرعية) وأغلبها مدون باللغة العثمانية، وهي أمور تحتاج إلى زمن لم يتوافر لهذه الورقة، لذا فإنني سأحددها بمرحلة زمنية مبكرة لا تتجاوز الثمانين عاما، ما بين سنوات ٩٢٢هـ/ ١٥١٦ - ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م.

ظهرت دراسات عثمانية تعتمد السجلات المبكرة لناحية القدس في العقدين الماضيين(١)، وباتت إمكانية دراسة ملكية الأرض والأوقاف بمنهجية أكاديمية متوفرة،

(١) راجع الدراسات التالية: محمد أحمد سليم اليعقوب، **ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي** (ج١-٢) ط١، عمان، ١٩٩٩م، منشورات جامعة آل البيت والبنك الأهلي الأردني (رسالة قدمت استكمالا للحصول على درجة الماجستير في التاريخ من الجامعة الأردنية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م بإشراف الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت) وسيشار إليها لاحقا: اليعقوب، ناحية القدس.وانظر: زياد عبد العزيز المدني، **مدينة القدس وجوارها خلال الفترة ١٢١٥-١٢٤٥هـ/١٨٠٠-١٨٣٠م**. ط. أولى، عمان، ١٩٩٦م. منشورات جامعة آل البيت وبنك الأعمال (رسالة قدمت استكمالا للحصول على درجة الدكتوراة في التاريخ من الجامعة الأردنية، بإشراف الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت) وسيشار إليها لاحقا: المدني، مدينة القدس. وانظر: سلامة صالح النعيمات، **القدس في القرن الثامن عشر**، عمان، ١٩٨٣م (رسالة قدمت للحصول على درجة الماجستير من قسم التاريخ بالجامعة الأردنية، إشراف الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت) وسيشار إليها لاحقا: النعيمات، القدس.

اعتمادا على أرشيف رئاسة الوزراء في اسطنبول[١]، وعلى وقفيات وثائق الحرم القدسي الشريف[٢]، وسجلات المحاكم الشرعية[٣]، إلى جانب كتب التاريخ المعاصر والتراجم ورحلات الحج، وهي حصيلة ثمينة تضع بين أيدي الباحثين مادة تفصيلية مباشرة، تعمق الإحساس بشخصية المدينة المقدسة، وتدرس تفاصيل المكان بدقة ومصداقية، وتقدم إحصاءات مؤكدة للسكان بفئاتهم ومذاهبهم ودياناتهم وحرفهم وأحوالهم الشخصية، وتوزعهم على المحلات وتعداد مساكنهم، ودور عباداتهم وأسواقهم وخاناتهم وعدد الحمامات والأفران والطوابين والزوايا والمدارس عندهم، كل هذه الجزئيات تعطي للدراسات الأكاديمية الجادة دور الشاهد العدل المنصف، القادر على تقديم الحقيقة التي تسند الواقع بقوة، وهو ما تحتاجه المدينة المقدسة الآن، أمام هذه الهجمة الاستيطانية البشعة، وأمام هذا التزوير المقصود للتاريخ.

الأنظمة والقوانين العثمانية المبكرة لملكية الأرض والأوقاف:

لا يمكن دراسة ملكية الأرض والأوقاف في بيت المقدس في الفترة العثمانية المبكرة، دون مراجعة النظم والقوانين التي أصدرها السلاطين الأوائل، بدءا بالسلطان

(١) يحتفظ مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية بكم وفير من مصورات هذا الأرشيف لدفاتر المفصل والإجمال. راجع: محمد عدنان البخيت، نوفان رجا الحمود، أحمد حريسات، **القدس الشريف، وثائقها وسجلاتها ومخطوطاتها المصورة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية**، عمان، ١٩٩١م. ومن المصنفات أيضا: محمد عدنان البخيت وآخرون، **الكشاف الإحصائي الزمني لسجلات المحاكم الشرعية والأوقاف الإسلامية في بلاد الشام**، ج١، منشورات مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(٢) **وثائق الحرم القدسي الشريف**، مجموعة وثائق جامعة ميغيل، كندا (١٥٠٠ وثيقة) محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية (الأشرطة: ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤). وراجع: خضر إبراهيم سلامة، **فهرست مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى** (ج١-٢) منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، عمان، ١٩٨٣م.

(3) John Mandaville, "The Jerusalem Sharia Court Records: As supplement and Complement to the Central Ottoman Archives": in : Mosh'e Ma'oz (cd.) : *Studics on Palestine During the Ottoman Period.* Jerusalcm, Hebrcw University. Institute of Asian and African Studies. 1975. p.p. 517-521.

الفاتح سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م)، فقد دخل السلطان سليم الأول بلاد الشام فاتحا، بعد معركة مرج دابق (٢٣آب/ ١٥١٦م)، ووصل دمشق في ٢٧ أيلول ٩٢٢هـ/١٥١٦م[١].

ومن المؤكد أن السلطان سليم زار القدس، وأمر بإصلاح السور، وقد استحدث قبل مغادرته بلاد الشام سُجلات تخص الأراضي الأميرية التابعة للقرى وتضم أيضا القرى والتجمعات السكانية، وتم بناء عليها تحديد الاقطاعات العسكرية[٢]، وعرفت هذه الأنظمة باسم (القانون العتيق) وسرت أحكامها على إيالة الشام بأكملها، وعين أحد القادة المحليين من المماليك وهو الأمير جانبردي الغزالي واليا، وضم إلى ولايته كلا من القدس وصفد والكرك.

وبناء على القانون العتيق، أصبحت الأرض في كل بلاد الشام (وهي أراضي خراجية) تابعة لنظام الإقطاع العسكري الذي عرفه العالم الإسلامي منذ أيام السلاجقة، وطبقته الدولة في كل إيالاتها وعددها في القرن العاشر الميلادي/ السادس عشر الميلادي، عند الفتح العثماني لبلاد الشام ٣٢ أيالة، وقد قسمت البلاد إلى ٢٥٦١ إقطاعا منها ١٠٠٦ إقطاعا في إيالة دمشق وحدها[٣]. ونص قانون نامة آل عثمان على أن في إيالة الشام دفتر خانه، ودفتر دار تيمار، وكتخدا دفتر، وأن الإيالة تتألف من عشرة سناجق[٤]، (خاص شاهي)[٥] أي الممتلكات السلطانية، وهي: القدس

(١) مقالة: The Encyclopacedia of Islam. 2nd cd. Vol. V.Al-Kuds. Goitcin. p.333

(٢) راجع: راسلة عين علي أفندي في التيمار، ترجمة وتعليق: خليل ساحلي أوغلو، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٧م. انظر:مجلد ١٤، عدد٤، ص ١٢٣، ١٣١، ١٣٢، ١٤٨، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٧، ١٩١. وسيشار إليه: رسالة عين علي، ساحلي أوغلو.

(٣) ساحلي أوغلو، رسالة عين علي، ص ١١٥-١٢٠.

(٤) راجع: سنجق في: E.I (2). Vol. IV.pp. 148-150 (Sandjak) by: Deny.J.

(٥) انظر بخصوصها: Gibb and Bowen. *Islamic Socicty and the West.* Vol. 1.pp. 46-56.

الشريف، غزة، صفد، نابلوس، عجلون، لجون، والشام، حيث يقيم الباشا، والثلاثة الباقية بالساليانة أي بالأجر[1]، ولا يوجد فيها زعامت ولا تيمار، وهي: تدمر، صيدا، بيروت. وتبعا لهذا النظام، أصبحت الأرض مقسمة إلى إقطاعات متدرجة ما بين الخاص (الممتلكات السلطانية المعروفة بخاص شاهي) وخاص ميرلو وتعطي للحكام الكبار وحكام السناجق إقطاعات عسكرية ينفقون من وارداتها، وتبلغ أكثر من ١٠٠,٠٠٠ أقجة[2]، أما الصنف الثالث فهو الزعامت[3]، وهي إقطاعات تزيد مساحتها على ٥٠٠ فدان، تعطى للضباط من السباهية[4]، والزعامات العسكرية المتوسطة، ويزيد واردها على ٢٠,٠٠٠ أقجة، ويعطى التيمار الذي يبلغ وارده أقل من ٢٠,٠٠٠ أقجة إلى أفراد الجيش من السباهية، وتتراوح مساحته ما بين ٣٠٠-٥٠٠ فدان.[5]

كانت أراضي الدولة العثمانية طوال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي مكونة من قسمين، الأول: الإقطاعات (خاص، زعامت، تيمار)، والثاني: الأراضي التي تعطي للملتزم[6] لقاء مبلغ محدد من المال لمدة سنة واحدة، يرتبط خلالها

(١)ساحلي أوغلو، رسالة عين علي، ص ١٢٠.

(٢) الأقجة هي أصغر وحدة نقد عثمانية فضية، وقد استمر التعامل بها طوال القرنين ١٦و١٧م. راجع: E.I. (2), Ak'cc. Bowen, H.,pp. 314-318

(٣) راجع: Deny, J., E.I. (2). Vol. IV.pp. 1221-1222 "Zeamet"

(٤) السباهي اصطلاح عسكري يطلق على جنود الخيالة المشاركين بالحرب مع جندهم مقابل أرض التيمار التي تعطى لهم من الدولة.

(٥) عبد الكريم رافق، "مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام في القرن السادس عشر وحتى مطلع القرن التاسع عشر"، **مجلة دراسات تاريخية**، عدد أول، ربيع ثاني، ١٤٠٠هـ/ آذار ١٩٨٠م. ص٧١. وسيشار إليه: رافق، مظاهر من الحياة العسكرية.

(٦) عبد الكريم رافق، **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث**، دمشق، ط أولى، ١٩٨٩م، ص٢٠٧. وسيشار إليه: رافق، بحوث. وايضا : إحسان النمر، **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**، ج١، مطبعة ابن زيدون، دمشق ، ١٩٣٨م، ص٢٣٠. وسيشار إليه: النمر، تاريخ جبل نابلس.

بالدفتر دار (أمين الخزينة)، وقد استمر هذا النظام حتى سنة ١٧٠٨م، عندما أصبحت هذه المهمة بيد والي الشام.[١]

يبدو أن الصلاحيات التي كانت تقوم بها العناصر الإقطاعية المحلية لدى المماليك، انتقلت بالتدريج إلى التيماريين عندما خضعت البلاد للعثمانيين، وقد اعتمدت الدولة على التيماريين ودعمتهم بالسلاح والحماية، ليحموا بدورهم إقطاعاتهم،وفوضت لهم الصلاحيات بالتدريج، وكان عليهم مهمة إعداد فرقة الجند المرتزقة للحرب، وجمع الضرائب واستغلال الأرض للزراعة.

وبعد وفاة السلطان سليم الأول، وتولي السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) عرش السلطنة، أصدر بدوره قانونا جديدا حل محل القانون السابق وعرف باسمه (قانون نامه السلطان سليمان)[٢] أو (القانون الجديد) وقد نشره محمد حلبي أفندي سنة ٩٧٤هـ/١٥٦٦م، وتم بموجبه تحديد حقوق وواجبات التيماري[٣]، والصلاحيات الموكلة إلى الأمراء الذين يحق لهم منح التيمارات[٤]، وتحديد حقوق السباهي وحقوق الرعية على أرض السباهي، حيث أكد القانون على رسوم الطابو على الأراضي المشاع والضرائب المفروضة بجزئياتها وتفاصيلها. وعند الاطلاع على قوانين آل عثمان التي جمعها عين علي (١٠٦٤هـ/١٦٥٣م) تبدو كيفية تسجيل الدولة (لنظام التيمار) ضمن (الدفتر)، فترد الإشارة إلى أراض (خارج الدفتر) أي الأراضي التي لم يتم ضبطها وتسجيلها، إذ أن القانون نص على أنه: (أية قرية أغفلت و لم تسجل في

---

(١)عبد الكريم رافق، "الفئات الاجتماعية وملكية الارض في بلاد الشام في الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادي"، **دراسات تاريخية** (ندوة ملكية الأرض) ص ص ١١٤-١١٦. وسيشار إليه، رافق، الفئات الاجتماعية.

(٢) ساحلي أوغلو، "قانون نامه آل عثمان"، (ترجمة)، **مجلة دراسات**، مجلد ١٣، عدد رابع، ص ص ١٣٦-١٤٢، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٦م، وسيشار إليه: ساحلي أوغلو، قانون نامه آل عثمان.

(٣) ساحلي أوغلو، **قانون نامه آل عثمان**، ص١٣٧.

(٤) ساحلي أوغلو، **قانون نامه آل عثمان**، ص١٣٨.

دفتر الإجمال، و لم تعط تيمارا لأحد، فهي خارجة عن الدفتر بالنسبة للدفاتر القديمة، ومن اطلع عليها بعد تسليم الدفتر وكان راغبا فيها، فإذا طلبها وحصل على براءة بها، فهي حق له، لأنها شاغر (محلول)، فإن لم يتصرف بها أحد. ضبطها أمناء الوقف.[1]

أعطت الدولة للسباهية صلاحيات واسعة وفوضتهم الحق بمنح سندات خصوصية مشروطة[2]، تتيح لصاحبها حق الاستثمار طوال حياته، على أن تعود الأرض بعد وفاته إلى أصحاب التيمار والزعامات، الذين يحيلونها بموجب سند جديد إلى أولاده[3]، أي أن السباهية هم السلطة الأقوى على الأرض، يحددون الضرائب ويجمعونها. إلا أنه وبمطلع القرن السابع عشر الميلادي، منحت الدولة لموظفين غير حكوميين من الزعامات المحلية المتصارعة المعروفين (بالمقاطعجية) صلاحية جمع الضرائب والجباية، ومع توسع صلاحيات هؤلاء المقاطعجية منحتهم الدولة حق منح (الرعايا) سندات تملك داخل التيمارات (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م-١٢٦٣-١٨٤٦م)، معنى هذا إضعاف سطوة التيماريين، حيث أصبح الملتزم أو المحصل هو الجهة الوحيدة لمخولة بمنح سندات الملكية. وزيادة في تعزيز موقعهم، منحتهم الدولة إقطاعات تدوم مدى الحياة (مالكانات)[4]؛ إلا أنه ومع بداية عام ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م أوقفت الدولة كل هذه الصلاحيات، وأبطلت دور الملتزمين، وأسست (الدفتر خانه) التي أصبحت الجهة الوحيدة المسؤولة عن منح السندات. ومعنى هذا أن الدولة العثمانية أحلت سلطة الملتزم محل سلطة السباهي، لكنها ألغت نظام التيمار سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م، وأضعفت بعدها سلطة الملتزم وقام السلطان سليم الثالث (١٢٠٤هـ/١٧٨٩م-١٢٢٢هـ/١٨٠٧م) بالاستيلاء على الإقطاعات المنحلة التي يموت أصحابها لمصلحة

(١) ساحلي أوغلو، عين علي أفندي، ص ص ١٩٨-٢٠٢.

(٢) دعيبس المر، أحكام الأراضي المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطة العثمانية، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٣م، ص ص ١٤١-١٤٢. وسيشار إليه: المر، أحكام الأراضي.

(٣) المر، أحكام الأراضي، ص١٤.

(٤) أصل الكلمة (ملك-نامه) أي كتاب الملك وهو يورث. ساحلي أوغلو، قوانين آل عثمان، دراسات، م١٤، ج٤، ص ص ١٧٧-١٨٠.

الدولة. وقد تزامنت هذه الإجراءات الرسمية مع محاولات جريئة للزعامات المحلية، فقد قام الشيخ ظاهر العمر في فلسطين (١١٦١هـ/١٧٤٦م-١١٨٨هـ/١٧٧٤م) بتحويل جزء من الأراضي الأميرية (الميري) إلى ملكيات خاصة ووزع القرى على الفلاحين، وانتزعها من الشيوخ. لكن محاولته لم تدم طويلا، إذ أن أحمد باشا الجزار (١١٨هـ/١٤٧٧٤م-١٢٢٠هـ/١٨٠٥م) قضى عليها بعد قضائه على الشيخ ظاهر العمر نفسه. إلا أن محاولة أكثر جرأة وتنظيما ظهرت في بلاد الشام بعد أربعة وثلاثين عاما، فقد قام محمد علي باشا سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م بعد استيلائه على سورية، بتسجيل الحقوق على الأرض، وتسجيل حدود الاراضي فيما عرف باسم (الجريدة) فضبط مساحاتها، وأحصى القرى الخاربة واستصلحها، وسجل التيمارات في دفتر خاص.[١] وفي العام نفسه (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) ألغت الدولة نظام التيمار[٢]، وصار السلطان هو السلطة الوحيدة المخولة بفرز الأراضي الأميرية وتمليكها (مالكانات) مقابل دفع قيمتها الحقيقية.[٣] كل هذه الإجراءات أدت إلى استصدار قانون الأراضي العثماني سنة ١٢٧٤/١٨٥٨م ضمن الدستور العثماني، وبناء عليه، ألغت الدولة كل الفرمانات والفتاوى السابقة: "... إنه الدستور الذي يمحو الفتاوى والأقلام الشاهانية والمحاكم والمجالس جميعا والنظامات والقوانين القديمة المختصة بالأراضي الأميرية...".[٤]

هذا هو الإطار النظري لملكية الأرض في ظل الدولة العثمانية، والذي تترجمه دفاتر التحرير ودفاتر المفصل والإجمال بدقة تشعر الباحث بالاطمئنان، وتضع بين يديه ثروة حقيقية، في ظل غياب المعلومة التفصيلية في المصادر التاريخية التقليدية المعاصرة.

(١) أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، (ج١-٤)، المطبعة الأمريكية، بيروت، ١٩٤٠م. انظر: ج٣، ص١٩٦، وسيشار إليه: رستم، المحفظات.

(٢) المر، **أحكام الأراضي**، ص ١٣.

(٣) الدستور، **قانون نظامات الأراضي**، ترجمة: نقولا نقاش، بيروت، ١٨٧٣م، مطبعة الأباء اليسوعيين، ص٥٩. وسيشار إليه: الدستور، قانون الأراضي.

(٤)الدستور، **قانون الأراضي**، ص٥٨.

أما الأوقاف، فقد عرف المسلمون الوقف مبكرا، والوقف لغة، تعني الحبس[١]، وهو منع التصرف بمال، وعدم إجازة إجراء أي حق عيني عليه، على أن يخصص حق الانتفاع عند إنشائه بجهة خيرية أو ذات نفع عام، وهو الوقف الخيري أو حبسه مستقبلا لينتفع به أولاد الواقف وذريته ومن بعدهم الفقراء في حال انقراضهم، وهو ما يعرف بالوقف الذري[٢]. وقد يطلق الوقف على المال الموقوف نفسه، أو على الإجراء المتمثل بمنع التصرف بالمال. وقد ورثت الدولة العثمانية عندما فتحت البلاد العربية هذا النظام، وسجلت فقط حقوق الوقف والأراضي الموقوفة في دفاتر التحرير[٣]، أي أنها سجلت الحقوق و لم تبدلها.

تعتبر الوقفيات مصادر متميزة لدراسة التاريخ المحلي لبيت المقدس، ولحسن الحظ فقد جمع الأستاذ الراحل كامل جميل العسلي وقفيات بيت المقدس وصنفها، كما أن الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي ساهم في جمع بعضها ونشرها[٤]. ويمكن العودة إلى مجموعة الوقفيات التي يحتزز عليها مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية لبيت

---

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن محركم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م) **لسان العرب**، ج٩، مادة (وقف)، طبعة دار الفكر (مصورة عن طبعة دار صادر)، ص ص ٣٥٩-٣٦٠. وسيشار إليه: ابن منظور، لسان.

(٢) سليم حريز، **الوقف**، دراسات وأبحاث، منشورات الجامعة اللبنانية، ط. أولى، بيروت، ١٩٩٤م، ص٧. وسيشار إليه: حريز، الوقف. محمد ابشرلي ومحمد داود التميمي، **أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين**، استانبول، منظمة المؤتمر الإسلامي، نشر بدعم من مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ١٩٨٢م، وسيشار إليه: ابشرلي، الأوقاف. وراجع: M.A. Bakit, *The Ottoman Province of Damascus in the Sixteenth Centurys*. Luibrairic du Liban. Beirut. 1981. P.147. وسيشار إليه لاحقا: Bakit. The Ottoman Province

(٣) أبشرلي، **الأوقاف**، المقدمة، ص (ز). وراجع: E.I.I. Vot. IV.pp. 1096-1103.Wakf. By Heffening

(٤) كامل جميل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، (ج١-٣) منشورات الجامعة الأردنية، عمان، (١٩٨٣-١٩٨٩م) وسيشار إليه: العسلي، وثائق مقدسية. وانظر أيضا: عبد اللطيف الطيباوي، **الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس، اصلها وتاريخها واغتصاب إسرائيل لها** (بالإنجليزية) ترجمة إلى العربية: عزت جرادات، منشورات وزارة الأوقاف الإسلامية، عمان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، وسيشار إليه: الطيباوي، الأوقاف الإسلامية. وانظر: عبد اللطيف الشريف، **في تاريخ العرب والإسلام**، منشورات وزارة الأوقاف الأردنية، عمان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، وسيشار إليه: الطيباوي، القدس الشريف.

المقدس[1] لتكوين تصور تفصيلي ودقيق للأوقاف المقدسية ودراستها بحيث تتناول دقائق الحياة في بيت المقدس، بدءا بأسماء القضاة ورتبهم ومذاهبهم وأصولهم، وانتقالا إلى الواقف نفسه بأصوله ومذهبه وألقابه الرسمية والطريقة الصوفية التي ينتسب إليها ورتبته العسكرية. وينطبق الأمر على الشهود الذين ترد أسماؤهم في ذيل الوقفية، حيث تسجل صفات الشهود، وهي فرصة للباحث لتحليل الواقع الاجتماعي وقراءته مباشرة في ظل غياب معلومات المؤرخ التقليدي. كما أن الإجراءات المتبعة لتسجيل الوقف، وتحديد المواد الموقوفة، والتعريف بها، تمثل فرصة ذهبية أمام الباحث لقراءة المرافق في المدينة المقدسة، ومتابعة عمارتها، إضافة إلى متابعته لأسماء نظار الوقف والإجراءات المتلاحقة على الأوقاف في بيت المقدس.

هذه المقدمة النظرية ضرورية قبل انتقالنا لقراءة ملكية الأرض والأوقاف في بيت المقدس ما بين ٩٢٢هـ/١٥١٦م و ١٠٥٥هـ/١٥٩٦م. إذن، ماذا وجد العثمانيون من حقوق على أرض الواقع في بيت المقدس سواء في موضوع ملكية الأرض أو حقوق الوقف وماذا استحدثوا هم بالمقابل من إجراءات؟

ملكية الأراضي في ناحية القدس الشريف:

لا بد من التأكيد ابتداء على أن نظام الإقطاع العسكري (التيمار) يجعل من دراسة الأملاك في القدس الشريف نفسها مسألة صعبة، فما يورد دفتر طابو ٥١٦ يوسع الإشارات إلى الناحية بقراها وأقسامها الإدارية، وعند مراجعتنا لمادة الدفتر، وجدنا أن أراضي الملك ضئيلة جدا، وأن غالبية أراضي الناحية تندرج تحت الأصناف التالية وذلك سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٥م:

(١) وثائق الحرم القدسي الشريف، مجموعة وثائق جامعة ميغيل، كندا (١٥٠٠ وثيقة) محفوظة على أشرطة في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية (اشرطة رقم ٨٣١،٨٣٢،٨٣٣،٨٣٤).

أولا: أراضي الخاص شاهي (الأملاك السلطانية) التي غنمها السلطان العثماني من المماليك بعد الفتح، وهي في تصرف السلطان يمنح منها الإقطاعات (التيمارات) للعسكريين حسب إرادته السنية، وفيما يلي قائمة بأراضي الأملاك السلطانية في ناحية القدس الشريف.

الرقم	اسم الموقع	رقم الصفحة بالسجل	نوع الملك
١-	قرية بريكوت	٢٠	-
٢-	قرية علار السفلى	٢٠	-
٣-	قرية ساريس	٢٠	-
٤-	قرية دير صالح	٢١	(خاص شاهي تماما)
٥-	قرية بيت عور الفوقا	٢١	(خاص شاهي تماما)
٦-	قرية عارون	٢٢	وقف خاص شاهي
٧-	قرية عبوين	٢٢	-
٨-	قرية بيت سقيا	٢٢	-
٩-	قرية سامية	٢٣	خاص شاهي
١٠-	قرية قبليه	٢٢	خاص شاهي
١١-	قرية زانوع	٢٣	خاص
١٢-	قرية بيت نوبا	٢٣	-
١٣-	قرية عين توت	٢٣	خاص شاهي
١٤-	قرية مناصر	٢٣	-
١٥-	قرية شموبل	٢٤	خاص
١٦-	قرية قطنية	٢٤	خاص
١٧-	قرية دوير	٢٧	خاص
١٨-	قرية دير شيخ	٢٧	خاص
١٩-	قرية بيت دقو	٢٧	خاص

بلغ عدد المزارع التابعة للخاص شاهي (خاص) ٧٢ مزرعة[1]، و٦ قطع خاص

(١) دفتر طابو ٥١٦، ص ص ٢٤-٢٨. والمزرعة لا يحدد الدفتر عدد سكانها،، مما يشير إلى أنها مناطق زراعية غير مأهولة بالسكان.

جديد، إضافة إلى ١٢ قطعة أرض أيضا[١]، وهي تمثل مساحات كبيرة من مجموع مساحة أراضي ناحية بيت المقدس، وتؤكد على تخصيص السلاطين أنفسهم بإقطاعات جديدة.

أما الصنف الثاني من أصناف أراضي ناحية القدس الشريف فهي أراضي الإقطاع العسكري (خاص أمير لواء وقرى زعامت وقرى تيمار) وكل هذه الأصناف مسجلة في الدفتر ومحررة بحيث يبدو من متابعتنا لها، أنها تدفع الضرائب بقيمة محددة، وفيما يلي جدولة للمادة من دفتر الطابو ٥١٦ لأراضي الإقطاعات العسكرية (خاص اميرلوا، زعامت، تيمار).

ثانيا: خاص ميرلوا

ت	اسم القرية	رقم الصفحة بالسجل
١-	قرية حي	٣٠
٢-	قرية سنجل	٣٠
٣-	قرية دير بني عبيد	٣٠
٤-	قرية كفر مالك	٣١ وقف خاص ميرلوا
٥-	قرية كوير	٣١ خاص ميرلوا
٦-	قرية جفنة النصارا	٣١
٧-	قرية نيبا	٣١
٨-	قرية دير أو مشعل	٣٢
٩-	قرية بيت نتيف	٣٢
١٠-	قرية بيت تعمر	٣٢
١١-	قرية بيت ايللو	٣٣
١٢-	قرية جمالا	٣٣

وهناك إشارة إلى وجود ست مزارع في الدفتر منحت إلى ميرالايات باعتبارها

(١) دفتر طابو ٥١٦، ص١٧، ص ص ٢٦-٢٧.

إقطاع برتبة خاص ميرلوا[١]، إضافة إلى تخصيص رسوم عربان مرازق أيضا لإقطاعات خاص ميرلوا في هذه الفترة.[٢]

ويلاحظ أن بعض هذه الإقطاعات هي من أراضي الوقف، إلا أن هذا لم يغير من وضعها، فقد بقيت حتى أراضي الوقف وأقطعت في الوقت نفسه (خاص ميرلوا) كما حدث مع قرية كفر مالك المار ذكرها.[٣]

ثالثا: الزعامت

ذكر الدفتر بالتفصيل أسماء الذين منحوا إقطاعات في ناحية بيت المقدس برتبة (زعامت) وأشار إلى القرى التي شملها هذا الإقطاع، فمن الذين منحوا الإقطاع برتبة زعامت، بنام بيرام بك وبنام محمد،[٤] أما القرى الممنوحة إقطاع زعامت فهي، قرية بيت ساحور النصارا[٥]، قرية صوبا[٦]، قرية حوسان[٧]، قرية بدو[٨]، قرية يبرود[٩]، قرية قبوي فوقاني وتحتاني[١٠]، قرية خربة بني عدس[١١]، قرية خربة بني سباع[١٢]،

---

(١) راجع دفتر ٥١٦، ص٣٤.

(٢) دفتر ٥١٦، ص٣٤.

(٣) دفتر ٥١٦، ص٣١.

(٤) دفتر ٥١٦، ص٣٤،٣٦،٣٧،٣٨.

(٥) دفتر ٥١٦، ص٣٤.

(٦) دفتر ٥١٦، ص٣٤.

(٧) دفتر ٥١٦،ص٣٤.

(٨) دفتر ٥١٦،ص٣٦

(٩) دفتر، ٥١٦، ص٣٦.

(١٠) دفتر ٥١٦، ص ٣٧.

(١١) دفتر ٥١٦، ص٣٧.

(١٢) دفتر ٥١٦، ص٣٧.

قرية بير زيت[1]، وقرية مخماس[2]. ويلاحظ أن مجموع ضرائب القرى التي يتولاها سباهية أقل رتبة من الزعامت، و لم نعثر إلى على إشارة واحدة لمنح قرية من أراضي الوقف لإقطاعي من فئة الزعامت.

رابعا: التيمار[3]:

أشار السجل إلى عدد كبير من التيمارات ما بين قرى ومزارع وأراضي، واستطعنا أن نحصي ٥١ قرية مشمولة بإقطاع التيمار، و ٣٩ مزرعة، وقطعتي أرض. ومن القرى المذكورة: قلندية، جبعا البطيخ، ارطاس، بيت صفافا، دير سودان، تل أبو زعرور، صردا، رام، عطارة، كفر توت، بيت عور السفلى، علميت، عجول، أم طوبي، كفر عقب، كفرشوع، بيرنباله، دير العظام، طورة الجوز، بيت فجوس نحالين، مالحة الصفري، بيت ساحور الوادي، بيت سوريك، ديربان، حزمة، كفر صوم، كفر نعمه. أما الذين منحوا التيمارات في هذه القرى والمزارع والأراضي، فقد وردت أسماء بعضهم تامة، في حين أشار السجل إلى الأسماء الأولى من أصحاب التيمار. وكان بعض الذين منحوا هذه التيمارات من أصحاب الرتب العسكرية الكبيرة مثل مصطفى ميرالاي لواء لجون، (مصطفى أوركوب)، وفرخ سر عسكر. وبالمقابل وردت أسماء رتب عادية مثل أحمد قراكوز، ومحمد ديوانه، وعلى أحمد بك، وصالح، ويوسف، وكيوان، وحسن، ومحمد بن عبد الله ودرويش. وكانت هناك إشارة توحي بأن صاحبها من بقايا عناصر المماليك واسمه توخته باي.[4]

(١) دفتر ٥١٦، ص٣٧.

(٢) دفتر ٥١٦، ص٣٨.

(٣) راجع الدفتر: ص ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٨،٤٩،٥٠، ٥١، ٥٢،٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦،٥٧، ٥٨، ٥٩.

(٤) دفتر ٥١٦، ص ٥٦.

الأملاك: ونعني بـها الأراضـي المقامـة عليـها بيـوت أهـالي ناحيـة بيـت المقـدس، وتحيطها مساحات محدودة جداً، تعرف باسم (الحاكورة)، ويبـدو من قراءتنـا لسـجل الطابو، أن عدد الحواكير في المدينة نفسها محدود جداً، فقد ورد ذكر لحـاكورة واحـدة في حد أرض قريبـة مـن بـاب العمـود[1]. وبالمقـابل، ورد ذكـر لأمـلاك المقادسـة مـن دكاكين موقوفة على الصخرة المشرفة[2]، وخان الفحم[3]، وكـروم الزيتـون[4] كذلـك ذكرت أربعة حمامات هي: وصمام يعرف باسـم أحمـود[5]، وحمـاد السـت[6]، وحمـام الشعان[7]، وحمام داود في محلة اليهود[8]. وبصورة عامة، فقد كان ذكر الأمـلاك قليـلاً في السجل قياسا بما تحتويـه سـجلات المحـاكم الشـرعية والوقفيـات مـن مـادة واسـعة. ويمكن إحصاء أراضـي الملـك بقـراءة مدققـة لإعـداد البيـوت (الخانـات) الـتي أوردهـا السجل لحارات ومحلات مدينة بيت المقدس نفسها وهي كالآتي[9]:

(١) دفتر ٥١٦، ص١٨.

(٢) دفتر ٥١٦، ص١٨.

(٣) دفتر ٥١٦، ص١٨.

(٤) دفتر ٥١٦،ص١٨.

(٥) دفتر ٥١٦، ص١٨.

(٦) دفتر ٥١٦، ص١٨.

(٧) دفتر ٥١٦، ص١٨.

(٨) دفتر ٥١٦، ص١٨.

(٩) نستثني من ذلك ما أورده السجل عن المجردين أي العزاب والمسحين والعميان، ولا نعتبرهم أصحـاب خانـات لغرض الإحصاء فقط.

ت	المحلة	عدد البيوت
١-	محلة السوق	٣٧٩
٢-	محلة باب القطانين	١٦٦
٣-	محلة الريشة	١٨٩
٤-	محلة المغاربة	١٣٠
٥-	محلة باب العمود	٣٨٦
٦-	محلة عقبة الست	٥٠
٧-	محلة باب الحطة	٣٠٨
٨-	جماعة الأيوبيين من أجناد حلقة في باب الحطة	١٩
٩-	محلة الزراعنة	٣٠٤
١٠-	جماعة الملكية النصارا	٩٩
١١-	جماعة نصارا ملكية/ طائفة الروم	٢١
١٢-	طائفة بلدانية/ نصارى الروم	٢١
١٣-	طائفة النصارى من أهل الخليل المقيمين بالقدس	٧
١٤-	جماعة النصارى من أهالي بيت جالا المقيمين بالقدس	٢٢
١٥-	جماعة نصارى من أهالي بيت لحم مقيمين بالقدس	٢٢
١٦-	جماعة اليهود في محلة الريشة	٥٥
١٧-	جماعة المحلة الوسطى	٤٦
١٨-	جماعة يهود مملكة الشرق	١٤٦
١٩-	نصارى السريان	١٨
٢٠-	جماعة الأرمن	٣١
٢١-	جماعة دير زيتون	٧
٢٢-	دير الدرياس	٧
٢٣-	الأقباط	٥٣
٢٤-	جماعة الروم قرب بحر لوط	٣١
٢٥-	جماعة الكرج النصارا	١٥
٢٦-	جماعة الأفرنج النصارا	١٨
٢٧-	جماعة دير قمام الروم	٧
٢٨-	جماعة دير مارالياس	٣
٢٩-	جماعة الأحباش	٢٠

هذه الإحصائية لخانات مدينة بيت المقدس مع مطلع العهد العثماني، تدل على التنوع السكاني، وعلى الأغلبية المسلمة التي تمثل مجموع أهالي المدينة. ويمكن من خلال قراءة الأسماء الواردة بتأن معرفة أصول العائلات، فقد وردت إشارات إلى المصري[١] وغالبا ما يشار إليهم بلقب حاج[٢]، أو الشامي[٣]، أو الرومي[٤]، أو سلاوي[٥]، أو مغربي[٦]، أو عجمي[٧]. كما أشار السجل إلى الحفاظ من بين الأهالي[٨]، وإلى خدام الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى، وذكر قيم المسجد الأقصى وحافظ الأقصى أيضا.

ويبدو من القراءة لإحصائية الخانات في منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، أن بيت المقدس شهدت تزايدا سكانيا واضحا، فبعد أن كانت أعداد الخانات فيها سنة (٩٣٢هـ/١٥٢٥م) ٩٣٤ خانة، أصبح العدد مع هذا السجل (٩٦٣هـ/١٥٥٥م) ٢٤٣٣ خانة في حال استبعادنا للمجردين أي العزاب، والذين تستدعي أحوالهم الإعفاء من الضرائب، كأن يكونوا مكسحين أو عميان أو معتوهين.[٩]

(١) سجل ٥١٦، ص٥ ، ٦، ٨، ١٠.

(٢) ن.م، ص٥.

(٣) ن.م، ص٦.

(٤) ن.م، ص ٦، ٩، ١٠.

(٥) ن.م، ص٨.

(٦) ن.م، ص٩.

(٧) ن.م، ص١٠.

(٨) ن.م، ص١١.

(9)Bernard Lewis, "Studies in the Ottoman Archives, l, in, Classical and Ottoman Islam (7th – 16th Centuries". *BSOAS.XVI*/3. pp. 469-501, 1975..

الأوقاف الإسلامية في بيت المقدس (٩٢٢هـ -١٥١٦م- ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م):

ابتداء، فإننا سنقصر قراءاتنا على الأوقاف الإسلامية في هذه الورقة، ولا بد من التأكيد على أن الدولة العثمانية لم تغير في نظام الأوقاف أو في وضع أملاك الأوقاف (الخيري والذري) التي وجدتها على الأرض عند دخولها بلاد الشام، وحرصت على فصل الأملاك الخاصة عن الأوقاف، وجعلت شيخ الإسلام هو الجهة المسؤولة عن إدارة الوقف. وقد ساهمت الوقفيات في بيت المقدس في استمرار الخدمات المقدمة للمسجد الأقصى والصخرة المشرفة، إضافة إلى تأمين الخدمات الصحية والاجتماعية لمجتمع المدينة المقدسة والمجاورين فيها والحجاج. وقد ضمنت الوقفيات الخيرية الحفاظ على طرق المياه (الأسبله) ورعاية الأيتام وضعاف الحال والفقراء، وخدمة المساجد والعلماء المجاورين والزوايا والخانقاوات وأصحابها من رجال الصوفية وطلبة العلم ونزلاء التكايا والبيمارستانات، وباقي المرافق مثل الحمامات، والأهم من هذا كله، المدارس المنتشرة في بيت المقدس[1]. وهذه الخدمات التي تقدمها الوقفيات الخيرية واضحة تماما في قراءاتنا لبيت المقدس مع مطلع العهد العثماني، إذ ساهم السلاطين في الإعمار والتحبيس، ومنهم السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) الذي جدد أسوار القدس، وعمر بركة السلطان جنوبي باب الخليل، وسبل المياه في طريق الواد وساحة الحرم، ورقم جدران الحرم القدسي وقبة الصخرة المشرفة، في حين ساهمت زوجته (خاصكي سلطان)[2] ببناء تكية عرفت باسمها (تكية خاصكي سلطان)،

---

(١) راجع دراسة محمد اليعقوب، **تاريخ ناحية القدس**، ج٢، ص٣٠٥-٣٤٧، للمدارس، الزوايا، التكايا، المكتبات.

(٢) وهي روسية الأصل، وسميت (خاصكي سلطان) أي محبوبة السلطان، راجع: هارولد لامب، **سليمان القانوني سلطان الشرق**، ترجمة: شكري نديم، نشر بدعم من مؤسسة فرانكلين، نيويورك، طبع بغداد، ١٩٦١م. انظر: ص ٨٩-٩٣. وسيشار إليه لامب، سليمان القانوني.

عملت على تأمين الطلبة والفقراء بالمأوى والطعام.(1)

يبدو اهتمام الدولة العثمانية بشؤون الوقف من جملة الإجراءات التي اتخذتها، ومنها إعفاء الأراضي المحبسة على الحرمين الشريفين من ضريبة العشر، ومن ضريبة عدد الأشجار(2)، وكانت تكلف متولي الوقف والنظار بإعادة الفلاحين الذين يهجرون قراهم بسبب الظلم الذي يتعرضون له، إذا كانوا قد غادروا قراهم في مدة تقل عن عشر سنوات(3). ولم تتدخل في طرق تنمية أموال الوقف، وتركت حرية الاستثمار لمتولي الوقف ونظاره، ويبدو أن بعض متولي الوقف استغلوا صلاحياتهم، ففي أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، بدأ بعض المتولين بإعطاء الأوقاف بطريقة الالتزام إلى ملتزمين، ونظام الالتزام يسوغ للملتزم دفع مبلغ معين لخزينة الدولة، مقابل جمعه للمبلغ من الفلاحين، وذلك لسنة واحدة، على ألا يجمع أكثر مما دفع(4). فمنع السلطان ذلك سنة ١٠٠٧هـ /١٥٩٨م، وأعاد للوقف هيبته.

أما الوقف الذري، فقد حمته الدولة أيضا من سطوة أصحاب السلطة، وكان غالبية الواقفين من التجار والعسكريين والمشرفين على الحرم القدسي الشريف(5). ويبدو من قراءة دفتر طابو ٥١٦، أن نسبة الوقف الخيري تفوق الوقف الذري في ناحية بيت المقدس، وربما عاد السبب إلى أن العثمانيين ورثوا نظاما غنيا بمظاهر الوقف الخيري في بيت المقدس عن العهدين الأيوبي والمملوكي. ولحسن الحظ، فقد جمع

(1) كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج١، ص ص ١٢٨-١٤٢. (عن سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل ٢٧٠، شوال ٩٦٧هـ/١٥٦٠م، ص ص ١٨-٢٧. وراجع ما كتبه ابن القيم الجوزية حول صحة هذه الوقفية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) **أحكام أهل الذمة**، (ج١-٢)، تحقيق: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، راجع: ج٢، ص ٦٥٧-٨٧٣. وسيشار إليه: ابن القيم، أحكام. وراجع أخيرا: E.I (2), Vol. V. p.333. Al-Kuds. Goitein .

(2) اليعقوب، **ناحية القدس**، ج١، ص٢٤٣.

(3) ن.م، ج١، ص٢٤٤.

(4) اليعقوب، **تاريخ ناحية القدس**، ج١، ص٢٤٥.

(5) ن.م، ج١، ص٢٤٦.

الأستاذ كامل جميل العسلي هذه الوقفيات من سجلات محاكم القدس الشرعية، ومنها وقفية صلاح الدين الأيوبي على الخانقاه الصلاحية، ووقفية السلطان الملك الأفضل الأيوبي على المغاربة (وقفية أبي مدين)، ووقف السلطان المملوكي الظاهر بيبرس على مقام النبي موسى عليه السلام، ووقف الأمير سيف الدين تنكز المملوكي على مدرسته، إضافة إلى مجموعة أخرى كبيرة من هذه الوقفيات، التي تؤرخ لجانب غني من حياة بيت المقدس في العهدين المذكورين.

الأوقاف في بيت المقدس (استنادا إلى دفتر طابو ٥١٦):

رصد الدفتر ابتداء الحصة الموقوفة على الصخرة المشرفة من الرسوم التي تتقاضاها الدولة عن المرافق في بيت المقدس ومنها[١]: محصول رسوم دار قمامة، رسم أغنام، رسم كياله، رسم قبان، رسم كراية دكاكين، رسم أحمال صابون، رسم محصول حمام، محصول طاحون، بيت مال مجاورين وأرباب وظائف، أحكار، حمام الست في باب القطانين، خان الفحم، خان شعان، حمام شعان، المصبغة، كراية زيتون، محصول ست قطع كروم، حمام داود في محلة اليهود، محصول صندوق النذور.

ويمكن رصد الأوقاف على المدارس والبيمارستانات والخانقاوات والزوايا في الدفتر وتحديدها، فقد ورد وقف على الخانقاه الفخرية[٢]، والخانقاه الجوهرية[٣]، والمدرسة الصلاحية[٤]، والمدرسة الحنفية المعظمة[٥]، مدرسة قايتباي[٦]، والمدرسة

(١) دفتر، ٥١٦،ص١٨.
(٢) دفتر، ٥١٦، ص١٩
(٣) دفتر ٥١٦، ص٣٤.
(٤) دفتر ٥١٦، ص ١٩، ٣٤.
(٥) ن.م، ص ٢٠،٢١، ٢٧، ٣٥، ٣٩، ٤٧، ٥٥، ٥٩.
(٦) ن.م، ص٢٣.

الطيلونية[١]، والمدرسة الشيخونية[٢]، والمدرسة التنكزية[٣]، والمدرسة المنجكية[٤]. وهناك إشارات للوقف على البيمارستان الصلاحي[٥]، والزاوية المهمازية[٦]، وزاوية المغاربة[٧]، وشيخ علاء الدين[٨]، ووقف رباط، وبيمارستان سنان.[٩]

كما ورد ذكر لأوقاف على القراء (قراء ماتيسر)[١٠] من السلطان جقماق، وعلى حسنية الحرمين[١١] من السلطان قيتباي، وعلى البر والصدقة[١٢]، أو على (العمارة العامرة)[١٣]. وقد حبست بعض الأوقاف على الصخرة المشرفة وخليل الرحمن وجامع المغاربة وحضرة موسى عليه السلام ولوط عليه السلام[١٤]. وكان بعض هذه الأوقاف ذريا، ويشترط صاحبه أن يوكل بعد الانقراض (على الصخرة الشريفة والمسجد الأقصى)[١٥] ولم يرد ذكر مباشر لأي وقف مسيحي إلا وقف بطريق الروم،[١٦] في حين لم ترد أي إشارة إلى أوقاف يهودية.

(١) ن.م، ص٢٩

(٢) ن.م، ص٤٩.

(٣) ن.م، ص٥٠،٥١.

(٤) ن.م، ص٥٨.

(٥) ن.م، ص١٩، ٣٤.

(٦) ن.م، ص٢٧.

(٧) ن.م، ص٤٩.

(٨) ن.م، ص٢٢.

(٩) ن.م، ص٤١.

(١٠) ن.م، ص٢٢.

(١١) ن.م، ص٣٤،٦٥، ٦٦.

(١٢) ن.م، ص٣٨.

(١٣) ن.م، ص ٦٦،٦٧، ٦٨، ٦٩.

(١٤) ن.م، ص٢٢، ٢٩، ٣٦، ٦٣، ٦٤، ٦٩.

(١٥) ن.م، ص٣٥، ٣٧.

(١٦)ن.م، ص٢٥.

أما القرى المشمولة بأحكام الوقف فهي حسبما وردت في الدفـتر: عـلار الفوقـا، علار السفلى، نحم، بيت ريمه، ابو ديس، كفر مالك، تقوع، بتير، خرب، لفتا، ولجـه، عيساوية، طيبة الاسم، جبعا البطيخ، أرطاس، عناته، عجـول، أم طوبـى، عـين كـارم، قلونيه، عين قينه، دير بزيع، بيت عنات، عين عريك، نويعمه، بيت لحـم، بيـت جـالا، ريحا، بقيع الضان، بيت نقبا، بيت اكسا، جيب، فاعور.

رصـد السـجل الأوقـاف الذريـة ومنـها: وقـف مـراد جلبي[1]، علـم الديـن أبـو شريف[2]، سراج الدين محمود[3]، محمد الهكاري[4]، عيسى الهكاري[5] وغيرهم. وقـد حبس بعضهم أملاكه على تربته ومسجده كما حدث في قريـة لفتـا[6]، في حـين نـص غالبيتهم على تحبيـس الأوقـاف علـى أولادهـم وذريتـهم مـن بعدهـم بعـد الانقـراض، ووردت إشارات محدودة إلى تحبيس الأملاك على المسجد الأقصى والصخرة المشرفة في حال الانقراض.

وأخيرا تشير الأوقاف التي ذكرها دفتر طـابو ٥١٦ إلى مراكـز حضاريـة متميزة، من مدارس وزوايا وبيمارستانات وتكايـا، وإلى مرافـق متعـددة مثـل الخـان، المعصـرة، المطحنة، الدكاكين، دار الوكالة، الصـهاريج، الحمامـات، العمـارة العـامرة، المصـابغ، ويمكن للباحث عن طريق تتبعها معرفـة مواقعـها ودورهـا في الاسـتثمار، وهـي وسـيلة مباشرة لدراسة الأوضاع الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية والسكانية بصورة تفصيلية دقيقـة، إذ أن هـذه الوقفيـات المحفوظـة في مركـز الوثـائق والمخطوطـات في الجامعـة

---

(١) ن.م، ص٢٢.

(٢) ن.م، ص٢٢.

(٣) ن.مز، ص ٢٤،٣٧.

(٤) ن.م، ص٢٢٥

(٥) ن.م، ص٣٦.

(٦) ن.م، ٣٦.

الأردنية، والوقفيات المنشورة في دراسات كامل العسلي ثروة حقيقية لإعادة كتابة تاريخ بيت المقدس، بفئاته كافة، وبمظاهره اليومية المتعددة.

وبعد،

فإن حضور هذا المكان المقدس في القلوب والوجدان، يجعل لمثل هذه الدراسات موقعا استثنائيا، وإن كنت قد شاركت بهذه الورقة البسيطة، والتي اعتبرها فاتحة لدراسات لاحقة أتمنى أن أنجزها لبيت المقدس، فإنني من موقعي هذا أدعو الزملاء من الأكاديميين المدربين للتوجه إلى الأرشيف العثماني، لدراسة بيت المقدس دراسات معمقة وموثقة، لتصبح الشاهد العدل المنصف، في خضم هذا الزمن الصعب، الذي تلاقيه المدينة الصابرة المقدسة.

القدس وسياسة الدولة العثمانية

(١٨٧٤-١٩١٨)

أ.د. عبد العزيز عوض

جامعة اليرموك

أطماع الحركة الصهيونية في القدس جزء من المخطط الصهيوني الشامل الذي جرى تنفيذه على مراحل منذ نهاية القرن التاسع عشر، ومن وسائله الهجرة الكثيفة والاستيطان الواسع ودائرة النفوذ الصهيوني التي لا تنحصر في فلسطين بل تمتد لتشمل البلاد العربية المجاورة لها بزعم أنها وطنهم التاريخي "أرض إسرائيل" وأنهم الأحق بها دون العرب.

ولتحقيق هذه الأهداف تسترت الحركة الصهيونية وراء غايات دينية لكسب العطف والتأييد من جماهير اليهود للسيطرة على فلسطين والمنطقة العربية وتحالفت مع الدوائر الاستعمارية التي أدركت أهمية القدس العسكرية والجغرافية والاقتصادية ومكانتها الدينية واتخذت من الحركة الصهيونية أداة لتحقيق مصالحها الاستعمارية في المنطقة العربية. فقد اهتمت بريطانيا بتوطين اليهود في فلسطين لإيجاد ركيزة لها تمكنها من التدخل في شؤون الدولة العثمانية، ابتداء من الأمور المالية والقضاء وانتهاء بالشؤون الطائفية والقرارات السياسية.

ويعود الاهتمام البريطاني الرسمي باليهود في فلسطين إلى عام ١٨٣٨، ففي هذا العام أقامت بريطانيا قنصلية لها في القدس اهتمت بحماية اليهود فيها، وفي عام ١٨٤٠ حاول بالمرستون أثناء وجوده في الحكم وزيرا للخارجية (١٨٣٠-١٨٤١) أو رئيسا للوزراء (١٨٥٥-١٨٦٥) الضغط على السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١) بواسطة سفيره في استانبول ليقبل بإسكان اليهود في فلسطين. وبسبب التنافس البريطاني الفرنسي على النفوذ في الشرق وحرص بريطانيا على حماية خطوط مواصلاتها مع الهند، أصدر بالمرستون أوامره إلى القناصل البريطانيين بوضع اليهود في الدولة العثمانية تحت الحماية البريطانية ومنع الإساءة إليهم، وطلب من السفير البريطاني في استانبول الاحتجاج لدى الباب العالي على أي عمل عدائي ضد اليهود في الولايات العثمانية.

كما طلب من القنصل البريطاني في القدس وليم يونغ في عام ١٨٣٩ منح اليهود

في فلسطين الحماية البريطانية لضمان سلامتهم وصيانة ممتلكاتهم والمحافظة على أموالهم. ورافق تأسيس القنصلية البريطانية في القدس حملة صحفية في بريطانيا لتأييد أماني اليهود وقيام دولة لهم في فلسطين بجهد بريطاني. كما أظهر القنصل البريطاني في القدس جيمس فين (١٨٤٥-١٨٦٢) عطفا خاصا على اليهود والروس منذ عام ١٨٤٨ وشرع في عام ١٨٤٩ بمنحهم الحماية البريطانية بعد أن نزعت روسيا القيصرية جنسيتها منهم، ونظمت القنصلية البريطانية في القدس سجلات خاصة لهذا الغرض ومنحت شهادات الحماية دون مقابل لليهود الذين لا يستطيعون دفع الرسوم.

وتنبهت السلطات العثمانية في استانبول لهذه المسألة واستفسرت من متصرف القدس عن الأسباب التي جعلت اليهود والروس يطلبون الحماية البريطانية واقترح المتصرف بقاء اليهود والروس ضمن دائرة الاختصاص العثماني وأيد الباب العالي الفكرة ولكنه لم يتمكن من تنفيذها لتمسك الحكومة البريطانية بسياستها القائمة على إيجاد ركائز لها تمكنها من التدخل في الشؤون العثمانية. ولذلك مارست بريطانيا ضغوطا شديدة على الدولة العثمانية للسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين وشراء الأراضي فيها.

وعلى الرغم من ذلك فشل بالمرستون في إقناع السلطان عبد المجيد بالتخلي عن رفضه السماح لليهود بالاستيطان غير المحدود أو منح اليهود امتيازات خاصة في فلسطين. كما لم تنجح سياسة بالمرستون في إثارة حماسة اليهود في فلسطين فنشر مذكرة في عام ١٨٧٨ بعنوان "المسألة اليهودية في المسألة الشرقية" دعا فيها إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين تتولى بريطانيا حمايتها والإشراف عليها، بعد أن زاد اهتمام بريطانيا بفلسطين بعد افتتاح قناة السويس للملاحة عام ١٨٦٩ لا سيما بعد أن ابتاعت حصة مصر في شركة القناة عام ١٨٧٥. وقوى هذا الاهتمام احتلالها مصر في عام ١٨٨٢، مما أدى إلى فتور اليهود إلى فلسطين بينما منحت بريطانيا حمايتها للمهاجرين اليهود.

وتنافست القنصلية الفرنسية في القدس مع القنصليات الأجنبية الأخرى في تخطي القيود العثمانية المفروضة على الهجرة اليهودية لتوسيع دائرة الحماية الفرنسية على اليهود المهاجرين إلى فلسطين لموازنة مراكز النفوذ الأخرى، ونشط القنصل الفرنسي في اتصالاته مع السلطات المحلية لا سيما مع متصرف القدس رؤوف باشا (١٨٧٧-١٨٨٩) فأعفيت جميع المؤسسات الفرنسية الدينية والخيرية من الضرائب والرسوم الجمركية. كذلك مارست القنصلية البروسية في القدس نفوذها في دوائر الحكم المحلي ضمن الإطار العام للسياسة الألمانية في الدولة العثمانية ومنحت حمايتها لليهود دون تدقيق في الوثائق التي يحملونها.

أدى تنافس قنصليات الدول الأوربية على تقديم الحماية لليهود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى زيادة عددهم في القدس فكان حوالي ثلاثة آلاف يهودي تحت حماية النمسا وحوالي ألف تحت حماية بريطانيا وألف تحت حماية كل من ألمانيا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية. وقد شجعت الحماية التي أسبغتها بريطانيا على اليهود في مدينة القدس إلى زيادة نسبتهم فيها، ففي عام ١٨٦٤ قدر عدد سكان مدينة القدس بحوالي ١٨,٠٠٠ نسمة نصفهم من اليهود، وتشير الإحصاءات إلى أن عدد اليهود في فلسطين في عام ١٨٦٥ بلغ حوالي ٢٤.٠٠٠ نسمة بينما يذكر مصدر آخر أن عددهم لم يتجاوز ٢٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٨٨٠. وبلغ النفوذ الألماني في القدس ذروته بزيارة الأمبراطور وليم الثاني الأماكن المقدسة في عام ١٨٩٨ حيث أرسى حجر الأساس لكنيسة الروم الكاثوليك على قطعة أرض أهداها السلطان عبد الحميد الثاني إليه على جبل صهيون. وفي عام ١٩٠٢ أعفى السلطان عبد الحميد المؤسسات الألمانية الدينية والخيرية في القدس وضواحيها من الضرائب والرسوم الجمركية. لذلك لا يمكن فصل الأهداف الصهيونية عن الأهداف الاستعمارية في فلسطين.

سياسة الدولة العثمانية في وقف الهجرة ومنع الاستيطان:

بدأت هجرة اليهود إلى فلسطين تأخذ طابعا جديا إثر اغتيال قيصر روسيا في عام ١٨٨١. وقد عارضتها الدولة العثمانية منذ البداية، فعندما طلبت جمعية أحباء صهيون في نيسان ١٨٨٢ من القنصل العثماني العام في أوديسا منح المهاجرين اليهود سمات دخول إلى الأراضي العثمانية للاستيطان في فلسطين لفت عدد المهاجرين الكبير انتباه القنصل فأبرق إلى الباب العالي في ٢٨ نيسان ١٨٨٢ الذي رد عليه بأن في وسع اليهود الاستيطان في الولايات العثمانية باستثناء فلسطين وشريطة أن يكونوا رعايا عثمانيين تطبق بحقهم القوانين العثمانية. وصرح ناظر الخارجية العثماني لسفير الولايات المتحدة الأمريكية في الاستانة في ١٢ حزيران ١٨٨٢ بأن بلاده تسمح لليهود بالاستيطان في أي مكان فيها باستثناء فلسطين فمثلا بوسعهم الاستيطان في ولايات حلب والموصل وبغداد والبصرة على شكل جماعات من ٢٠٠-٢٥٠ عائلة. وفي ٢٩ حزيران ١٨٨٢ تلقى متصرف القدس أمرا برقيا بعدم السماح لليهود الذين يحملون جنسيات روسيا ورومانيا وبلغاريا من دخول متصرفية القدس،وأبلغت الدولة البعثات الدبلوماسية في استانبول بقرار منع اليهود الروس من استيطان فلسطين.

وفي عام ١٨٨٤ اتخذ الباب العالي إجراءات مباشرة فحدد زيارة اليهود لمتصرفية القدس بمدة ثلاثين يوما. وفي شباط ١٨٨٧ وصلت أوامر الباب العالي إلى متصرف القدس بمنع اليهود الأجانب من الإقامة مع السماح لهم بدخول فلسطين لفترة قصيرة حددت في وقت لاحق بثلاثة أشهر.

ولتنفيذ تعليمات الباب العالي بمنع الهجرة اليهودية أجرى متصرف القدس اتصالاته مع قناصل الدول الأجنبية في آب ١٨٨٧ الذين رفضوا بدورهم التعاون مع السلطات العثمانية التي استمرت في تطبيق إجراءات تقييد الهجرة اليهودية. وبناء على تعليمات الباب العالي في ربيع ١٨٨٨ حمل اليهود جوازات سفر توضح ديانتهم قبل

أن يتمكنوا من الحصول على تصريح زيارة القدس لمدة ثلاثة أشهر. ومهما يكن من أمر فقد كان قرار الباب العالي عام ١٨٨٧ أول قرار جدي لوضع حد لتيار الهجرة اليهودية الذي أخذ يتدفق على فلسطين وبعد أن تحقق الباب العالي من الخطر الذي يكمن وراء استيطان اليهود في فلسطين بأعداد كبيرة.

وعلى الرغم من ذلك لم تمض سوى فترة قصيرة حتى تم إنشاء عدة أحياء يهودية في مدينة القدس. بلغت حتى عام ١٨٩٢ ثمانية أحياء. وفي هذه الأثناء أخذ البناء ينتشر من بوابة يافا إلى بوابة دمشق (باب الخليل وباب العمود). ومع نهاية القرن التاسع عشر أقيمت أحياء أخرى على امتداد الطرق المؤدية إلى بوابات القدس الغربية والشمالية والجنوبية حيث أقيمت هذه الأحياء على أراض استطاعت المؤسسات اليهودية أولا ثم الصهيونية فيما بعد شراءها بالتحايل على القانون الذي يمنع بيعها لليهود وبمساعدة القنصل البريطاني في القدس، ومع دخول القوات البريطانية القدس في ٩ كانون الأول ١٩١٧ كانت الحركة الصهيونية قد أنجزت مرحلة مهمة من مخططها لمحاصرة مدينة القدس وتحقيق أكثرية سكانية فيها.

ونظرا لازدياد الهجرة اليهودية رغم قرارات المنع أرسل الباب العالي إلى متصرف القدس في آب ١٨٩٣ تعليمات جديدة قضت بعدم السماح لأي من اليهود الأجانب بالبقاء في متصرفية القدس بعد انتهاء المدة المقررة للزيارة. ووضعت السلطات العثمانية في ميناء يافا عقبات أمام اليهود المهاجرين من جميع الجنسيات بمن فيهم اليهود الإنكليز. وفي محاولة من الدولة العثمانية لإضفاء الصفة الشرعية على إجراءات تقييد الهجرة اليهودية ميزت بين اليهود الأجانب الذين يأتون إلى فلسطين بقصد السياحة في مقابل دفع تأمين نقدي لقاء مغادرة فلسطين خلال فترة محدودة، وبين الراغبين في الإقامة بقصد الاستيطان لا سيما بعد أن زادت شكوكها من مساعي الحركة الصهيونية لتأسيس كيان يهودي في فلسطين، ولذلك تشبث السلطات المحلية في القدس

بتطبيق التعليمات والقيود لمنع هجرة اليهود الأجانب دون تمييز بين جنسياتهم وأوضاعهم المالية.

وتابع الباب العالي هذه السياسة فأرسل تعميما في حزيران ١٩٠٠ إلى جميع البعثات الأجنبية في استانبول طالبا منها دعوة وكالات السفر المعتمدة لديها للتعاون مع السلطات العثمانية لوقف هجرة اليهود إلى الولايات العثمانية. ووضعت السلطات المحلية في القدس تعليمات الباب العالي موضع التنفيذ ففي كانون الثاني ١٩٠١ رفضت السماح لليهود بالخروج من ميناء يافا والتوجه إلى داخل فلسطين ما لم يقبلوا بالمدة المحددة لإقامتهم والتي تمتد إلى ٩١ يوما فقط.

وكان متصرف القدس رؤوف باشا (١٨٧٧-١٨٨٩) قد بذل جهودا كبيرة لمنع انتقال الأراضي في متصرفية القدس إلى اليهود ولكن خلفه رشاد باشا (١٨٨٩-١٨٩٠) لم يتشدد مثله مما أدى إلى اندفاع اليهود إلى شراء الأراضي. ولذلك قدم الوجهاء العرب في مدينة القدس شكوى إلى السلطات العثمانية في استنابول في ٢٤ تموز ١٨٩١ ضد الهجرة اليهودية الآخذة في الازدياد. فصدرت أوامر الأستانة في تشرين الثاني ١٨٩٢ إلى متصرف القدس تقضي بمنع بيع الأرضي الأميرية وحظر شراء العقارات في لواء القدس من قبل اليهود.

ويمكننا إجمال موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ممثلا في رفض السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) للمحاولات التي بذلها هرتزل من أيار ١٨٩٦ وحتى تموز ١٩٠٤ لإيجاد تفاهم عثماني يهودي يساعد السلطان بموجبه اليهود فيعطيهم مساحة الأرض التي يريدونها في مقابل استعدادهم لتدعيم مالية الدولة والتأثير على الرأي العام الأوروبي ليقف إلى جانب السلطان في المسألة الأرمنية. وقدر هرتزل ثمن فلسطين بعشرين مليون ليرة تركية. ولكن السلطان عبد الحميد رفض هذا العرض. وعندئذ قرر هرتزل استمالة السلطان بتمكينه من استعادة جزيرة قبرص مع

مبلغ من المال في مقابل فلسطين. غير أن السلطان تشبث بموقفه المعارض للهجرة اليهودية خصوصا بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بال ١٨٩٧ وزاد من اهتمامه بشؤون متصرفية القدس فأخذ يعين فيها متصرفين من باشكتابة المابين الهمايوني في قصر يلديز اعتبارا من تشرين الثاني ١٨٩٧.

وشهدت فلسطين في أعقاب فشل الثورة في روسيا عام ١٩٠٥ موجة جديدة من الهجرة اليهودية ضمت عددا من الشباب الصهيوني ممن يسعون لبناء وطن لهم في فلسطين وتمكنوا من تأسيس أول مستوطنة لهم (دجانيا) بالقرب من طبريا، واضطرت حكومة الاتحاد والترقي بسبب معارضة الرأي العام ووضوح الأطماع الصهيونية في فلسطين إلى وقف عمليات انتقال الأراضي وبيعها في ضواحي القدس حتى أنها أوقفت معاملات الانتقال الوراثية.

وعلى الرغم من فشل مساعي الحركة الصهيونية مع السلطان عبد الحميد الثاني فقد واصلت جهودها مع حكومة الاتحاد والترقي حيث تمكنت من تحقيق قسط يعتد به من النجاح بفضل المساعي التي بذلتها جماعة من يهود الدونمة الذين قاموا بدور بارز في الثورة على السلطان عبد الحميد الثاني، وبسبب حاجة جمعية الاتحاد والترقي الماسة إلى المال لتدعيم خزينتها الخاوية. وإزاء إلحاح الوزيرين أنور وطلعت في طلب الأموال اليهودية ردت الحركة الصهيونية بأنه ما دامت القيود مفروضة على الهجرة وامتلاك الأراضي فلا ينبغي للمسؤولين العثمانيين توقع الحصول على قروض من اليهود. فاضطرت الحكومة العثمانية إلى إلغاء القيود المفروضة على اليهود.

وكان عدد اليهود في القدس في عام ١٨٧٧ (١٤,٠٠٠) نسمة تقريبا وارتفع إلى ٢٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٨٩٠ بينما بلغ عدد سكان القدس في العام نفسه حوالي ٤٥,٠٠٠ نسمة، وتذكر مصادر أخرى أن عدد اليهود في القدس في عام ١٨٩٥ بلغ حوالي ٢٨,٠٠٠ نسمة حيث شكلوا ٦٠٪ من مجموع اليهود في فلسطين. وقدر عدد

اليهود في القدس في عام ١٩٠٤ ب ٤٠,٠٠٠ نسمة ١٠,٠٠٠ منهم مسجلون في القنصليات الأجنبية وحوالي ١٥,٠٠٠ نسمة في السجلات العثمانية و ١٥,٠٠٠ نسمة بدون جنسية. وقدرت الإحصاءات العثمانية عدد سكان فلسطين في عام ١٩١٤ بنحو ٦٨٩,٠٠٠ نسمة من بينهم حوالي ٨٥,٠٠٠ يهودي (١٢٪). وتوزع اليهود في عام ١٩١٠ بنسبة ٦٠٪ في القدس و ٢٥٪ في يافا وصفد وطبريا والخليل و١٥٪ في المستوطنات. وقدر عدد السكان في عام ١٩١٣ بنحو ٩٠,٠٠٠ نسمة ولكن العدد انخفض إلى ٥٠,٠٠٠ نسمة عام ١٩١٧ بسبب هجرة اليهود إلى مصر أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨).

ومهما يكن من أمر فقد أخذ المهاجرون اليهود ينظمون حياتهم على نمط أوروبي ويحصرون العمل فيهم ويكدسون السلاح لحماية أنفسهم ويظهرون نعرة عنصرية ومطامع توسعية، فنظموا أنفسهم في المستوطنات كمجتمع مستقل له محاكمه ومدارسه وبريده وطوابعه ومجالسه المحلية وحراسه وسلاحه إلى أن أصدر جمال باشا بوصفه القائد الأعلى للجيش العثماني الرابع ومقره دمشق في كانون الثاني ١٩١٥ أمرا منع بموجبه رفع العلم الصهيوني وأي لافتة بالعبرية وصادر جميع الطوابع والأوراق المالية وألغى جميع المؤسسات الصهيونية لتوافر الأدلة لديه حول مؤامرة صهيونية لإقامة دولة يهودية في فلسطين.

وهكذا لم تنجح الجهود التي بذلتها الدولة العثمانية في صياغة قرارات وقف الهجرة اليهودية ومنع الاستيطان الصهيوني في فلسطين ذلك أن الحكومة المركزية في استنابول والسلطات المحلية في القدس غلبت على أمرها للأسباب التالية:

١- مداخلات السفراء الأجانب في الأستانة والقناصل الأجانب في القدس الذين تمسكوا بحقوق الامتيازات فأعاقت احتجاجاتهم تنفيذ القيود المفروضة على الهجرة وأفقدتها فاعليتها.

٢- فساد الجهاز الإداري في متصرفية القدس واستمرار اليهود في استخدام سلاح الرشوة والإفساد.

٣- محاولات اليهود المستمرة للتملص من القيود المفروضة عليهم بالتحايل عليها والاستعانة بالحماية الأجنبية ضدها أو بالنزول في موانئ أخرى على الشاطئ السوري ثم التسلل براً إلى فلسطين.

إن مأساة القدس جزء أساسي من مأساة فلسطين ويصعب الوصول إلى تسوية بشأنها دون تسوية المسألة الفلسطينية برمتها ولن يكون ذلك إلا بتحرير الأرض المغتصبة كلها وعودة شعبها العربي إليها.

المصادر والمراجع

تعتمد ورقة البحث على المادة الوثائقية المحفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء في استانبول وتشتمل على السجلات والمعاملات والمخابرات الرسمية التي جرت بين الحكومة العثمانية في الأستانة والسلطات المحلية في القدس كما تعتمد أيضا على الوثائق البريطانية المحفوظة في مكتب السجلات العامة في لندن وتشتمل على التقارير والمخابرات التي رفعها القناصل الإنكليز في القدس إلى وزارة الخارجية في لندن والسفارة البريطانية في استانبول، فضلا عن البحوث والمصادر والمراجع والصحف والدوريات العربية والأجنبية.

الجزء الثاني

الصراع حول القدس

الصراع حول البراق الشريف

د. حازم نسيبة

أشكر الأخ الدكتور تيسير أبو عرجة عميد كلية الآداب على دعوتي لمشاركتكم في الندوة ضمن محور "القدس في العصر العثماني وفي ظل الانتداب البريطاني". لقد أوكل إلي بحث موضوع "الصراع حول البراق الشريف"، وهو عنوان قد يبدو لأول وهلة، محدودا ومحددا ولكنه في الحقيقة يجسد الصراع الفلسطيني الإسرائيلي والعربي الصهيوني والإسلامي اليهودي بل الصراع الحضاري في مجمله تجسيدا تاما.

ولم أكن أقدر هذه الأبعاد، بطبيعة الحال، عندما كنت طفلا في عام ١٩٢٩ عندما اندلعت ثورة البراق الشريف بكل ضراوتها، وكل دمويتها وكل مواجهاتها، سياسيا وقانونيا ودوليا، وميدانيا قبل ذلك كله. اذكر التجمعات التي كانت تتواجه بالحجارة والعصي والخناجر والبنادق في آخر المطاف، والتي أسفرت عن سقوط مئات القتلى والجرحى من الفريقين. الثورة بدأت في البلدة القديمة المقدسة المسورة، حيث كل شبر فيها يضم ثرى نبي أو مرسل أو عالم أو مجاهد أو شهيد، وسرعان ما امتدت لتشمل فلسطين –كل فلسطين– من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها والتي بلغت أوجها في مدينة الخليل حيث قتل ستون يهوديا وأجلي اليهود جلاء تاما عن المدينة، ولم يعودوا إليها إلا بعد احتلال الضفة الغربية في الخامس من حزيران ١٩٦٧. وما فتئ اليهود يرتكبون الجريمة تلو الجريمة والعدوان تلو العدوان انتقاما لما يدعون أنها مجزرة حلت بهم، مع أنهم ارتبكوا عشرات المذابح آنئذ وعلى امتداد العقود الثمانية الماضية.

أيها الأخوة والأخوات،

ما هي حقيقة الصراع حول البراق الشريف والذي يسميه اليهود بحائط المبكى؟ الحقيقة التي يعرفها كل مطلع على حقائق الأمور هي أن حائط البراق هو جزء من السور الخارجي للحرم القدسي الشريف، بناه السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر عندما احتل العثمانيون المنطقة العربية بعد تغلبهم على مملكة مصر.

الموقع كما تعلمون هو الذي حط فيه الرسول براقه الشريف ليلة الإسراء، ومن جواره –من قبة الصخرة المشرفة– عرج إلى السماء في أعظم رحلة روحية توحيدية عرفتها البشرية إلى سدرة المنتهى حيث أم الأنبياء والرسل في عبادة الخالق جل جلاله.

هذه البقعة –البراق الشريف– هي جزء لا يتجزأ من أعتق المواقع قداسة هي الحرم الشريف ومساحته مئة وواحد وأربعون دونمًا ويضم قبلة المسلمين الأولى المسجد الأقصى المبارك ﴿سُبۡحَانَ الذي أسْرى بِعبدِهِ لَيلاً مِنَ المسجِدِ الْحَرامِ إلَى المسْجِدِ الأقصا الذي بارَكْنَا حوله لنُريهُ من آياتِنا إنّهُ هو السَّميعُ البَصيرُ﴾[الإسراء: ١]. مثلما يضم الحرم الشريف قبة الصخرة المشرفة التي بناها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قبل ألف وثلاثمئة عام والتي كانت وما زالت أجمل وأعظم ما شيد الإنسان في عبادة الخالق. ويضم الحرم الشريف أيضا عددا كبيرا من الأربطة والزوايا والغرف والصحون والقباب والمدارس وفي مقدمتها المدرسة الأشرفية التي بنيت قبل نيف وستمائة عام. وفي الزاوية الغربية من هذا الحرم القدسي الشريف، وعند سوره الغربي، كانت توجد أحياء عربية قديمة عريقة بعود تاريخها إلى الفتح الصلاحي عندما حرر صلاح الدين القدس من الغزاة الفرنجة وخصص تلك البقعة للمجاهدين والحجاج الوافدين من بلدان المغرب العربي وهو المعروف بحي المغاربة، الذي أوقفت عليه أوقاف كثيرة في فلسطين وتعرف بأوقاف أبو مدين الغوث، كما توجد حارة الشرف، وزاوية أبو السعود وغيرها من المساكن المقدسة العربية الإسلامية.

أعرف هذا الحي معرفة تامة وكنت أمر به في طريقي إلى الحرم الشريف.

وكان حائط البراق الذي يسميه اليهود حائط المبكي عبارة عن زقاق لا يتجاوز عرضه ثلاثة إلى أربعة أمتار وطوله أقل من خمسين مترا. كان هذا الزقاق ممرا بل مستقرا لبعض سكان الحي وكان اليهود المتدينون يؤدون شعائرهم الدينية بالبكاء وهز

الرأس ووضع الأوراق بين نتوء الجدران. ولم يكن المواطنون يعيرون كبير أهمية لتلك الصلوات، لأن اليهود آنئذ، في أواخر العشرينات، وأوائل الثلاثينات، كانوا أقلية عددية ووجودية لم يكن يؤبه لها. وبجوار ذلك كانت توجد حارة صغيرة لليهود فيها كنيسان وعدد من البيوت القديمة المتداعية.

والحقيقة التاريخية الثابتة الناصعة والتي تؤيدها الموسوعة اليهودية نفسها هي أن موقع البراق الذي يسميه اليهود حائط المبكى لم يكن مكان عبادة وتعبد لدى اليهود إلا منذ القرن السادس عشر، أي في أوائل العهد العثماني عندما التجأت أعداد كبيرة من يهود الأندلس إلى تركيا وغيرها من ديار الإسلام بعد طردهم من الأندلس مع أهل الأندلس العرب المسلمين في أواخر القرن الخامس عشر وبالتحديد عام ١٤٩٢ بعد سقوط غرناطة.

لقد طلب أولئك اليهود من السلطان العثماني السماح لهم بالتعبد أمام حائط البراق، وقد سمح لهم بذلك انسجاما مع سماحة الإسلام وتقبله للتعددية الدينية إذ لا إكراه في الدين وبالأخص، من أتباع أهل الكتاب. ولا غرابة في ذلك فقد سمح الخليفة العادل عمر بن الخطاب ﷺ لليهود بالسكنى في مدينة القدس عندما جاءها على رأس الفتوحات العربية الإسلامية في بلاد الشام وتسلم مفاتيح المدينة من البطريرك صفرونيوس بطريرك الأرثوذكس، وأعطاه العهدة العمرية التاريخية الشهيرة التي أعطت لسكان المدينة المسيحيين وغالبيتهم من أهل البلاد الأصليين، أمانا على كنائسهم وممتلكاتهم وعقائدهم والعيش الآمن مع إخوانهم المسلمين. ويذكر هنا أنه لم يكن لليهود أي وجود على الإطلاق في مدينة القدس لأنهم تآمروا مع الفرس في حروبهم ضد الرومان الشرقيين وتسببوا في ذبح آلاف مؤلفة منهم. ولما انتصر الرومان طردوا اليهود ومنعوا وجودهم في المدينة. وكان الطلب الوحيد الذي قدمه البطريرك صفرونيوس من الخليفة عمر هو عدم السماح لليهود بالعودة إلى القدس. ومع ذلك

فقد كان الإسلام في أوجه أكثر تسامحا فسمح لهم بذلك.

ثم جاءت الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر عندما اجتاحت جحافل الفرنجة مدينة القدس بعد اجتياحها معظم بلاد الشام تحت زعم تحرير القيامة من سيطرة من سموهم "بالكفار المسلمين".

ليس هذا موضوع بحثي ولكنني أشرت إليه لأذكر لكم بأن السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، ومقتديا بسنة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب سمح لليهود مرة أخرى بالعودة إلى القدس بعد أن كان الصليبيون قد ذبحوا من ذبحوا في القدس منهم وعندما كانت الخيل تغوص في دماء المسلمين من أهل القدس والذين أبادهم الفرنجة عن بكرة أبيهم.

ولما جاءت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر سمحت لليهود كما ذكرت آنفا بزيارة حائط البراق للتعبد ليس إلا، غير مدركة وهي في أوج قوتها بان يوما سيأتي يتطاول فيه اليهود على أقدس مقدسات المسلمين ويخططون ويهددون بتدمير المسجد الأقصى المبارك أولى القبلتين وقبة الصخرة المشرفة، ويبنون مكانهما ما يدعون أنه كان هيكل سليمان على جبل موريه وهو موقع الحرم القدسي الشريف.

نعم، هذه مخططات اليهود يعلنونها على الملأ وقد قاموا خلال احتلالهم للقدس في عام ١٩٦٧، وما زالوا يقومون حتى يومنا هذا، بحفريات تحت الحرم القدسي الشريف وبجواره حتى بلغت حفرياتهم تحت أساسات المسجد الأقصى المبارك ثمانية عشر مترا، لم يعثروا فيها على أي أثر يهودي مما يزعمون. هذه حقيقة يجب تأكيدها ونشرها على الملأ وهي أنه رغم حفريات منظمة، مضنية، مكلفة على مدى ثلاثة وثلاثين عاما منذ الاحتلال، فإن علماء الآثار اليهود، وقبلهم علماء أوروبا وأمريكا، لم يعثروا على أي اثر عبري أو يهودي، علما بأن مدينة القدس مدينة مبنية من الحجر

الصلب الذي لا يذوي. لقد وجدت آثار يبوسية -كنعانية وآثار رومانية وآثار أموية بينها قصران أمويان ملاصقان من الناحية الجنوبية للمسجد الأقصى المبارك -وهي آثار ناطقة قائمة ويحاول اليهود الآن نقل حجارتها إلى موقع آخر لأسباب سوف أتحدث عنها لاحقا. ووجدت آثار عباسية وفاطمية وصليبية وأيوبية ومملوكية وعثمانية بل إن القدس القديمة كلها تعتبر متحفا حيا لتراث متراكم عمره خمسة آلاف عام، وفيه من المباني القائمة ما يعود إلى ألف وسبعمائة عام هي كنيسة القيامة، والمسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة اللذان يعودان إلى ألف وثلاثمائة عام. إنها مدينة تاريخية قائمة حية تعبر عن تراث عربي وإسلامي ومسيحي عريق رغم الزلازل المدمرة، والحروب المستترة والفتن والقلاقل وعاديات الزمان. وتحت البلدة القديمة طبقات من الآثار والأسواق والممرات والأنفاق المائية تحكي قصة القدس العريقة جيلا بعد جيل وألفية بعد ألفية. ويأتي اليهود في يومنا هذا وهم الذين لم يكن لهم أي وجود يذكر منذ ألفي عام محاولين طمس ذلك الوجود التاريخي العريق بدعاوى وادعاءات أثبت العلماء بطلانها. إضافة إلى أن يهود اليوم في غالبيتهم ليسوا ساميين بل من جنس الخازار التركي في بحر قزوين وبولندا.

أيها الأخوة والأخوات:

كان العرب والمسلمون كما ذكرت، يتسامحون ويسمحون لليهود بزيارة حائط البراق، وبالأخص في التاسع من آب الذي يحتفل فيه اليهود بذكرى خراب اليهكل على يد الإمبراطور تايتس عام ٧٠ بعد الميلاد، يبكون على خرابه وعلى تشتتهم في أرجاء العالم.. علما بأن الموقع جميعه أوقاف إسلامية موثقة لأنها بقعة مقدسة تجسد إسراء ومعراج نبينا محمد صلعم. ولكن اليهود بعد أن أعطتهم بريطانيا وعد بلفور – وعد من لا يملك لمن لا يستحق- وبعد أن أخذ طوفان هجرتهم واستيطانهم

واستعمارهم لفلسطين- بحماية الحراب البريطانية- يتفاقم أخذوا يكشفون النقاب عن نواياهم العدوانية تجاه قبلة المسلمين الأولى والحلول مكانها عندما يقوى ساعدهم.

وقد حدثت حادثتان مهمتان في هذا السياق:

الأولى، في أيلول من عام ١٩٢٥ عندما حاول اليهود الوصول إلى حائط المبكى عنوة ومعهم كراسي وستائر وأدوات عبادة كانت محظورة عليهم بموجب الوضع القائم القانوني (Status Quo) الذي تعهدت دولة الانتداب البريطانية باحترامه والتقيد به. وعندما شعرت دولة الانتداب بخطورة العواقب التي سوف تترتب على خرق هذا الوضع القائم منعت اليهود من الاستمرار في عدوانهم.

أما الحادثة الثانية فقد جرت في ٢٤ أيلول ١٩٢٨ وهو يصادف يوم الغفران عند اليهود، عندما حاول اليهود مرة أخرى جلب أدوات وحمل شعارات ومقاعد وستائر خلافا للوضع القائم. وعندما منعتهم الشرطة من مواصلة عدوانهم أشعلوا مظاهرات عدائية ضد العرب وضد حكومة الانتداب. وفي ١٥ آب ١٩٢٨ قدمت إلى القدس أعداد كبيرة من الشبان والشابات اليهوديات من تل أبيب ومن مختلف المستعمرات اليهودية في مظاهرة صاخبة مخترقين شوارع القدس ومتوجهين إلى حائط البراق حاملين الإعلام الصهيونية وداعين إلى انتزاع البراق من أيدي المسلمين.

ولما كان الهدف من تلك التظاهرات هو استلاب المسلمين أقدس مقدساتهم، فقد خرجت جموع المصلين من المسجد الأقصى المبارك بعد أداء صلاة الجمعة في مظاهرة صاخبة حطموا فيها كل ما وجدوه لليهود أمامهم حول حائط البراق واعتدوا على كل يهودي في طريقهم بعد أن شاعت أخبار بأن اليهود قد قتلوا عربيين.

وقد امتدت الثورة إلى القرى المجاورة في أكناف القدس، ثم اتسعت لتمتد إلى يافا وحيفا وصفد والخليل ونابلس، وإلى سائر مدن فلسطين وقراها. وهجم المتظاهرون

على قلعة البوليس للحصول على السلاح الذي كان ممنوعا تحت طائلة الإعدام. وقد أدت الاضطرابات في الخليل إلى مقتل ستين يهوديا وجرح خمسين آخرين كما ذكرت علما بأن عائلات الخليل وفي خضم تلك الاضطرابات حاولت حماية العاجزين والجيران من غضبة الجماهير الجارفة.

وقد استمرت الثورة خمسة عشر يوما قتل خلالها ١٥٠ يهوديا وجرح أربعمائة، بينما قتل ١١٦ عربيا وجرح أكثر من مائتين ومعظم الخسائر العربية على يد السلطات البريطانية.

وقد ألفت حكومة الانتداب لجنة باسفيلد للتحقيق، تبعتها في أيار ١٩٣٠ لجنة دولية برئاسة أحد وزراء خارجية السويد اللامعين وعضوية رجل قضاء سويسري وآخر هولندي قدمت تقريرها إلى عصبة الأمم، وهي المنظمة الدولية التي خلفتها الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. وقد تقاطرت الوفود والشخصيات الإسلامية من مختلف أنحاء العالم للإدلاء بشهاداتهم أمام اللجنة الدولية، كما حشدت الصهيونية العالمية خيرة عقولها لدعم ادعاءاتهم. وقد أصدرت اللجنة الدولية القرار التالي:

أولا: للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي ولهم وحدهم الحق فيه، لأنه يشكل جزءاً من ساحة الحرم القدسي الشريف.

ثانياً: للمسلمين أيضا ملكية الرصيف الذي أمام الحائط (وهو الذي يتعبد أمامه اليهود).

ثالثاً: التعليمات المؤقتة التي أصدرتها حكومة فلسطين في أواخر أيلول عام ١٩٢٩ بشأن أدوات العبادة يجب أن تصبح قطعية، على أن يسمح لليهود بوضع الخزانة التي تحتوي على التوراة والمائدة التي يوضع عليها الأسفار عند العبادة.

كذلك أوصت اللجنة بمنع جلب المقاعد والكراسي والستائر والحواجز، ومنع

اليهود من نفخ البوق بالقرب من الحائط، مثلما لا يسمح للمسلمين بإقامة حفلة ذكر في أثناء قيام اليهود بصلواتهم.

وأقرت اللجنة بأن تنظيف الرصيف وصيانته حق من حقوق المسلمين. أما تعمير الحائط فتقوم به حكومة فلسطين بصفتها القيمة على الآثار في فلسطين بعد استشارة المجلس الإسلامي الأعلى.

هذا هو ما ظل الوضع عليه حتى عام ١٩٦٧ عندما احتلت القوات اليهودية القدس الشرقية، وكان أول ما فعلته بعد الاحتلال بأيام هو تجريف وهدم حي المغاربة بأجمعه والأحياء الملاصقة الأخرى لإنشاء ساحة شاسعة تتسع لآلاف اليهود على حساب الأحياء الإسلامية العريقة وسكانها. هذه الساحة ومعها حائط البراق أصبحت في أيدي اليهود، ومعها باب المغاربة الذي يؤدي إلى الحرم الشريف حيث تقف الشرطة الإسرائيلية. والساحة في بقعة منخفضة بالنسبة لساحات الحرم التي تطل عليها إطلالا تاما.

أيها الأخوة والأخوات،

إن ما ذكرت ليس نهاية المطاف وإنما هو بدايته في مخطط الصهيونية العدواني. ذلك، وبغض النظر عن الإدعاءات والخرافات العبرية، فإن اليهود يدركون بأن السيطرة على مدينة القدس هي المفتاح للسيطرة على فلسطين كلها، لوقوعها على سلسلة الجبال المتوسطة التي تشكل الطريق المميزة للمرور شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، كما أنها الطريق الرئيسية عبر آسيا الصغرى. فمن يستولي عليها يكون قد استولى على المفاصل الأساسية التي تحقق التواصل أو القطيعة الجغرافية بين أوروبا وآسيا وأفريقيا. ومن استولى عليها قادر على تمزيق التواصل الجغرافي بين أجزاء الوطن الفلسطيني نفسه.

كيف يمكن لشعنا في شمال فلسطين، في نابلس وجنين وطولكرم وقلقيلية وغيرها

من الاتصال بجنوب فلسطين بيت لحم والخليل وبئر السبع وغزة وغيرها إذا كانت القدس بيد الأعداء؟ عليهم النزول إلى وادي الأردن ثم الصعود إلى جبال القدس والخليل لإعادة الوصل! وهذا ما تعمل إسرائيل على تحقيقه على أرض الواقع ببناء طرق التفافية وأنفاق وجسور لا حصر لها، بالإضافة إلى إقامة المستوطنات المحرمة دوليا للسيطرة على معابر الطرق ومخارجها.

إن برامج إسرائيل التوسعية مستمدة من أساطيرهم التي وضعوها في منافيهم في بابل، والتي تشكل تصميمهم الاستراتيجي القاطع على إعادة تنفيذها هي ما يلي:

أولاً: ادعاؤهم بأن القدس وسائر الأراضي المقدسة هي ملكهم وحدهم دون سواهم بحكم ما يزعمون أنه وعد إلهي، علما بأنه حتى لو كان هنالك مثل هذا العهد مع إبراهيم عليه السلام، فإنما تم و لم يكن له يومها سوى إسماعيل جد العرب وقبل ولادة اسحق.

إنهم ينظرون إلى العرب كذميين (Guyim) طارئين على فلسطين متجاهلين أنهم هم الطارؤون الدخلاء على أرض كنعان وسكانها العرب عبر العصور والدهور منذ التاريخ المسجل.

ثانيا: ادعاؤهم بأن داوود هو الذي بنى القدس مع أن جميع القرائن التاريخية تثبت بما لا يدع مجالا للشك بأن بناتها ومؤسسيها هم اليبوسيون العرب. ويمكن الرجوع إلى كتاب عالمة الآثار البريطانية كاثرين كاينون التي تثبت هذه الحقيقة إثباتا قاطعا بالحفريات في كتابها المسمى "حفريات القدس". بل إن التوراة نفسها تعترف بهذه الحقيقة وتصف بإسهاب كيف خطط داوود للهجوم على مدينة القدس والتي يدافع عنها أهلها دفاعا مستميتا كما تقول التوراة .

ثالثاً: ادعاء تاريخي مزور يشكل تهديداً دينيا وروحيا بالغ الخطورة للعقيدة

الإسلامية وللتراث الإسلامي الأثيل.

إن هذا الخطر الداهم ينبع من تصميم إسرائيلي قاطع على إعادة بناء هيكل سليمان، الذي أقيم أول ما أقيم، كما تقول رواياتهم في القرن العاشر قبل الميلاد، على موقع يقول الإسرائيليون بأنه يقع تحت الحرم القدسي الشريف الذي تتوسطه قبة الصخرة المشرفة. وهم يقولون بأن أسوار الحرم الشريف الحالية والتي تحتوي حجارة من أصول رومانية، قد أعيد بناؤها في عهد هيرودس عام ١٩ قبل الميلاد.

أما الحقيقة والواقع، كما ذكرت، فهي أنها من بناء الإمبراطوريات الإسلامية المتعاقبة والتي كان آخر بناتها السلطان سليمان. إذن فهي من أصول عربية إسلامية، وإن استخدم في حجارتها الكبيرة الحجم الحجر من العصر الروماني.

أيها الأخوة والأخوات،

لقد كشفت المحادثات التي أجراها الرئيس السابق كلينتون مع الوفدين الفلسطيني والإسرائيلي في كامب ديفيد عن نوايا إسرائيل واليهود بعامة تجاه هيكل سليمان وارتباطه في أذهانهم بالحرم القدسي الشريف.

لقد طلبت إسرائيل في مفاوضات الحل النهائي السيادة على ما هو تحت الحرم القدسي، وهو طلب لا سابقة له في سجلات التفاوض. ماذا يعنون من وراء ذلك. وما هي خططهم المرسومة تجاهه؟

لقد ترشحت من مصادرهم الموثوقة اختيارات متعددة أحلاها مر. إحدى الخيارات هو بناء الهيكل مكان الأقصى والصخرة وهو خيار يعلمون قبل غيرهم عواقبه اللامحدودة على المديين القصير والبعيد. الخيار الثاني هو بناء قواعد الهيكل على ساحة البراق –حائط المبكى الحالية مع رفعه إلى أعلى عاموديا وأفقيا بحيث يكون موازيا أو أعلى من المسجد

الأقصى وقبة الصخرة وعلى امتداد جزء من الحرم الشريف. الخيار الثالث البحث عن واختيار بقعة مناسبة بجوار أو على جزء من الحرم يبنون عليه هيكلهم.

لقد دار قنصل أمريكا العام في القدس في أوج تلك المحادثات القمة يسأل رجال الدين المسلمين، من بين ما سألهم، عن مبنى كلية روضة المعارف الوطنية التي تعلمت فيها والمطلة على الحرم والتي تعرف اليوم بالمدرسة العمرية. إنها عمارة تاريخية عمرها مئات السنوات وتطل على الحرم الشريف وكانت تستخدم مقرا لحكام القدس في العصر المملوكي والعثماني عند باب الغوانمة، كما أن مدخلها متشابك مع طريق الآلام للسيد المسيح، وفي تلك البقعة، كما تذكرون، فتح اليهود مخرج النفق الذي كانوا قد أعادوا صيانته تحت ساحة الحرم الشمالية وطوله خمسمائة متر. إنهم يدعون بأنه مكان مقدس لديهم، مع أنه ليس أكثر من قناة أو قنوات مائية كانت تستخدم في مختلف العصور لجلب الماء إلى المدينة والتي تزخر بها مدينة القدس القديمة، حتى أنك تستطيع أن تقطع المسافة عبر المدينة من باب العامود شمالا، وهو الذي يسمى بوابة دمشق، وحتى باب الخليل جنوبا في طريق متصلة تحت المدينة. وقد أبلغ رجال الدين المسلمون القنصل الأمريكي بأن هذا الموقع موقع تاريخي عريق ويعتبر جزءا من الحرم الشريف.

الحقيقة هي أن اليهود، وخلافا للمسلمين والمسيحيين الذين تزخر القدس القديمة، ومساحتها مجرد كيلومتر مربع، بمقدساتهم ومساجدهم وكنائسهم وتراثهم المتراكم عبر العصور، إن اليهود لا يملكون في القدس أي أثر حقيقي على الإطلاق، ما عدا ادعاءاتهم في حائط البراق، وحتى تلة داوود، واسمها اليبوسي تلة زيون، وأخذ الإسرائيليون الاسم عنهم، هي جامع إسلامي عريق. اليهود إذن يجهدون لاهثين للحاق بالتراثين الإسلامي والمسيحي وفي خلق موطئ قدم على تلك البقعة المقدسة تستجيب لادعاءاتهم وخرافاتهم الموروثة.

أيها الأخوة والأخوات،

أود أن أختم حديثي إليكم بالتذكير بدروس الماضي وهي أن القدس وفلسطين كانتا على مر العصور البوابة التي يعبر من خلالها الغزاة الطامعون في جميع ديارنا العربية والإسلامية.

قد تختلف هوية الغزاة، ولكن الأبعاد الجغرافية –السياسية للقدس وفلسطين كانت وستظل ثابتة. ضياع القدس وفلسطين يضع مصير المنطقة بأكملها أمام خطر داهم مميت– كما يبدو لنا الحال في يومنا هذا. إن أولئك الذي يفكرون بسطحية هشة بأن القدس وفلسطين هما هدفان قائمان بذاتهما أو أنهما خاتمة المطاف، عليهم أن يفكروا مليا ومليا جداً بالنسبة لمصائرهم وبقائهم. التاريخ يعلمنا ذلك وإسراء ومعراج رسولنا الأعظم يأكدان هذه الحقيقة. والصراع على البراق هو الصراع للهيمنة على المنطقة كلها وشكرا.

الأرض والإنسان في خطاب الاستشراق الأمريكي

البعد الثقافي - التاريخي

أ.د. فؤاد شعبان

قسم اللغة الإنجليزية- جامعة البتراء

الاستشراق كما يصفه ادوارد سعيد هو بصورة عامة موقف الغرب من الشرق العربي الإسلامي. لكنه لا يقتصر على اتخاذ موقف فقط، بل يتعداه إلى سلوك يمليه هذا الموقف. ثم هو يمتد ليصبح تدخلا نظريا وعمليا في شؤون الشرق. التدخل النظري يتمثل في نشاطات دراسات الشرق وتحليله وإصدار التعميمات والنظريات حوله . أما التدخل العملي فهو يتجلى في مظاهر عديدة منها محاولات استعمار الشرق، واستيطانه، والتدخل في شؤونه عسكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وفي محاولات رسم حدود الشرق و معالمه الجغرافية و السكانية ، ورسم خرائطه، و التنقيب عن آثاره، و كتابه تاريخه، وغير ذلك من أفعال يقوم بها الغرب على أرض الشرق. ثم إن الغرب يحدد سياساته و سلوكه حيال الشرق حسبما تمليه كل هذه العوامل و النشاطات[1] .

يتبين من هذا التعريف أو الوصف الموجز للاستشراق أن الغرب ما زال منشغلا بشؤون الشرق العربي منذ أقدم العصور و حتى الساعة . ولا بد من الإشارة منذ البداية إلى أن مواقف الغرب وسلوكه نحو الشرق لم تكن دائما سلبية عدوانية، بل هنالك لمحات مضيئة في هذه المواقف، لا سيما تلك التي تصدر أحيانا عن الهيئات الأكاديمية والعلمية والبحثية.

وإذا كانت هذه طبيعة الاستشراق، فهي في رأي الكثيرين تنطبق على الاستشراق الأوروبي ـ الفرنسي والألماني والإنجليزي بصورة خاصة ـ نظرا للتاريخ الطويل الذي اشترك به الشرق مع الغرب. و لكن هل يصدق هذا على الولايات المتحدة الأمريكية، و هي ككيان سياسي لم تبلغ من العمر إلا نيفاً ومئتين من السنين، بل هي ككيان سكاني جغرافي لم يمض على وجودها اكثر من أربعمائة سنة ؟

بمعنى آخر : هل هناك ما يمكن أن نسميه استشراقاً أمريكياً ؟

ينفي ادوارد سعيد[٢]، ويتفق معه كثيرون، وجود استشراق أمريكي بهذا المعنى قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، أي منذ أن دخلت أمريكا حلبة السياسة الدولية و أصبحت لاعباً رئيسياً فاعلاً في شؤون الشرق العربي. إنني أكن لإدوارد سعيد تقديراً كبيراً لما ساهم به من أعمال لا حدود لها في المجال الفكري والعملي لقضية الاستشراق ولغيرها من القضايا العربية، وأعتقد أنه ما من كاتب عربي يؤلف في الاستشراق إلا ويدين لسعيد بالكثير لأنه أرسى القواعد للدراسات العربية لهذه الظاهرة الغربية.

إلا أنني وبعد أن أمضيت اكثر من خمس وعشرين سنة في دراسة الثقافة الأمريكية البحث فيها والكتابة عنها، اسمح لنفسي بالقول:

إن الاستشراق الأمريكي بدأ مع إنشاء أول مستوطنة إنكليزية في النصف الشمالي من القارة الأمريكية في أوائل القرن السابع عشر. وقد استمر هذا الاستشراق بشكل أو بأخر وازداد كماً وكيفاً طيلة القرون الأربعة الماضية، مع تسارع في اهتماماته، خاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين. ولا أظنه إلا مستمرا في التسارع والازدياد مع بداية القرن الواحد والعشرين والألفية الثالثة.

و أشير منذ البداية إلى أنني أقتصر هنا على جانب واحد من الجوانب العديدة للاستشراق الأمريكي. هذا الجانب هو موضوع :

الأرض و الإنسان في خطاب الاستشراق الأمريكي

وسوف أناقش هذا الموضوع و أحلله في بعده الثقافي – التاريخي . كما أنني سأركز على ظاهرتين أساسيتين فقط في هذا الخطاب، هما :-

أولاً: العوامل الثقافية ـ الدينية الأمريكية، و هنا أعتقد جازما أن المعتقدات الصهيونية المسيحية الأمريكية هي معتقدات ذات منشأ و تطور غربيين، و هي تشويه

و تحريف واضحان للمعتقدات المسيحية الحقيقية التي نؤمن بها في الشرق العربي، و في الأرض المقدسة بصورة خاصة.

ثانياً: التداعيات السياسية لهذا الموضوع، و على الأخص التطورات التي حدثت في النصف الثاني من القرن العشرين ولا نزال نشاهدها كل يوم من بداية هذا القرن. وحين أتطرق لهذه التداعيات السياسية، أفعل ذلك في سياق دراسة التطور الثقافي التاريخي للاستشراق الأمريكي، دون الولوج بالتفاصيل والتعمق بالعلوم السياسية و العلاقات الدولية.

ذكرت أن الاستشراق الأمريكي بدأ مع إنشاء المستوطنات الإنجليزية الأولى في النصف الشمالي من القارة الأمريكية (العالم الجديد) في أوائل القرن السابع عشر. كان ذلك حين هاجرت مجموعات من إنجلترا إلى العالم الجديد و أسست مستوطنات على الشاطئ الشرقي من أمريكا الشمالية . كان عدد من هذه المجموعات ينتمي إلى المذهب الطهوري(Puritan)، يصفون أنفسهم بالحجاج، وكانوا في الكثير من كتاباتهم يشبهون رحلتهم من إنجلترا عبر المحيط الأطلسي إلى العالم الجديد برحلة الإسرائيليين من مصر الفرعونية عبر سيناء و البحر الأحمر إلى فلسطين. كانوا أيضا يرون في عبودية الشعب اليهودي في مصر ومشقات الرحلة و الأزمات و الصعوبات في أرض كنعان رمزا للاضطهاد الذي كانوا يلاقونه في إنجلترا و أوروبا و المشقات التي تعرضوا لها في البيئة الجديدة و بحابهاتهم مع سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) .

الأمثلة على هذا السلوك كثيرة، منها إعطاؤهم البلدان و المواقع الجغرافية في وطنهم الجديد أسماء من فلسطين مثل أسم مدينة سالم و هي أول مدينة رئيسية أنشأها المستوطنون، و جبل صهيون، و كنعان الجديدة، و القدس الجديدة و غيرها[٣].

ومن أمثلة هذا السلوك ما قاله زعيم أول مجموعة إنجليزية هاجرت إلى العالم

الجديد مخاطبا جماعته بشأن المصاعب التي تعرضوا لها:

" لعل الله يريد أن يبلونا بهذه المصائب و المحن كي نعمد إلى التوبة عما اقترفنا من ذنوب، كما عامل الله قبائل إسرائيل حين حملهم على الهجرة من أرض مصر الخصبة إلى صحراء فلسطين القاحلة[٤]. " و حين خطب أحد قادة المهاجرين الطهوريين يصف موقف الخالق من المستوطنات الجديدة، مستشهداً بجملة من العهد القديم : " و لسوف أختار لشعبي إسرائيل مكانا ملكا لهم يسكنون فيه إلى الأبد"[٥] .

هذه الظاهرة في الخطاب الأمريكي الأول هي منشأ الاستشراق حيث الأرض الأمريكية رمز للأراضي المقدسة، أرض الميعاد، و حيث الإنسان المهاجر إلى العالم الجديد رمز إنسان الشعب المختار الذي يجب أن يعود إلى تلك الأرض.

وهكذا فالاستشراق الأمريكي المبكر لم يكن يشير إلى الشرق العربي الجغرافي، بقدر ما كان يعتمد أساطير العهد القديم في تمثيل الواقع الأمريكي في ذلك الوقت. بذلك فالاستشراق الأمريكي بدأ باتجاه غربي سواء أكان ذلك في رحلته الجغرافية أم في اعتماده على أساطير العهد القديم التي دخلت في الثقافة الغربية ومعتقداتها وطقوسها.

ومن الضروري هنا أن نشير إلى أن أساطير العهد القديم هذه تستند إلى ما أدخله الغرب في المعتقدات المسيحية بحيث أصبحت تستقى من مصادر أبعد عن المسيحية الأصيلة وأقرب إلى التحريف والتشويه اللذين أصابا نصوص الكتاب المقدس. لذلك فعندما نتحدث هنا عن العهد القديم وأساطيره نقصد هذا التحريف والتشويه الذين أصابا النصوص الدينية في مسارها الغربي[٦].

لكن هذا الاعتماد على أساطير العهد القديم أدخل في القاموس الأمريكي (والغربي بصورة عامة) العبارات والمصطلحات والتراكيب اللغوية التي أصبحت جزءً مركزياً في الثقافة يتفاعل معه تأثراً وتأثيراً. كان هذا هو الأساس الذي بني عليه

خطاب الاستشراق الأمريكي .

والجدير بالذكر أن أتباع الثقافة الغربية ترسخت قناعتهم بهذه الأفكار إلى درجة جعلتهم يؤمنون بها بمثل إيمانهم بالأفكار المسيحية الحقة أو أكثر من ذلك. يقول في ذلك الناقد الإنجليزي – الأمريكي المعروف ت.س. اليوت (T.S.Eliot) "إن المصادر الثلاثة الرئيسية للثقافة الغربية هي أثينا وروما وإسرائيل" (٧) . قال ذلك في الثلاثينيات من القرن العشرين، أي قبل وجود دولة إسرائيل، وكان يعني بذلك الجذور اليهودية والعهد القديم في الثقافة الغربية. كما أن عدداً من المفكرين الغربيين مثل نورتروب فراي(٨) (Northrop Frye) يؤكدون ذلك.

وأصبح خطاب الاستشراق الأمريكي هذا يزدحم بالمصطلحات والتراكيب اللغوية التي اشتقت من مصادر العهد القديم فاتخذت معانيها ومقاصدها مكاناً هاماً في الثقافة الأمريكية ولعبت دوراً فاعلاً في توجيه هذه الثقافة خاصة حين تلاقت أمريكا أو تجابهت مع الشرق العربي جغرافياً وعلى ارض الشرق.

لكن المرحلة الأولى من هذا الخطاب بقيت في مجال الرمز والتعبير المجازي كما رأينا في مثال المهاجرين الإنجليز إلى العالم الجديد. وهنالك أمثلة كثيرة تدل على استمرار هذا التعبير الرمزي المجازي في الثقافة الأمريكية، سأقدم ثلاثة منها أعتقد أنها ذات أهمية كبيرة في استمرار الخطاب وفي التأثير بالثقافة الأمريكية على اختلاف مستوياتها.

١. المثال الأول :–

إن أول ملحمتين شعريتين وطنيتين كتبتا بعد استقلال أمريكا مباشرة هما: الأولى، "غزو أرض كنعان"(٩) (The Conquest of Canaan) بقلم تيموثي دوايت (Timothy Dwight) عام ١٧٧٨ (أي بعد سنتين فقط من الاستقلال الفعلي)، والكاتب داويت كان أحد الزعماء الموقعين على وثيقة إعلان الاستقلال. والملحمة

الثانية هي "رؤيا كولومبس"(١٠) (The Vision of Columbus) بقلم جول بارلو (Joel Barlw) عام ١٧٨٧.

بطل ملحمة "غزو أرض كنعان " هو النبي اليهودي يوشع (Joshua) الذي يمثل قائد الثورة الأمريكية جورج واشنطن، وهو يحرر أرض كنعان – أرض الميعاد – التي تمثل أمريكا.ويقول الكاتب تيموثي دوايت في مقالة سبقت كتابة الملحمة بوقت قصير " إن ثمة شمساً جديدة تدور في سماء هذه السنة الرائعة، ولن تكمل دورتها حتى ترى اليهودي وقد عاد وانغرس في شجرة الزيتون التي كان قد اقتلع منها"(١١) .

وهكذا فالقائد جورج واشنطن الذي وصل بالثورة الأمريكية إلى الاستقلال هو مثل القائد الإسرائيلي يوشع، والقارة الأمريكية هي أرض كنعان الجديدة وقد تحررت من أعداء الخالق.

فالجزء الحماسي الدرامي في الملحمة هو انتصار الإسرائيليين الذين يقودهم يوشع –الذي يرمز به الشاعر إلى جورج واشنطن – على الكنعانيين – أي الجيش الإنجليزي المستعمر– والجزء الأول من الملحمة يعرض المشهد الرئيسي للمعركة:

القائد الذي أعطى شعب إسرائيل المختار

إمبراطورية إسرائيل وأرض الميعاد

قدرت له السماء الانتصار المقدس

وقدرت لقلمي أن يصور مشهد الانتصار(١٢)

والملحمة الثانية التي كتبها جول بارلو بعنوان "رؤيا كولومبس" لا تقل عن الأولي دلالة على ترسخ فكر العهد القديم في الثقافة الأمريكية. تسرد الملحمة قصة البشرية من بدء الخليقة وحتى استقلال أمريكا، حيث تلعب هذه الأخيرة دوراً مركزياً في تاريخ العالم. في هذا الحلم يحمل كولومبس ملك يطير به عبر التاريخ. وتحتل الجزء

الأول من الحلم رحلة كولومبس من أوروبا عبر الأطلسي إلى العالم الجديد تماماً كما رحل الإسرائيليون بقيادة النبي موسى (عليه السلام) عبر سيناء والبحر الأحمر إلى أرض كنعان. ولدى وصول كولومبس إلى شاطئ القارة الأمريكية يبارك له الله بأرض كنعان الجديدة التي ستنزل عليها مملكة الإله حتى نهاية الزمان.

ففي الجزء الأول من الملحمة يصف الشاعر الرحلة إلى العالم الجديد مشبهاً إياها برحلة الإسرائيليين إلى أرض الميعاد:

مثل النبي العظيم الذي وهبت عصاه المنيرة

معجزات الإله إلى أبناء إسرائيل

والذي قاد جموعهم عبر المياه الهادرة

إلى حدود أرض الميعاد الجميلة[١٣] .

٢. المثال الثاني :–

في هذه الحالة تُستعمل قصة هذه الأساطير في وسط ديني أمريكي المنشأ، وهو مذهب كنيسة المورمون The Church of Jesus Christ of Latter – Day Saints)) في أمريكا. يلخص تاريخ هذا المذهب في أن شخصاً اسمه جوزيف سميث (Joseph Smith) رأى في الحلم أن ملكاً يدعى موروني (Moroni) يقوده إلى حيث خبئت الألواح الذهبية التي تحكي قصة سلالة القبيلة الإسرائيلية المفقودة والتي كما يخبره الملك سكنت قارة أمريكا منذ القدم، وما سكان أمريكا الأصليون (الهنود الحمر) إلا بقايا هذه القبيلة. ذهب سميث إلى تلة كومورا (Comora)بعد ذلك حيث اكتشف الألواح مع نظارة خاصة لترجمتها. وقد استطاع باستعمال هذه النظارة أن يترجم الألواح إلى اللغة الإنجليزية وينشرها عام (١٨٣٠) تحت عنوان " كتاب مورمون " (The Book

of Mormon) الذي نشر في مدينة بالميرا في ولاية نيويورك، وأصبح منذ ذلك الوقت الكتاب المقدس لطائفة المورمون[١٤].

" وكتاب مورمون " هو إعادة سرد لبعض الأجزاء المنتقاة من العهد القديم، لكنه يربط أحداث العهد القديم بالأحداث التي شهدتها أمريكا في النصف الأول من القرن التاسع عشر. بعد مقتل سميث، قاد زعماء جماعته أفراد هذه الكنيسة إلى منطقة سولت ليك في ولاية يوتا حيث استقروا وأعادوا بناء هيكل سليمان، وما زال موجوداً هناك. وبذلك أيضاً استعمل أتباع مذهب المورمون أساطير إسرائيلية رمزاً على الأرض الأمريكية.

يلاحظ الباحث في الثقافة الأمريكية استمرار استعمال الكثير من الأمريكيين وعلى مر القرون هذه الرموز في شؤون حياتهم السياسية والدينية والاجتماعية، فتكتسب هذه الرموز وما يلازمها من تعابير ومصطلحات لغوية وجوداً خاصاً بها فتصبح جزءا فاعلاً في استمرار خطاب الاستشراق الرمزي في الثقافة الأمريكية. هذا الإرث المتراكم من المصطلحات والتعابير كان له أثر كبير في تطوير الفكر الاستشراقي الأمريكي الواقعي حين اتصلت أمريكا بالشرق العربي، كما سنرى فيما بعد.

٣. المثال الثالث:

أخيراً فإن المثال الثالث لهذا الاستعمال المجازي لأرض الميعاد والشعب اليهودي في أمريكا يأتي من الفن و الأدب الشعبيين. و المصدر هذه المرة غريب و غير متوقع، فهو يأتي من الحياة الأدبية و الفنية للشعب الإفريقي ـ الأمريكي (أي الزنوج) في أمريكا.

ولعل من الغريب أن يعمد الزنوج في أمريكا إلى تمثل أسطورة أرض الميعاد والشعب المختار، و هي أسطورة أخذوها من معتقدات أسيادهم البيض، وهم الشعب الذي أختطف أفراده من إفريقيا واقتيدوا إلى نير العبودية في أمريكا و أجبروا على التخلي عن تقاليدهم و معتقداتهم و اعتناق تقاليد و مذاهب الشعب الذي

استعبدهم و قهرهم. لكن من يتمعن في تمثل هذه الأقلية المضطهدة لأساطير الفئة البيضاء المسيطرة، يجد في هذا التمثل نوعاً من الانتقام المبطن و الثورة على العبودية و القهر دون استثارة غضب الأسياد البيض.

حين سمعت في عام ١٩٦٨ خطاب الزعيم الزنجي الدكتور مارتن لوثر كينغ الابن (Martin Luther King, Jr.) قبل اغتياله بساعات لفت نظري قوله للجماهير المحتشدة:" لقد بلغت ذروة الجبل، وكأنني أرى بعيني أرض الميعاد"، ذكرتني هذه العبارة بالكثير مما كنت قرأته من الأعمال لكتاب زنوج أمريكيين من استعمال قصة موسى عليه السلام ورحلته مع شعبه إلى جبل الطور ثم وصوله إلى فلسطين بعد أن تخلص من اضطهاد فرعون في مصر.

بحثت مطولاً في أدب الزنوج وفنونهم قبل تحريرهم من العبودية وبعد ذلك، وقد فوجئت بالتواتر في استعمال هذه الأساطير في كتاباتهم وفي فنهم الغنائي الديني والدنيوي.

مثال ذلك رواية الكاتب جيمز بولدوين (James Baldwin):

" أذهب وأعلنها من أعلى الجبل " GO TELL IT ON THE MOUNTAIN[١٦]

حيث يستعمل الكاتب عنوان أغنية دينية مشهورة كعنوان لروايته. وبالإضافة إلى ما يذكر به هذا العنوان من تداعيات في أذهان القراء الأمريكيين من تراث ثقافي متراكم، فإن بولدوين أضاف إلى هذا التعبير المجازي استعمال شخصيات وأحداث تذكر لغةً وحدثاً بأساطير العهد القديم المتوارثة.

لكن المثل الأكثر وضوحاً عن تردد هذا الفكر الثقافي هو في فن الغناء والموسيقى لدى الأقلية السوداء في أمريكا، وبخاصة الغناء الديني الذي يردده أفراد هذه الأقلية في طقوسهم وفي حياتهم اليومية أيضاً. (ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا النوع من

الغناء والموسيقى لم يكن في الأصل من إبداع أو تأليف شخص واحد معروف أو اكثر من هذه الأقلية، بل هو في الواقع تراث أمريكي أوروبي لم يزل متداولاً في الغرب منذ قرون). إلا أن اقتباس الزنوج لهذا التراث هو أمر يستدعي الاهتمام نظراً لغرابة تطبيقه على حياتهم وتطورها منذ استبعادهم حتى الآن.

ولا يتسع المجال هنا إلا لعرض بعض عناوين مجموعة من الأغنيات الدينية ونصوصها التي تتمتع بشعبية كبيرة لدى عامة الزنوج الأمريكيين وغيرهم. وسوف يتبين لمن يمعن النظر في هذه النصوص مدى اقتباسها هذا الإرث الثقافي الغربي وتأثرها به.

كانت الأغاني الدينية في أيام الاستبعاد وبعد ذلك جزءاً من الحياة اليومية للزنوج في أمريكا. ولا شك أنها كانت تمد العبيد بمصدر للصبر والتحمل والأمل. فالغناء الجماعي له وظيفة اجتماعية في أوقات الفرح والحزن، والزنوج العبيد حين كانوا يعملون في حقول القطن والتنباك وفي منازل أسيادهم البيض كانوا يستمدون الدعم الروحي من أغاني دينية تبشر بالخلاص ولو كان ذلك في الحياة الآخرة.

فهذه مثلاً أغنية توحي بالخلاص والخروج من منزل العذاب، وصولاً إلى المسكن أو الوطن، لكن الوطن المقصود هنا ليس الوطن الأفريقي الأصلي، بل الخلاص في الحياة الآخرة:

SWING LOW, SWEET CHARIOT

Swing low, Sweet char-I-ot, Com-ing for to car-ry me
Home; Swing low,Sweet char-I-ot, Com-ing for to car-ry me home.

Verses

I Looked o-ver Jor-dan, and what did I see
Com-ing for to car-ry me home;

A band of an-gels coming af-ter me,
Com-ing for to car-ry me home.

If you get there be-fore I do,
Com-ing for to car-ry me home;
Tell all my friends I'm com-ing there too,
Com-ing for to car-ry me home.

يلاحظ المرء هنا استعمال الرموز المستقاة من الخطاب الديني التوراتي. فالإفريقي العبد الذي يشعر بتوق إلى الخلاص في الحياة الآخرة يرى هذا الخلاص عبر نهر الأردن حيث الملائكة آتية لتحمله إلى الوطن.

وعندما كانت قساوة العبودية تثقل كاهل العبيد الأفريقيين كانوا يحلمون بالحرية والخلاص –هنا أيضاً على شكل رمز ديني يقودهم إلى القدس برفقة يوحنا:

I WANT TO BE READY

I want to be read-y, I want to be read-y
I want to be read-y to walk in Je-ru-sa-lem just like John.

Verses

O John, O John, what do you say? Walk in Jerusalem just like John.

That I'll be there at the com-ing day, Walk in Jerusalem just like John.

John Said the cit-y was just four square Walk in Je-ru-sa-lem just like John.

And he de-clared he'd meet me there, Walk in Je-ru-sa-lem

just like John.

When Pe-ter was preach-ing at Pen-te-cost, Walk in Je-ru-sa-lem just like John.

He was en-dowed with the Ho-ly Ghost, Walk in Je-ru-sa-lem just like John.

هذه الاغاني كانت دون شك ملاذا للعبيد يعنيهم على تجاوز الألم الجسمي والعاطفي الذي تسببه العبودية. وكانت عبارات ومصطلحات الخطاب الديني محور الإحساس بالخلاص القادم. فعبارات "الجبل" و "النهر" في الأغنية التالية ترتبط بالإحساس الديني لدى العبد الأفريقي، كما يتبين من عنوانها وتعابيرها:

EV-RY TIME I FEEL THE SPIRT

Ev-ry time I feel the spir-it mov-ing in my heart, I will pray, oh
Ev-ry time I feel the spir-it mov-ing in my heart, I will pray.

Verses

Upon the mountain
When my God spoke
Out of his mouth
Came fire and smoke
Looked all around me
It looked so fine
Till ask my lord
If all was mine

Jordan's River Runs
Chilly and cold

Chills the body
But not the soul
Ain't but one train
On this track
Runs to heaven
And then Right back

هذه هي مساحة الجغرافيا الروحية التي كان الأفريقيون العبيد يلجئون إليها عندما ينتابهم الألم واليأس. ولعل هذه المساحة من الجغرافيا الروحية هي التي أوحت لأحد الشعراء الأفريقيين في أمريكا بمفهوم الحرية المطلقة الذي يتسامى فوق أمور الحياة المادية حيث عبر عن ذلك بقوله: "السلاسل لا تجعل من المرء عبداً".

لقد أرتبط مفهوم الحرية الروحية هذا بالخطاب الديني الغربي الذي اعتبر الحياة رحلة آنية لا بد أن تنتهي إلى الوطن أو المسكن الأبدي. فالعبد كان يردد الأغنية الدينية: "أريد أن أمشي مع المسيح في رحلة الحج هذه". وكانت رحلة الحج هي الرمز الذي يلجأ إليه العبيد لكي يرتحلوا في خطاب ديني إلى "المسكن" أو "الوطن". وغالباً ما كان هذا الوطن هو الموت والخلاص من العذاب. وحلم الراحة من الحياة غالباً ما يرتبط بأحد رموز الخطاب الديني التوراتي، مثل الأغنية التي تنتهي باللجوء إلى "حضن إبراهيم" كملاذ أخير. ولا يخفى على الباحث هنا ما كان النبي إبراهيم (عليه السلام) يرمز إليه في المعتقدات الغربية من "وعد" بتمليكه وذريته "أرض الميعاد". وهكذا فعبارات "حضن إبراهيم" و "الوطن" أو "الحج" و "الوعد" مجتمعة تشكل صيغة دينية كاملة مستقاة من العهد القديم، وهي في هذا السياق تدخل في عقيدة العبيد الأفريقيين في أمريكا وخاصة في كفاحهم ضد العبودية والقهر والتمييز العرقي. والنهر (نهر الأردن في الخطاب الديني) كان الرمز الجغرافي الروحي لهذه الرحلة، حيث تتداخل

الجغرافيا الروحية مع الواقع المؤلم. وعندما يسيطر اليأس على الإفريقي ويعجز عن تحمل القهر والاستبداد، يقرر أن يتخلى عن الكفاح:

سوف ألقي بسيفي ودرعي على شاطئ النهر
على شاطئ النهر... على شاطئ النهر
سوف ألقي بسيفي ودرعي على شاطئ النهر
وسأتوقف عن الحرب والكفاح
سأضع حملي الثقيل على شاطئ النهر
سألبس التاج المحلى بالنجوم
على شاطئ النهر
سأقابل أمي العزيزة
على شاطئ النهر
سأقابل يسوع الحبيب
على شاطئ النهر

وهكذا فالاستسلام للقدر واللجوء إلى الموت يرتبط بالمفهوم الديني للقاء المسيح (عليه السلام)، كما يتقاطع بالجغرافيا الروحية على نهر الأردن. والنهر في هذا التشبيه عادة ما يتقاطع مع المفهوم التوراتي لوعد الله النبي موسى (عليه السلام) وقومه بإعطائهم أرض كنعان. وفي الأغنية الدينية التالية "أيها النهر العميق" يخاطب العبد الإفريقي النهر بقوله:

أيها النهر العميق، وطني عبر نهر الأردن

النهر العميق، أيها الرب، أريد أن أعبره إلى وطني

تلك الأرض الموعودة حيث يعم السلام

DEEP RIVER

Deep, river, my home is o-ver Jor-dan
Deep, riv-er Lord, I want to cross o-ver in-to camp-ground

Verses

O don't you want to go to that gos-pel feast,
That prom-is'd land where all is peace?

تتوضح هذه الرابطة بين الموت والوطن حين تختلط مـع رمـوز دينيـة أخـرى مثـل رحلة موسى (عليه السلام) مع قومه عبر سيناء إلى أرض فلسـطين. هـذا هـو موضـوع الأغنية الدينية "لا تبكي يا مريم":

لا تبكي يا مريم، لا تحزني

فقد أغرق جيش فرعون

مياه الأردن باردة قارصة

تبرد الجسد وليس الروح

لا تبكي يا مريم

في صباح يوم ليس ببعيد
ستبحث عني ولن تجدني
لقد أغرق جيش فرعون
لا تبكي يا مريم
لو كنت أستطيع
لوقفت على الصخرة حيث وقف موسى
لقد أغرق جيش فرعون
لا تبكي يا مريم

OH MARY DON'T YOU WEEP

Chorus

Oh Mary don't you weep, don't you mourn
Oh Mary don't you weep, don't you mourn
Pharaoh's army got drowned
Oh Mary don't you weep

Verses

Jordan's River is chilly and cold
Chills the body but not the soul
Pharaoh's army got drowned
Oh Mary don't you weep

(Chorus)
One of these morning's it won't be long
Look for me and I'll be gone
Pharaoh's army got drowned
Oh Mary don't you weep

(Chorus)
If I could I surely would
Stand on the rock where Moses stood
Pharaoh's army got drowned
Oh Mary don't you weep
(Chorus)

تترسخ هذه العلاقة بين مساحتي الجغرافيا الروحية والواقعية في الأغاني مثل التي يرددها بطل رواية جيمس بولدوين "أذهب وأعلنها من أعلى الجبل" حيث يدعي جبرائيل (بطل الرواية) أنه من الذين اختارهم الله ورثة للأرض:

أقف على شاطئ الأردن الهادر

وأرسل نظرة حالمة

نحو كنعان الجميلة السعيدة

حيث تقع أملاكي

وأنا أشد الرحال إلى أرض الميعاد

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه الأغاني الدينية، رغم وضوح الموضوع الديني

فيها، فهي لا تخلو من تيـار دلالي عميـق يعـالج وضـع الإفريقيـين الأمريكيـين الدنيـوي برموز دينية. وهكذا ففي الأغنية التالية، وفي مقولات مشابهة كثيرة، تحمل عبارة "خلّ سبيل شعبي" دلالات تشير إلى قوم موسى وإلى الإفريقيين المستبعدين في أمريكا:

ارحل يا موسى إلى أرض مصر
قل لفرعون: خلّ سبيل شعبي
حين سكن شعب إسرائيل مصر
ارحل يا موسى إلى أرض مصر
قل لفرعون: خلّ سبيل شعبي

"هكذا قال الـرب" يقـول موسـى الشـجاع: خـلّ سـبيل شـعبي "وإذا لم تفعـل، سأميت مولودك البكر". خلّ سبيل شعبي

ارحل يا موسى إلى أرض مصر
قل لفرعون: خلّ سبيل شعبي
لن يرزحوا في العبودية بعد الآن، خلّ سبيل شعبي
دعهم يخرجوا بغنائم من مصر، خلّ سبيل شعبي
ارحل يا موسى إلى أرض مصر
قل لفرعون: خلّ سبيل شعبي

GO DOWN, MOSES

Go Down, mo-ses
Way down in E-gypt land, tell ole Phar-oah, Let my peo-ple go

When Is-real was in E-gypt's land: Let my peo-ple go:
Op-pressed so hard they could not stand, Let my peo-ple go

Go Down, mo-ses
Way down in E-gypt land, tell ole Phar-oah, Let my peo-ple go

"Thus saith the Lord" bold mo'ses said: Let my peo-ple go:
"If not, I'll smite your first-born dead" Let my peo-ple go

Go Down, mo-ses
Way down in E-gypt land, tell ole Phar-oah, Let my peo-ple go

No more shall they in bondage toil; Let my peo-ple go:
Let them come out with Egypt's spoil, Let my peo-ple go

Go Down, mo-ses
Way down in E-gypt land, tell ole Phar-oah, Let my peo-ple go

هذا سرد سريع ومختصر لتكرار واستمرارية استعمال هذه الرموز من قصص العهد القديم وخاصة ما يتعلق منها بموضوع "أرض الميعاد" و "الوعد" في الأغاني الدينية التي يرددها الإفريقيون الأمريكيون حتى الآن. ولا شك أن المصطلحات

والتعابير والأسماء التي أخذها الأمريكيون بصورة عامة، والإفريقيون بصورة خاصة، من العهد القديم، أصبحت جزءً أساسياً من الخطاب الديني والسياسي في أمريكا.

ليس من الغريب إذن أن يقرر الزعيم الإفريقي الأمريكي مارتن لوثر كينج الابن أنه قد وصل إلى "قمة الجبل" وأنه يرى "أرض الميعاد". فالخطاب الديني –السياسي مفعم بلغة العهد القديم، وحلم كينغ عن أرض الميعاد لا يختلف إلا قليلاً عن حلم جبرائيل في رواية بولودين أو غناء العبيد– بعبور النهر إلى الوطن.

يتأكد هذا الأمر في نصين من خطابين هامين ألقاهما مارتن لوثر كينج في مناسبتين مختلفتين. يقول في أولهما:

"عندما تصدح أجراس الحرية من كل قرية وناحية، من كل ولاية وكل مدينة، يمكننا رؤية اليوم الذي يستطيع فيه جميع أبناء الله، السود والبيض، اليهود والأمميون، البروتستانت والكاثوليك أن تتشابك أيديهم وهم يرددون معاً كلمات أغنية العبيد الدينية: أخيراً حصلنا على حريتنا، أخيراً حصلنا على حريتنا، حمداً لله أننا حصلنا على حريتنا"(١٦).

والنص الثاني من "رسالة من سجين في مدينة برمنغهام"، وهو يوضح الموروث الثقافي التوراتي في السلوك الأمريكي. يقول كينغ في هذه الرسالة: "سوف يعلم الجنوب حين يجلس أبناء الله المحرومون على موائد الطعام مع إخوانهم البيض أنهم كانوا يدافعون عن أفضل ما في الحلم الأمريكي وعن أكثر قيم إرثنا اليهودي – المسيحي قداسة"(١٧).

وهكذا فرغم ما كانت أفكار كينغ تتصف به من أبعاد إنسانية شمولية، فهو لا يستطيع الانفلات من إرث ثقافي انتقائي راسخ (الإرث اليهودي – المسيحي) في تكوين الفكر الغربي.

هذا الإرث الذي أشار إليه كل من ت.س. إليوت ونورتروب فراي، وهذا هو الإرث الذي نراه في اقتباس الإفريقيين العبيد في أمريكا لمفاهيم دينية دخلت في أدبيات خطابهم الديني والسياسي.

لكن تأثر الفكر الأمريكي بهذا الإرث الثقافي لم يقتصر على التعبير المجازي الرمزي بل تعداه إلى مرحلة الاستشراق الواقعي العملي في الشرق العربي منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى الآن.

فمنذ نهاية القرن الثامن عشر دخلت أمريكا (بعد استقلالها مباشرة) في علاقات (سلبية في معظمها) مع العالم العربي والإسلامي. دخلت في مناوشات وحروب مع دول شمال إفريقيا – دول البربر أو دول القرصنة كما كان الغربيون يشيرون إليها – ثم بدأ الأمريكيون يتوافدون على الشرق العربي بأعداد متزايدة مع مرور الزمن في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. كان منهم السائح العادي، والتاجر، والدبلوماسي، والمبشر، وكانوا ينتمون إلى جميع طبقات المجتمع الأمريكي، فمن رئيس جمهورية سابق إلى عبد اسود، ومن رجال الأدب المشهورين إلى أساتذة ورؤساء جامعات، ومن محرري صحف لهم شانهم إلى زعماء دينيين ينتمون إلى جميع المذاهب والكنائس. كلهم وفدوا إلى الشرق العربي. وقد ترك عدد كبير منهم سجلا لرحلاتهم إما على شكل كتب مطولة، أو مقالات في الصحف والمجلات، أو يوميات شخصية أو قصائد عن تجربتهم، أو روايات وقصص حظيت بشعبية كبيرة[١٨].

ولا يجد القارئ صعوبة في تلمس موضوع الأرض والإنسان في خطاب استشراقي أمريكي في الكثير من هذه الأعمال. هنا أيضا يلاحظ تأثر الأمريكيين بذلك التراث، حيث يتغنى كثير من السائحين والمبشرين والرحالة بأمجاد إسرائيل وهم يتجولون في الأراضي المقدسة، كما يراودهم الحزن من أن صاحب هذه الأرض الشرعي (الشعب اليهودي) ما زال مشردا في الشتات. في هذه الكتابات أيضا تزخر

لغة خطاب الاستشراق بتعابير ومصطلحات وتراكيب لغوية من تراث ثقافة العهد القديم التي أصبحت جزءا من الثقافة الغربية. بل إن هذا الخطاب يزداد ازدحاما بذلك التراث حين تجتمع لغته (التي كانت رمزية في السابق) مع أرض الواقع الجغرافي، الأرض المقدسة أو أرض الميعاد.

لكن عنصرا جديدا يدخل المعادلة هنا في الشرق العربي، هو الإنسان العربي الذي يقابله الرحالة الأمريكي ويتعامل معه ويصادقه أحيانا ويجابهه أحيانا أخرى. يتعامل الرحالة الأمريكي، وبصورة خاصة المبشر الأمريكي، مع هذا الواقع الجديد بطرق عدة، منها تصوير العربي شعرا أو نثرا تصويرا شاعريا رومانتيكيا يشبع توق الإنسان الغربي إلى بساطة الحياة البدوية الطبيعية. ويشكل هذا التصوير الشاعري جزء كبيرا من كتابات الرحالة الأمريكيين وأعمالهم. إلا أن غالبية الأمريكيين المتأثرين بتراث الثقافة الغربية وجدوا الإنسان العربي دخيلا على الأرض المقدسة وتعاملوا معه من هذا المنطلق.

وسوف أقتصر في هذه الحالة أيضا على ذكر ثلاثة أمثلة من الأمريكيين الذين كانت لهم تجارب شخصية طويلة في الشرق العربي، هم : وليم لينتش (Wi lliam Lynch) وهنري جيسوب (Henry Jessup) وجون باركلي (John Barclay). كل من هؤلاء الثلاثة أمضى فترة من الوقت في الشرق، وكل منهم تعرف شخصيا على عدد لا بأس به من العرب، بل كانت لهم علاقات صداقة عديدة في ربوع الشرق العربي.

١. المثال الأول:-

وليم لينتش ضابط بحرية أمريكي سابق تقدم عام ١٨٤٧ بطلب إلى وزير البحرية جون ميسون (John Mason) بالتماس يطلب فيه دعم رحلة علمية ينوي القيام بها إلى نهر الأردن والبحر الميت .

يوافق الوزير بحماس على طلبه ويزوده بباخرة مع بحارتها وضابطين من سلاح البحرية، مع دعم مالي للبعثة الاستكشافية. كما يأمر ببناء قاربين كبيرين للإبحار بهما على بحيرة طبريا ونهر الأردن حتى البحر الميت.

تغادر البعثة ميناء نيويورك في ٢٦ تشرين الثاني عام ١٨٤٧ وتصل إلى ميناء حيفا بعد رحلة أخذتها إلى استنبول والشاطئ السوري. ثم ينقل لينتش وطاقمه وعدد كبير من المواطنين العرب القاربين في رحلة شاقة خطرة إلى بحيرة طبريا وهناك ينزل القاربين في الماء ويعبر بهما بحيرة طبريا جنوباً على نهر الأردن وحتى البحر الميت.

يصف لينتش بتفاصيل دقيقة هذه الرحلة ومشاهداته العلمية والجغرافية والاجتماعية في تقرير يقدمه إلى وزير البحرية ثم ينشر كتاباً عن هذه الرحلة[١٩]. الأمور التي تستدعي الاهتمام فيما يتعلق بموضوعنا هي أنه وطاقمه حين يقتربون من ميناء حيفا تهب عاصفة هوجاء تكاد تغرقهم وباخرتهم، لكنه يقول إن مجموعة من الصيادين العرب أنقذتهم من الموت المحتم. وهو يمتدح العرب على شهامتهم ونبلهم في تحدي المخاطر من أجل إنقاذهم. ومع ذلك فما إن ينصب خيام معسكره على رمال الشاطئ ويرفع عليها العلم الأمريكي ويطلق عليه اسم " معسكر واشنطن "، حتى يتأمل أنه " لأول مرة يرفع العلم الأمريكي في مكان خارج حرم القنصلية الأمريكية. ليت هذا يبشر ببعث وعودة الشعب الذي يعاني من الغربة"[٢٠].

وهكذا يختفي العرب من رؤيا الكابتن لينتش رغم وجودهم المادي حوله، وإنقاذهم حياته وحياة طاقمه ولا يرى سوى الأمل بعودة " أصحاب الأرض ".

ورغم ما يصفه لينتش من أهوال الرحلة من حيفا عبر الجبال والوديان ومن المخاطر التي ينقذهم منها العرب الذين استأجروهم لحمل أمتعتهم والقاربين فحين ينزل العرب القاربين في مياه بحيرة طبريا ويرفع لينتش عليهما العلم الأمريكي يعبر لينتش عن سعادته الغامرة بهذا الفتح الجديد ويتمنى أن يكون فاتحة خير تنبئ بسقوط

الإمبراطورية العثمانية المحتلة، وبهداية شعوب الأراضي المقدسة المضللين وبإعادة أعمار هذه البلاد بشعبها الحقيقي(٢١).

٢. المثال الثاني:–

وتزودنا تجربة هنري جيسوب في الأراضي المقدسة، والشرق العربي بصورة عامة، بمثال آخر على تأثير الإرث الثقافي نفسه في خطاب الاستشراق الأمريكي. فجيسوب يمضي فيما يسميه " سوريا " ما يزيد على ثلاث وخمسين سنة من عام ١٨٥٠ وحتى عام ١٩٠٣ معظمها في بيروت. لكنه يتنقل مراراً في ربوع فلسطين. يؤلف جيسوب عدة كتب ومواعظ ومقالات أثناء هذه الفترة الطويلة يتوجها بكتاب عنوانه " ثلاث وخمسون سنة في سوريا "(٢٢).

يجد المرء في كتابات جيسوب هذا نموذجاً مثالياً لخطاب الاستشراق الأمريكي. فهو يرى آيات كثيرة في تلازم الأحداث التاريخية، مثل ما يصفه باستعادة فرديناند وإيزابيلا للأندلس وتصفية المسلمين فيها وتزامن هذا الحدث مع اكتشاف كولومبس لأمريكا وإدخال العرق الأنجلو – ساكسوني إليها. إن ذلك كما يقول جيسوب سوف يكيل الضربة الأخيرة لإمبراطورية الشر ويأتي بالفصل الأخير للمسرحية الكونية بعودة تأسيس إسرائيل في أرض الميعاد. فالعرق الأنجلو – ساكسوني في رأيه هو الوحيد القادر على تحقيق الأحداث التي تنبأ بها العهد القديم، خاصة فيما يتعلق بالأرض المقدسة والإنسان الذي وعد بها. ونرى هنا أيضاً رجلاً عاش بين العرب لفترة تزيد على نصف قرن وصادق عدداً كبيراً منهم – أي أنه لا بد شعر بوجودهم المادي والتاريخي على الأرض – إلا أنه يستسلم في نظرته التاريخية والتنبؤية لتراثه الغربي، ويخطط للأرض دون اعتبار الشعب الذي يعيش عليها والذي يتعامل معه يومياً لمدة تزيد عن نصف قرن.

٣. المثال الثالث :-

والذي أورده هنا هو الطبيب الأمريكي جون باركلي الذي أمضى بدوره فترة طويلة في الأراضي المقدسة في النصف الأول من القرن التاسع عشر. كانت حصيلة تجربة باركلي الطويلة كتاباً ضخماً بعنوان " مدينة الملك العظيم : القدس كما كانت في السابق، وكما هي عليه الآن، وكما يجب أن تكون" الذي صدر في فيلادلفيا عام ١٨٥٨[٢٣].

يصف باركلي الأراضي المقدسة بتفاصيل مذهلة، ويتطرق إلى جغرافيتها وسكانها والحالة الاجتماعية والسياسية وغيرها في هذه البلاد. لكن الأمر الأكثر أهمية هو ما يتخلل الكتاب مراراً من حسرة على أوضاعها ووقوعها في يد عرق أدنى، ثم التخطيط الدقيق لمستقبلها. كل ذلك مصبوغ بتأثير ذلك الفكر الثقافي الذي نراه في أعمال لينتش وجيسوب والعديد من الأمريكيين من معاصريهم.

ولا يتسع المجال هنا إلا لإيراد خلاصة الحل الذي يقترحه باركلي لمعضلة الرجل المريض، ألا وهو :-

" سقوط تركيا وتأسيس الكومونويلث اليهودي بحماية من بريطانيا، ثم إرضاء روسيا بمولدافيا والنمسا بالبوسنة والهرسك وإعطاء مصر لفرنسا لترسيخ نفوذها في شمال إفريقيا"[٢٤].

والجدير بالذكر أن ما لخصته من سلوك ومواقف هؤلاء الأمريكيين الثلاثة ومواقفهم ينسحب تفصيلاً على الكثير من الأمريكيين الذين زاروا المنطقة، بل وعلى كتابات عديدة ألفها أشخاص لم يتعرفوا شخصياً عليها.

يقود هذا السرد السريع لمسيرة خطاب الاستشراق الأمريكي في القرن التاسع عشر إلى الاعتقاد بأن التراث الذي نتج عنه هذا الخطاب كان له دون شك تأثير في

سلوك الأمريكيين ومواقفهم نحو الأرض العربيــة والإنســان العربـي في القــرن العشــرين والقرن الحالي.

ففي النصف الثاني مــن القــرن العشــرين، وبعــد أن غرســت دولــة إســرائيل علــى الأرض العربية نجد استكمالا مكثفا لهذا الخطاب، بعد أن تم على أرض الواقع ما اعتبره كثير من الأمريكيين تحقيقا لتراثهم الثقافي وتنبؤاته.

وسأعرج هنا على ظاهرة واحدة فقط نظرا لأنــها تزودنــا في رأيـي بمثــال واضــح على استمرار هذا الخطاب في أوساط كثيرة من الأمة الأمريكية، ولأنها أيضــا تؤثــر في الفكر المعاصر سواء أكان ذلك في الحياة السياسية أم الاجتماعية أم في غيرهما.

هذه الظاهرة هي ما يدعى " بالحمى الألفية " (The Millennial Fever) الــتي أصابت شرائح عديدة من المجتمع وطفت على السطح بصورة خاصة مع اقــتراب نهايــة الألفية الثانية وبداية الألفية الثالثة.

فالأحداث العالمية الهامة والمتلاحقة التي شهدها القــرن العشــرون مثلــت للكثــيرين تمهيدا لنهاية الزمان واقتراب الساعة. وكان إنشاء دولة إسرائيل محطة هامــة في مســيرة هــذه الأحــداث، إذ فسـر كثـيرٍ مـن الأمريكيـين الأحـداث السياسـية العالميـة في ضــوء معتقداتهم وتراثهم الثقافي.

بل إن منهم من دخل في التفاصيل مما حــدث علــى المسـرح العــالمي مــن حــروب وكــوارث وراح يطبقــها علــى ذلــك الــتراث الثقــافي. ولا شــك أن هــذا النــوع مــن الكتابات لاقى رواجا في الأوساط الدينية والشعبية، وهكذا نرى عددا من الأفلام الــتي تعالج هذا الموضوع مثل :-

Th Seventh, The Rapture, The Omen,
Armageddon, Contact, and The Sign

وغيرها من البرامج التلفزيونية الترفيهية مثل :-

The Lion King و Millenium

ثم العدد الكبير من الكتب التي لاقت رواجاً كبيراً مثل كتاب :-

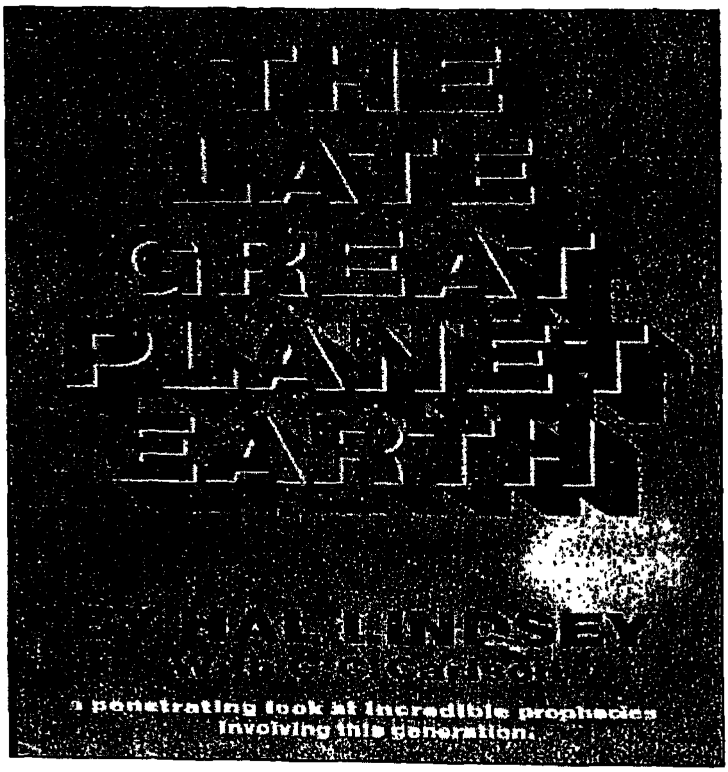
Stephen King بقلم The Stand

وكتاب : The Great and Secret Show

بقلم Clive Parker

وكتب هال ليندزي (Hal Lindsay) التي تزيد عن العشرين عنواناً، وأشهرها:-

"كوكب الأرض العظيم البائد" The Late Great Planet Earth



والذي يرى فيه علامات واضحة في الطريق إلى آخر الزمان أهمها إنشاء دولة إسرائيل عام (١٩٤٨) " واستعادة " مدينة القدس عام (١٩٦٧). ثم هو يقرأ في الأحداث السياسية الأخرى مثل دعم الاتحاد السوفيتي للعرب تحقيقاً لهجوم تقوم به " دول الشمال " على إسرائيل ووقوع معركة " مجيدو " قرب حيفا التي تمهد لمملكة الإله، وهذه تعابير وأحداث مأخوذة من العهد القديم. كما أن ليندزي رأى في تصاعد قوة إيران والعراق في السبعينيات والثمانينيات علامة على إعادة بناء مدينة بابل وأثر ذلك في اقتراب الساعة.

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٠ وأعيدت كتابته وطباعته عدة مرات. وقد بلغت مبيعاته أرقاماً خيالية إذ بيع منه خمسة وثلاثون مليون نسخة، وترجم إلى أكثر من خمسين لغة وأنتج فيلم عنه عام ١٩٧٨.

والكاتب هال ليندزي هو من عتاة محترفي نهاية الزمان. فبالإضافة إلى الكتاب المذكور آنفاً، ألف ليندزي العديد من الكتب وألقى مئات المحاضرات والمواعظ عن هذا الموضوع. من هذه الكتب التي لاقت رواجاً كبيراً:

١- "الشيطان حي ونشيط في كوكب الأرض" (١٩٨٠).

٢- "ثمة عالم جديد قادم" (١٩٧٣).

٣- " تحرير كوكب الأرض" (١٩٧٤).

٤- "الجيل الأخير" (١٩٧٦).

٥- "العد التنازلي نحو معركة مجيدة" (١٩٨٠).

٦- "العقيدة المحاربة" (١٩٨٦).

٧- "الطريق إلى المحرقة" (١٩٨٦).

٨- "المعركة الأخيرة" (١٩٩٥).

٩- "شيفرة نهاية العالم" (١٩٩٧).

١٠- "كوكب الأرض: الفصل الأخير" (١٩٩٨).

في جميع كتاباته، يصر هال ليندزي على وضع إسرائيل في مركز الحركة نحو نهاية الزمان، ويفسر الأحداث السياسية المعاصرة على أنها تحقيق لتنبؤات العهد القديم.

وتتجلى هذه " الحمى الألفية " بشكل أوضح منذ العقد الماضي بانتشار استعمال الشبكة العالمية (الإنترنت). إذ يمكن للمرء أن يجد عشرات المواقع التي خصصت لموضوع آخر الزمان حيث ترد عناوين مئات المؤلفات عن الموضوع، من كتب ومقالات ومجلات متخصصة وأشرطة مرئية ومسموعة.

إن من يدخل مكتبة في أمريكا أو يتجول في مواقع الإنترنت (هذه الغابة الإلكترونية) يلاحظ تزاحم الكتب والمجلات على رفوف المكتبات وتنافس المواقع في تلك الشبكة.

هنا أيضاً سنكتفي بعرض بعض الأمثلة على هذه الظاهرة التي اكتسبت شعبية كبيرة في أوساط الأمريكيين المحافظين. من هذه الأمثلة موقع على شبكة الإنترنت عنوانه "فهرس يأجوج" (The Gog Index) حيث يطلع صاحب الموقع على زواره بتاريخ ١٠/١٢/٢٠٠٠ بتحليل للأحداث في فلسطين مبني على تنبؤات العهد القديم. يقول:

"دعونا نذكر ما حذرت منه في السابق:

١- الشعوب العربية في الحقيقة لا تريد السلام مع إسرائيل. بل هي ترغب بتدمير إسرائيل بأية وسيلة بما فيها هجوم مباغت.

٢- روسيا، في محاولة لاستعادة نفوذها العالمي، سوف تساعد الشعوب العربية في تحالفها ضد إسرائيل.

٣- ستكون القدس القضية المركزية التي ستبدأ المعركة من أجلها.

٤- ستنتصر إسرائيل بفضل معجزة العون الإلهي.

٥- وأخيراً ستوقع اتفاقية سلام تمهيداً لتقديم الأضحية على المعبد ثم لظهور المسيح الدجال.

وفي ختام مقالة مطولة من التحليل السياسي الديني للأحداث في المنطقة، ينتهي الكاتب إلى القول: " لقد حذرت من أمور عديدة في كتاباتي عبر السنين، إلا أنني أكاد أضمن أن ينصت اليهود والمسيحيون وخاصة إسرائيل لهذه النبؤة. سوف تتعرض إسرائيل لهجوم من اتحاد عربي قبل نهاية السنة".

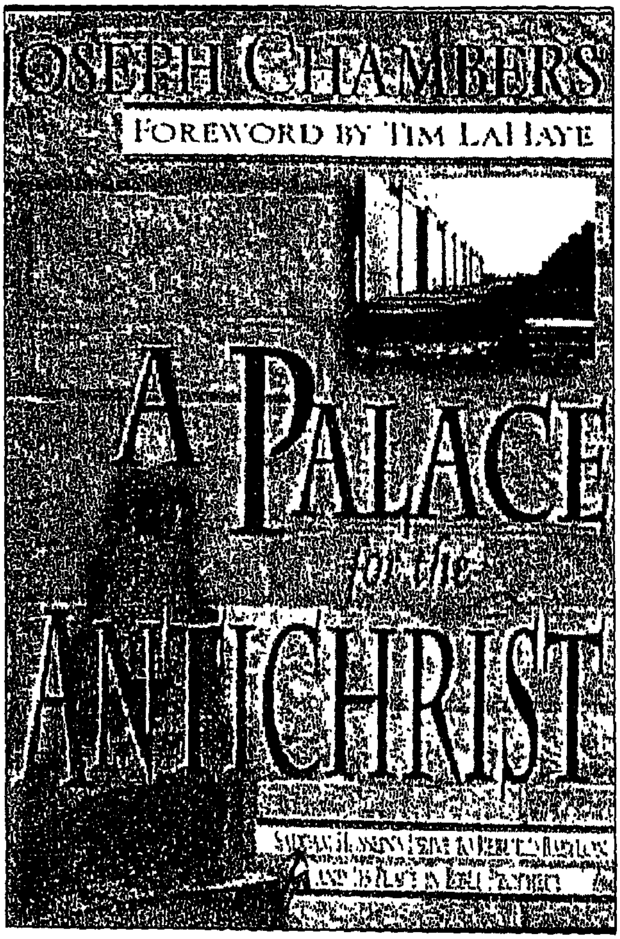
وموقع آخر عنوانه "الألفية وسفر الرؤيا" (Millennium and Apocalypse) يقدم صاحبه معلومات وتنبؤات عن المؤامرات التي ستؤدي إلى نهاية الزمان. يقول " مراقب الأحداث الألفية" في هذا الموقع بتاريخ ٢٠٠٠/١٠/١٣: "لقد استنتجت من الأحداث المعاصرة بأن حرباً في إسرائيل ستكون الحدث النبوي التالي في سياق خطة الإله. وحرب إسرائيل هذه ستنتج عنها نبؤة يأجوج ومأجوج، حيث تتحقق الأمور التالية:

١- إن معجزة انتصار إسرائيل سوف تهدي الناس ثانية إلى الله وإلى الدين اليهودي. وسيكون هذا هو الحافز على إعادة بناء الهيكل.

٢- سوف تبدو معركة يأجوج ومأجوج وكأنها تحقيق لمعركة مجيدو الأخيرة. وسوف يتوقع الناس ظهور مسيحهم بعد هذه الحرب الكبيرة، لكن المسيح الدجال سيظهر.

بالإضافة إلى هذه المواقع، فإن الشبكة العالمية ودور النشر تطلع علينا بعناوين

عشرات الكتب التي تأخذ هـذا المنحى في تحليل الأحداث السياسية المعاصرة وبخاصة في سياق نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الثالثة. من هذه العناوين التي تحاول استباق نهاية الألفية الثانية كتاب عنوانه: "قصر من أجل المسيح الدجال: حملة صدام حسين لإعادة بناء بابل ومكانتها في تنبؤات الكتاب المقدس" (١٩٩٦)، وهو بقلم جوزف تشامبرز.



Saddam Hussein's Drive to Rebuild Babylon and Its Place in Bible Prophecy.

هذا الكتاب يربط الأحداث السياسية بتنبؤات العهد القديم، فيعتبر الرئيس العراقي وأحداث حرب الخليج جزءاً من نبوءة إعادة بناء بابل تمهيداً لظهور المسيح الدجال. كتب أحد القراء رأياً في هذا الكتاب قائلاً: "لقد وجدت فيه معيناً من الجواهر، إذ قضى الله لي أن أحظى ببركاته أثناء قراءة الكتاب".

والقائمة التالية من العناوين تقدم نموذجاً لمعالجة عشرات الكتب لهذا الموضوع في سياق نبؤات العهد القديم:

١- "المعركة من أجل القدس" (٢٠٠١) بقلم جون هاجي.

٢- "هيكل الأيام القادمة القريبة" (١٩٩٩) بقلم راندل برايس.

٣- "خمس وعشرون آية في إسرائيل اليوم" (٢٠٠١) فيديو وكتاب بقلم نوح هاستينغر.

٤- "القدس في النبوات: مسرح المسرحية الأخيرة" (١٩٩٨) بقلم راندل برايس.

٥- "إسرائيل في مفترق الطرق" (١٩٩٨) بقلم دافيد دولان.

٦- "هيكل المسيح القادم: رؤيا ايزكل عن هيكل المستقبل" (١٩٩٧) بقلم جون سميث وكارين ليني.

٧- "ثمن إسرائيل: في ظلال معركة مجيدو" (١٩٩٧) بقلم مونا جوهنيان.

٨- "آخر العمالقة: رفع الستار عن الإسلام ونهاية الزمان" (١٩٩١) بقلم جورج أوتيس.

يضيف إلى شعبية هذا الموضوع في الأوساط الأمريكية أيضاً النفوذ الذي يتمتع به بعض رجال الدين المتطرفين والذين يطلون على المجتمع الأمريكي على شاشات التلفزيون مراراً ويشاهدهم الملايين من أوساط المجتمع المختلفة. وقد سمي الكثير من

هؤلاء بدعاة التلفزيون (Televangelists) لمهارتهم في استعمال هذا الوسط للوصول إلى أكبر عدد من الناس.

من هؤلاء ثلاثة أعتقد أنهم لعبوا دوراً هاماً للترويج للفكر الثقافي في موضوع بحثنا هذا. هؤلاء هم بيلي غراهام (Billy Graham) و جيري فالويل (Jerry Falwell) وبات روبرتسون (Pat Robertson).

لهؤلاء الأشخاص أتباع يعدون بالملايين يتأثرون بآرائهم ودعواتهم لدرجة كبيرة جداً. ولكل منهم مساهمات في دعم الحمى الألفية والفكر الصهيوني في الثقافة الأمريكية، كما أن فالويل وروبرتسون يعملان علناً على دعم إسرائيل لأنها في رأيهما تمثل ما يبشران به من معتقدات.

هذا هو عرض تاريخي موجز لموضوع " الأرض والإنسان في خطاب الاستشراق الأمريكي". والسؤال الآن : ما هي أهمية هذا الجانب من الاستشراق الأمريكي خاصة، والثقافة الأمريكية عامة، بالنسبة لنا؟

أولاً أريد أن أبين بوضوح تام أنني لا أعتقد أن هذا العامل هو الوحيد في التأثير في الفكر والسلوك الأمريكيين حيال الشرق العربي. وأعتقد أيضاً بأن العوامل الاقتصادية والعلاقات الدولية، والمخططات الاستراتيجية والقوة الكبيرة التي يتمتع بها اليهود في أمريكا، وغيرها من العوامل له أثر كبير في هذا السلوك. لكن هذا العامل (عامل الإرث التوراتي في الفكر الثقافي الأمريكي) في رأيي له أهمية وتأثير لا يستهان بهما، إضافة إلى أننا نحن العرب، لم نخضعه للبحث والدراسة التين يستحقهما.

تحليل الخطاب في علم اللغة هو (بصورة عامة وموجزة) دراسة العلاقة بين الكلمة أو التعبير اللغوي وبين مقاصد هذا التعبير. فالكلمة أو التعبير اللغوي يرمزان في أبسط استعمالاتهما إلى شيء ما أو إلى فكرة بسيطة.

لكن الكلمة أو التعبير اللغوي أو المصطلح اللغوي تكتسب تعقيداً يتزايد في دلالاته ومقاصده كلما تراكمت تجارب المجتمع الذي يستعمل اللغة وتطورت ثقافته. وهكذا فاللغة بكلماتها وجملها تصبح أكثر من وعاء حامل للأشياء والأفكار، بل هي تلعب دوراً فاعلاً في تطور الأفكار والأساطير والمعتقدات وتساعد على تراكمها وانتقالها عبر الأجيال.

وأبناء المجتمع أو الثقافة هم الذين يدركون مقاصد ودلالات التعابير اللغوية على مستويات مختلفة من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً وذلك حسب درجة ثقافتهم وانتماءاتهم.

وهنا تكمن الأهمية الثقافية والتاريخية لموضوع خطاب الاستشراق الأمريكي المتعلق بالأرض والإنسان. أسارع إلى إعطاء بعض الأمثلة لكي لا يكون الكلام نظرياً:-

حين خاطب مارتن لوثر كينج الابن الجموع المحتشدة المطالبة بالحرية والمساواة قائلاً: " لقد بلغت قمة الجبل، وأنا أرى أمامي أرض الميعاد" أرسل رسالة لها دلالات عديدة لسامعيه. فهو شخصياً بلغ من الشهرة والأهمية ما يمكن تشبيهه بقمة الجبل، وقد استطاع تحقيق الكثير على طريق المساواة. والمجتمع الذي يخاطبه يفهم قوله في سياق حركة تحرير الزنوج وإعطائهم حقوقهم. لكن تعابير " قمة الجبل " و " أرض الميعاد " وغيرهما هي من المخزون اللغوي الثقافي الذي لا بد أن يثير في أذهان أبناء الثقافة – ولو بصورة لا واعية – أفكاراً تتجاوز الواقع الحسي إلى المعتقدات الكامنة في تلك الثقافة.

إن الجموع التي كانت تستمع إلى كلمات الزعيم الزنجي كانت أيضاً ولا شك تسمع مراراً الأغاني الدينية وغيرها التي تحكي قصص بني إسرائيل ورحلتهم إلى " أرض الميعاد " بشكل جعل هذه القصص جزءً من ثقافتهم ومعرفتهم، ولاقت قبولاً لديهم .

ألا يمكننا إذن أن نتصور ما يدور في أذهانهم وما نثيره في ذاكرتهم الثقافية أخبار الأحداث في الشرق الأوسط، وفي الأراضي المقدسة بصورة خاصة؟

ثمة أمثلة أخرى على أثر هذا الخطاب اللغوي :-

١- بعد الغزو الإسرائيلي الوحشي للبنان عام ١٩٨٢ طلب أحد المراسلين من الرئيس ريغان التعليق على ذلك. فأجابه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بكل بساطة: " ربما كانت هذه معركة مجيدو ".

٢- وفي عام ١٩٩٧ زار نائب رئيس الجمهورية الأمريكية، آل غورAl Gore إسرائيل، وكان هدف الزيارة كما قال هو " جئت أحتفل معكم بتحقيق نبوءة عمرها ثلاثة آلاف عام ". وحين سأله أحد المراسلين العرب عن رأيه في معاناة الشعب الفلسطيني واللاجئين الذين يزيد عددهم عن الأربعة ملايين ومأساتهم في الخمسين سنة الماضية، أجابه، أيضاً ببساطة ، " أنصح العرب ألا ينشغلوا بالالتفات إلى الماضي، وأن يتطلعوا إلى المستقبل". وهكذا يقطع نائب الرئيس آلاف الأميال لكي يعود إلى تاريخ أسطوري يمتد ثلاثة آلاف عام، لكنه لا يجد أي تناقض بين ذلك وبين طلبه إلى الفلسطينيين أن لا ينشغلوا بالماضي المحسوس الواقعي المستمر.

٣- وفي العام نفسه جاء رئيس مجلس النواب الأمريكي، نوت جينجريتش (Newt Gingrich)، إلى إسرائيل لكي يحتفل بما وصفه " باستعادة مدينة القدس والهيكل " مدينة الملك العظيم " .

٤- بعد مجزرة قانا بأيام زار رئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريز أمريكا واستقبله الرئيس كلينتون في قاعدة جوية. وحين وقف أمام المصورين والصحفيين ربت كلينتون على كتف بيريز وراح يتغنى بما سماه " القيم المشتركة " التي تربط أمريكا بإسرائيل.

٥- في الثالث من أيار من العام ٢٠٠٠، وضمن حملته الانتخابية لمنصب رئيس الجمهورية، خطب آل غور في الاجتماع السنوي للجنة العمل السياسي الأمريكية – الإسرائيلية (AIPAC) فقال فيما قاله : " إنني أحترم ذكرى بن غوريون احتراماً عظيماً. فقد كان نبياً من أنبياء هذا العصر، وكان ينتمي إلى جيل يشعر بأن من مسؤولياته تحقيق حلم القرون الطويلة وهو تأسيس دولة إسرائيل. واليوم نجتمع في أول قرن جديد وما زلنا نحاول معاً تحقيق الحلم النبوي التوراتي". وأضاف غور : " لن أسمح أبداً لأي كان أن ينسى أن الروابط بين الولايات المتحدة وإسرائيل مبنية على صخرة من الجرانيت – على صخرة قيمنا المشتركة وإرثنا المشترك ".

لا يمكن للمرء الذي يتابع الأحداث المعاصرة إلا أن يدرك أن هذه التصريحات وغيرها بما فيها من التعابير والمصطلحات ذات الدلالات الخاصة بخطاب الاستشراق تكرر بأشكال متعددة أفكار الإرث الثقافي الذي نتحدث عنه هنا، كما أنها استمرار تراكمي لما عرضناه من أحداث وأعمال في القرنين الماضيين.

تتردد في هذه المواقف والتصريحات تعابير ومصطلحات " قمة الجبل "، و " الصخرة "، و" الأنبياء " و " الأحلام النبوية " و " معركة مجيدو" و " مملكة إسرائيل " و " أرض الميعاد " وغيرها. ولا شك أن أبناء الثقافة الأمريكية (والغربية بصورة عامة) يدركون المعنى المباشر الآني المقصود منها، لكن ذاكرتهم الثقافية لا بد أن تسترجع من تراثها التراكم الفكري الغزير المرتبط بهذه التعابير.

حين يصف الرئيس ريغان مذابح غزو لبنان والهمجية الإسرائيلية "بمعركة مجيدو " لا يحتاج إلى التفصيل في تعريف هذه المعركة ودلالاتها الثقافية السياسية، بل هو يعتمد على إدراك أبناء ثقافته لها على أنها المعركة الأخيرة في آخر الزمان بين قوى الخير وقوى الشر. ذلك هو تعريف "قاموس التراث الأمريكي" (The American

(Heritage Dictionary لتعبير Armageddon أي معركة مجيدو .

وهذا الإرث الثقافي يغني الرئيس ريغان عناء التصريح عمن يعتبرهم قوى الخير ومن يعتبرهم قوى الشر. فالأمر واضح في ذاكرة سامعيه الثقافية.

كما أن الأمر نفسه يطبق على تصريحات نائب الرئيس آل غور وغيره. فالأنبياء والصخرة والحلم النبوي ومدينة الملك العظيم وغيرها جميعاً تعج بالمقاصد والدلالات الثقافية لمن يسمعها من أبناء تلك الثقافة.

كما يتضح لمن يتابع هذه الأحداث والتصريحات، وخاصة ما يجري على الساحة منذ بضعة أشهر أن الإنسان العربي لا وجود له في ذاكرة المتحدث الثقافية أو في ذهن السامع، وإذا وجد بفعل الأحداث فوجوده هامشي لا أهمية له، أو هو وجود غير مشروع أساساً.

وهكذا، فخطاب الاستشراق الأمريكي الذي بدأ مع بداية الاستيطان في نصف القارة الأمريكية الشمالي ما زال يشكل عاملاً ذا أهمية كبيرة في تكوين الفكر والسلوك الأمريكيين حتى يومنا هذا، وخاصة فيما يتعلق بالأرض والإنسان في الشرق العربي.

الهوامش

١- أنظر إدوارد سعيد:

<u>Orientalism</u> (Vintage Books, U.S.A. 1979)

الصفحات ١-٥.

٢- المرجع السابق: ص ٣-٤ و ص ٢٩٠.

٣- أنظر معالجة مطولة لهذا الموضوع في كتابي:

Fuad Shaban, **<u>Islam and Arabs in Early American Thought: The Roots of Orientalism in America</u>** (Acorn Press, Durham, N.C. U.S.A. 1991)

خاصة الفصل السابع

٤- أنظر:

John Winthrop, "Contusions" **<u>Old South Leaflets,</u>** II (50). P.10.

٥- أنظر:

John Cottor, "God's Promise to His Plantation" **<u>old South Leaflets</u>**, III (53), title page.

٦- -إن موضوع هذا البحث لا يتيح الفرصة للدخول في تفاصيل هذا التشويه الذي أصاب النصوص الدينية في الغرب. ويمكن لمن يريد التوسع في دراسة هذا الموضوع الرجوع إلى الأعمال التالية:

-جورجي كنعان: "وثيقة الصهيونية في العهد القديم" بيروت، دار النهار، ١٩٨٢.

-جورجي كنعان: "أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين" بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٨.

-ندرة اليازجي: "رد على اليهودية واليهودية المسيحية" دمشق، دار طلاس، ١٩٨٤.

-روجي غارودي: "الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" ترجمة م.ع. كيلاني، دار الكاتب، دمشق، بدون تاريخ.

-محمد فاروق الزين: "المسيحية والإسلام والاستشراق" دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٠.

٧- أنظر:

T.S.Eliot, " Notes on the Definition of Culture" 1953 ed. P.30 4.

٨- أنظر:

Northrop Frye, **The Great Code: The Bible in Western Literature,** 1982, P. 325.

٩- Timothy Dwight, **The Conquest of Canaan** Gainesville, Fla, 1969.

١٠- Joel Barlow, **The Vision of Colombus**, Gainesville, Fla, 1970.

١١- Dwight, **The Major Poems of Timothy Dwight,** Gainesville, Fla, 1969.

١٢- Dwight, **The Major Poems**, 21.

١٣- Joel Barlow, **The Works of Joel Barlow**, 1970 II, 29-30.

١٤- **The Book of Mormon**, Salt Lake City, 1981.

١٥- James Baldwin, **Go Tell It On The Mountain**, Bantam Doubleday, N.Y, 1985.

١٦- **The Annals of America**, Vol. 18, P.149.

١٧- **المرجع السابق**. ص ١٥٩.

١٨- أنظر كتابي: **Islam and Arabs** وخاصة الفصل السادس من أجل دراسة تفصيلية للرحالة الأمريكيين في العالم العربي.

١٩- William Lynch, **Narrative of the U.S. Expedition to the River Jordan and the Dead Sea**. 9th ed, Philadelphia, 1853.
William Lynch, **Official Report**, Baltimore, 1852.

٢٠- Lynch, **Narrative**, p. 81.

٢١- المرجع السابق، ص ١٢٠.

٢٢- Henry Jessup, **Fifty – Three Years in Syria**, 2 Vols., N.Y., 1910.

٢٣- John T.Barclay, **The City of the Great King: or, Jerusalem as It Was, As It Is, and as It Is to Be**, Philadelphia, 1858.

٢٤- Barclay, p. 210.

القدس في سياسة حكومة الانتداب البريطاني

د. عصام سخنيني

كلية الآداب - جامعة البترا

خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الأولى وفي حقيبتها ثلاثة تعهدات لأطراف ثلاثة مختلفة بشأن فلسطين يتناقض أحدها مع الآخر تناقضا جذريا. الأول منها هو تعهدها للشريف حسين بن علي، شريف مكة، بموجب ما عرف باسم مراسلات حسين ـ مكماهون، بإقامة دولة عربية برئاسته رسمت المراسلات حدودها التي شملت من بين أراض عربية أخرى أرض فلسطين[1]. وكان التعهد الثاني هو ما التزمت به بريطانيا لحليفتين رئيسيتين من حلفائها في الحرب، فرنسا وروسيا، بأن تجعل جزءا من فلسطين منطقة دولية بعد انتهاء الحرب، وقد ضمن هذا التعهد بما عرف باتفاقية سايكس ـ بيكو[2]، وكانت هذه المنطقة الفلسطينية هي ما رسمتها الاتفاقية المذكورة باللون البني. أما التعهد الثالث فهو الذي ضمنه بلفور وزير خارجية بريطانيا في تصريحه/ رسالته إلى روتشيلد في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧، والذي ألزمت به بريطانيا نفسها بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

وإذا كانت بريطانيا قد نكثت بتعهدها للشريف حسين حال انتهاء الحرب مباشرة بفرض أمر واقع جديد على المنطقة التي حددتها المراسلات لتكون دولة عربية مستقلة وذلك باقتسامها مع فرنسا، كما تخلت عن التزامها بتدويل فلسطين بموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو بعد أن استفردت قواتها العسكرية باحتلالها دون شريك، فهي

---

(١) المراسلات المقصودة هي عشر رسائل متبادلة بين الشريف حسين بن علي والسير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر، مؤرخة بين ١٤ تموز ١٩١٥ و١٠ آذار ١٩١٦، وقد أبقتها الحكومة البريطانية طي الكتمان إلى أن نشرتها رسميا في العام ١٩٣٩ بموجب المرسوم Cmd. 5937 (1939) .

(٢) توصلت بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية إلى هذه الاتفاقية بإحدى عشرة رسالة تبادلتها الدول الثلاث، وتعتبر الرسالة التي وجهها إدوارد جري، وزير خارجية بريطانيا، إلى بول كامبون، السفير الفرنسي في لندن، في ١٦ أيار ١٩١٦ هي الوثيقة الرئيسية في الاتفاقية التي توضح مضمونها بتفصيل. انظر نصوص الرسائل في:
E.L. Woodward and Ruhan Butler (editors), *Documents on British Foreign Policy 1919-1939* (London: Her Majesty's Stationary Office, 1955), First Series, Vol. IV, pp. 241-251.

وثقت تعهدها للحركة الصهيونية رسميا بصك الانتداب على فلسطين الذي منحته عصبة الأمم لبريطانيا (في ٢٤ تموز ١٩٢٢) والذي تضمن نصوصا صريحة بشأن الوطن القومي لليهود[١].

تحددت سياسة بريطانيا في فلسطين، إذن، وفي الفترة ما بين ١٩١٧ عام دخول قواتها إليها و١٩٤٨ عندما أعلن رسميا عن انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، على أساس العمل بتصريح بلفور وبنود صك الانتداب الخاصة بإنشاء وطن قومي لليهود فيها. وليس القصد من هذه الورقة أن تبحث في أسباب صدور تصريح بلفور ومن ثم السياسة الصهيونية التي تبنتها بريطانيا في فلسطين، بل الغرض منها إظهار النتائج التي ترتبت على هذه السياسة بشأن القدس خاصة. فبريطانيا لم تستثن القدس من الوظيفة التي أخذت على عاتقها تنفيذها في فلسطين بأن تقيم فيها وطنا قوميا لليهود. ولكي تحقق هذه الوظيفة غاياتها القصوى سعت الدولة الانتدابية إلى أن تؤسس ظروفا مادية تتيح إنشاء هذا الوطن القومي كانت ماثلة طوال عهد الانتداب في شأنين رئيسيين: الأول الإخلال بالتركيبة السكانية في فلسطين باتجاه زيادة السكان اليهود فيها وذلك بفتح أبواب الهجرة اليهودية إليها على مصاريعها، أما الثاني فكان العمل على تمكين اليهود من امتلاك أكبر مساحة ممكنة من أراضي فلسطين.

ولتنفيذ هاتين الغايتين تعاملت السلطات الانتدابية البريطانية مع القدس تعاملا خاصا أسسته على قاعدة إدخال تعديلات جذرية على خارطة المدينة الجغرافية

---

(١) جاء في مقدمة صك الانتداب أن الدولة المنتدبة "مسؤولة عن تحقيق الوعد الذي قطعته حكومة صاحب الجلالة البريطانية في الثاني من تشرين الثاني سنة١٩١٧"، وجاء في البند الثاني من الصك أن "الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في حالة سياسية وإدارية واقتصادية تضمن تأسيس الوطن القومي اليهودي"، ويعترف البند الربع بالوكالة اليهودية "كمؤسسة عامة هدفها مشورة إدارة فلسطين والتعاون معها في الأمور التي قد تؤثر في تأسيس الوطن القومي اليهودي"، ويفرض البند السابع "تسهيل منح اليهود الجنسية الفلسطينية"، واعتبر البند الثاني والعشرون اللغة العبرية لغة رسمية.

والسكانية تحقق بها هدف تحويلها إلى مدينة ذات أغلبية يهودية. كان ذلك من خلال توسيع الحدود البلدية للقدس لتضم إليها أكبر عدد من المستوطنات اليهودية بحيث تصبح هذه المستوطنات جزءا من المدينة. وكما لاحظ أحد الباحثين فإن سلطات الانتداب البريطاني عملت على زيادة الرقعة اليهودية في القدس بأن أضافت إليها كل حي ومستوطنة يهوديين حتى ما كان بعيدا عنها نسبيا بينما استثنت من ذلك الأحياء والقرى العربية القريبة[1]. وقد جرى ترسيم الحدود البلدية للقدس لأول مرة في العهد البريطاني في العام ١٩٢١، حيث ضمت الحدود البلدية المدينة القديمة داخل الأسوار وقطاعا عرضيا بعرض ٤٠٠ متر على طول الجانب الشرقي لسور المدينة بالإضافة إلى أحياء باب الساهرة ووادي الجوز والشيخ جراح من الناحية الشمالية، بينما انتهى خط الحدود من الجهة الجنوبية إلى سور المدينة فقط. أما من الناحية الغربية حيث كثرت الضواحي الاستيطانية اليهودية فقد أضيفت لحدود البلدية مساحات واسعة على امتداد عدة كيلومترات. كذلك وضع مخطط آخر للمدينة في العام ١٩٤٦ جرى فيه توسيع إضافي للحدود البلدية في اتجاه الغرب لتشمل العديد من الضواحي والمستوطنات اليهودية. وقد بلغت مساحة هذا المخطط ٢٠،١٩٩ دونما[2] (تعادل ١٩٩و٢٠ كيلومترا مربعا) وقد ارتفعت مساحة القدس مع نهاية عهد الانتداب في أيار ١٩٤٨ لتصبح نحوا من ١و٢١ كيلومتر مربع[3].

---

(١) Rashid Khalidi, "The Future of Arab Jerusalem", as Maintained on server: www. Acj.com.

(٢) خليل تفكجي وعلي ياسين، "مشروع مقترح لحدود عاصمة فلسطين ـ القدس"، في: يوم القدس: أبحاث الندوة السادسة ـ هوية القدس العربية والإسلامية (عمان: منتدى شومان، ١٩٩٥)، ص. ١٢٥.

(٣) الموسوعة الفلسطينية (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)، المجلد الثالث، مدخل مدينة القدس، ص. ٥١٤.

وقبل أن نبين تأثير هذا التوسع في البنية السكانية للمدينة تجدر الإشارة باختصار إلى تطور بنية الجهاز البلدي نفسه، إذ كانت لهذه البنية تأثيراتها ولا شك في القرارات التي اتخذت بشأن توسيع الحدود البلدية. وكانت القدس قد شهدت نشوء أول مجلس بلدي لها في العام ١٨٦٣م وقد أنشئ بفرمان خاص كان يقضي بتعيين أعضائه من قبل الحكومة المركزية في استانبول. غير أن العام ١٨٧٥ شهد تطورا جديدا في هذا الصدد عندما صدر قانون ينظم عمل المجلس البلدي ويقضي بأن ينتخب أعضاؤه انتخابا من دافعي الضرائب المتمتعين بالتبعية العثمانية من المسلمين والمسيحيين واليهود[١]. ووفقا لذلك كان عدد الأعضاء العرب في المجلس في سنة ١٩٠٠ ثمانية بينما كان اليهود اثنين، وقد تغيرت هذه النسبة بعد ذلك فنجد أن السنتين ١٩٠٥ و١٩١٤ شهدتا مجالس بلدية كان فيها تسعة من العرب ويهودي واحد. بينما ضم المجلس الذي انتخب في ١٩٠٨ ثمانية أعضاء من العرب (ستة مسلمين ومسيحيين) وعضوين من اليهود[٢].

وفي بداية العهد البريطاني ظل المجلس البلدي يمارس صلاحياته التي رسمها له القانون العثماني مع تغيير في عدد الأعضاء بحيث أصبح ستة: أربعة من العرب واثنين من اليهود، وكان حاكم المدينة هو الذي يعين رئيس المجلس من هؤلاء الأعضاء وقد درجت العادة أن يكون هذا من بين الأعضاء المسلمين. وقد استمر هذا الوضع إلى العام ١٩٢٦ عندما سنت حكومة الانتداب قانونا جديدا للبلديات جعل عدد أعضاء مجلس بلدية القدس اثني عشر عضوا بدلا من ستة، بحيث يضم ثمانية أعضاء من العرب

(١) Alexander Scholch, "Jerusalem in the 19th Century (1831-1917)", in: K.J.Asali (editor), *Jeruslem in History* (Essex: Scorpion Publishing Ltd., 1989), p. 239.

(٢) شهادة الدكتور حسين الخالدي أمام اللجنة الملكية (البريطانية) ١٩٣٧، في: محمد توفيق جانا، **الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين** (دمشق، ١٩٣٧)، ص، ١٦١-١٧٢.

(خمسة من المسلمين وثلاثة من المسيحيين) وأربعة أعضاء من اليهود. إلا أن الحكومة عدلت هذا النظام في سنة ١٩٣٤ بأن زادت من نسبة الأعضاء اليهود على حساب الأعضاء العرب، فأصبح تشكيل المجلس مكونا من ستة أعضاء من العرب (أربعة من المسلمين واثنين من المسيحيين) وستة أعضاء من اليهود. وكانت هذه الترتيبات جميعا تقضي بأن يأتي هؤلاء الأعضاء كافة عن طريق الانتخاب، إلا أن قانون البلديات منح المندوب السامي البريطاني حق تعيين عضوين إضافيين زيادة على الأعضاء الاثني عشر. وكانت حكومة الانتداب تختار رئيس المجلس من بين الأعضاء المسلمين، كما درجت على تعيين نائبين له أحدهما مسلم والآخر يهودي. وقد استمر الوضع قائما كذلك حتى العام ١٩٤٤ عندما توفي رئيس المجلس مصطفى الخالدي فعينت حكومة الانتداب نائبه اليهودي دانيال أوستر مكانه، وهو الأمر الذي أثار غضب الأعضاء العرب فقدموا استقالتهم من المجلس. وقد استغلت الحكومة هذا الأمر فقامت بحل المجلس البلدي وعينت في ١١ تموز ١٩٤٥ لجنة بلدية مكانه من رئيس وأربعة أعضاء جميعهم من الموظفين الإنجليز، وقد استمر هذا الوضع قائما إلى نهاية عهد الانتداب(١).

إن سيطرة حكومة الانتداب على المجلس البلدي بهذه الصورة كانت أداة لتنفيذ سياسة التوسع في حدود بلدية القدس لتجعل منها ذات أغلبية يهودية بضم الأحياء والمستوطنات اليهودية إليها، وهذا ما تحقق بالفعل. وفي الحقيقة لا تسعفنا البيانات لنتعرف بدقة وجزم على عدد سكان القدس كما كانوا قبل الاحتلال البريطاني لفلسطين في العام ١٩١٧، فالأرقام متضاربة إلى حد بعيد خاصة بسبب المزاعم الصهيونية التي ذهبت إلى أن اليهود كانوا يشكلون أغلبية سكانية في المدينة في أواخر العهد العثماني. فوفقا للتعداد السكاني العثماني للعام ١٩٠٥ كان إجمالي عدد

(١) انظر هذه التطورات في: مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين** (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٦)، الجزء العاشر–القسم الثاني: في بيت المقدس ٢، ص ص. ٢٠٢–٢٠٤.

السكان في القدس ممن يتمتعون بالتبعية العثمانية ٣٢،٠٠٠ نسمة منهم ١٩،٠٠٠ عربي (١١،٠٠٠ مسلم و ٨،٠٠٠ مسيحي) و ١٣،٠٠٠ يهودي(١). وبذلك كانت نسبة اليهود إلى إجمالي السكان في تلك السنة نحوا من ٤١ بالمئة. غير أن هناك تقديرات يهودية تجعل هذه النسبة أعلى من ذلك، فهي ترى أن عدد سكان القدس في العام ١٩١٠ كان ٧٠،٠٠٠ نسمة كان منهم ٢٥،٠٠٠ ألف عربي (منهم ١٢،٠٠٠ مسلم و ١٣،٠٠٠ مسيحي) بينما كان عدد اليهود ٤٥،٠٠٠(٢)، أي بنسبة ٦٤ بالمئة من إجمالي عدد السكان. وهذه المبالغة تخدم ولا شك الصهيونيين بادعائهم الأغلبية اليهودية في القدس حتى قبل الانتداب البريطاني وقبل فتحه أبواب الهجرة واسعة أمام اليهود. غير أن هناك دراسة تركية حديثة عن سكان الدولة العثمانية ما بين ١٨٣٠ و ١٩١٤ تدحض بشكل غير مباشر هذا الادعاء، إذ يتبين من هذه الدراسة أن عدد اليهود في قضاء القدس كله (الذي يشمل مدينة القدس والقرى والبلدات المحيطة بها) كان أقل بكثير من هذا الادعاء الصهيوني إذ كان عددهم في العام ١٩١٤ ١٨،١٩٠ نسمة من إجمالي عدد السكان الذي بلغ آنذاك ١٢٠،٩٢١ نسمة(٣).

ومهما يكن من أمر فإن عدد اليهود في القدس قد بدأ بالتزايد باضطراد منذ البدايات الأولى للعهد البريطاني بسبب تدفق سيل المهاجرين اليهود الذين كان معظمهم يستقرون في القدس والمستوطنات القريبة منها كما أخذت نسبتهم إلى عدد السكان الإجمالي ترتفع بوتائر متسارعة نتيجة توسيع الحدود البلدية للمدينة التي ضُمت

(١) Rochelle Davis, "Ottoman Jerusalem: The Growth of the City outside the Walls", in: *Jerusalem I Love You* (Quarterly Magazine), Issue 3 (November 1999), as Maintained on server: Ojerusalem. com.

(٢) Y. Ben-Arieh, "The Growth of Jerusalem in the Nineteenth Century", in: *Annals of the Association of American Geographers*, No. 65 (1975), p. 262.

(٣) Kamal H. Karpat, *Ottoman Population 1830-1914* (Madison, 1985), pp. 144-145.

إليها أعداد كبيرة من المستوطنات اليهودية. ويتضح من بعض البيانات الإحصائية أنه في العام ١٩٢٠ وبعد انقضاء نحو من ثلاثة أعوام على بداية الاحتلال البريطاني لفلسطين كان عدد سكان القدس ٦١،٠٠٠ نسمة أكثر من نصفهم من العرب (٣١،٠٠٠ نسمة وبنسبة ٥٠٫٨ بالمئة) بينما كان عدد اليهود ٣٠،٠٠٠ وبنسبة ٤٩٫٢ بالمئة[1].

وقد اختلت هذه النسبة بعد سنتين لمصلحة اليهود. فوفقا للبيانات البريطانية القائمة على تعداد العام ١٩٢٢ كان عدد سكان القدس في تلك السنة ٦٢،٥٧٨ نسمة كان منهم ٢٨،١١٢ عربيا (وبنسبة ٤٤٫٩٢ بالمئة) و ٣٣،٩٧١ يهوديا (وبنسبة ٥٤٫٢٨ بالمئة)، بينما كان العدد المتبقي من الأجانب (٤٩٥ شخصا وبنسبة ٠٫٧٩ بالمئة)[2]. وقد استمرت نسبة اليهود إلى إجمالي عدد السكان بالتصاعد منذ ذاك. فقد ارتفع عددهم إلى ٣٨،٠٠٠ في العام ١٩٢٤[3]، وفي العام ١٩٣١ وصل عددهم ضمن حدود القدس البلدية إلى ٥٣،٨٠٠ نسمة يمثلون ٥٧٫٨ بالمئة من عدد السكان[4]. وارتفعت هذه النسبة لتصل في نهاية العام ١٩٤٦ إلى ٦٠٫٥٨ بالمئة من

---

(١) *Jerusalem: History an d Present - Part Three: The Achievement of Demographic Superiority 1916-1947,* Table 3, as maintained on server; www. Palestine - info - net.

(٢) Rochelle Davis, "The Growth of the Western Communities 1917-1948", in: Jerusalem I Love you (Quarterly Magazine), Issue 3 (November 1999), as Maintained on server: www. Ojerusalem. com.

(٣) *Report by His Britannic Majesty's Government on the Administration under Mandate of Palestine and Transjordan for the Year 1924.*

(٤) *The Status of Palestine: Prepared for, and under the Guidance of the Committee on the Exercise of the Inalienable Rights of the Palestinian People* (United Nations, 1997).

عدد السكان (كان عدد سكان القدس آنذاك ١٦٤،٤٤٠ نسمة، منهم ٦٥،٠١٠ من العرب و٩٩،٣٢٠ من اليهود و ١١٠ من جنسيات مختلفة)[١].

وهكذا تمكنت الشراكة البريطانية ـ الصهيونية من تحويل القدس خلال نحو من ثلاثين عاما إلى مدينة ذات أغلبية سكانية يهودية بفعل عاملين اثنين كما أكدنا غير مرة في هذه الورقة: الأول هو الهجرة اليهودية الكثيفة إلى فلسطين، بما فيها القدس، والتي وفرت حكومة الانتداب البريطاني جميع الشروط اللازمة لإنجاحها، والثاني التلاعب بخريطة القدس باتجاه توسيع حدودها الجغرافية/البلدية إلى المدى الأقصى الذي يتيح إدخال أكبر عدد ممكن من اليهود في إطارها.

وإذا كانت هذه الشراكة قد نجحت على الصعيد السكاني هذا النجاح الكبير فقد كانت نسبتها في النجاح أقل في مسألة انتقال أراضي القدس إلى الملكية اليهودية. لقد سنت حكومة الانتداب عددا كبيرا من القوانين والتشريعات التي تسهل تملك اليهود الأراضي[٢]، وعملت جاهدة وبمختلف الوسائل لوضع العرب الفلسطينيين في أوضاع اقتصادية صعبة تجبرهم على بيع أراضيهم من اليهود واتخذت كثيرا من الإجراءات الإدارية التي أتاحت لليهود اقتناص مساحات زراعية مهمة من الأراضي الفلسطينية[٣]، كما أن الحركة الصهيونية لم تدخر وسعا على مستوى الأفراد وأيضا

(١) *Settled Population of Palestine by Town and Sub-District Estimated as at 31st December, 1946, Reproduced from the Supplement to the Survey of Palestine, June 1947* (United Nations General Assembly, W/4, 22 March 1949).

(٢) انظر عرضا وافيا لهذه القوانين والتشريعات وتأثيرها في اكتساب اليهود أرض فلسطينية في: عادل حامد الجادر، **أثر قوانين الانتداب البريطاني في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين** (بغداد: مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٧٦)، ص ص. ١٨٣–٢٥٨.

(٣) انظر عن هذه الأوضاع والإجراءات: كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢–١٩٣٩** (بيروت: مركز الأبحاث الفلسطيني، ١٩٧٤)، ص ص. ٤٨١–٤٩٨.

من خلال الصناديق التي أنشأتها لاكتساب مزيد من هذه الأراضي. إلا أن المقاومة واسعة النطاق التي جابه بها الفلسطينيون أحابيل انتقال أراضيهم إلى اليهود حد من سيطرة هؤلاء على الأراضي الفلسطينية. فمع نهاية عهد الانتداب في العام ١٩٤٨ لم تزد نسبة ما تمكن اليهود من امتلاكه عن ٦٧ر٥ بالمئة من مجموع أراضي فلسطين[(١)].

أما في القدس خاصة فقد زادت هذه النسبة عن ذلك بسبب إدماج المستوطنات اليهودية ضمن إطار حدودها البلدية من جانب، وأيضا بسبب التشريعات البريطانية التي أباحت "انتقال الأراضي إلى غير العرب الفلسطينيين" دون قيد في "مناطق البلديات" ومنها منطقة بلدية القدس، كما جاء ذلك في "نظام انتقال الأراضي لسنة ١٩٤٠"[(٢)]. وقد أتاح ذلك لليهود ميزة رفع نسبة تملكهم من أراضي القدس. فوفقا للبيانات المتوفرة عن ملكية الأراضي في القدس عام ١٩٤٧ كانت مساحة الأراضي فيها ١٩،٣٢٦ دونما، امتلك العرب منها ١١،١٩١ دونما وبنسبة ٩ر٥٩ بالمئة، بينما امتلك اليهود ٤٨٣٠ دونما وبنسبة ٩٩ر٢٤ بالمئة، وكان ٣٣٠٥ دونمات، بنسبة ١ر١٧ بالمئة، من أملاك الدولة[٣]. وقد وصلت نسبة تملك اليهود من أراضي القدس مع نهاية فترة عهد الانتداب إلى ٢٦ بالمئة من إجمالي مساحة أراضي المدينة في إطار حدودها البلدية[٤]. وتعد هذه النسبة مرتفعة إذا قورنت مع نسبة تملك اليهود من إجمالي الأراضي الفلسطينية.

---

(١) سامي هداوي، الحصاد المر: فلسطين بين عامي ١٩١٤ و١٩٧٩، ترجمة فخري حسين يغمور (الخليل: رابطة الجامعيين في محافظة الخليل، ١٩٨٢)، ص. ٨٠. وقد توصل هداوي، وهو الثقة في مسألة الأراضي الفلسطينية، إلى هذه النسبة معتمدا على إحصاءات حكومة الانتداب البريطاني التي نشرتها في: *Village Satistics 1945.*

(٢) انظر نص النظام والبيان التفسيري له في: عادل حامد الجادر، المرجع المذكور، ص ص. ٤٩٣-٤٩٨.

(٣) Rochelle Davis, *op.cit.*

(٤) Rashid Khalidi, *op.cit.*

وبذلك توصلت الشراكة البريطانية ـ الصهيونية إلى تحويل القدس خلال ثلاثين عاما إلى أنموذج مثالي للوطن القومي اليهودي المتمتع بأغلبية سكانية يهودية، والمتملك نسبة معتبرة من الأرض، والذي تدعمه مؤسسات سياسية ومالية واقتصادية وعسكرية أنشأتها الحركة الصهيونية بالتواطؤ مع حكومة الانتداب وبدعم منها، كانت هي التعبيرات الكيانية عن هذا "الوطن القومي". غير أن هذا الكيان لم يتحول إلى دولة فعلية وإن كان أشبه بالدولة. وحسب وصف تقرير اللجنة الأميركية ـ البريطانية المشتركة التي شكلت في ١٩٤٦ للتحقيق في المشكلات القائمة في فلسطين فـ"إن هناك دولة يهودية فعلية لا حدود إقليمية لها، بل لها مؤسساتها التنفيذية والتشريعية الموازية في كثير من الاعتبارات لحكومة الانتداب"، وقد وصف التقرير هذه المؤسسات بأنها "حكومة ظل يهودية"(١).

ويدفعنا هذا إلى التساؤل عن المفهوم البريطاني للوطن القومي اليهودي وعلاقة هذا المفهوم بالدولة اليهودية وانعكاس ذلك على السياسة البريطانية تجاه القدس وهو موضوع هذه الورقة.

هناك غموض متعمد في تعبير الوطن القومي اليهودي كان القصد منه إبقاء الأبواب مفتوحة أمام السياسة البريطانية لشتى الاحتمالات وفق تطورات الظروف. وقد سعت بريطانية غير مرة إلى توضيح هذا الغموض بعبارات كانت بدورها أكثر غموضا. ففي "الكتاب الأبيض" للعام ١٩٢٢ الذي أصدره ونستون تشرشل، وزير المستعمرات آنذاك، أعلنت الحكومة البريطانية أنها "تلفت الانتباه إلى حقيقة أن البنود

---

(١) نص التقرير نشرته الحكومة البريطانية تحت العنوان التالي: Great Britain, Parliamentary Papers, *Report of the Anglo-American Committee of Inquiry Regarding the Problems of European Jewry and Palestine , Presented by the Secretary of State for Foreign Affairs to Parliament by Command of His Majesty-Cmd. 6808* (London: His Majesty's Stationary Office, 1946).

الواردة في تصريح بلفور لا تتوقع أن تتحول فلسطين بأجمعها إلى وطن قومي يهودي ، بل إن ذلك الوطن سوف يقام في فلسطين". وقد أعادت الحكومة البريطانية تأكيد هذا المعنى بـ "الكتاب الأبيض" للعام ١٩٣٩ الذي أصدره وزير المستعمرات آنذاك مالكولم ماكدونالد، والذي أعلنت فيه الحكومة أنه "ليس من سياستها أن تتحول فلسطين إلى دولة يهودية"(١).

وسواء أأصبحت فلسطين بأجمعها دولة يهودية، أم أقيمت هذه الدولة على أجزاء منها، أم تحولت كاملة إلى وطن قومي لليهود، أم أقيم هذا الوطن فيها، فإن ما هو مؤكد في السياسة البريطانية كان أن بريطانيا سعت إلى زرع كيان غريب في فلسطين يكون حاجزا ما بين آسيا العربية وأفريقيا العربية بحيث يكون هذا الكيان مرتبطا بها عضويا ومؤهلا لأن يكون جزءا من استراتيجيتها في المنطقة. وقد أوضحت وزارة المستعمرات البريطانية هذا الهدف بأقصى درجات الوضوح في مذكرة، مؤرخة في ٩ كانون الثاني ١٩٣٨، أعدتها لنيفل تشمبرلن، رئيس وزراء بريطانيا آنذاك، جاء فيها: "إن المقارنة بين فلسطين وإيرلندا كاملة بشكل فريد. فالموقف تجاه اليهود في فلسطين هو الموقف نفسه تجاه ألستر البروتستانية... فكما أن ألستر هي ذات قيمة حقيقية في استراتيجيتنا، كذلك فنحن مقتنعون بأن المنشئين الحقيقيين للسياسة الصهيونية في ١٩١٧، وليس العاطفيون ولا أولئك الذين أرادوا أن يحصلوا على الدعم اليهودي في أميركا وألمانيا لأغراض الحرب، كانوا على صواب في أنهم رغبوا في أن يستقر على الجسر ما بين العالم العربي في آسيا، غير الجدير بالثقة، وبين شمال أفريقيا مجتمع ثري

(١) Great Britain, Parliamentary Papers, *Policy on Palestine, 17 May 1939- Cmd 6019* (London: His Majesty's Stationary Office, 1939).

ومتعلم وعصري ومعتمد بشكل نهائي على الإمبراطورية البريطانية من أجل استمرار وجوده"[(1)].

وفي الثلاثينات أخذت بريطانيا تبلور سياستها بشكل عملي أكثر في مفهوم هذا المجتمع الذي تريده عندما اتجهت إلى اقتسام فلسطين بينها وبين العرب واليهود. وكان ذلك في أثناء الثورة الفلسطينية الكبرى في العام ١٩٣٦ عندما تبين أن الأرقام الثلاثة في المعادلة الفلسطينية لا يمكن التوفيق بينها: طموحات الشعب الفلسطيني إلى تحقيق الاستقلال وإقامة دولته ذات السيادة على كامل ترابه الوطني[٢]، والمشروع الصهيوني الذي فهم من الوطن القومي أنه دولة لليهود تقام على أرض فلسطين بأجمعها وبالتالي كان يشتغل من أجل الوصول إلى هذا الهدف، والتصميم البريطاني على الاحتفاظ بفلسطين تحت سيطرتها خدمة لأغراضها الاستراتيجية في المنطقة. وإزاء ذلك ظهرت لأول مرة فكرة اقتسام فلسطين بين الأطراف الثلاثة: بريطانيا والعرب واليهود باعتبار ذلك حلا يلبي جزئيا أغراض هذه العناصر الثلاثة في المعادلة الفلسطينية.

وقد ظهر هذا الحل في تقرير لجنة بيل في العام ١٩٣٧. وكانت الحكومة البريطانية قد شكلت "لجنة ملكية" برئاسة لورد بيل لكي "تحقق بأسباب الاضطرابات والشكاوى المزعومة لكل من العرب واليهود" والتقدم بتوصياتها لإزالة هذه الشكاوى إذا اقتنعت بوجودها، فكان أن أعلنت اللجنة توصياتها في السابع من تموز ١٩٣٧ في

---

(١) Colonial Office to Chamberlain, 9th January 1938, in: *Public Records Office*, *F.O. 371-21862/3698.*

(٢) عالجنا برنامج الدولة المستقلة ذات السيادة كما تطور قبيل ثورة ١٩٣٦ وفي أثنائها في كتابنا: **فلسطين الدولة: جذور المسألة في التاريخ الفلسطيني** (نيقوسيا: مركز الأبحاث الفلسطيني، ١٩٨٥)، ص ص. ١٠١-١١٢.

"كتاب أبيض" عرف بتقرير اللجنة الملكية[1]. ويوضح هذا التقرير توضيحا كاملا القصد البريطاني باقتسام أرض فلسطين بينها من جهة وبين اليهود والعرب من جهة أخرى بحيث تكون حصتها من هذه القسمة خاصة بها دون منازع وإلى مدى زمني في المستقبل مفتوح النهاية.

والحصة التي رصدها تقرير اللجنة الملكية لبريطانيا هي منطقة القدس (بشكل رئيسي) بالإضافة إلى جيبين: أحدهما الناصرة والآخر بحيرة طبريا وشواطئها. فقد أوصت اللجنة بإقامة دولتين مستقلتين، رسمت اللجنة حدودهما بدقة، إحداهما عربية والأخرى يهودية بحيث ترتبطان ببريطانيا بنظام معاهدات. أما منطقة القدس فقد وسعت توصيات اللجنة من حدودها كما رسمتها حكومة الانتداب بقراراتها المتصلة بالشأن البلدي للمدينة، فأصبحت هذه الحدود تمتد في الشمال من نقطة تقع إلى الشمال من رام الله أما في الجنوب فإلى نقطة تقع جنوبي بيت لحم، وقد أضيف إلى هذه المنطقة امتداد باتجاه الغرب يصلها بالبحر الأبيض المتوسط عند نقطة تقع إلى الجنوب من مدينة يافا. وبموجب هذه الخريطة الجديدة سوف تشمل هذه المنطقة القدس نفسها بالإضافة إلى رام الله وبيت لحم واللد والرملة. أما بشأن النظام السياسي لهذه المنطقة فقد أوصى تقرير اللجنة الملكية بأن تظل خاضعة للانتداب، كما أوضحت اللجنة في تقريرها أنه "ليس في النية أن يصبح سكان هذه المناطق [منطقة القدس وجيبي الناصرة وبحيرة طبريا]، مع مرور الزمن، شعبا يحكم نفسه بنفسه حكما ذاتيا".

لم ينل مشروع لجنة بيل موافقة أي من الأطراف المعنية به. فقد رفضه الفلسطينيون والصهيونيون ولجنة الانتدابات التابعة لعصبة الأمم المتحدة. ونتيجة لذلك أعلنت بريطانيا تراجعها عن المشروع إلا أنها شكلت "لجنة فنية" برئاسة السير جون

---

(١) الحكومة البريطانية، **تقرير اللجنة الملكية لفلسطين** (الكتاب الأبيض رقم ٥٤٧٩ عرض على البرلمان بأمر جلالته في شهر تموز ١٩٣٧).

وودهيد جعلت من اختصاصها "أن تكون لها حرية إدخال تعديلات على المشروع بما في ذلك تغيير المناطق المقترح إبقاؤها تحت الانتداب". وقد توجهت اللجنة إلى فلسطين لدراسة الوضع على الطبيعة واستغرق عملها هناك عدة أشهر خرجت في النهاية بتقريرها الذي أصدرته رسميا في تشرين الأول ١٩٣٨[١].

انصب تقرير اللجنة الفنية، أو لجنة وودهيد، على نقد تقرير لجنة بيل، فأجرت عليه تعديلات بموجب خطة دعتها الخطة (ب)، ثم أدخلت تعديلات أخرى على الخطة (ب) بموجب خطة دعتها الخطة (ج). وقد أبقت الخطتان على تمسك بريطانيا باقتسام فلسطين بينها وبين العرب واليهود وإن كانت الخطة ج قد وسعت كثيرا من نصيب بريطانيا في هذه القسمة بحيث أصبحت تشمل بالإضافة إلى منطقة القدس التي رسمتها لجنة بيل، معظم شمال فلسطين ومنطقة النقب جميعها.

اختلفت التركيبة السكانية لمنطقة القدس وفق الخريطة الجديدة عنها كما كانت في إطار الحدود البلدية للمدينة. فبموجب هذه الخطط (للجنة بيل ولجنة وودهيد) فسوف يكون مجموع السكان ٢٩١،٥٠٠ نسمة منهم ٢١١،٤٠٠ عربي وبنسبة ٧٢٫٥ بالمئة، و٨٠،١٠٠ يهودي وبنسبة ٢٧٫٥ بالمئة. ومن منظور آخر فإن سكان منطقة القدس، عربا ويهودا، سوف يشكلون نسبة ٢٠٫٩ بالمئة من إجمالي سكان فلسطين آنذاك (٢٩١،٥٠٠ من ١،٣٩٣،٦٠٠). أما سكانها العرب فهم يشكلون نسبة ٢١٫١ بالمئة من إجمالي عدد العرب في فلسطين (٢١١،٤٠٠ من ١،٠٠١،٣٠٠)، بينما يشكل اليهود فيها نسبة ٢٠٫٤ بالمئة من عدد اليهود الكلي في فلسطين (٨٠،١٠٠ من ٣٩٢،٣٠٠)[٢].

(١) Great Britain. Parliamentary Papers, *Palestine Partition Commission Report, presented by the Secretary of State for the Colonies to Parliament, October 1938, Cmd 5884* (London: His Majesty's Stationary Office, 1938).

(٢) الأرقام المتعلقة بالسكان، باستثناء النسب، مأخوذة من: المصدر نفسه، ص. ١٠٩.

غير أن هذا المشروع لم ير النور. فقد رفضه الفلسطينيون، وتجددت الثورة الفلسطينية الكبرى في مرحلتها الثانية، بينما كانت الأوضاع تتدهور بحدة في أوروبا بعد أن تمكن الزعيم الألماني أدولف هتلر من تحقيق مكاسب سياسية وإقليمية واستراتيجية هناك وكانت جميع الأوضاع تنذر بحرب عالمية جديدة. وهكذا قررت الحكومة البريطانية احتواء الثورة الفلسطينية للتفرغ للمسرح الأوروبي. وكان التراجع عن سياسة التقسيم جزءا من الإجراءات الضرورية لتهدئة ثورة الفلسطينيين. وهكذا أصدرت الحكومة البريطانية بيانا (وجهه وزير المستعمرات إلى البرلمان) أعلنت فيه تراجعها عن مشروع التقسيم وأنها "سوف تستمر في مسؤوليتها بالنسبة لحكم جميع فلسطين"(١).

على الرغم من هذا التراجع فإن ما أسست له خطط لجنتي بيل وودهيد بالنسبة لوضع القدس ومستقبلها بأن تعامل معاملة منفصلة عن سائر فلسطين أصبح منذ ذاك مكونا رئيسيا من مكونات السياسة البريطانية تجاه فلسطين، لينتقل من ثم إلى صلب المواقف الدولية منها. ويظهر ذلك بوضوح في مشروعات ما بعد الحرب العالمية الثانية وانتهاء بقرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ القاضي بتقسيم فلسطين مع إعطاء وضعية خاصة للقدس بأن تحكم بنظام دولي خاص تقوم على إدارته الأمم المتحدة.

ومن ذلك نظام المقاطعات (الكانتونات) الذي اقترحته لجنة الخبراء البريطانيين والأميركيين التي تشكلت في تموز ١٩٤٦ ورأس الجانب الأميركي فيها هنري ف. جريدي بينما رأس الجانب البريطاني هربرت موريسون وقدمت مشروعها للحل

(١) Great Britain, Parliamentary Papers, *Palestine: A Statement by His Majesty's Government Presented by the Secretary of State for the Colonies to Parliament by Command of His Majesty, November 1938- Cmd 5893* (London: His Majesty's Stationary Office, 1938), p. 3.

الخلافات حول مستقبل فلسطين. وقد عرف هذا المشروع باسم مشروع جريدي - موريسون، أو مشروع موريسون، أو نظام المقاطعات. وقد عرض موريسون المشروع على مجلس العموم البريطاني في ٣١ تموز ١٩٤٦[١]، وقد اقترح أن تقسم فلسطين إلى أربع مقاطعات: مقاطعة عربية ومقاطعة يهودية ومنطقة القدس ومنطقة النقب، على أن تبقى المقاطعات جميعا تحت سلطة مندوب سام. ومنطقة القدس في هذا النظام سوف تشمل مدينة القدس وبيت لحم وضواحيهما القريبة. وقد حدد المشروع أن يكون للمنطقة مجلس تكون سلطاته شبيهة بسلطات المجالس البلدية وبحيث ينتخب معظم أعضائه انتخابا، بينما يسمي المندوب السامي بعض الأعضاء.

ومن هذه المشاريع أيضا ما عرف باسم مشروع بيفن لسنة ١٩٤٧، وهو الذي تقدم به وزير خارجية بريطانيا أرنست بيفن إلى الدورة الثانية لمؤتمر لندن الذي انعقد في قصر سان جيمس ابتداء من ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٧ وحضرته وفود من الدول العربية بالإضافة إلى وفد فلسطيني. وقد اقترح المشروع[٢] نظام وصاية على فلسطين وإسناد هذه الوصاية إلى بريطانيا لفترة خمس سنوات بحيث تنشأ في فلسطين "مناطق إدارة محلية سوف تحدد بحيث تضم كل منها أغلبية كبيرة، إما من العرب أو اليهود، وسوف تحيل الحكومة المركزية قسطا كبيرا من السلطات التشريعية والإدارية والمالية إلى الإدارات المحلية". ولم يحدد المشروع المناطق التي ستقام فيها هذه الإدارات ولا حدودها، لكن ليس هناك ما ينفي أن تكون خريطة مشروع موريسون هي الأساس

(١) Great Britain, Parliamentary Papers, *Proposals for the Future of Palestine July 1946-February 1947, Presented by the Secretary of State for Colonies and the Secretary of State for Foreign Affairs to Parliament by Command of His Majesty - Cmd. 7044* (London: His Majesty's Stationary Office, 1946).

(٢) نص المشروع في: المصدر نفسه، ص ص. ١١-١٤.

الذي انطلق منه مشروع بيفن في تصوره لحدود المناطق العربية واليهودية، وأيضا منطقة القدس.

ولم ينجح بيفن في إقناع الوفود العربية بمشروعه، وفي الجلسة الختامية للمؤتمر في ١٤ شباط ١٩٤٧، أعلن اعتراف الحكومة البريطانية بفشلها في الوصول إلى حل، كما أعلن أن الحكومة البريطانية قررت أن تحيل المشكلة برمتها إلى الأمم المتحدة[1]. وبذلك وضعت القضية الفلسطينية، بما فيها وضع القدس، على أعتاب مرحلة جديدة.

ومن الواضح أن مسؤولية بريطانيا في تصميم شكل هذه المرحلة الجديدة تعود بجذورها إلى اليوم الأول الذي دخلت فيه مدينة القدس. فالمرحلة الممتدة من العام ١٩١٧ إلى العام ١٩٤٨ كانت هي التي صنعت مستقبل فلسطين والقدس منها، كما هو واقع في الزن الراهن ولزمن مقبل غير منظر النهاية. والصانع الرئيسي في ذلك كان الحكومة البريطانية وامتدادها حكومة الانتداب في فلسطين.

(١)انظر نص خطاب بيفن في: جامعة الدول العربية، الإدارة العامة لشؤون فلسطين، الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين، المجموعة الثانية ١٩٤٧–١٩٥٠، ص ص. ٣٩–٤٠.

كشف المصادر والمراجع

١- تفكجي، خليل وعلي ياسين؛ "مشروع مقترح لحدود عاصمة فلسطين - القدس"، في: **يوم القدس: أبحاث الندوة السادسة - هوية القدس العربية والإسلامية**. عمان: منتدى شومان١٩٩٥.

٢- الجادر، عادل حامد؛ **أثر قوانين الانتداب البريطاني في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين**. بغداد: مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٧٦.

٣- جامعة الدول العربية، الإدارة العامة لشؤون فلسطين؛ **الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين**، المجموعة الثانية ١٩٤٧-١٩٥٠.

٤- جانا، محمد توفيق ؛ **الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين**. دمشق،

٥- الحكومة البريطانية، **تقرير اللجنة الملكية لفلسطين** (الكتاب الأبيض رقم ٥٤٧٩ عرض على البرلمان بأمر جلالته في شهر تموز ١٩٣٧).

٦- خلة، كامل محمود؛ **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢- ١٩٣٩**. بيروت: مركز الأبحاث الفلسطيني، ١٩٧٤.

٧- الدباغ، مصطفى مراد، **بلادنا فلسطين- الجزء العاشر-القسم الثاني: في بيت المقدس**

٨- سخنيني، عصام؛ **فلسطين الدولة: جذور المسألة في التاريخ الفلسطيني**. نيقوسيا: مركز الأبحاث الفلسطيني، ١٩٨٥.

٩- **الموسوعة الفلسطينية**. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤.

١٠- هداوي، سامي؛ **الحصاد المر: فلسطين بين عامي ١٩١٤ و١٩٧٩**، ترجمة فخري حسين يغمور، الخليل: رابطة الجامعيين في محافظة الخليل، ١٩٨٢.

11- Asali, K.J. (editor); *Jeruslem in History.* Essex: Scorpion Publishing Ltd., 1989.

12- Ben-Arieh, Y; "The Growth of Jerusalem in the Nineteenth Century", in: *Annals of the Association of American Geographers,* No. 65 (1975).

13- Colonial Office to Chamberlain, 9th January 1938, in: *Public Records Office , F.O. 371-21862/3698.*

14- Davis, Rochelle ; "Ottoman Jerusalem: The Growth of the City outside the Walls", in: *Jerusalem I Love You* (Quarterly Magazine), Issue 3 (November 1999), as Maintained on server: Ojerusalem. com.

15- Davis, Rochelle; "The Growth of the Western Communities 1917-1948", in: *Jerusalem I Love you* (Quarterly Magazine), Issue 3 (November 1999), as Maintained on server: www. Ojerusalem. com.

16- Great Britain, Parliamentary Papers; *Palestine: A Statement by His Majesty's Government Presented by the Secretary of State for the Colonies to Parliament by Command of His Majesty, November 1938- Cmd 5893.* London: His Majesty's Stationary Office, 1938.

17- Great Britain, Parliamentary Papers; *Policy on Palestine, 17 May 1939- Cmd 6019* (London: His Majesty's Stationary Office, 1939). (19) Great Britain. Parliamentary Papers; *Palestine Partition Commission Report, presented by the Secretary of State for the Colonies to Parliament, October 1938, Cmd 5884.* London: His Majesty's Stationary Office, 1938.

18- Great Britain, Parliamentary Papers; *Proposals for the Future of Palestine July 1946-February 1947, Presented by the Secretary of State for Colonies and the Secretary of State for Foreign Affairs to Parliament by Command of His Majesty - Cmd. 7044.* London: His Majesty's Stationary Office, 1946.

19- Great Britain, Parliamentary Papers; *Report of the Anglo-American Committee of Inquiry Regarding the Problems of European Jewry and Palestine , Presented by the Secretary of State for Foreign Affairs to Parliament by Command of His Majesty-Cmd. 6808.* London: His Majesty's Stationary Office, 1946.

20- *Jerusalem: History and Present - Part Three: The Achievement of Demographic Superiority 1916-1947,* Table 3, as maintained on server; www. Palestine - info - net.

21- Karpat, Kamal H.; *Ottoman Population 1830-1914.* Madison, 1985.

22- Khalidi, Rashid; "The Future of Arab Jerusalem", as Maintained on server: www. Acj.com.

23- *Report by His Britannic Majesty's Government on the Administration under Mandate of Palestine and Transjordan for the Year 1924.*

24- *Settled Population of Palestine by Town and Sub-District Estimated as at 31st December, 1946, Reproduced from the Supplement to the Survey of Palestine, June 1947* (United Nations General Assembly, W/4, 22 March 1949).

25- *The Status of Palestine: Prepared for, and under the Guidance of the Committee on the Exercise of the Inalienable Rights of the Palestinian People* (United Nations, 1997).

26- Woodward, E.L. and Ruhan Butler (editors); *Documents on British Foreign Policy 1919-1939* (First Series, Vol. IV.). London: Her Majesty's Stationary Office, 1955.

قضية القدس

من المنظور الإسرائيلي

د. أحمد نوفل

قسم العلوم السياسية - جامعة اليرموك

أثبتت أحداث انتفاضة الأقصى التي اندلعت منذ سبعة أشهر من القدس، ومفاوضات كامب ديفيد الثانية، التي انعقدت في واشنطن، شهر تموز/ يوليو ٢٠٠٠، بين السلطة الوطنية الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية، وبحضور الإدارة الأمريكية، أهمية قضية القدس في الصراع العربي- الإسرائيلين بسبب تشبث الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي بمواقفهما من المدينة المقدسة، مما أدى إلى فشل التوصل إلى اتفاق بينهما. وأدى ذلك، بعد زيارة زعيم تكتل الليكود شارون لساحة الأقصى، إلى اندلاع انتفاضة الأقصى، التي بدأت في ٢٨/٩/٢٠٠٠، التي ما زالت مستمرة في الأراضي الفلسطينية المحتلة. مما يدل على أن مدينة القدس تختزل جميع الأبعاد السياسية والدينية والقانونية والتاريخية والمستقبلية للقضية الفلسطينية والصراع العربي- الإسرائيلي، ويظهر معالم هذا الصراع بوضوح، لفرض السيادة على القدس. ولهذا فإنه من الصعب التوصل إلى تسوية حقيقية للقضية الفلسطينية والصراع العربي – الإسرائيلي، من دون إيجاد حل عادل ودائم لقضية القدس.

ويعالج البحث موقف إسرائيل من قضية القدس، من خلال دراسة الأهمية الدينية للقدس لدى اليهود، وموقف الحركة الصهيونية منها، والموقف الرسمي والحزبي الإسرائيلي من المدينة المقدسة، والممارسات الإسرائيلية في تنفيذ سياسة الامر الواقع على المدينة وفرض السيادة الإسرائيلية عليها، والحلول الإسرائيلية المقترحة لحل قضية القدس. ولن يتطرق البحث للموقف الفلسطيني من القدس، بل يركز على الموقف الإسرائيلي منها، من أجل معرفة ما تخطط له إسرائيل للمدينة المقدسة، والرد عليها وعلى ادعاءتها وبطبيعة الحال لا يعني التركيز على الموقف الإسرائيلي من القدس في هذا البحث، صحة ذلك الموقف، بل على العكس، فإن الهدف يرمي إلى دحض أكاذيب إسرائيل من القدس.

البعد الديني للقدس عند اليهود:

ركز زعماء الحركة الصهيونية ومفكروها، على أهمية القدس وفلسطين لدى اليهود على الصعيدين الديني والسياسي. واعتمدت الصهيونية على فكرة إعادة اليهود إلى فلسطين (Restoration of the Jews to Palestine) من خلال الإدعاء بالوجود اليهودي التاريخي والديني في فلسطين قبل ثلاثة آلاف سنة. معتمدة بذلك على ما جاء في التوراة والتلمود.

وقبل استعراض ما جاء فيهما، لا بد من ذكر الملاحظات الثلاث التالية:

الملاحظة الأولى: أن هناك شكوكا عديدة في صحة ما جاء في التوراة، على أساس أنها لا تمت للنبي موسى بأية صلة، وأن الذي وضعها هو الكاهن اليهودي عزرا بن سرايا من سبط هارون في عهد الملك الفارسي ارتشحيتا في عام ٤٥٨ قبل الميلاد، من أجل تعليم الشريعة اليهودية لليهود بعد أن كان قورش الفارسي قد أعادهم إلى فلسطين من العراق، لأن الملك البابلي نبو خذ نصر كان قد مزق التوراة الأصلية عندما سباهم، مما أدى إلى وجود شكوك كبيرة حول صحة ما جاء فيها. ويكفي أن نذكر في هذا المجال، ما قاله المفكر الفرنسي روجيه غارودي Roger Garaudy، الذي حوكم في باريس في مطلع عام ١٩٩٨، بسبب كتابة (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية Les Mythes Fondaturs De La Politique Israelienne) الذي منع من التداول في فرنسا، وشكك فيه بصحة الإدعاءات الإسرائيلية التي جاءت في التوراة حول الحق اليهودي الديني في فلسطين[1]. وكتاب (التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي Early History of The Israelite People From The Written and archeologist Sources) لأستاذ علم اللاهوت في جامعة كوبنهاجن، دكتور توماس طومبسون Thomas Thompson، الذي أثار ضجة كبيرة عند صدوره لتشكيكه بالتوراة واعتمادها أساسا لدراسة التاريخ، مما أفقده وظيفته كأستاذ لعلم الآثار في جامعة ميلووكي الأمريكية.[2]

كما أن علماء الآثار الإسرائيليين لم يستطيعوا، منذ احتلال إسرائيل للقدس، أن يثبتوا ما جاء في التوراة من إدعاء بوجود (هيكل سليمان) في القدس، وبوجود صلة بين اليهود وبين المدينة المقدسة، ولا بالمسجد الأقصى الذي تزعم إسرائيل بناءه على أنقاض الهيكل. وكان آخر هؤلاء، عالم الآثار الإسرائيلي يسرائيل بلنكشتاين من جامعة تل أبيب، الذي شكك بوجود أي صلة لليهود بالقدس، مشيرا إلى أن هيكل سليمان المزعوم مجرد خرافة ولا وجود له. وأكد بلنكشتاين أن علماء الآثار اليهود لم يعثروا على أي شواهد تاريخية أو أثرية على أن هيكل سليمان كان موجودا بالفعل، وأن كتبة التوراة اليهود في القرن الثالث أضافوا قصصا لم تحدث أصلاً.(٣)

الملاحظة الثانية: أن القدس كانت مدينة مهمة قبل الوجود اليهودي فيها بسنوات طويلة. فقد كانت مهمة دينيا وسياسيا لدى الكنعانيين واليبوسيين العرب حوالي سنة ٣٠٠٠ق.م. أي قبل مرور النبي إبراهيم عليها، وقبل اعتبارها عاصمة داود فيما بعد وبناء هيكل سليمان فيها بآلاف السنين، وتؤكد التوراة على ذلك.

حتى أن داود اقتبس طريقة اليبوسيين في بناء (بيت الرب) على مرتفع ليضع فيه تابوت العهد، وجاء ابنه سليمان ليكمل بناء الهيكل فيما بعد. ولم تأت أهمية القدس بسبب أهميتها عند اليهود، بل هي مهمة قبل الوجود اليهودي، واستمرت كذلك عند المسيحيين والمسلمين العرب بعد طرد اليهود منها.

الملاحظة الثالثة: أن أطماع إسرائيل والحركة الصهيونية بالقدس يدخل من ضمن أطماعها التوسعية الشاملة في فلسطين والوطن العربي. ولا يمكن فصل قضية القدس ببعدها الديني الخاص عن بقية قضايا الصراع العربي–الإسرائيلي الأخرى.

وبعد دراسة ما جاء في الكتب المقدسة اليهودية وهي التوراة والتلمود، يلاحظ تكرار ذكر (أرض كنعان) فلسطين و (أورشليم) القدس فيهما. وأول ذكر للمدينة في

التوراة ارتبط بتعريف بالملك اليبوسي العربي ملكي صادق على اساس أنه "ملك ساليم (القدس) وكاهن الإله العلي".(٤) وورد في التوراة على أنه "أعظم من إبراهيم" وجاء في التوراة بعد ذلك أن الرب أعطى أرض كنعان لإبراهيم وذريته، عندما هم بذبح ابنه (إسماعيل عند المسلمين واسحق حسب ما ورد في التوراة) "ظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات".(٥) وفي مكان آخر قال الرب مخاطبا إبراهيم "ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا الآن جميع الأرض التي أنت ترى أعطيها لنسلك للأبد، أجعل نسلك كتراب الأرض"(٦).

ويصل قمة ارتباط التلمود بالقدس في المزمور السابع والثلاثين، إذ يتغنى شاعر يهودي بالقدس بعد سبي اليهود إلى بابل ويقول "على أنهار بابل جلسنا بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا لأنه هناك سألنا الذين سبونا أن نغني لهم ترنيمة. وسألنا معذبونا فرحين قائلين رنموا لنا ترنيمة من ترنيمات صهيون. كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟ فلتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم، ليلتصق لساني بحلقي إن لم أذكرك أن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي"(٧).

ويلاحظ أن القدس تعود أهميتها عند اليهود ليس لأنها كانت عاصمة لمملكة داود وسليمان (السياسية) بل لكونها مهمة دينيا بسبب وجود تابوت العهد الذي يحتوي –حسب اعتقادهم– على الوصايا العشر الإلهية لموسى، والتي بنى سليمان هيكله فوقها في جبل موريا في القدس. وكذلك لاعتقادهم أن الله أورثهم إياها بصفتهم أحفاد إبراهيم واسحق ويعقوب، وأن القدس بالنسبة إليهم هي حارسة تابوت العهد الحاوي على الوصايا الإلهية، وفيها الهيكل المقدس، ليكون المكان الوحيد الذي يستطيع اليهود فيه أن يعبدوا الله وأن يقدموا القرابين. أي أن البعد الديني كما هو ملاحظ من متابعة ما جاء في التوراة والتلمود، هو الذي أعطى أهمية خاصة للقدس عند اليهود،

وليس لكونها كانت عاصمة سياسية لليهود في فترة من الفترات، بعكس ما سعت إليه الحركة الصهيونية عندما ربطت البعدين الديني والسياسي مع بعضهما البعض لتحقيق أهدافها(٨).

موقف الحركة الصهيونية من القدس:

اهتم زعماء الحركة الصهيونية ومفكروها بمدينة القدس منذ منتصف القرن التاسع عشر. وبدا واضحا أن تركيزهم على المدينة المقدسة كان من أجل استغلال الشعور الديني لدى اليهود في أوروبا، لكسب تأييدهم للمشروع الصهيوني الرامي إلى إقامة وطن يهودي في فلسطين. ومع أن بعض زعماء الحركة الصهيونية أمثال تيودور هرتزل كان علمانيا، إلا أنه كان يرى أنه لا أهمية للدولة اليهودية من دون القدس، لما تمثله من بعد ديني وتاريخي لليهود. ولتوضيح أهمية القدس في الفكر الصهيوني سوف نحلل بإيجاز مواقف زعماء ومفكري الحركة الصهيونية الذين كانت لهم علاقة بالقدس.

من أوائل من اهتم بالقدس والاستيطان فيها موسى مونتيفوري، الذي يعتبر أحد زعماء الحركة الصهيونية الذين قاموا بشراء الأراضي بالقرب من القدس، على الرغم من معارضة الدولة العثمانية بيع الأراضي لليهود في منتصف القرن الماضي. ونجح مونتيفوري في الحصول من السلطان عبد المجيد عام ١٨٤٩ على موافقته على شراء أراض بالقرب من أسوار مدينة القدس. وعلى الرغم من أن الهدف كان بناء مستشفى، إلا أن مونتيفوري قام ببناء حي سكني لليهود، واعتبر هذا الحي الذي ما زال موجودا للآن، أول حي يهودي في المدينة المقدسة.

وجاء بعده حاخام يهودي من بولندا يدعى زفي هيرش كاليشر (Zvi Hirch Kalischer) الذي شجع اليهود على الهجرة إلى فلسطين وتطهير أنفسهم في القدس

من أجل الحصول على رضى الله، وعلى موقع قدم بالقرب من هيكل سليمان المدمر منذ مئات السنين. وكتب رسالة إلى عائلة روتشيلد تحدث فيها عن أهمية قيام دولة يهودية وعن العلاقة بين اليهود والاراضي المقدسة، وقال "إن بداية الخلاص سوف تأتي عن طريق أسباب طبيعية نتيجة للجهد الإنساني وعن طريق إرادة الحكومات لجمع شمل إسرائيل المبعثرة في الأراضي المقدسة".(٩)

وركز في كتابه (البحث عن صهيون -Derishat Zion-Seeking Zion) الذي كتبه في عام ١٨٦٢ على البعد الديني في تجميع اليهود في فلسطين والقدس، وقال "عندما يتطوع يهود كثيرون للذهاب إلى أرض إسرائيل والسكن في القدس ويسكنون هناك وتتزايد صلواتهم على جبال القدس، عندها يسمع الله لهم ويسرع في يوم خلاصهم".(١٠)

ومن الصهاينة الذين ربطوا بين القدس والعقيدة اليهودية، المفكر الصهيوني هو موسى هس (Moses Hoss) الذي كان له دور مهم في ربط المشكلة اليهودية في أوروبا مع إقامة وطن لليهود في فلسطين، ودعا في كتابه (روما والقدس Rome and Jerusalem) الذي كتبه في عام ١٨٦٢، إلى حل مشكلة اليهود في أوروبا عن طريق بعث القومية اليهودية وهجرة اليهود وتوطينهم في القدس. ودعا إلى قومية يهودية في كتابه "تحرر القدس" تكون من أجل انبعاث عصر الانبعاث اليهودي الجديد، على غرار تحرير روما في التاريخ القديم. وعندما يتم ذلك، كما يقول، فسوف تتفوق القدس على روما في النفوذ والعظمة. ووصف شعوره نحو القدس بقوله:

"لقد تبين لي أن العاطفة التي ظننت بأني قد أخفيتها عادت إلى الحياة من جديد. إنها التفكير في وطنيتي التي تربط بتراث أسلافي وبالأرض المقدسة وبالمدينة الخالدة".(١١)

وكان هس يخطط لأن تكون القدس عاصمة لإسرائيل وقال عن ذلك "إن المدينة الخالدة (القدس) ستكون مركز الإشعاع الحضاري بالنسبة للعالم، حيث ستدور في فلكها جميع المدن الأخرى في مشارق الأرض ومغاربها".(١٢)

إلا أن مؤسس الحركة الصهيونية، ثيودور هرتزل (Theodor Herzel)، دعا إلى إقامة القدس اليهودية خارج الأسوار. ولم يحدد بذلك القدس القديمة، حيث اعتقد اليهود وجود هيكل سليمان فيها. وهو بذلك كان من أوائل الصهاينة الذين لم يربطوا القدس التي يريدونها بالقدس التوراتية. وقال في مذكراته "فقط خارج أسوارها سوف تقوم المدينة الجديدة، القدس الجديدة، تسيطر عليها وتحميها عظمة الأسوار القديمة".(١٣) وهذا يدل على أن هرتزل العلماني، كان يتصور ولادة قدس جديدة لها أهمية سياسية غير مرتبطة بالتاريخ أو الوجود الديني اليهودي في القدس، كما هو عند حاخامات ومفكري الحركة الصهيونية الآخرين. ولكن هرتزل يعترف بأنه "إذا قدر لنا يوما أن نملك القدس وأنا على قيد الحياة وكنت قادرا على أن أفعل أي شيء فسوف أدمر كل ما هو غير مقدس عند اليهود فيها"(١٤).

موقف إسرائيل من القدس:

اهتمت إسرائيل منذ اللحظة الأولى لقيامها عام ١٩٤٨ بالقدس. وكان قرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١، في عام ١٩٤٧، والقاضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، قد أعطى القدس وضعا خاصا (كيانا منفصلا Corpus Separatum) بحيث تكون تحت السيادة الدولية. إلا أن إسرائيل سرعان ما قامت بتوسيع مساحة الأراضي المخصصة لها حسب قرار التقسيم واحتلت الجزء الغربي من القدس مع بعض القرى العربية، بما يتعارض مع قرار تدويل المدينة. واعترف زعماء إسرائيل بأن الدولة اليهودية لن تكتمل من دون أن تكون القدس

عاصمة لها. وقال حاييم وايزمان، أول رئيس لإسرائيل في عام ١٩٤٨، إن "للقدس مكانة خاصة في قلب كل يهودي وهي رمز خلاص لإسرائيل. إنها مدينة الله منذ القدم، عاصمة مملكة داود وسليمان، وعاصمتنا التاريخية. والآن بعد أن قامت دولة إسرائيل أليس من الأمور المؤسفة أن القدس خارجة عن دولة إسرائيل. لم يكن في وسع اليهود خلال آلاف السنين الماضية أن ينسوا القدس فكيف ينسونها الآن. ولا يمكن لأحد أن يصدق أو يعترف بأنه في الوقت الذي يعيد اليهود فيه بناء دولتهم، يقتطع منها القلب النابض العاصمة التاريخية".(١٥)

ويلاحظ أن وجهة نظر وايزمان من القدس أشمل من وجهة نظر هرتزل التي أرادها أن تكون خارج الأسوار بينما أرادها وايزمان داخل الأسوار. أي أنه ربطها بالماضي وبملوك إسرائيل، ولكنه أرادها أن تكون عاصمة سياسية لإسرائيل بعد أشهر من قيامها عام ١٩٤٨. وهذا يفسر الإصرار الواضح من قبل الإسرائيليين للاستيلاء على القدس، على الرغم من تعارض ذلك مع قرار التقسيم. وهذا "القلب النابض والعاصمة التاريخية" كما يريدها وايزمان، هو الموقف نفسه الذي سارت عليه الحكومات الإسرائيلية منذ خمسين عاما.

وبدأ بن غوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل بتنفيذ سياسة احتلال القدس وتهويدها وضمها لإسرائيل. ورد على الاحتجاجات الدولية الرافضة للسياسة الإسرائيلية في القدس بقوله "إن إسرائيل لن تتخلى عن القدس باختيارها. إن القدس عضو حيوي وجزء لا يتجزأ ولا ينفصل من الدولة. وأن اليهود سيضحون بأنفسهم من اجلها ولا معنى لإسرائيل بدون القدس ولا معنى للقدس بدون الهيكل".(١٦)

وبعد حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، احتلت إسرائيل القدس الشرقية وضمتها إلى القدس الغربية وأعلنتها عاصمة موحدة لإسرائيل، وارتفع بناء على ذلك، عدد اليهود في القدس الموحدة لكي يصل في عام ١٩٧٢، إلى ٢٣٠,٣٠٠ ألف، وفي عام ١٩٩٧

إلى ٤٢٥ ألفاً. وأما عدد العرب فقد كان في الفترة نفسها، ٨٣,٦٠٠ في عام ١٩٧٢ و ١٧٠ ألفاً في عام ١٩٩٧.[١٧]

وفي آخر إحصائية نشرتها مجلة Newsweek الأمريكية، خلال انعقاد مؤتمر كامب ديفيد الثاني في شهر تموز / يوليو ٢٠٠٠، اشارت إلى أن عدد اليهود في القدس، ارتفع في منتصف عام ٢٠٠٠، ليصل إلى ٤٥٠ الف يهودي، وعدد الفلسطينيين إلى ١٩٦ ألف فلسطيني (١٨٢ ألف مسلم و ١٤ ألف مسيحي).[١٨]

وأصبحت القدس الموحدة الآن والتي تعتبرها إسرائيل عاصمة موحدة لها مكونة من:

١- القدس الغربية والتي كانت تابعة لإسرائيل قبل عام ١٩٦٧، تبلغ مساحتها ٣٩,٢٦١ دونماً وتعادل ٣٥,٧٪ من القدس الموحدة.

٢- القدس الشرقية والتي كانت تابعة للأردن (٢٢٢٠ دونم) والأمم المتحدة (٨٥٠ دونم) قبل عام ١٩٦٧، تعادل حوالي ٢,٨٪ من القدس الموحدة.

٣- الأراضي التي ضمت إلى القدس من الضفة الغربية بلغت مساحتها ٦٧,٦٦٩ ألف دونم وتعادل ٦١,٥٪ من القدس الموحدة.

٤- القدس الشرقية مضافا إليها الأراضي التي ضمت من الضفة الغربية (٧,٧٣٩ ألف دونم) منذ عام ١٩٦٧، تعادل ٦٤,٣٪ من القدس الموحدة.[١٩]

وهذا يدل على أن ٦٤,٣٪ من مساحة القدس الموحدة هي أراض قامت إسرائيل بمصادرتها وبناء المستوطنات عليها، أو اعتبرتها مناطق أمنية يمنع على الفلسطينيين الاقتراب منها بعد مصادرتها بقرار من الحاكم العسكري. وأن ٧٠٪ من عقارات وأراضي القدس الغربية هي أملاك عربية. مما يعني أن القدس الموحدة التي تريدها إسرائيل عاصمة لها هي في الواقع موجودة فوق أراض قامت بالاستيلاء عليها عن طريق القوة.

موقف الأحزاب الإسرائيلية من القدس:

تعترف معظم الأحزاب الإسرائيلية بأن القدس عاصمة للدولة اليهودية. ولهذا فإن الأحزاب الإسرائيلية بمختلف توجهاتها السياسية في السلطة وفي المعارضة، تتفق فيما بينها على أن تبقى القدس تحت السيادة الإسرائيلية. وباستثناء الحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح سابقا) والأحزاب العربية في إسرائيل، فإن بقية الأحزاب الإسرائيلية اليسارية واليمينية لا تختلف في مواقفها بالنسبة للقدس.

ونبدأ بحزب العمل الإسرائيلي الحاكم حاليا (سنة ٢٠٠٠)، والذي حكم إسرائيل منذ قيامها حتى عام ١٩٧٧. فقد احتلت إسرائيل في عهده القدس الغربية التي كانت خارج حدود الجزء المخصص لها حسب قرار التقسيم، كما وسعت من حدود المدينة، واعتبرتها عاصمة لها، من دون أن يكون تابوت العهد ولا هيكل سليمان جزءا من المنطقة التي احتلتها، وأصبحت القدس الغربية العاصمة السياسية لإسرائيل. وقاد حزب العمل إسرائيل في حرب ١٩٦٧، وضم القدس الشرقية ووحدها مع القدس الغربية لتصبح العاصمة الموحدة السياسية والدينية لإسرائيل. وقامت الحكومة في عهده بتهويد القدس وتغيير معالمها العربية، وببناء سور من المستوطنات تحيط بالمدينة من مختلف الجهات، لكي تفصلها عن بقية مناطق الضفة الغربية، وبتشجيع استيطان اليهود في القدس والمستوطنات المحيطة بها. ونجحت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة من حزب العمل في فرض سياسة الأمر الواقع على المدينة، والضغط على المواطنين الفلسطينيين من خلال القوانين التي فرضتها عليهم، لترك القدس، دون وجود أية معارضة من جانب الأحزاب الأخرى الإسرائيلية. وكان زعيم حزب العمل ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إسحق رابين قد صرح بأن "إبقاء القدس عاصمة موحدة لإسرائيل تحت سيادتها من القضايا الرئيسية لإسرائيل".(٢٠)

وعندما وصل تكتل الليكود اليميني بزعامة مناحيم بيجن إلى السلطة في عام

١٩٧٧، استمر الليكود في سياسة التهويد وبتشجيع الاستيطان اليهودي بالقرب من المدينة. وزاد موقف إسرائيل تطرفا بالنسبة للقدس في عهده، ورفض بيجن خلال مفاوضات كامب ديفيد، تقديم أية تنازلات فيما يتعلق بالقدس.

وما يميز تكتل الليكود اليميني عن حزب العمل اليساري فيما يتعلق بالقدس، هو أن الليكود زاد من التركيز على أهمية القدس الموحدة كعاصمة لإسرائيل، وفي تشجيع الاستيطان بالقدس وجوارها، وبمصادرة المزيد من الأراضي حولها. واكتمل هذا الموقف، بموافقة الكنيست الإسرائيلي في ١٩٨٠/٧/٢٩، بناء على اقتراح من الليكود، على ضم القدس الشرقية رسميا لإسرائيل. وجاء في قرار الكنيست:

١- القدس الموحدة بكاملها عاصمة لإسرائيل.

٢- القدس هي مقر الرئيس الإسرائيلي والكنيست والحكومة الإسرائيلية والمحكمة العليا.

٣- تخص القدس بجميع الأولويات في نشاطات الدوائر الحكومية المختلفة من أجل تطويرها.

وعلى الرغم من أن القرار الإسرائيلي لقي انتقادات واسعة على الصعيد الدولي، واتخذ مجلس الأمن الدولي قراره رقم ٤٧٨ في ١٩٨٠/٨/٢١ طالب فيه إسرائيل بالتراجع عن قرارها وعدم تغيير معالم القدس الشرقية، إلا أن تكتل الليكود لم يهتم بردود الفعل الدولية. وقام رئيس الحكومة بيجن بنقل مكتبة إلى القدس الشرقية ونقل اجتماعات مجلس الوزراء أيضا. كما صرح أرييل شارون وزير الدفاع في ذلك الوقت ووزير البنية التحتية في حكومة نتانياهو، بعد أن نقل مقر سكنه إلى القدس القديمة بالقرب من المسجد الأقصى "بأن المدرعات التي تعتبر رأس حربة الجيش الإسرائيلي، ستكفل بأن يظل الطريق إلى القدس أمنا. وستكفل أيضا بأن تظل عاصمة إسرائيل الأبدية الموحدة".[٢١]

واستمر الموقف الإسرائيلي الرافض لأي تفاوض حول القدس في ظل حكومة الوحدة الوطنية (٨٤-١٩٨٨) بين أحزاب تكتل الليكود والعمل. وكانت قضية

القدس هي القضية الوحيدة التي لم يختلف عليها الحزبان طيلة فترة حكمهما المشترك وبقيت سياسة بناء المستوطنات حول القدس من القضايا المتفق عليها بينهما.

وعندما عاد حزب العمل إلى السلطة وحده في عام ١٩٩٢، لم يغير موقفه من القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل. إلا أنه حدث تطور بسيط في موقف الحزب الحاكم عندما وافق، على مناقشة قضية القدس في المرحلة النهائية لمفاوضات السلام مع الفلسطينيين، حسب اتفاق أوسلو في عام ١٩٩٣. كما وافقت حكومة حزب العمل على السماح للفلسطينيين في القدس بالمشاركة في الانتخابات التشريعية التي جرت في عام ١٩٩٦، أي معاملة المواطنين العرب في القدس، معاملة الفلسطينيين نفسها في الأراضي العربية المحتلة بالضفة الغربية وقطاع غزة. وهذا يدل على تراجع ولو بسيط في موقف حزب العمل من القدس، خاصة أن إسحق رابين، رئيس حكومة العمل كان يستثني كل ما يتعلق بالقدس من أية مفاوضات مع الفلسطينيين. ولا شك أن موافقة حزب العمل على ترك قضية التفاوض على القدس للمرحلة النهائية، يعني أن هناك إمكانية في حدوث تغيير في مستقبل القدس.

وخلال الحملات الانتخابية الإسرائيلية التي جرت في عام ١٩٩٦، تبارى معظم المرشحين الإسرائيليين من مختلف الأحزاب السياسية، في طرح قضية القدس على أساس أنها عاصمة موحدة لإسرائيل. وركز البرنامج الانتخابي لائتلاف أحزاب الليكود وغيشر وتسومت الذي نشر في ١٩٩٦/٥/٢٩ على قضية القدس، وجاء في البرنامج "القدس الكاملة والموحدة هي عاصمة إسرائيل، وستحظر الأنشطة التي ترمز إلى التآمر على مكانة القدس هذه، وبالتالي ستغلق مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية، بما في ذلك بيت الشرق"[٢٢].

ودعا برنامج حزب العمل في الانتخابات إلى الإبقاء على القدس موحدة تحت سيادة إسرائيل، مع احترام الحرية الدينية للمسلمين والمسيحيين في القدس القديمة. و لم

يتغير موقف الحزب في انتخابات الكنيست التي جرت في عام ١٩٩٩ من القدس، التي أوصلت أيهود باراك زعيم الحزب إلى رئاسة الحكومة. فقد دعا إلى أن تكون القدس بكاملها عاصمة لإسرائيل، وأن الحزب لن يتنازل عنها ولن يتراجع عن موقفه.(٢٣)

وأكد برنامج الحزب القومي الديني المفدال على أن تبقى "القدس الموحدة هي العاصمة الأبدية لشعب إسرائيل ودولة إسرائيل وحدهما، وهذه المكانة غير قابلة للتفاوض بشأنها".(٢٤)

بينما طالب حزب الطريق الثالث بزعامة وزير الداخلية الحالي أفيغدور كهلاني والمنشق عن حزب العمل، إلى أن تبقى القدس موحدة وغير مجزأة عاصمة لإسرائيل ومركز الشعب اليهودي، وأنها "ستبقى تحت السيادة الإسرائيلية إلى الأبد. إن مركزية القدس في الخريطة المستقبلية لدولة إسرائيل، ومكانتها كعاصمة لا يمكن التوصل إليهما إلا إذا لم يكن موقعها على حدود الدولة وكجزء من ترتيبات الوضع الدائم، وستطبق السيادة الإسرائيلية على ممر القدس الموسع من السهل الساحلي حتى نهر الأردن ما بين محور بيت حورون في الشمال ومحور غوش عتسيون في الجنوب".(٢٥)

كما أن حزب ميرتس اليساري الذي يؤيد بعض الحقوق الفلسطينية، أعلن في برنامجه الانتخابي أن القدس عاصمة لإسرائيل "ولن تقسم بعد الآن. ولدى تحديد الوضع الدائم للمدينة كما سيتقرر في اتفاق السلام، ستؤخذ في الاعتبار جميع الروابط الخاصة المتصلة بالمدينة من دينية وقومية".(٢٦) وفي مؤتمر الحزب الذي عقد في مطلع شهر نوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٩٧، رفض الحزب اقتراحا قدمه عضوا الكنيست من ميرتس وهما دودي تسوكر ونعامي هازون، يدعو إلى موافقة الحزب على قيام عاصمتين في مدينة القدس لكلا الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي. وتزعم زعيم الحزب يوسي ساريد رفض الاقتراح الذي لم ينجح في التصويت داخل مؤتمر الحزب.(٢٧)

وخلال المناظرة التلفزيونية بين نتنياهو وبيريز عشية الانتخابات الإسرائيلية في ١٩٩٦/٥/٢١، دافع الأخير عن وجهة نظره بالنسبة للقدس التي كان اليمين الإسرائيلي يهاجمها، بحجة تخلي بيريز عن الدفاع عن وحدة القدس كعاصمة لإسرائيل، وقال " منذ أسابيع ونتنياهو يحاول إقناع الإسرائيليين بأنني أريد تقسيم القدس، إنها كذبةوقحة "وشدد بيريز على أن قوله في الصلاة "إذا نسيتك يا قدس فلتصب يدي اليمنى بالشلل" قد رافقته طيلة حياته، وأن القدس "ستبقى عاصمة موحدة لإسرائيل وإلى الأبد".(٢٨)

وعندما عاد تكتل الليكود اليميني بالتحالف مع الأحزاب الدينية بزعامة نتنياهو إلى الحكم في عام ١٩٩٦، لم تتغير السياسة الرسمية والحزبية الإسرائيلية تجاه القدس. وبقي الإصرار على بقائها موحدة وعاصمة لإسرائيل، وعلى الاستمرار في مصادرة الأرضي وبناء المستوطنات، وكان آخرها مستوطنة أبو غنيم (غارحوما) في نهاية عام ١٩٩٧، ومستوطنة باب العمود في شهر فبراير / شباط من عام ١٩٩٨، من دون الاكتراث للحقوق العربية في المدينة.(٢٩)

جدول يمثل مواقف وبرامج الأحزاب الإسرائيلية بالنسبة للقدس

اسم الحزب	السنة	موقف الحزب
حزب حيروت	١٩٤٨	القدس تحت السيادة الإسرائيلية
حزب حركة راتس	١٩٧٣	القدس يجب أنت بقى مدينة موحدة وعاصمة دولة إسرائيل
حزب العمل	١٩٧٧ ١٩٩٦ ١٩٩٩	لا لتقسيم القدس الموحدة عاصمة إسرائيل، ومع إقامة دولتين إسرائيل وعاصمتها القدس الموحدة، ودولة أردنية فلسطينية عاصمتها عمان القدس موحدة عاصمة لإسرائيل تحت السيادة الإسرائيلية، وخلال المفاوضات تكون ضواحي القدس (المستوطنات معاليه أدوميم وغفعات زنيف وغوش عتسيون وشمال غرب البحر الميت) تحت السيادة الإسرائيلية.
تكتل الليكود	١٩٧٧ ١٩٩٧ ١٩٩٩	القدس العاصمة الأبدية والموحدة لإسرائيل القدس عاصمة موحدة وأزلية للشعب اليهودي وإسرائيل مع استمرار الاستيطان حول القدس وإغلاق الموسسات الفلسطينية في المدينة.
الجبهة الديمقراطية	١٩٧٧ ١٩٩٩	دولتين إسرائيلية وعاصمتها القدس الغربية وفلسطينية وعاصمتها القدس الشرقية
حزب المفدال	١٩٧٨ ١٩٩٦ ١٩٩٩	دولة واحدة بين البحر ونهر الأردن هي دولة إسرائيل وعاصمتها القدس الموحدة القدس الموحدة هي العاصمة الأبدية لشعب إسرائيل ودولة إسرائيل وحدهما، وهذه المكانة غير قابلة للتفاوض بشأنها.
حركة شنوي	١٩٧٩ ١٩٩٩	القدس يجب أن تبقى موحدة وعاصمة دائمة لإسرائيل
حزبي غيشر وتسومت	١٩٩٦ ١٩٩٩	القدس الكاملة والموحدة عاصمة لإسرائيل وتحظر الأنشطة التي ترمي إلى التمرد على مكانة القدس من الجانب الفلسطيني والمطالبة بإغلاق الموسسات الفلسطينية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية.
حزب الطريق الثالث	١٩٩٦	القدس الموحدة وغير المجزأة عاصمة لإسرائيل ومركز الشعب اليهودي، ستبقى تحت السيادة الإسرائيلية إلى الأبد، وتطبق السيادة الإسرائيلية على ممر القدس الموسع من السهل الساحلي حتى نهر الأردن ما بين محور بيت حورون في الشمال ومحور غوش عتسيون في الجنوب.
حركة ميرتس	١٩٩٦ ١٩٩٧ ١٩٩٩	القدس عاصمة إسرائيل ولن تقسم بعد وعند المفاوضات النهائية تؤخذ بعين الاعتبار جميع الروابط الخاصة المتصلة بالمدينة من دينية وقومية رفض جعل القدس عاصمة لدولتين فلسطينية وإسرائيلية وبقاء القدس موحدة عاصمة لإسرائيل
الحزب الديمقراطي العربي والحركة الإسلامية	١٩٩٧ ١٩٩٩	رفض الاعتراف بضم القدس الشرقية لإسرائيل والقدس الشرقية عاصمة للدولة الفلسطينية.(٣٠)

وأثرت مواقف الأحزاب والحكومات الإسرائيلية من القدس، في تعبئة الرأي العام الإسرائيلي وفي تأييد المواقف الرسمية والحزبية من القدس. ففـي استطلاع للـراي العـام الإسرائيلي أجـري في عـام ١٩٧٢، تبـين أن ١٪ فقـط مـن الذيـن شملـهم الاسـتطلاع يوافقـون علـى عـودة القـدس الشـرقية للعـرب، و ٤٪ يوافقـون علـى وجـود سـيطرة مشتركة على الجزء العربـي مـن القـدس. وبعـد عشـر سنوات أجـرى معـهد أزراحـي استطلاعا آخرا للـرأي العـام الإسـرائيلي، أظـهر أن ١٠٪ مـن الإسـرائيليين مسـتعدين للانسحاب من الضفة الغربية باستثناء القدس، بينما أجاب ٣,٥٪ أنهـم يوافقـون علـى الانسحاب من الضفة والقدس.[٣١]

وفي منتصف عام ١٩٩٧، أجرى معهد غوتمان الإسـرائيلي للبحـوث الاجتماعيـة في الجامعة العبرية ومعهد جيروم سيحال استطلاعا حـول موقـف اليـهود مـن القـدس، أظهر أن ٨٠٪ من اليهود يعارضون كل التسويات المتعلقة بالقدس، ويطـالبون ببقائـها موحدة تحت السيادة الإسرائيلية. ولم تتجـاوز نسـبة مـن أيـد الانسـحاب مـن القـدس الشرقية في الاستطلاع ٥٪ فقط.[٣٢]

ويؤكد د. يهودا بن مئير من مركز يافا للدراسات الإسرائيلية أن "أية محاولة تقوم بها أية حكومة إسرائيلية لاقتراح تقسيم القدس أو اقتراح أن تكون المدينة عاصمـة لأي كيان آخر، سيتم رفضها بعنف من قبل الـرأي العـام الإسـرائيلي ومـن قبـل اليـهود في جميع أنحاء العالم، وستسبب أزمة كبرى بين إسرائيل ويهود العالم، وفي الحقيقية فإن أية حكومة تقترح تقسيم القدس أو التخلي عـن السـيادة الإسـرائيلية علـى أي جـزء منـها ستفقد شرعيتها في نظر الرأي العام اليهودي في إسرائيل وفي الخارج". [٣٣]

وفي موقف موحد للكنيست الإسرائيلي من القدس خلال انتفاضة الأقصـى، فقـد صودق على مشروع قانون يقضي بإخراج القدس واللاجئين من دائرة المفاوضات مـع الفلسطينيين. وصوت على المشروع ٨٤ نائبا من مختلف الأحزاب الإسرائيلية، وصوت

ضده ١٩ نائبا من الأحزاب العربية وميرتس. ويمنع القرار إجراء أي تغييرات على حدود منطقة القدس الخاضعة لإسرائيل، مما يعني إخراجها من دائرة المفاوضات.(٣٤)

الحلول الإسرائيلية لمستقبل القدس:

في ضوء ما تقدم من مواقف وممارسات إسرائيلية في القدس وتغيير معالم المدينة وتهويدها، والإصرار على أن تبقى القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل، نجد أن حل قضية القدس لن يكون سهلا. لأن إسرائيل تحاول إخراج قضية القدس من الصراع العربي –الإسرائيلي وترفض باستمرار التفاوض على إيجاد حل يقبل به العرب، وتريد إبقاء سيطرتها على المدينة من دون أن تعي خطورة ذلك على التسوية في الشرق الأوسط. ولهذا وفي المقابل على الجانب العربي والفلسطيني، التشبث بالموقف الرافض للموقف الإسرائيلي، والتمسك بأن تكون القدس الشرقية على الأقل عاصمة للدولة الفلسطينية، إذا اصرت إسرائيل على اعتبار القدس الغربية عاصمة لها. وأمام موقفين متناقضين، يبقى مستقبل المدينة غامضا وقابلا لأن يودي إلى انفجار الوضع في الشرق الأوسط، خاصة أن إسرائيل تريد فرض سياسة الأمر الواقع على المدينة De Facto، بما يتلاءم مع موقفها الأيديولوجي والسياسي، بحيث لا يجد المفاوض العربي من معالم القدس العربية شيئا يتفاوض عليه، وهو ما تريده وتخطط له إسرائيل، مما يبقي مستقبل المدينة في يدها. وفي حال حدوث ذلك فإن هذا يتناقض مع مستقبل التسوية في الشرق الأوسط، لأنه لا سلام من دون إيجاد حل لمدينة السلام.

ولكن وعلى الرغم من أن الإسرائيليين يتشبثون بمواقفهم المتشددة حيال القدس، إلا أنهم يحاولن إيجاد حلول لمستقبل المدينة، ويتوقعون من الجانب الفلسطيني والعربي أن يوافق عليها، وسوف نحلل بعض الحلول الإسرائيلية المقترحة لحل قضية القدس، آخذين بعين الاعتبار الملاحظات التالية:

أولا: أنه على الرغم من الأهمية الدينية للقدس للديانات السماوية، إلا أنه لا يجوز التركيز فقط على هذا البعد على حساب الأهمية السياسية للقدس، وعلى كونها محتلة مثل بقية المناطق العربية المحتلة، وأن يبحث في حل القضية على أساس ديني، بل لا بد من أخذ البعد السياسي بعين الاعتبار عند البحث عن حل للقضية. وأن تعامل القدس والمستوطنات المحيطة بها مثل بقية المستوطنات المقامة في بقية أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة. أي عدم التركيز فقط على البعد الديني للمدينة وهو ما تريده إسرائيل، بل الاهتمام بالبعد السياسي وما تمثله القدس من أهمية سياسية للفلسطينيين والعرب كعاصمة سياسية.

كما أنه من الصعب القول بأن المجتمع الإسرائيلي بأغلبيته متدين، فهو مجتمع علماني. وهذا يدل على أن الإجماع الإسرائيلي على قضية القدس لا يأتي لأسباب دينية فقط، بل لأسباب سياسية أيضا. كما أن إسرائيل لا تعتبر دولة ثيوقراطية خاضعة لحكم رجال الدين وهي لا تخضع للقانون الديني ولا للتراث اليهودي. أي أن قوانين الدولة لا تستند للقانون اليهودي على الرغم من وجود الأحزاب الدينية في الحياة السياسية.

ثانيا: أن اتفاقية أوسلو الموقعة في ١٩٩٣/٩/١٣ بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، بحثت في قضية القدس من حيث صلاحيات مجلس الحكم الذاتي الفلسطيني وفي انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني، وأبقت القدس التي تبلغ مساحتها ١٠٪ من مساحة الضفة الغربية، والتي وسعت إسرائيل مساحتها لكي تصل إلى ٢٠٪ من مساحة الضفة الغربية، خارج صلاحيات السلطة الوطنية الفلسطينية خلال المرحلة الانتقالية، لكن مع المحافظة على وضع القدس كما هو من دون إجراء أي تغيير في معالم المدينة. علما بأنه لم يتم الاتفاق على حل قضية القدس خلال المفاوضات السرية التي سبقت اتفاق أوسلو. ولهذا فقد تم الاتفاق بين الفلسطينيين والإسرائيليين على ترك قضية القدس إلى المرحلة النهائية من المفاوضات، مع الحفاظ على وضع المؤسسات

الفلسطينية فيها. وجاء هذا التأكيد في رسالة أرسلها شمعون بيريز وزير الخارجية الإسرائيلية الأسبق، بعد شهر واحد على التوقيع على اتفاقية أوسلو، إلى هولست (Holst) وزير الخارجية النرويجية، تعهد فيها باحترام إسرائيل لجميع المؤسسات الفلسطينية في القدس الشرقية "بما فيها المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية والأماكن المقدسة المسيحية والإسلامية" وأن إسرائيل لن تعرقل نشاطاتها.(٤٤)

وعندما وافق الكنيست الإسرائيلي على إعلان واشنطن في ١٩٩٤/٨/٣ بين السلطة الوطنية الفلسطينية وإسرائيل بأغلبية ٧٧ صوتاً مقابل ٩ أصوات، فقد وافق بشرط أن، تبقى القدس "عاصمة إسرائيل الأبدية وعاصمتها وحدها" وذلك من أجل منع حدوث أي تغيير في وضع القدس خلال المفاوضات النهائية، ولكي لا تطرح في المستقبل فكرة جعل القدس عاصمة ثنائية لكل من إسرائيل ودولة فلسطينية يمكن أن تنشأ في المستقبل.

ولهذا فإن اسحق رابين، رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق، كان قد صرح بعد التوقيع على اتفاقية أوسلو بأن (القدس مستبعدة من عملية المفاوضات مع الفلسطينيين). وقامت إسرائيل منذ اتفاق أوسلو في سبتمبر/ أيلول ١٩٩٣ بمصادرة المزيد من الأراضي الفلسطينية المحيطة بالقدس، فقد صادرت ٢٦٣٨٢ فداناً من الأراضي الفلسطينية، تحت ذريعة (مناطق عسكرية مغلقة) و ٤٢٩٥ فداناً لتوسيع المستوطنات المحيطة بالقدس، و ٢٩٨٤ فداناً لشق شوارع للمستوطنات، و ٢٩٥٠ كمحميات طبيعية(٤٥). وغيرت العديد من معالم القدس، وبنت مستوطنات جديدة مثل مستوطنة هار حوما في جبل أبو غنيم بالقرب من القدس، مما يشكل انتهاكا لاتفاقية أوسلو، التي تركت حل قضية القدس إلى المرحلة النهاية من المفاوضات.

ثالثا: لا يوجد تصور واحد للأطراف المتصارعة والدولية على حل مقبول للجانبين العربي والإسرائيلي لمستقبل القدس. و لم تراع الحلول الإسرائيلية الحد الأدنى

من الحقوق العربية، بينما أخذت المشاريع العربية وجهات النظر الإسرائيلية بعين الاعتبار عند طرحها مقترحات لمستقبل المدينة. وطرح الحلول الإسرائيلية لمستقبل المدينة لا يعني بالتأكيد أن هذه الحلول عادلة بالنسبة للجانب العربي ومن الممكن أن يوافق عليها.

كما أن وجود عدة حلول إسرائيلية، يدل على أن الإسرائيليين أنفسهم غير متفقين اتفاقا كاملا على مستقبل القدس، على الرغم من أنهم متفقون على عدم تقسيمها وعلى إبقائها عاصمة موحدة لهم. وأن الممارسات الإسرائيلية ضد المواطنين العرب، تهدف إلى فرض الحلول التي يريدونها على الفلسطينيين والعرب. ولكن هذا لا يعني أن إسرائيل لا تعرف خطورة قضية القدس على مسيرة التسوية مع العرب، وضرورة حل هذه القضية، خاصة أن موافقة إسرائيل على ترك حل مشكلة القدس إلى المرحلة النهائية في مفاوضات السلام، اعتراف إسرائيلي بأن ملف القدس لم يغلق بعد .

وطرحت إسرائيل عدة مشاريع متفاوتة في المواقف، ولكنها متفقة على عدم تقسيم القدس بينها وبين الفلسطينيين مرة ثانية. ومن الممكن أن توافق إسرائيل في المفاوضات النهائية على ترتيبات إدارية للمناطق الدينية الإسلامية والمسيحية، وليس سياسية أو سيادية. ولهذا فهي تريد إيجاد حل تحصل بموجبه على ما تريد، وتقنع العرب والفلسطينيين بأنها قدمت تنازلات.

ومن هذه الحلول الإسرائيلية لمستقبل القدس، مشروع الحكومة الإسرائيلية (تكتل الليكود اليميني) الذي قدمه دوري غولد المستشار السياسي السابق لنتنياهو، ومندوب إسرائيل الدائم الآن في الأمم المتحدة. ومشروع يوسي بيلين، الوزير الإسرائيلي السابق في حكومة حزب العمل، ومهندس اتفاق أوسلو مع الفلسطينيين، ومن أنصار السلام مع العرب والفلسطينيين، ومشروع مستقل قدمه رعنان فأيس إلى السلطة الوطنية الفلسطينية، ومشروع (حل الفاتيكان) أي أن يكون وضع القدس مثل وضع

الفاتيكان، واقترحه بعض الأكاديميين الإسرائيليين، ومشروع (حل بروكسل) الذي طرحه بعض المثقفين الإسرائيليين، في ندوة عقدها في القدس المركز الإسرائيلي- الفلسطيني للأبحاث والمعلومات في عام ١٩٩٦، وشارك فيها الفلسطينيون. وهناك مشاريع إسرائيلية عديدة أخرى اقترحت من مراكز أبحاث ومن سياسيين إسرائيليين، لحل قضية القدس. مثل مشروع تيدي كوليك رئيس بلدية القدس السابق، والذي طوره بيلين في مشروعه، ومشروع ميرون بنفينيستي نائب رئيس بلدية القدس السابق.

مشروع دوري غولد:

نفى غولد في دراسته بعنوان (القدس الحل الدائم Jerusalem: Final Status Issues) وجود أية أهمية سياسية للقدس بالنسبة للعرب، على أساس أنها لم تكون في أي وقت من الأوقات عبر التاريخ، عاصمة سياسية لهم. بينما كانت القدس كما يقول غولد عاصمة سياسية ودينية لليهود في عهد داود وسليمان. وتحدث عن الأهمية الدينية للقدس عند المسلمين ولكنها ومع ذلك، لا ترقى إلى الأهمية الدينية لدى اليهود، إذ قلل من أهميتها الدينية. وقال "ومع أن الحج يعد من أركان الإسلام، فإن الأمر بأداء فريضة الحج ينطبق على مكة فقط ولا ينطبق على القدس.. ولا تتضمن الصلوات اليومية عند المسلمين أية إشارة إلى القدس، بينما في التراث اليهودي كانت القدس عاصمة سياسية وروحية"[٤٦].

ولهذا فقد اقترح غولد أن يكون حل قضية القدس عن طريق التفاهم مع الأردن على الحل الديني، عن طريق السماح لها برعاية المصالح الإسلامية في القدس. وأقترح بهذا الخصوص، تشكيل لجنة إسلامية تضم الأردن والسعودية والمغرب والسلطة الفلسطينية، من أجل الإشراف على الأماكن المقدسة الإسلامية في المدينة. بينما تبقى القدس الموحدة بكاملها عاصمة لإسرائيل وتحت السيادة الإسرائيلية. وتأتي أهمية هذا

الحل من أن غولد عبر في اقتراحه عن موقف تكتل الليكود اليميني ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، نتنياهو، وهو الحل الذي تريد الحكومة الإسرائيلية عرضه على الفلسطينيين في المفاوضات النهائية لحل مستقبل قضية القدس. ويلاحظ في حل غولد، الرفض الواضح لتقسيم المدينة، أو الاعتراف للفلسطينيين والعرب بأي حقوق سياسية في القدس.

مشروع يوسي بيلين:

يعتبر يوسي بيلين وزير العدل الإسرائيلي في حكومة باراك الحالية، مهندس اتفاقات أوسلو مع الفلسطينيين، ومن أنصار تحقيق السلام مع العرب، وكان وزيرا للاقتصاد في حكومة حزب العمل الإسرائيلي قبل مجيء نتنياهو إلى الحكم، وهو يمثل وجهة نظر شمعون بيريز. ومع أنه اقترح حلا لقضية القدس، إلى أنه رفض عودة القدس الشرقية لتكون عاصمة للفلسطينيين، ورفض إعادة تقسيم القدس وعرض (التقاسم الوظيفي) بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وقال إن "إسرائيل لن توافق أبدا على تقسيم القدس مرة أخرى، ولكنها قد تعرض على الفلسطينيين المقيمين في المدينة إقامة إدارة بلدية منفصلة. ولن نكون مستعدين أبدا لإعادة تقسيم القدس أو التخلي عن السيادة عليها. وهذا لا يعني أننا لن نضع في حساباتنا حاجات الفلسطينيين، وإنني أؤيد أن يكون للفلسطينيين مجالس أحياء ويتمكنون من انتخاب أعضاء هذه المجالس في إطار بلدية القدس وتحت السيادة الإسرائيلية".

ويتكون مشروع بيلين لحل قضية القدس في المفاوضات النهائية، من خمسة حلول، قدمها بالتعاون مع (معهد القدس لأبحاث إسرائيل) لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد خروج حزب العمل من السلطة. وهذه المقترحات هي:

أولاً: السيادة المشتركة: تبقى المدينة موحدة ومفتوحة لجميع السكان العرب

واليهود بشكل متساو، وخاضعة للسيادة المشتركة لإسرائيل والفلسطينيين، وتقدم الخدمات لجميع السكان بشكل متساو. ويتم انتخاب مجلس بلدي مشترك من قبل الإسرائيليين والفلسطينيين المقيمين في القدس.

ثانياً: المشاركة في السيادة: تقسم المدينة إلى بلديتين فلسطينية وإسرائيلية، وكل بلدية تقدم خدماتها إلى سكان مواطنيها.

ثالثاً: السيادة المجزأة: تجزأ السيادة حسب خطوط التماس بين سكان المدينة الفلسطينيين والإسرائيليين.

رابعاً: سيادة واحدة: (يشبه مشروع تيدي كوليك رئيس بلدية القدس السابق) يدعو إلى أن تكون السيادة على المدينة الموحدة لإسرائيل، وعلى الفلسطينيين أن يخضعوا للسيادة الإسرائيلية، مع إمكانية مشاركتهم في المجلس البلدي الإسرائيلي.

خامساً: مشروع تقسيم المدينة إلى ثلاثة أجزاء: القدس القديمة وتضم الأماكن المقدسة للديانات السماوية ولا تكون تابعة لأي سيادة، بل هي مدينة روحية مفتوحة، والقدس الشرقية ذات الأغلبية الفلسطينية تكون تابعة للسيادة العربية، والقدس الغربية تابعة للسيادة الإسرائيلية.[٤٧]

مشروع رعنان فايس:

قدم فايس هذا المشروع للسلطة الوطنية الفلسطينية في ١٩٩٥/١٠/٢٣، بين فيه تصوراته لمستقبل القدس، وجاء فيه:

١- إنشاء مدينة فلسطينية تبلغ مساحتها ١٠ آلاف دونم، تصبح عاصمة للفلسطينيين ويطلق عليها اسم القدس. وتقع إلى الشرق من قرية شعفاط القريبة من القدس، وتتوسط المناطق الثلاث المؤدية إلى الخليل ونابلس وغزة.

٢- يمنح السكان العرب المقدسيون الحاليون حق الاختيار بين الانضمام إلى القدس الحالية الموحدة (عاصمة إسرائيل) كمواطنين إسرائيليين أو إلى القدس المقترحة.

٣- ينشأ طريق التفافي دائري يربط القدس الحالية بالقدس المقترحة، ويتبع الجزء الغربي من هذه الطريق السيادة الإسرائيلية فيما يخضع الجزء الشرقي منها للسلطة الفلسطينية.

٤- يتم تدويل المدينة المقدسة داخل الأسوار لبعدها الديني مع إعطائها وضعا مميزا واعتبارها حيا من أحياء القدس اليهودية. ويديرها مجلس منتخب من السكان المحليين يهودا ومسيحيين ومسلمين. ويكون رئيس المجلس المنتخب هو نفسه رئيس بلدية القدس اليهودية، بينما يكون نائبه رئيس بلدية القدس الفلسطينية.

٥- في حال تنفيذ المشروع، تضم مدينة القدس الموحدة (عاصمة إسرائيل) جميع المستوطنات المحيطة بها دون أن يمس ذلك بمسألة السيادة الإقليمية أو الحقوق الفلسطينية للسكان الحاليين. (٤٨)

مشروع الفاتيكان:

ويدعو هذا المشروع الذي اقترحه بعض الأكاديميين الإسرائيليين، إلى تحويل القدس دولة مستقلة عن إسرائيل والسلطة الفلسطينية، على غرار الفاتيكان. وأن لا تكون هناك أية سيادة عربية أو إسرائيلية على المدينة بل تكون السيادة فيها تابعة لحكومة البلدية التي تتولى إدارة شؤونها. وتشمل دولة القدس إقامة منطقتين إداريتين فيها، إحداهما عربية تضم معظم القدس القديمة داخل السور باستثناء الحي اليهودي والمناطق الفلسطينية شرق المدينة باتجاه رام الله، والثانية يهودية تشمل محيط المدينة القديمة وتضم إلى جانب الحي اليهودي الحائط الغربي للسور والقدس الغربية. على أن تظل منطقة الحرم الشريف وحائط البراق (المبكى) خارج نطاق المنطقتين العربية

واليهودية. ومن حق كل طرف أن يرفع العلم الوطني داخل المنطقة الإدارية الـتي تخصـه في المدينة، والمناطق غير الخاضعة لإدارة الطرفين يرفع عليها علم وحيـد وهـو مـا سـيتم اختياره رمزا لدولة القدس المستقلة. وفيمـا يتعلـق بوضـع السـكان المدنـي، فـإن جميـع المواطنين في المدينة يمنحون صفـة (مواطـن مقدسـي) وجـوازات سـفر مقدسـية خاصـة ومعتمدة من الدول الأجنبية. ويعطي المشـروع الأوروبـي الحـق للمواطـنين في القـدس بالتصويت لانتخاب الحكومة المحلية للدولة. ويتشكل مجلس الدولة مـن مجلسـين، الأول يمثل التكوين الفعلي للناخبين، وآخر يضم عددا متساويا من العـرب واليـهود. ويكـون للمجلس حقـوق معينـة متفـق عليـها تتعلـق بحمايـة الدسـتور والحفـاظ عليـه. ويدعـو المشروع إلى حرية العبادات لجميع الديانات. (٤٩)

وفي الوقت الذي أبدت فيه السلطة الوطنية الفلسـطينية قبـولاً مبدئيـاً للمشـروع، أعلنت حكومـة نتنيـاهو رفضـها لـه، لأنـه لا يضمـن استمرار سيطرتها علـى القـدس واعتبارها عاصمة موحدة لها.

مشروع بروكسل:

قدم هذا المشروع خلال ندوة عقدها في القدس، المركـز الإسـرائيلي- الفلسـطيني للأبحاث والمعلومات (Israel Palestine Center for Research & Information) في عام ١٩٩٣، على أساس أن تعامل القدس مثـل العاصمـة البلجيكيـة بروكسـل، أي أن تصبح عاصمـة لإسـرائيل وللدولـة الفلسـطينية. كمـا هـي بروكسـل الـتي تعيـش فيـها مجموعتان عرقيتان هما الفلاميش (Flemish) الذين يتكلمون اللغة الهولندية ويشـكلون ٦٠٪ من البلجيك، والفلاندرز (Flandres) ويتكلمون اللغة الفرنسية ويشكلون ٤٠٪ من المواطنين. واختارت الفئتان بروكسل عاصمة لبلجيكا وعاصمة للفلاندر أيضا بعـد صراع طويل بينهما على فرض السيادة على المدينة، ويتكـون سـكان بروكسـل الذيـن

يبلغ عددهم مليون شخص، من الفلاندرز والذين يشكلون ٨٠٪ من سكان المدينة، ومن الفلاميش ويمثلون ٢٠٪. ويوجد برلمان وحكومة محلية في بروكسل، بشكل متساوٍ وسلطات متساوية علما بأن الفرنسيين يشكلون الأغلبية في بروكسل فقط، بينما يشكل الفلاميش الأغلبية في بلجيكا. وهذا يعني أنه من الممكن أن يمثل الفلاميش الأكثرية في بلجيكا ولكنهم يكونون الأقلية في بروكسل، بينما الفرنسيون يمثلون الأقلية في بلجيكا والأغلبية في بروكسل. علما بأن كل فئة لها ثقافتها وتقاليدها ولغتها الخاصة بها، مما يعطي كل شخص هويته المميزة عن الآخر.(٥٠)

ويدعو المشروع الإسرائيلي، إلى أن يكون للقدس وسكانها وضع خاص مستقل عن إسرائيل والسلطة الوطنية الفلسطينية، وفي الوقت نفسه أن تكون عاصمة لإسرائيل والفلسطينيين. كما هي بروكسل عاصمة لبلجيكا وعاصمة للفلاميش.

الخلاصة

بعد تحليل موقف الحركة الصهيونية وإسرائيل من قضية القدس ومستقبلها، يلاحظ ما يلي:

أولاً: أن الحركة الصهيونية استغلت موقع القدس في الديانة اليهودية من أجل حث اليهود في أوروبا والعالم على الهجرة إلى فلسطين ليس للتعبد، بل من أجل العمل على إنشاء الوطن اليهودي فيها ، كحل للمسألة اليهودية في العالم. ولهذا فلو كانت المسألة ذات بعد ديني فقط، لكان من الممكن السماح لليهود في العالم بأن يأتوا لزيارة الأماكن التي يدعون بأنها مقدسة بالنسبة إليهم في القدس، مثلما يفعل المسيحيون الذين يأتون لزيارة الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرة، من دون أن يطالبوا باحتلال فلسطين لتحقيق هذا الهدف الديني. وهذا يدل على أن هدف الحركة الصهيونية وإسرائيل في الحقيقة لم يكن تحقيق الهدف الديني بل تحقيق الهدف السياسي

وهو استيطان فلسطين وإقامة إسرائيل كمشروع استعماري صهيوني ضد الأمة العربية من أجل تجزئتها وإضعافها، تحقيقا للمصالح الاستعمارية الصهيونية.

ثانياً: أن مساحة القدس التي كانت عاصمة داود القديمة لا تتجاوز ١٪ من مساحة القدس الكبرى الآن والتي جعلتها إسرائيل عاصمة لها. وهذا يدل على أن إسرائيل التي استغلت الأهمية الدينية والتاريخية للقدس، قد قامت بتوسيع الرقعة الجغرافية للمنطقة التي كانت مهمة لليهود قبل ألفي سنة، لكي تستولي على أراض شاسعة لا علاقة لها بعاصمة داود، من أجل فرض واقع يهودي على المدينة المقدسة وما يحيط بها من قرى وأراض، بحجة الادعاء بأهميتها الدينية والتاريخية لدى اليهود، ولكي تزيد مساحة الأراضي التي تصادرها من الفلسطينيين، من أجل بناء المستوطنات اليهودية فيها وضمها لإسرائيل.

ثالثا: أن الهدف السياسي هو الذي تريد الحركة الصهيونية وإسرائيل أن تحققه من الإصرار على توسيع مساحة القدس لتشمل مناطق واسعة من أراضي الضفة الغربية، والمطالبة بالقدس عاصمة موحدة لها. وفي الواقع فقد قامت باستغلال البعدين الديني والتاريخي للقدس من أجل تحقيق الهدف السياسي. ولهذا فإن الاستيلاء على الأراضي العربية ومصادرتها وإقامة مشاريع استيطانية فيها، تحيط بالقدس من جميع الجهات، وزيادة الكثافة السكانية لليهود في القدس الكبرى، وممارسة ضغوطات على الفلسطينيين في القدس وسحب الهويات منهم وطردهم من مساكنهم وتنفيذ سياسة تهويد المدينة ووضع العراقيل أمام المصلين من الوصول إلى المسجد الأقصى، مثل هذه الممارسات التي لها طابع سياسي، لا توجد لها أية علاقة بما جاء في التوراة والتلمود من أهمية للقدس أو بكونها كانت عاصمة لداود. بل أن هذه الممارسات تشكل سياسة صهيونية استيطانية وعنصرية، تنفذها إسرائيل من أجل المحافظة على وجودها في الأراضي العربية المحتلة.

رابعاً: القدس مهمة للعرب (مسلمين ومسيحيين) أكثر بكثير من أهميتها الدينية والتاريخية والسياسية لليهود. فقد كانت مهمة دينيا وسياسيا لليبوسيين العرب، قبل مرور النبي إبراهيم عليها، إذ كانت عاصمة دينية وسياسية لليبوسيين قبل أن تكون عاصمة لداود بحوالي ألفي عام. وزادت أهميتها لدى المسلمين لكونها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي محمد إلى السماء، وأصبحت مهمة الآن لأكثر من مليارين من المسلمين في جميع أنحاء العالم. ومهمة كذلك للمسيحيين بسبب وجود كنيسة القيامة وطريق الآلام التي سار فيها السيد المسيح بشوارع القدس، وهو ملاحق من قبل اليهود. ولهذا فإن إصرار إسرائيل على الاحتفاظ بها بسبب الإدعاء بأهميتها لليهود الذين لا يتجاوز عددهم في العالم ١٣ مليون يهودي، يجب أن لا يؤثر على التمسك العربي بها والحفاظ عليها.

خامساً: أن سياسة الاستيطان التي اتبعتها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة في القدس وما حولها، هو ما تطمح إليه إسرائيل من التمسك بالقدس الكبرى عاصمة لها. ولهذا فمن المفروض أن يتم التعامل مع الأراضي العربية التي قامت إسرائيل بالإستيلاء عليها في محيط القدس، وأقامت فوقها المستوطنات الإسرائيلية، معاملة بقية الأراضي العربية المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة نفسها، أي أنها أراض محتلة في حرب ١٩٦٧، لا يسمح القانون الدولي بالاحتفاظ بها حتى لا يأتي يوم وتقوم به إسرائيل، بتوسيع مساحة القدس لكي تضم جميع الأراضي الفلسطينية المحتلة، وتصبح القدس الكبرى عاصمة إسرائيل بالمفهوم الإسرائيلي، تضم كل فلسطين.

سادساً: إن المشاريع الإسرائيلية لحل قضية القدس هي أسيرة الإدعاءات التوراتية والتلمودية من أجل تحقيق أهداف سياسية. وتحقيق هذه الأهداف المبطنة بالبعد الديني والروحي، يأتي من خلال القوة التي تستعملها إسرائيل لفرض سياسة الأمر الواقع والهيمنة على الفلسطينيين والعرب. وهذا لن يؤدي إلى تحقيق التسوية في الشرق

الأوسط ، بل على العكس من الممكن أن يؤدي إلى استمرار الصراع، والعودة إلى دوامة الحروب التي عاشتها المنطقة منذ أكثر من خمسين عاما.

ولهذا فإن مستقبل القدس في ضوء المشاريع والممارسات الإسرائيلية والمواقف الدينية والسياسية للحركة الصهيونية وإسرائيل، لا يدل على إمكانية التوصل إلى حل لقضية القدس، بل سيؤدي إلى استمرار الصراع العربي- الإسرائيلي، لأن الحل لن يأتي عن طريق فرض قوة المغتصب على صاحب الحق، ولا من خلال منطق القوة الذي تمارسه إسرائيل ضد الفلسطينيين، لكي تحتفظ بالقدس عاصمة موحدة لها. بينما الحقوق العربية العادلة في القدس، لا تمتلك القوة للمحافظة على تلك الحقوق. ولهذا فإن مستقبل القدس أمام الحقوق العربية، والقوة والغطرسة الإسرائيلية، سوف يبقى من دون حل، إلا أن يحين الوقت ويمتلك العرب القوة من أجل أن يفرضوا حقوقهم الثابتة في القدس على إسرائيل ويحرروها من الاحتلال . وبانتظار ذلك، فإن قضية القدس من المنظور الإسرائيلي، تظهر أن الصراع من أجل القدس سوف يستمر، وعلى العرب التمسك بحقوقهم في هذه المدينة المقدسة، مهما كانت الظروف والضغوطات عليهم. ولقد أثبتت انتفاضة الأقصى أن الفلسطينيين لن يتنازلوا عن حقوقهم في القدس، وأنهم يدافعون عنها مهما كانت التضحيات التي يقدمونها. كما أثبت التأييد الجماهيري العربي لانتفاضة الأقصى، أن قضية القدس حية في وجدانهم، وأنهم لن يتنازلوا عنها، مهما حاولت إسرائيل من فرض السيطرة عليها واحتلالها، والإدعاء بوجود حقوق لليهود فيها.

المراجع والهوامش

1- Garaudy, Roger: "Les Mythes Fondateurs. De La Politique Israelienne" Ed. Samiszdat, Paris, 1996, p. 16-34.
2- Thompson, Thomas: "Early History of the Israelite People From The Written And Archeologist Sources Studies In the History of Near East, Leiden Brill", London, 1992.

٣- جريدة الرأي، ١٤/١١/٢٠٠٠.

٤- التوراة، سفر العبرانيين: الإصحاح ٧(١-٧).

٥- التوراة، سفر التكوين: الإصحاح ١٥ :١٨.

٦- التوراة، سفر التكوين: الإصحاح ١٣(١٤: ١٦).

٧- التوراة، سفر حزقيال: ٤٧ (٢١: ٢٣)

٨- التوراة، سفر الملوك: الإصحاح الأول (٣ :٤).

٩- التوراة، سفر الملوك: الإصحاح الثاني (١١: ٢١).

١٠- التوراة، سفر الملوك: الإصحاح الثالث (١١: ٣٨).

١١- التلمود، سفر المزامير: المزمور ١٣٧ (١٢: ١٣).

١٢- التلمود، سفر أشعيا: الإصحاح ٦٢ (١: ٢).

١٣- التلمود، سفر المزامير: المزمور ٣٧ (٥ :٧).

14- Reiter, Yitzahak: Religious Issues And Holly Places In Jerusalem: Passiq Ed. Jerusalem, 1995, p.58.

١٥- صايغ، أنيس: "الفكرة الصهيونية، النصوص الأساسية "مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت، ١٩٧٠، ص١٣.

١٦- المرجع السابق: ص١٥.

١٧- المرجع السابق: ص٢٠.

١٨- محمود ، أمين عبد الله: "مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى "المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،

١٩٨٤، ص٨٢.

١٩- صايغ: مرجع سبق ذكره، ص١٧٣.

٢٠- هرتزل، ثيودور: "يوميات" الترجمة العربية، ترجمة هيلدا شعبان صايغ، مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨، ص١٠٠.

٢١- المرجع السابق: ص٨٤٥.

٢٢- وثائق فلسطينية: منظمة التحرير الفلسطينية، تونس، ١٩٨٧، ص٢٠٠.

٢٣- هزايمة، محمد: "القدس في الصراع العربي-الإسرائيلي "رسالة ماجستير، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٨٩، ص١١٩.

٢٤- أبو جابر، إبراهيم: القدس في دائرة الحدث، الجزء الأولى، مركز الدراسات المعاصرة، أم الفحم، ١٩٩٦، ص ١٧٢.

25- De Jong, Jan: "Main Basse Sur Le Grand Jerusalem "Le Monde Diplomatic, Nov. 1997, paris, p.18.

26- Newsweek Mangazine, July 24, 2000,p,26.

٢٧- الخالدي، وليد: "الإسلام والغرب والقدس" مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد ٣١، صيف ١٩٩٧، ص٢٤.

٢٨- تفكجي، خليل، "الاستيطان في مدينة القدس" مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد ٣١، صيف ١٩٩٧، ص١٣٥.

٢٩- مقابلة صحفية مع اسحق رابين، صحيفة يديعوت أحرنوت الإسرائيلية، ١٩٩٥/٩/٢٤.

30- Aronson, Givri: "Settlement Monitor", Journal of Palestine Studies, Vol xxv, No. 12, Autumn 1995, p.136.

٣١- المرجع السابق.

٣٢- نوفل، أحمد سعيد، الانتخابات الإسرائيلية: تحليل للنتائج والتيارات السياسية في الكنيست الخامس عشر، مجلة دراسات ، العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، عمان، مجلد ٢٧، عدد٢، ٢٠٠٠، ص٤٠٣.

٣٣- جفال، مصطفى وآخرون: "إسرائيل في ظل حكومة بيجين الثانية" بيروت، معهد

الإنماء العربي، ١٩٨٢، ص١٠٢.

٣٤- مجلة الدراسات الفلسطينية، "ملف الانتخابات الإسرائيلية" بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، عدد ٢٧، صيف، ١٩٩٦، ص٨١.

٣٥- المرجع السابق، ص٨٦.

٣٦- المرجع السابق، ص٨٩.

٣٧- المرجع السابق، ص٩١.

٣٨- صحيفة الحياة، لندن، ١٩٩٧/١١/٤.

٣٩- منصور، هالة: "الرؤيا الإسرائيلية للقدس" مجلة صامد، العدد ١٠٧، السنة ١٩، ١٩٩٧، ص١٦٣.

40- Journal Le Monde, Paris, 8/11/1997.

٤١- أبو جابر، مرجع سبق ذكره، ص ٥٦٧-٥٧٧.

٤٢- مجلة الدراسات الفلسطينية، مرجع سبق ذكره، ص ٧٨-٩٨، وصحيفة القدس، القدس، ١٩٨٣/٤/١٢.

٤٣- صحيفة الحياة، لندن، ٢٠٠٠/١١/٢٨.

٤٤- صحيفة هاآرتس الإسرائيلية، ١٩٩٧/٧/١٠.

45- Ben Meir, Yehuda: "Israel Public Opinion, Final Status Issues :Israel Palestinians, study No.6 (Tel-Aviv: Jaffee Center for Strategic Studies, 1995,p 21-22.

46- Gold, Dore: "Jerusalem Final Status issus" Israel-Palestinians Study No.7, (Tel-Aviv: Tel-Aviv University, The Jaffee Center for Strategic Studies, 1995) p.125.

٤٧- الحمد، جواد: محرر، مجموعة باحثين، المدخل إلى القضية الفلسطينية، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، ١٩٩٧، ص٥٧٥-٥٧٦.

٤٨- المرجع السابق، ص ٥٧٧-٥٧٩.

٤٩- صحيفة القدس، القدس، ١٩٩٦/٣/٢٠، نقلا عن صحيفة ها آرتس الإسرائيلية.

50- Chabert, Jos: "Brussels, One Region, Two Communities: Institutions, Problems, and Solutions. The Future of Jerusalem "Jerusalem, Isreal-Palestine Center for Research and Information, 1993, p. 69-71.

مراجع أجنبية:

1- "A Jerusalem Primer, Reoport on Israeli Settlement in the Occupied Territories "Washington, DC: Foundation for Middle East Peace, February 1994.

2- Baskin, Gershon: "Jerusalem of Peace "Israel-Palestine Center For Research and Information, Jerusalem , 1993.

3- Bechkerman. Chaia: "Negotiating The Future, Jerusalem "Israel Palestine Center for Research and Information, Jerusalem, 1993.

4- Beckerman, Chaia: "Negotiating The Future, Jerusalem "Israel Palestine Center for Research and Information, Jerusalem,1996.

5- Benvenisti, Miron: "The Torn City"Minneapolis, University of Minnesota,1976.

6- Cattan, Henri: "Jerusalem": St. Martins Press, New York, 1981.

7- Herzel, Theordore: "The Jewish State, An Attempt at a modern of the Jewish Question" London, 1934.

8- Jospe, Raphael: "The Significance of Jerusalem: A Jewish Perspective" Jerusalem, Palistine- Israel Journal of Politics, Economics and Culture, 1995.

9- Peres, Shimon: "The New Middle East, "(New York, Henry Halt and Company, 1993).

10- Werblowsky, R.J. Zwi: "The Meaning of Jerusalem to Jews, Christains and Muslims "Israel University study Group for Middle Eastern Affairs, Jerusalem, 1983.

الجزء الثالث

القدس وانتفاضة الأقصى في الأدب والصحافة

بيت المقدس في الأدب العربي القديم
حتى نهاية العصر العباسي
في النثر الفني نموذجاً

الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

الجامعة الأردنية

أقوال حول القدس

يقول أبو بكر بن العربي: "فدخلنا الأرض المقدسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدر المعرفة، فاستنرت به أزيد من ثلاثة أعوام" (قانون التأويل/ ٤٣٣).

ويقول لوالده: "إن كانت لك نية في الحج، فامض لعزمك، فإني لست برائم عن هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها، واجعل ذلك دستوراً للعلم، وسلماً إلى مراقيها" (قانون التأويل/ ٤٣٤).

ويقول القاضي الفاضل طالباً من صلاح الدين تأجيل تأدية فريضة الحج، معللاً ذلك بأن "الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام، ولا سلوا عن القدس، ولا وثق بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم... أن يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة، فيدخلوا إليه والعياذ بالله، ويفرط من يد الإسلام، ويعتبر الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغفر، ومن العثرات التي لا تقال" (كتاب الروضتين ٢/٢٠٥).

قال أحد المنجمين لصلاح الدين: إنه قد يخسر عينه إذا هو دخل القدس، فأجابه قائلاً: "إني لأوثر أن أفقد بصري كله إذا كان من وراء ذلك فتح القدس". (مرآة الزمان ٨/٢٥٤).

ويقول القاضي الفاضل: "أما هذا البيت الأيوبي، فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا". (كتاب الروضتين ٢/٢٣١).

التمهيد

موضوع بيت المقدس في الأدب العربي القديم موضوع واسع يمتد عبر العصور التاريخية، منذ العصر الجاهلي، مروراً بصدر الإسلام، والعصر الأموي، والعصر العباسي، والعصر الفاطمي، والعصر الأيوبي، والعصر المملوكي، والعصر العثماني.

ونظراً لاتساع الموضوع، فإننا نكتفي في هذا البحث بدراسته حتى نهاية العصر العباسي، في النثر الفني دون الشعر.

ولعله يمكننا أن نقسم البحث هنا وفق العصور التاريخية، أو وفق المراحل التالية:

- القدس والنثر الفني حتى نهاية القرن الرابع الهجري.
- القدس في النثر الفني في القرن الخامس الهجري حتى الاحتلال الصليبي في سنة ٤٩٢هـ.
- القدس في النثر الفني زمن الاحتلال الصليبي (٤٩٢-٥٨٢هـ).
- القدس في النثر الفني في سنة الفتح القدسي الصلاحي (٥٨٣هـ).
- القدس في النثر الفني بعد الفتح القدسي الصلاحي حتى وفاة صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٩هـ.
- القدس في النثر الفني في ظل التراجع والتخريب والتنازل
  - (تخريب القدس في سنة ٦١٦هـ)
  - (التنازل عن القدس في سنة ٦٢٦هـ).
- القدس في النثر الفني في سنة تحريرها ثانية (٦٣٧هـ).
- القدس في النثر الفني في سنة التنازل عنها ثانية (٦٤١هـ).
- القدس في النثر الفني في سنة تحريرها ثالثة (٦٤٢هـ).
- القدس في النثر الفني في سنة وحملة لويس التاسع.

تبدو صورة القدس جلية في الأدب العربي القديم: النثر الفني، منذ الفتح الإسلامي للقدس في عهد عمر بن الخطاب، مروراً بالعصور المتعاقبة حتى نهاية العصر العباسي، كما سنبينه في هذا البحث.

وقد لاقت مدينة القدس عناية بالغة في سائر العصور الإسلامية المتعاقبة تلك، وهي عناية كانت في العديد من المجالات: الدينية نظراً لقداسة المدينة، والثقافية، والاجتماعية، وغيرها. وهو ما لا مجال لتفصيل القول فيه هنا. وهو بحاجة إلى بحث مستقل آخر.

تنوعت الأعمال الأدبية حول القدس، وتنوعت المصنفات التي صنفت حولها، في التاريخ والجغرافيا، والرحلات، والتفسير، والحديث، وكتب الفضائل.

ولكننا في هذا المقام نقتصر على استجلاء صورتها كما تبدو في فنون النثر الفني في الأدب العربي القديم حتى نهاية العصر العباسي، ومن تلك الفنون النثرية: الرسالة، والخطبة، والرحلة، والسيرة الذاتية، والمنام. وتضاف إلى ذلك الكتب المصنفة حول الموضوع، وهي ذات طابع أدبي، مثل الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني.

ونشير هنا إلى أننا لن نتحدث في هذا البحث عن صورتها في الأدب الشعبي، ومثله النثر الذي يتناول حادثة الإسراء والمعراج، والمعارج الصوفية، وهي موضوعات جديرة ببحث مستقل لكل منها.

ولعله تحسن الإشارة هنا إلى أننا لم نعثر على صورة للمدينة في فن المقامة، فإننا لم نتبينها في مقامات بديع الزمان الهمذاني، أو في مقامات الحريري، أو مقامات الزمخشري، أو مقامات ابن الجوزي، وغيرها من المقامات في العصر العباسي، بينما نجد ذكراً لها في مقامات في العصر المملوكي وهو خارج نطاق البحث هنا.

المبحث الأول
القدس في النثر الفني حتى نهاية القرن الرابع الهجري

- القدس في صدر الإسلام: من أسمائها: القدس، وبيت المقدس، وإيلياء.
- الفتح القدسي العمري: مراسلات حول الفتح، خطبة لعمر بن الخطاب.
- القدس في العصر الأموي: رسائل قرة بن شريك حول القدس والأقصى في سنة ٩٣هـ.
- القدس في كتب التراث الأدبي:
  - في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة/ القرن الثالث الهجري.
  - في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه/ القرن الرابع الهجري.
- القدس في النثر الفني في القرن الخامس الهجري حتى الاحتلال الصليبي سنة ٤٩٢هـ.
  - القدس في رحلة ابن العربي: الحركة العلمية فيها.

–١–

وردت أسماء لمدينة القدس في نصوص نثرية، في صدر الإسلام والعصر الأموي، مثل القدس، وبيت المقدس، وإيلياء، في العديد من الرسائل التي تبادلها عمرو بن العاص، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، مع الخليفة عمر بن الخطاب، وهي أسماء ارتبطت بتاريخ المدينة ونشأتها وسكانها، وهي تحمل دلالات لغوية وحضارية، وتدل على تراثها ومكانتها الدينية.

ونجد مثل هذا في عدد من الرسائل الأخرى تذكر فيها "إيلياء":

إحداها من عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح، أرسلها مع ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص، ويخبره فيها عن أهل إيلياء ونقضهم العهد، فقد ورد فيها: "... فإن أهل إيلياء وكثيراً ممن كنا صالحناهم من أهل الأردن قد نقضوا العهد فيما بيننا وبينهم". ويطلب فيها من أبي عبيدة أن يكتب إليه برأيه[1].

وثانيتها: كتاب عمرو بن العاص إلى بطاركة إيلياء، فقد ذكر أنه لما ورد على عمرو بن العاص كتاب أبي عبيدة، سار إلى إيلياء، وكتب رسالة إلى بطاركتها يعرض عليهم فيها الإسلام، أو الأمان على دمائهم وأموالهم، ودفعهم الجزية، أو الحرب[2].

- كتاب أهل إيلياء إلى عمرو بن العاص يردون فيه على كتابه المذكور[3].
- كتاب أبي عبيدة إلى بطاركة أهل إيلياء، يدعوهم فيها إلى الإسلام، فإذا شهدوا بذلك حرمت على المسلمين دماؤهم وأموالهم، وإن أبوا دفعوا الجزية، وإلا فالحرب[4].
- كتاب أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب، ويخبره فيها بأنه أرسل إلى أهل إيلياء يدعوهم إلى الإسلام[5].

وانتظر أبو عبيدة أهل إيلياء، فأبوا المصالحة، فنزل بهم وحاصرهم، وضيق عليهم، فطلبوا الصلح، وقالوا لأبي عبيدة: أرسل إلى خليفتكم عمر، فيكون هو الذي يعطينا العهد، وهو يصالحنا، ويكتب لنا الأمان، وأشار عليه معاذ بن جبل أن يتوثق منهم قبل الكتابة إلى عمر بن الخطاب، ثم كتب إلى الخليفة كتاباً يقول فيه: "فإنا أقمنا على

(١) ينظر: جمهرة رسائل العرب ١/١٦٣، ١٦٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه ١/١٦٥.

(٣) ينظر: المصدر نفسه ١/١٦٦.

(٤) ينظر: المصدر نفسه ١/١٧٠، ١٧١.

(٥) ينظر: المصدر نفسه ١/١٧١، ١٧٢.

إيلياء، وظنوا أن لهم في المطاولة بهم فرجاً ورجاء"، ويخبره بأنهم "سألوا الصلح على أن يقوم عليهم أمير المؤمنين، فيكون هو المؤمن لهم، والكاتب لهم كتاباً"(١).

حاصر المسلمون بيت المقدس بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح، فأرسل رسالة إلى بطاركة المدينة وسكانها منذراً، وكتب أبو عبيدة رسالة إلى الخليفة، ثم تم الصلح، وكتب لهم الخليفة عهداً بالأمان يتمثل في العهدة العمرية(٢).

ويجدر التمثل في هذا المقام بخطبة الخليفة الفاروق، وهي خطبة خطب بها في بيت المقدس، قبل مغادرته إياها راجعاً إلى المدينة المنورة. وفي تلك الخطبة تحدث عن النصر الذي أحرزه المسلمون بفتح بيت المقدس، وهو الفتح الذي أطلق عليه الفتح القدسي العمري. وفيها ذكّر الخليفة المسلمين بما يجب عليهم فعله من التوجه لله بالحمد، ودعاهم إلى التقوى، وحذرهم من الوقوع في المعاصي، كما يبدو في قوله: "... يا أهل الإسلام، إن الله تعالى قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء، وأورثكم البلاد، ومكّن لكم في الأرض، فلا يكونن جزاؤه منكم إلا الشكر. وإياكم والعمل بالمعاصي، فإن العمل بالمعاصي كفر بالنعم.."، ثم نزل، وحضرت الصلاة(٣).

وفي العصر الأموي، في عهد عبد الملك بن مروان، ظهر اسم (إيلياء) مسلوكاً على النقود، فقد سكّ المسلمون، في إيلياء، في ذلك العهد، عملة نقش على وجهها: "محمد رسول الله"، ونقش على خلفها "إيلياء"، و" فلسطين"(٤).

(١) ينظر: جمهرة رسائل العرب ١/١٧٢، ١٧٣، ١٧٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه ١/١٧٥-١٧٦، المفصل في تاريخ القدس، ٩١-٩٤.

(٣) ينظر: الأنس الجليل ١/٢٥٧-٢٥٨، المفصل في تاريخ القدس/١٠٠-١٠١.

(٤) ينظر: المفصل في تاريخ القدس، ١١٤.

-٢-

القدس في رسالتين لقرة بن شريك

ومن الأهمية بمكان أن نتحدث هنا عن "قُرّة بن شريك"[١] في رسائله، فهو يذكر في عدد منها المسجد الأقصى والقدس، ويتحدث عن بعض شؤونهما. وقيل إنه كتب عدداً من الرسائل إلى أحد حكام الصعيد بين سنتي ٩٠ و ٩٦هـ، وطلب من ذلك الحاكم أن يرسل إليه صناعاً ماهرين لمسجد بيت المقدس، وكان ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك، في العصر الأموي[٢].

وفي هذا المجال، نشير إلى رسالتين لقرة بن شريك، وهما مكتوبتان على برديتين، باللغة اليونانية، وهما بردية رقم (١٣٦٦)، وبردية رقم (١٤٠٣)[٣].

وتتحدث الرسالة الأولى عن الصناع في مسجد بيت المقدس، والمدة التي قضوها في العمل هناك، ويشير قرة فيها إلى اثنين من الفعلة، ونجار واحد، في القدس، دون أن يسميهم. ويذكر أنهم عملوا هناك لمدة اثني عشر شهراً.

ويبين الكاتب أنه قد كتب كتابا لأهل القرى[٤]، وأرسله إلى ذلك الحاكم طالباً منه إرسال الصناع المطلوبين، على أن تدفع أجورهم بالذهب وفق ما جاء في الكتاب، وترجمته كما يلي:

---

(١) قرة بن شريك: أمير ولي نيابة مصر زمن الوليد، في أوائل سنة ٩٠ هـ، واستمر في الإمارة حتى وفاته سنة ٩٦هـ.

(٢) ينظر: المفصل في تاريخ القدس، ١١١، ١١٦.

(٣) تفضل الأخ الدكتور جاسر أبو صفية مشكوراً بتزويدي بترجمة البرديتين المذكورتين، بعد سؤالي إياه عن رسائل قرة بن شريك، فله مني الشكر الجزيل. وتحسن الإشارة هنا إلى أن في البرديتين ألفاظاً أو مواضع ناقصة أو غير مقروءة.

(٤) المقصود بهم أهل قرى أشقوا.

"... الموجود للعمل نفسه... اثنين من الفَعلة، ونجار واحد... في القدس، لمدة اثني عشر شهراً للعام (أي هذا العام)، واثنين من الفعلة ونجار واحد، مثلهم في عمل آخر.

وكتبت بذلك كتاباً بأهل القرى أرسلته إليك[1]، فإذا جاءك كتابي هذا، فأرسل الفعلة المطلوبين، والتقني الماهر مع رسولك الأمين، وأمره أن يدفعهم إلى... أجورهم بالذهب... هم وأجورهم... حسْب ما جاء في كتابنا... وجهزهم... القرى".

ويحدد الكاتب تاريخ كتابه بأنه في "أبابه[2]، سنة ٩ إندكشن، وتعادل سنة "٩٣" هـ.

وقد حددت حاشية الرسالة عدد الفعلة وأجورهم ومؤونتهم، وحددت الصيانة كما يلي:

- (٢) من العمال (الفعلة)	بأجر ثمانية دنانير.
- صيانة	بأجر ثمانية دنانير.
- مؤونة	بنصف دينار
- نجار واحد	بأجر خمسة عشر ديناراً
- صيانة	بأجر ثمانية دنانير
- مؤونة	بنصف دينار

وأما الشخص الذي وجّه "قرّة بن شريك" الرسالة إليه، فهو "بسيل" حاكم أشقوة[3].

وأما القرى التي ورد ذكرها في هذه الرسالة فهي قرى كورة أشقوا.

وفي دراسة (هارولد ادريس بيل –الإنكليزي الجنسية) تحت عنوان (برديات بيل (Aphrodito Papyri, by: H.I. Bell[4] ورد ما يلي:

---

(١) المقصود به "بسيل".

(٢) واحد من الشهور القبطية.

(٣) وهي المعروفة اليوم بـ "كوم أشقاو".

(٤) أشار (بيل) في الحاشية إلى ما جرى من تغيير في عهد المأمون، وذكر ابن الأثير أن الوليد هو الذي بنى المسجد الأقصى. وذكر مجير الدين العليمي الحنبلي، أن الجزء الشرقي من المسجد سقط في عهد الوليد، فلزم إصلاحه.

نسب جل المؤرخين بناء المسجد الأقصى إلى عبد الملك بن مروان، ويبدو أن النقش في البناء يؤيد ذلك[1].

وفي الرسالة الثانية يذكر قرة بن شريك أنها تتحدث عن فَعلة وتقنيين للعمل في القدس أيضاً، كما ورد في الرسالة الأولى وللأسف، فإنه لم يصل إلينا من هذه الرسالة إلا أقل ما ورد فيها. وهي تبدأ بالبسملة، ثم ورد فيها بعد ذلك ما نصه: "مؤونة الفعلة والتقنيين لمسجد القدس، ودار أمير المؤمنين".

وقد حددت حاشية الرسالة أنها قد أرسلت مع "أبي حسان الساعي"، في فَعَلةٍ وصُنّاع مهرة للقدس.

ويذكر (بيل) أنه لا يتضح من البرديات نوع العمل الذي قام به العمال والتقنيون في المسجد الأقصى.

ويضيف (بيل): "فإذا ثبت أن عبد الملك هو المؤسس حسب ما جاء في النقش وروايات المؤرخين، فإن الوليد قام بتوسعة المسجد[2].

–٣–

القدس في كتب التراث الأدبي

في كتاب "عيون الأخبار": (القرن الثالث الهجري)

في كتاب (عيون الأخبار) يتحدث ابن قتيبة، في (كتاب الحرب)، عن الطيرة والفأل، ويذكر الطيرة بخراب بيت المقدس في عهد سليمان بن داود، ويستشهد في هذا

---

(١) Aphrodito Papri, p 100, وينظر: الأنس الجليل ١/٢٦٩–٢٧٥.

(٢) Aphrodito Papyri, p. 160

المجال بأبيات أبي تمام في وصف عمورية:

جرى لها الفألُ بَرْحاً يوم أنقرة إذ غُودرت وحشة الساحات والرِّجبِ
لما رأتْ أختها بالأمس قد خربتْ كان الخرابُ لها أعدى من الجربِ(١)

ويتحدث ابن قتيبة في (كتاب الطبائع والأخلاق المذمومة: تشابه الناس والطبائع وذمهم) عن عدد من أسماء بيت المقدس، ومنها: إيلياء، وبيت المقدس(٢).

ويتحدث عنها في (كتاب الزهد)، فيذكر أن الله اختار من البيوت إيلياء، كما تقدم في كتاب الطبائع. ويبين أنها كانت توصف بأنها "سيدة المدائن، وأم القرى" ويصف المدينة بأنها كانت حصينة بسورها وأبوابها.(٣)

في كتاب "العقد الفريد" (في القرن الرابع الهجري):

ويتحدث صاحب العقد، في (كتاب العسجدة الثانية..) عن أخبار الخليفة عمر ابن عبد العزيز، ومنها سفره إلى بيت المقدس، ولقاؤه مع خالد بن يزيد بن معاوية، في صحن بيت المقدس(٤).

روى عبد الله بن المبارك عن رجل أخبره بأنه كان مع خالد بن يزيد المذكور في صحن بيت المقدس، فلقيا عمر بن عبد العزيز، و لم يكن ذلك الرجل يعرفه. وفي ذلك اللقاء، سأل عمر خالداً قائلاً: يا خالد، أعلينا عينٌ؟ فقال الرجل: عليكما من الله عين بصيرة، وأذن سميعة، فأرعد عمر، ودمعت عيناه، ومضى(٥).

١) ديوان أبي تمام، عيون الأخبار ١/١٥١.
٢) ينظر: المصدر نفسه ٢/٧٦، ٢٧٢.
٣) ينظر: المصدر نفسه ٢/٢٧٢-٢٧٥.
(٤) العقد الفريد (٤/٤٣٤).
(٥) المصدر نفسه ٤/٤٣٤.

توضح لنا هذه الرواية حرص الخليفة على زيارة بيت المقدس للعبادة والتبرك وغيرهما. وينطبق هذا على العديد من الخلفاء في صدر الإسلام، والعصر الأموي، والعصر العباسي، مما يدل على العناية البالغة بالقدس.

وفي كتاب الزبر جدة الثانية(في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان، وتفاضل البلدان) يتحدث ابن عبد ربه، في باب تفاضل البلدان، عن الشامات، فيذكر أن الشام الأولى هي فلسطين وفيها بيت المقدس، ثم يفصل القول في" صفة مسجد بيت المقدس وما فيه من آثار الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام".(١)

كما يتحدث عن المسجد الأقصى: طوله وعرضه، وقناديله (التي كانت تسرج فيه، وهي ألف وخمسمائة قنديل)، وخشبه، وأبوابه (وهي خمسون باباً)، وأعمدته (وهي ستمائة وأربعة وثمانون عموداً)، وصخرته الملبسة صفائح الرصاص (وهي ثلاثة آلاف وثلاثمائة واثنتان وتسعون صفيحة)، ومن فوقها صفائح النحاس مطلية بالذهب (وهي عشرة آلاف ومائتان وعشر صفائح).

ويسترسل صاحب العقد في حديثه عن المسجد الأقصى، فيذكر أن فيه:

- ثلاث مقاصير للنساء، طول كل مقصورة منها ثمانون ذراعاً، وعرضها خمسون ذراعاً.
- ستمائة سلسلة لتعليق القناديل، وطول كل سلسلة منها ثماني عشرة ذراعاً.
- سبعين مصحفاً من المصاحف الجامعة. وفيه "من الكبار التي في الورقة منها جلد، ستة مصاحف على كراسي تجعل فيها".
- سبعين غربالاً من غرابيل النحاس.
- سبع صنوبرات للقناديل.

(١) ينظر: العقد الفريد، ٢/٢٥١.

- عشرة محاريب.
- خمس عشرة قبة.
- أربعة وعشرين جُبّا للماء.
- أربع مناور للمؤذنين.
- مائتين وثلاثين خادماً مع عائلاتهم يقبضون الرزق من بيت مال المسلمين، ووظيفته في كل شهر "من الزيت سبعمائة قِسْط بالإبراهيمي. وزن القسط رطل ونصف بالكبير".

ووظيفته في كل عام من الحصر ثمانية آلاف.

ووظيفته في كل عام من السُراقة لفتائل القناديل اثنا عشر ديناراً،ولزجاج القناديل ثلاثة وثلاثون ديناراً، ولصناع يعملون في سطوح المسجد، في كل عام، خمسة عشر ديناراً.

ويذكر أن" جميع سطوح المسجد والقباب والمنارات ملبسة صفائح مذهبة"(١).

ويتحدث صاحب العقد عن بعض فضائل بيت المقدس.(٢)

ويتحدث في كتاب الزبرجدة هذا عن آثار الأنبياء في بيت المقدس، وهي كما يحدثنا عنها:

"مربط البراق الذي ركبه النبي، ﷺ ، تحت ركن المسجد".

وفيه من الأبواب باب داود عليه السلام ، وباب سليمان عليهما السلام، وباب حطة التي ذكرها الله في قوله تعالى: "وقولوا حطّة"، وباب محمدﷺ، وباب التوبة الذي تاب

(١) ينظر: العقد الفريد ٦/٢٦٣-٢٦٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه ٦/٢٦٥-٢٦٦.

الله فيه على داود. وباب الرحمة الذي ذكره الله تعالى في كتابه: "له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قِبَله العذاب"، يعني وادي جهنم الذي بشرقي القدس. وباب الأسباط، وباب الوليد وباب الهاشمي، وباب الخضر، وباب السكينة.

وفيه من المحاريب: "محراب مريم ابنة عمران، رضي الله عنها، التي كانت الملائكة تأتيهما فيه بفاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء.

ومحراب زكريا الذي بشرت فيه الملائكة بيحيى وهو قائم يصلي في المحراب ومحراب يعقوب.

ومن تلك الآثار القبة التي عرج النبي، ﷺ، منها إلى السماء، والقبة التي صلى فيها النبي، ﷺ بالنبيين، وغيرها[(١)].

ويسترسل صاحب العقد في الحديث عن فضائل بيت المقدس[(٢)].

(١) العقد الفريد ٦/٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه.

المبحث الثاني

القدس في النثر الفني في القرن الخامس الهجري

حتى الاحتلال الصليبي في سنة ٤٩٢هـ

يتحدث أبو بكر بن العربي عن القدس، في رحلته إلى المشرق، وقد بدأها مع والده في ربيع الأول سنة ٤٨٥هـ، وقدم القدس في سنة ٤٨٦هـ، وهي الرحلة المسماة "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة"[(١)]. ويذكرها د. إحسان عباس تحت عنوان "رحلة ابن العربي إلى الشرق كما صورها قانون التأويل"[(٢)] ويضيف د. إحسان عباس: إن الرحلة في صورتها الأولى استلبتها الحوادث في القدس[(٣)].

ولما قدم ابن العربي القدس، ورأى ما فيها من حركة أدبية وعلمية، في أواخر القرن الخامس الهجري، قال لوالده إنه راغب في البقاء فيها ليعلم عِلْمَ من فيها، ويجعل "ذلك دستوراً للعلم وسلماً إلى مراقيها"[(٤)].

ويحدثنا أبو بكر بن العربي عن الحياة العلمية في القدس حديثا إيجابياً، ويكفينا للدلالة على ذلك الصورة التي يصور القدس بها، من حيث الاشتغال بالعلم فيها، فنراه يتحدث عن:

(١) قانون التأويل، ٤١٤، مجلة الأبحاث، ٥٩.

(٢) مجلة الأبحاث، ٧١–٨٥، وينظر مقدمة محقق كتاب "قانون التأويل" ٣٨٧، وما بعدها.

(٣) نفسه، ٥٩، ٦٠.

(٤) قانون التأويل، ٤٣٤، مجلة الأبحاث ٦١.

- مدارس للشافعية، ومنها مدرسة عند باب الأسباط، وهي المدرسة النصرية[١].
- مدارس للحنفية، ومنها مدرسة أبي عقبة، وتقع إزاء كنيسة القيامة[٢].

وكان يتولى التدريس في تلك المدارس شيوخ من العلماء الأجلاء، فمدرسة الشافعية كان يتولاها الشيخ يحيى بن علي المعروف بابن الصائغ[٣]، وكان القاضي الريحاني[٤]. يتولى مدرسة الحنفية

وفي تلك المدارس، كانت تلقى الدروس، وتقام المناظرات.

ويحدثنا ابن العربي عن وفود العديد من العلماء إلى القدس، من أمثال الطرطوشي، محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي[٥]، والزوزني، أبو سعد أحمد بن محمد[٦]، والصاغاني، أبو علي[٧]، والزنجاني، أبو سعيد[٨]، وغيرهم[٩].

ويصور أبو بكر بن العربي الحركة العلمية بأنها كانت نشطة في بيت المقدس

(١) قانون التأويل، ٤٣٣، وينظر: بيت المقدس في كتب الرحلات، ٥٣.

(٢) قانون التأويل، ٤٤١، وينظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ٢١،٢٢.

(٣) تفقه في دمشق، وصحب الشيخ نصراً المقدسي. ثم تفقه ببغداد على أبي بكر الشاشي، وقرأ العربية على أبي علي الفارسي. توفي سنة ٥٣٤ هـ. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٣٤-٣٣٥، شذرات الذهب ٤/١٠٥، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى،٢١.

(٤) ينظر: قانون التأويل، ٤٣٤، طبقات الشافعية الكبرى ٤/٣٢٤، أحكام القرآن ١٠٧.

(٥)رحل إلى المشرق سنة ٤٧٦هـ. ودخل بغداد والبصرة، وتفقه على أبي بكر الشاشي وغيره من العلماء. درس في الشام، وشارك مشاركة فعالة في الحركة الفكرية والثقافية في المسجد الأقصى. توفي بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ، (ينظر: وفيات الإعلام ٤/٢٦٣-٢٦٤، الأنس الجليل ١/٣٠١).

(٦)ينظر: قانون التأويل، ٤٣٨، أحكام القرآن، ٦١.

(٧)ينظر: قانون التأويل، ٤٣٩.

(٨)ينظر: قانون التأويل، ٤٣٩، أحكام القرآن، ١٠٧.

(٩) ينظر: قانون التأويل، ٤٣٨،٤٣٩.

آنذاك، فإلى جانب ما تقدم، فإنه كانت تقام المناظرات والمحاورات بين الفرق الإسلامية مثل الكرامية[1]، والمعتزلة، كما كانت تقام بين أهل الديانات المختلفة[2].

ويتحدث ابن العربي عن تمكنه من الاطلاع على "علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف"، في تلك المراكز العلمية، والمجالس التي كانت تقام فيها[3].

ويحدثنا أنه كان يخلو للدرس في الصخرة المشرفة[4].

لقد قام أبو بكر برحلته هذه وهو في عنفوان الشباب، وكان عمره في بدايتها (١٧) عاماً[5]، ويحدثنا عن دخوله القدس فيقول مشيداً بالحركة العلمية فيها: "وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدر المعرفة، فاستنرت به أزيد من ثلاثة أعوام"[6] أنهل فيها من ضروب العلم والمعرفة.

ويحدثنا أبو بكر أن فاتحة ما قام به في القدس الصلاة في المسجد الأقصى، ثم عمد إلى مدرسة الشافعية، وقد وجد فيها علماء يتناظرون عند القاضي الرشيد يحيى، على عادتهم، كما يقول[7]. وكان قد استخلفه عليهم الإمام نصر بن إبراهيم المقدسي، وكان أول العلماء الذين سمع منهم هناك الشيخ مُجلّي بن جُمَيْع المخزومي[8]، في

(١) الكرامية: فرقة تنسب إلى محمد بن كرّام السجستاني (ت ٢٥٥هـ). (ينظر: قانون التأويل ، ٤٣٧، الأنس الجليل ١/٢٩٦).

(٢) ينظر: قانون التأويل/ ٤٣٧،مجلة أبحاث، ٦٤،٦٥. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ٢٢.

(٣)قانون التأويل، ٤٣٨، مجلة أبحاث، ٦٥،٨٢.

(٤)مجلة الأبحاث، ٦٦.

(٥) قانون التأويل، ٤١٥، ٤٢٠، مجلة الأبحاث، ٦١،٧٠.

(٦) قانون التأويل/ ٤٣٣، مجلة الأبحاث/ ٧٩، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى/٣٠.

(٧) قانون التأويل/ ٤٣٣، مجلة الأبحاث/٧٩، الحركة الفكرية.

(٨) كان من أئمة الفقهاء، وإليه ترجع الفتيا بمصر، توفي سنة ٥٥٠ هـ. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى ٧/٢٧٧-٢٨٤، وفيات الأعيان ٤/١٥٤. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى/٢٢.

بمجلسه العلمي. ويذكر أنه قال لوالده بعد ذلك: "إن كانت لك نية في الحج فامض لعزمك، فإني لست برائم عن هذه البلدة حتى أعلم عِلْم من فيها، واجعل ذلك دستوراً للعلم، وسلما إلى مراقيها"، كما تقدم، فاستجاب له والده، وبقي ابن عربي في القدس[1].

ثم يصور لنا ابن العربي الحياة العلمية في القدس، وما قام به آنذاك، فيذكر أنه مشى إلى شيخه أبي بكر الفهري، محمد بن الوليد الطرطوشي، "وكان ملتزما من المسجد الأقصى -طهره الله- بموضع يقال له الغُوير"، فلم يجده في ذلك المكان، ووجده في مكان آخر يعرف بـ "السكينة" وسمع منه، ويذكر ابن عربي أنه قد انفتح له كل باب إلى العلم، عن طريق شيخه الطرطوشي، في القدس. ولهذا اتخذ "بيت المقدس مباءة"، والتزم فيه القراءة. ويضيف قائلاً: وكنت" أدخل إلى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف، لا تلهينا تجارة، ولا تشغلنا صلة رحم، ولا تقطعنا مواصلة وليّ، وتقاة عدو".

ومن العلماء المقادسة الذين يذكرهم ابن العربي في رحلته، فقيه الشافعية عطاء المقدسي، وكان قد حضر إلى" الغوير" وهم يتناظرون، وقد أبدى الطرطوشي وعطاء المقدسي إعجابهما بابن العربي بعد أن استمعا إلى حديثه في مسألة، وكان ذلك في الشهر الخامس أو السادس من ابتداء قراءته في القدس، كما يذكر في رحلته[2].

ولعله تحسن الإشارة هنا إلى ما ذكره أبو بكر بن العربي، في أحد مصنفاته الأخرى، ويتمثل ذلك في أنه وجد في بيت المقدس ثماني وعشرين حلقة، ومدرستين،

---

(١) قانون التأويل/ ٤٣٤، ٤٣٥، مجلة الابحاث، ٨٠، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ٣١، ٣٢.

(٢) قانون التأويل/ ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، مجلة الأبحاث/ ٨٠، ٨١، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى/ ٢٢، ٣٠.

إحداهما للشافعية، والأخرى للحنفية، كما تقدم. وأنه كان في القدس "من رؤوس العلماء، ورؤوس المتقدمة، على اختلاف طبقاتهم، كثير". وكان فيها عدد من "أحبار اليهود والنصارى والسمرة". ويخبرنا أنه قد ناظر تلك الطوائف بحضور شيخه الطرطوشي وغيره من شيوخ أهل السنة(١).

ويحدثنا أبو بكر بن العربي عن المناظرات التي كانت تجري في القدس، بين الفرق الإسلامية مثل الكرامية والمعتزلة والمشبهة، والمناظرات التي كانت تجرى بين أهل الديانات: من المسلمين والنصارى واليهود، يقول ابن العربي: "وقد حضرنا يوماً مجلساً عظيماً فيه الطوائف، وتكلم التستري، الحبر اليهودي على دينه"، وجرى فيه حوار بين التستري والطرطوشي.

ويشير ابن العربي إلى محاورة أخرى بين الشيخ مجلي بن جميع المخزومي وآخر لم يسمّه(٢).

ولعله تحسن الإشارة هنا إلى محاورة أخرى بين عطاء المقدسي والزوزني اللذين تقدم ذكرهما. وهي محاورة لم يتحدث عنها في رحلته، ولكنه ذكرها في مصنف آخر من مصنفاته.(٣)

وهذا أمر يؤكد النشاط العلمي في المراكز العلمية في بيت المقدس، كما يصوره لنا أبو بكر بن العربي.

ويحدثنا ابن العربي عن مجلس علمي عقد في مدرسة أبي عقبة الحنفية في القدس، شارك فيه القاضي الريحاني، والصاغاني، وابن العربي نفسه، وغيرهم ممن لم يذكرهم(٤).

---

(١) العواصم من القواصم/ ٦١.

(٢) قانون التأويل/ ٤٣٧، مجلة الأبحاث ٨١، ٨٢، ٨٣. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى/ ٢٢.

(٣) أحكام القرآن/٦١، وينظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى/٣٣.

(٤) قانون التأويل/٤٤١.

ومن الجدير بالقول إن رحلة ابن العربي هذه هي أول رحلة عربية إلى القدس: ويعد: كراتشكوفسكي" ابن العربي "أول من وضع الأساس لهذا الفن" باللغة العربية[1].

ويصف ابن العربي بعض معالم القدس، ومنها محراب داود بباب الخليل، ويذكر أنه هو الاسم الذي أطلقه المسلمون على برج من أبراج قلعة القدس، يقول ابن العربي: شاهدت بناء عظيماً من حجارة صلدة لا تؤثر فيها المعاول. ويرى له ثلاثة أسوار لأنه في السحاب أيام الشتاء كلها، لا يظهر لارتفاع موضعه، وارتفاعه في نفسه. له باب صغير، ومدرجة عويضة وفيه الدور والمساكن، وفي أعلاه المسجد، وفي كوّةٍ شرقية إلى المسجد الأقصى في قدر الباب".[2]

ويروي ابن العربي حادثة شهدها في ذلك المحراب، وصفها بأنها "غريبة الدهر"، فقد ذكر أنه قد ثار ثائر به "على واليه، وامتنع فيه بالقوت، فحاصره، وحاول قتاله بالنشاب مدة، والبلد على صغره مستمر على حالة، ما أغلقت لهذه الفتنة سوق، ولا سار عليها من العامة بشر، ولا برز للحال من المسجد الأقصى معتكف، ولا انقطعت مناظرة، ولا بطل التدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة". ويوازن ابن العربي بين هذه الحالة وبين ما كان يجري من استجابة في بلاده لمثل الحادثة الغريبة المذكورة، فيقول: "ولو كان بعض هذا في بلادنا لاضطرمت نار الحرب في البعيد والقريب، ولانقطعت المعايش، وغلقت الدكاكين، وبطل التعامل، لكثرة فضولنا، وقلة فضولهم".[3]

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي/ ٣٣١. بيت المقدس في كتب الرحلات/٥١.

(٢) ينظر: أحكام القرآن ٤/١٥٩٨، مجلة الأبحاث/ ٦٦.

(٣) ينظر: مجلة الأبحاث/ ٦٦-٦٧، بيت المقدس في كتب الرحلات/ ٥٤، ٥٥.

المبحث الثالث

القدس في النثر الفني زمن الاحتلال الصليبي (٤٩٢ـ٥٨٢هـ)

- القدس في رحلة الهروي زمن الاحتلال الصليبي.
- القدس في السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ.
- القدس (عين سلوان) في كتاب للوهراني.
- القدس في إحدى شذرات الحكيم عبد المنعم الجلياني.
- الدعوة إلى الجهاد ـالدعوة إلى تحرير القدس:

– العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل يدعوان إلى تحرير القدس.

– صلاح الدين يطلب من الخليفة تقليده مصر والشام واليمن والمغرب استعداداً للتحرير.

– الخليفة العباسي يدعو صلاح الدين إلى تحرير القدس.

– بين الفتوح الأخرى وتحرير القدس.

– علاقة خاصة بين صلاح الدين والقدس.

– التنبؤ بالفتح المقدسي.

القدس في رحلة الهروي زمن الاحتلال الصليبي:

زار أبو الحسن الهروي، علي بن أبي بكر[1] القدس، وهي رازحة تحت الاحتلال الصليبي الأول، في سنة ٥٦٩هـ[2].

وسجل الهروي زيادرته وأحداثها في كتابه "الإشارات إلى معرفة الزيارات". وتحدث فيه عن "زيارات القدس الشريف وما حوله".

وتحدث في كتابه هذا عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة وغيرهما من المزارات الإسلامية، كما تحدث عن مزارات الملة المسيحية.

يعرف الهروي الصخرة المشرفة بأنها موضع عروج النبي، و"دائرها در ابزين من الحديد[3]. ويذكر أنه قرأ في سقف القبة ما صورته: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم. له ما في السموات وما في الأرض﴾ ...الآية. والكتابة بالغصن المذهب، وهذه القبة لها أربعة أبواب. ومن تلك الأبواب: "الباب الشرقي إلى جانب قبة السلسلة، وعليه عقد مكتوب عليه اسم القائم بأمر الله أمير المؤمنين، وسورة الإخلاص، وتحميد وتمجيد". ويضيف بأنه وجد على سائر الأبواب كذلك، لم تغيره الفرنج[4]. ويذكر الهروي "دار القسوس"[5]، وهي مما أحدثه الفرنج[6].

ويصف الهروي المسجد الأقصى، ويذكر أنه قرأ في سقفه ما صورته: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،

---

(١) علي بن أبي بكر بن علي الهروي، ينسب إلى هراة، رحالة مؤرخ، ولد في الموصل وتوفي في حلب سنة ٦١١هـ (ينظر: وفيات الأعيان ٣/٣٤٦-٣٤٨).

(٢) الإشارات إلى معرفة الزيارات/٢٥.

(٣) يذكر ناصر خسرو في رحلته أن الصخرة كانت محاطة بدرابزين من الرخام (سفنامة/). ولعل هذا الدرابزين الحديدي الذي ذكره الهروي كان من إضافة الفرنج.

(٤)الإشارات إلى معرفة الزيارات/ ٢٥.

(٥)المصدر نفسه/ ٢٥.

(٦)بيت المقدس في كتب الرحلات/ ٥٧.

الذي باركنا حوله﴾، نصر من الله لعبده ووليه أبي الحسن علـي الإمـام الظـاهر لإعـزاز دين الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائـه الأكرمين. أمـر بعمل هذه القبة وإذهابها سيدنا الوزير الأجل صفي أمير المؤمنين وخالصته أبـو القاسـم علي بن أحمد، أيده الله ونصره، وكمل جميع ذلك إلى سلخ ذي القعدة سـنة ٤٢٦هـ، صنعه عبد الله بن الحسن المصري المزوق". ويذكـر الهـروي أن جميـع الكتابـة والأوراق بالفص المذهب، وجميع ما على الأبواب من آيات القرآن العزيـز، وأسـامي الخلفـاء، لم تغيره الفرنج"[١].

ويحدد الهروي قياسـات المسـجد الأقصى طـولاً وعرضـاً، كمـا يحـدد رواق قبـة الصخرة، ويذكر أنه مبني على ست عشرة أسطوانة من الرخـام، وعلـى ثمانيـة أركـان، والقبة التي داخله بنيت على أربعـة أركـان، واثنـى عشـر عمـودا، ودائرهـا سـتة عشـر شباكا. والقبة دائرها مائه وستون ذراعاً، ودائر البنية العظمى التي تحوي الجميع ثلاثمائة وأربعة وثلاثون ذراعاً". ويستمر الهروي في وصفـه المفصـل، فيذكـر أبوابـها، ويصـف مغارة الأرواح فيها. وينتهي إلى وصف قبـة الأقصـى، فيكـر أن علوهـا سـتون ذراعـاً، ودائرها ستة وتسعون ذراعاً، ودائر أسفلها مربعاً مائة وستون ذراعاً[٢].

ويصف الهروي عـدداً مـن المـزارات المسـيحية، وأهمـها كنيسـة القيامـة، فيذكـر أن عمارتها من العجائب. ومن تلك المزارات كنيسة اليعاقبة، وكنيسة صهيون، وغيرها.[٣]

ويختم الهروي حديثه عن القدس ومزاراتها بأنه أقام فيها زماناً على عهد الفرنج[٤].

(١) الإشارات إلى معرفة الزيارات/ ٢٥-٢٦.

(٢) المصدر نفسه/ ٢٦-٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ٢٧،٢٨.

(٤) المصدر نفسه/ ١٢٨.

القدس في السيرة الذاتية: الاعتبار لأسامة بن منقذ، زمن الاحتلال الصليبي:

زار أسامة بن منقذ بيت المقدس، وهي في ظل الاحتلال الصليبي، ويتحدث عن زيارته تلك، ودخوله المسجد الأقصى للصلاة فيه. ويصور العلاقة التي كانت تقوم بينه وبين فرسان الداوية من الفرنج في بيت المقدس، كما يبدو في قوله: "... فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى، وفيه الداوية، وهم أصدقائي، يُخلون لي ذلك المسجد الصغير- بجانب المسجد الأقصى- أصلي فيه، فدخلته يوماً، فكبّرت ووقفت في الصلاة، فهجم عليّ واحد من الإفرنج، مسكني وردّ وجهي إلى الشرق، وقال: كذا صلّ، فتبادر إليه قوم من الداوية، أخذوه أخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم، وعاد وهجم عليّ ذلك بعينه، ورد وجهي إلى الشرق، وقال: كذا صلّ، فعاد الداوية، دخلوا إليه وأخرجوه، واعتذروا إلي، وقالوا: هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق"[١].

ومن الواضح أنَّ من ما يرويه أسامة هنا، يحدثنا عن واحدة من زياراته إلى القدس، ويصور لنا علاقاته مع الفرسان الداوية من الفرنج. و لم تكن تلك الزيارة هي الزيارة الوحيدة إلى القدس، فقد قام بزيارة أخرى مع الأمير "معين الدين أنر"[٢].

ويحدثنا أسامة أنه كان الفرنج يحجون إلى القدس، وممن حج إليها منهم روجار. ويخبرنا أن حاكم بيت المقدس الفرنجي آنذاك هو (بغدوين)[٣].

ويؤكد موقف أسامة من تحرير القدس، ما ورد في شعره، يقول:

---

(١) الاعتبار/ ١٣٤، ١٣٥.

(٢) المصدر نفسه/ ١٣٩.

(٣) المصدر نفسه/ ١١٨، ١٢٨.

وما تنثني عنه أعنّةُ خيلنا   ولو طارَ في أفق السّماء به النّسرُ
إلى أن يزور (الجوسلين) مُساهماً   له في دياجٍ، ما لليلتها فجرُ
ونرتجع القدسَ المُطهَّرَ منهمُ   ويُتلى بإذن الله في الصخرة الذّكْرُ[1]

القدس (عين سلوان)[2] في كتاب للوهراني:[3]

في كتاب للوهراني، وفيه منامه الأكبر، كتبه رداً على كتاب وصل إليه من الإمام جمال الدين، يذكر "عين سلوان"، وذلك من خلال شكواه من إقامته في قوص بالديار المصرية، مصوراً سفره من الشام إلى صعيد مصر مثل الطامة الكبرى، ومبيناً أنه لا يستطيع الصبر والسلوان عما يصفه بـ "عين سلوان" كما يبدو في قوله: "... فرماه الدهر بالحظ المنقوص، وطرحه إلى أرباض مدينة قوص، يتقلى في حر السعير، ولا يشبع من خبيز الشعير، إدامه البصل والصِّير، وفراشه الأرض والحصير"، ثم يبدي حنيناً إلى ربوعه، مما عَظّم مصابه، وبذلك علم أن سفره كأنه "الطامة الكبرى، وعدم الصبر والسلوان عن دير سلوان". ولهذا نراه يتمنى العودة إلى الديار الشامية[4].

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى ما يقوله الهروي حول عين سلوان، فإنه يعدها من الزيارات بظاهر القدس، وماؤها مثل ماء زمزم[5].

ويذكرنا هذا بقول أبي العلاء المعري في (عين سلوان):

وبعين سلوانَ التي في قدسها   طَعْمٌ يُوَهّمُ أنّه من زمزمِ[6]

(١) ديوانه/ ٢٠٤.
(٢) وردت في المنامات: دير سلوان.
(٣) الوهراني: الشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني (ت ٥٧٥هـ). (ينظر: منامات الوهراني ومقاماته ورسائله– تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش).
(٤) منامات الوهراني/ ٢٠، ٢١.
(٥) الإشارات إلى معرفة الزيارات/ ٢٧.
(٦) اللزوميات ٢/٢٦٨.

القدس في إحدى شذرات الحكيم عبد المنعم الجلياني:[1]

في الشذرة الثانية عشرة من "ديوان التدبيج"، يتحدث الجلياني عن الشام، وتتمثل تلك الشذرة في رسالة كتبها الجلياني استجابة لشخص يدعى "راجح بن حسان"، وعنوانها: "في بهجة الشام وأوصافه الحسان". وقد أنشأها في سنة ٥٦٩هـ[2]. وفيها يخص القدس والأقصى بالحديث من حيث قداستهما.

يرى الجلياني أن الشام ذات فضل كبير، وفيها "مباعث الأنبياء، ومهاجر الأولياء، وموارد الصالحين، ثم يتساءل: وكيف لا تكون كذلك وفي ديارها المسجد الأقصى"؟ يقول: "وكيف يُحصى فضلها أو يستقصى، وبعض محجوجاتها المسجد الأقصى؟"[3] وهو بهذا يركز على ما للقدس وأقصاها من القداسة. ويضيف الجلياني قائلاً: "وهو بيت كُرِّم فيه المشهد والمسلك، وعظم فيه المشعر والمنسك، وحجَّ إليه المسلم والمشرك". وقد "حفته جبال الرحمة التي شرفها الله في سالف الدهور، فأقسم في كتابه بالطور". ثم تحدث عن الترب المختارة، والمشاهد والمزارات والقبور. ويقول شعراً:

يا زائراً جنبات الشام معتبراً ... أحْرِمْ فأنتَ بحجر غير محجور
فما بلد لم يَغْشَهُ بدلٌ ... أو مرسل بكتاب غير مهجور
مثوى النبوة والآيات معجزة ... والنور يشرق منه كلّ ديجور[4]

---

(١) أبو الفضل الحكيم عبد المنعم بن عمر بن عبد الله الجلياني الأندلسي. ولد في جليانة بالأندلس في سنة ٥٣١هـ ونسب إليها، رحل إلى مشرق العالم الإسلامي: مصر والشام والعراق والحجاز. اتصل بصلاح الدين. وله عدة دواوين شعرية منها ديوان المبشرات والقدسيات، وديوان التدبيج، وديوان الحكم، وغيرها. (ينظر: فوات الوفيات ٤٠٧/٢، نفح الطيب ٦١٤/٢، ٣٢٩/٤، عيون الأنباء/ ٦٣٠-٦٣٥.

(٢) ديوان التدبيج (خ)/ ٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه/ ٧٦-٨٩.

(٤) المصدر نفسه/ ٧٧.

ويذكر الجلياني، في هذه الشذرة، بحيرة طبرية والحمة وقبة سليمان. ويشيد فيها بصلاح الدين وراياته الصفر التي رفعت فوق القدس عند تحريرها(١).

ولعله تحسن الإشارة هذا إلى زيارة الجلياني للقدس في سنة ٥٩٦هـ، وقد أنشأ أبياتاً أبدى فيها تعلقه بالمدينة المقدسة، وتحدث عن مقدساتها، كما يبدو في قوله:

واشرح القلبَ في المقدّس بالمسـ جد الأقصى، هناك للجذع هِزٌّ

واسقه كلما اشتكى غُلّةً من عين سلوان حيث بورك نزٌّ

فبسلوان ريُّه لا سواه وهو ينفي عنه كلوماً تحزٌّ

فاغسل القلب بالسُّلو إلى أن لا تراه بحادث يستفزُّ (٢)

ويتحدث الجلياني عن القدس، في مناجاة أنشأها سنة ٥٩٧هـ، فيقول:

مقيماً بضاحي ربع قدسك عاكفاً عكوفَ تجافٍ عن روى ذلك الرّبع(٣)

الدعوة إلى الجهاد:

دعا علي بن طاهر السّلمي (٤٣١-٥٠٠هـ) إلى الجهاد في خطبه، وجمعت تلك الخطب في كتاب عرف "بكتاب الجهاد". وقد نبه السلمي في خطبه الجهادية إلى مخاطر الغزو الصليبي، في أواخر القرن الخامس الهجري، وغايته بيت المقدس.

وكان السلمي قد اتخذ الجامع الأموي في دمشق مركزاً للتدريس، والدعوة إلى الجهاد والتصدي للغزو الفرنجي، وقد جمعت خطبه التي كان يلقيها في كتاب عرف بكتاب الجهاد، كما تقدم(٤).

(١) ديوان التدبيج، ٧٧،٧٨.

(٢) ديوان الحكم (تحقيق كتابي)/ ٣٦، ٤٧٣.

(٣) المصدر نفسه/ ٥١٨.

(٤) ينظر: كتاب الجهاد عن: القاضي الفاضل – هادية دجاني/ ٢١٢-٢١٦.

ومن خطبه هذه قوله مخاطباً حكام المسلمين: "فشمروا -رحمكم الله- عن سوق الاجتهاد إلى مفترض هذا الجهاد ومتعين الذب عن دينكم وإخوانكم بالمؤازرة والإنجاد"، ويدعوهم إلى اغتنام الفرصة، والحرص على نيل الجنة، ويحذرهم من التخلف عن ذلك، كما يبدو في قوله: "واغتنموا غزوة قد هيأها الله لكم، وجنة قد زفت إليكم، ودنيا عاجلة تحوزونها من أطيب مكتسب، ومفخراً باقية ملابسه عليكم مدى العصور والحقب. واحذروا كل الحذر أن تتخلفوا عن ذلك فتصلوا ناراً ذات لهب"[١].

وانعكست هذه الأصداء الجهادية لدى ابن الزكي في خطبته التي ألقاها في القدس بعد تحريرها في سنة ٥٨٣هـ[٢].

الدعوة إلى تحرير القدس:

لقد كانت فكرة الجهاد هي المفهوم السائد زمن الحروب الصليبية، في العصر الفاطمي، والعصر الأيوبي، والعصر المملوكي. وكانت القدس هي الهدف الأسمى لتلك الفكرة[٣]. وقد صنفت مصنفات عديدة آنذاك حول موضوع الجهاد، وقد تقدم القول حول كتاب الجهاد لعلي بن طاهر السلمي[٤].

شارك النثر الفني مشاركة جلية في الدعوة إلى الجهاد لتحرير القدس وغيرها من الديار الإسلامية المحتلة آنذاك، كما شارك في الدعوة إلى الوحدة بين الأمصار الإسلامية، وخاصة في مصر والشام والجزيرة الفراتية، لتحقيق غاية التحرير ذاتها.

وشارك في تلك ا لدعوة الكتاب والخطباء وغيرهم. وكان أهل السلطان يعرفون

(١) ينظر: كتاب الجهاد عن القاضي الفاضل – هادية دجاني/ ٢١٦.

(٢) القاضي الفاضل- هادية دجاني/٢١٦.

(٣) ينظر: صلاح الدين وعصره- ليوباي/ ١٤٨،

(٤) صلاح الدين- ليونز وجاكسون/١٨٦.

لأولئك الأدباء، من كتاب وخطباء ورحالة ومصنفين دورهم، وكانوا يحلونهم مقاماً سنيا، واتخذوا منهم وزراء ومستشارين، ففي عهد صلاح الدين كان القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن شداد (البهاء)، أركان دولة صلاح الدين. لقد كان القاضي الفاضل الدولة الصلاحية آنذاك، وهو الذي قال فيه صلاح الدين مخاطباً جند الإسلام: "لا تظنوا إني فتحت البلاد بسيوفكم، ولكنني افتتحتها بقلم القاضي الفاضل". والعماد الأصفهاني هو صاحب الفتح القدسي، وهو الذي طلب منه صلاح الدين إنشاء كتب البشرى بتحرير القدس، فكتب سبعين رسالة لإرسالها إلى الأمصار الإسلامية. وابن شداد هو مؤرخه، وقاضي عسكره، وكاتب سيرته المسماه: "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية".

العماد الأصفهاني يدعو إلى تحرير القدس:

يصور العماد الأصفهاني، في رسالة له وردت في حوادث سنة ٥٦٨هـ، القدس في ظل الاحتلال الصليبي مظلمة موحشة تنتظر تحريرها، ويدعو نور الدين زنكي إلى تحقيق ذلك، كما ورد في كتاب على لسان نور الدين إلى الخليفة المستضيء بأمر الله، وفيه: "وقسطنطينية والقدس تجريان إلى أحد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى يدني بكرمه قطاف الفتحين لأهل الإسلام". وفي خاتمة الكتاب حديث عن الدعوة إلى تخليص الأقصى من الاحتلال، وأن يكون "فتح البيت المقدس مفتتح مراده، ومقتدح زناده، ومقترحه في جهاده" وقد أرسل الكتاب مع القاضي كمال الدين الشهرزوري.(١)

وفي رسالة أخرى له وردت في حوادث سنة ٥٧٧هـ، يصورها محتلة، وقد بقيت كذلك ما يزيد على ثمانين سنة. ويبدو أن اليأس قد دبّ في النفوس، كما يبدو في قول العماد:

(١) كتاب الروضتين ١/٢١٥، مفرج الكروب ١/٣٥، وينظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية/ ٤٤، ٤٩، ٩.

وصار البيت المقدس" محلا للأرجاس، ومضت عليه دهور وملوك، لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلا على اليأس".[1]

القاضي الفاضل يدعو إلى تحرير القدس:

ويحذر القاضي الفاضل من التأخر في تحرير بيت المقدس، فيقول داعياً إلى استئصال شأفة الاحتلال الصليبي للقدس وغيرها من ديار الإسلام: "إن البيت المقدس، إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم يتجدد العزم في قلعة...، نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه"، إلى أن يقول: "والبيت المقدس له قِرْن يقوم به ويكفيه،. ويعد القاضي الفاضل استنقاذ المسجد الأقصى الغاية التي يسعى المسلمون إلى تحقيقها حيث يقول: "وبلغنا المنى بمشيئة الله، ويد كل مسلم تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده".[2]

لقد كانت غاية صلاح الدين متجلية في تحرير القدس، كما ورد في رسالة فاضلية كتبها القاضي الفاضل، على لسان صلاح الدين، إلى "حطّان بن منقذ في اليمن"، يقول فيها: "... فنطهر الأرض المقدسة من رجسهم بدمائهم، وبذلك نكون عين الطائفة من الأمة التي أخبر نبينا، صلوات الله عليه، أنها لا تزال على الحق ظاهرة، وبثواب الله ووعده ظافرة"[3].

(١) كتاب الروضتين ٢٣/٢، وينظر: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية/٤٦.

(٢) كتاب الروضتين ٢٤٣/١.

(٣) كتاب الروضتين ٤٩/٢، صبح الأعشى ٨٩/٣، ٩٠.

صلاح الدين يطلب من الخليفة تقليده مصر والشام واليمن والمغرب استعداداً للتحرير:

يبين القاضي الفاضل، في رسالته إلى الخليفة العباسي، على لسان صلاح الدين، طلب السلطان من الخليفة أن يقلده الأمر في مصر والشام واليمن والمغرب، وجميع الأراضي التي كانت تابعة للدولة النورية، وقد استجاب الخليفة إلى ذلك مستثنياً مدينة حلب.

ويبين القاضي الفاضل في تلك الرسالة أن الديار المصرية" بعيدة إلى درجة لا يمكن استخدامها قاعدة لتحرير القدس، في حين يمكن القيام بهجوم عليها من سوريا" والديار الشامية. وجدير بالقول أنه لن يتحقق ذلك إلا بعد توحيد دمشق وحلب(1).

الخليفة العباسي يدعو صلاح الدين إلى تحرير القدس:

لقد ورد في رسالة الخليفة العباسي إلى صلاح الدين الأيوبي (بعد إلغاء الخلافة الفاطمية، وإعلان الولاء للخليفة العباسي في مصر، وهو يعلن تقليده مصر واليمن وأقطار الدولة النورية باستثناء حلب) دعوته إلى تحرير بيت المقدس، ويصور الخليفة، في رسالته بيت المقدس بأنه" بلاد الإسلام العظيم، وأخو البيت الحرام في شرف التعظيم، والذي توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم. وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر رقبته، وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته"، ويدعوه الخليفة إلى تحريره فيقول: "فانهض إليه بنهضة توغل في مرحه، وتبدل صعب قياده بسمحه، وإن كان له عام حديبية فأتبعه بعام فتحه"(2).

---

(1) رسائل القاضي الفاضل (في الموصل) عن صلاح الدين ١٢٢/١٢٣. ليونز وجاكسون/١٢٢،١٢٣

(2) ينظر حسن المحاضرة ٢/٧-١٥.

ويرد صلاح الدين على ذلك بقوله: "طلع الفجر على ليل الانتظار"، ويبين للخليفة أن هدفه كان يتمثل في "إعلاء منابر نور الدين"، للوصول إلى التحرير[1].

وفي رسالة فاضلية أخرى، يطلب صلاح الدين من الخليفة أن يصدر أوامره إلى "ملوك الأطراف بأن يعينوه ضد الفرنجة في فتح القدس، فإن لم يرغبوا في ذلك، فلا أقل من ألا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه عن قصده[2].

نقد الحكام الذين توانوا عن تحرير القدس:

ويبين القاضي الفاضل أن الأمراء والسلاطين كانوا "يغطون في النوم في ممالكهم"، وأن أولي الأمر في حلب عقدوا هدنه مع الأرمن، وعقد قلج أرسلان هدنه مع البيزنطيين، كما ورد في إحدى رسائله[3].

ويوجه القاضي الفاضل نقده إلى أولئك الحكام الذين لا يسعون للجهاد في سبيل الله لتحرير القدس وغيرها، كما تقدم. ويوازن بينهم في فعلهم هذا، وبين الفرنج في تناهيهم في الحفاظ على القدس، كما يبدو واضحاً في رسالة فاضلية، كتبها على لسان صلاح الدين، في سنة ٥٧٤هـ، ويتحدث فيها عن "همة الفرنج بالقدس، وتوافيهم على حماسته، وهو أنف في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام، بينما "نصرف نحن عن الحق، ويضيق بنا في التوسعة على أهله"، وهو ما لا يرضى عنه صلاح الدين والمسلمون بعامة[4].

---

(١) رسائل القاضي الفاضل (في الموصل) عن صلاح الدين (ليونز وجاكسون) ١٢٢، ١٢٣.

(٢) كتاب الروضتين ٦٤٨، وينظر: صلاح الدين عن "ليونز وجاكسون"/ ٢٦٦.

(٣) رسائل القاضي الفاضل (في باريس) عن صلاح الدين (ليونز وجاكسون٢/٢٠٣.

(٤) كتاب الروضتين ٢/٤، وينظر: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية/٤٦.

وفي هذا المجال، يستنكر القاضي الفاضل، في رسالة كتبها إلى بغداد، على لسان صلاح الدين، ما فعله عدد من قادة المسلمين في حلب والموصل، فيصورهم "عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظا". ويطلب من الخليفة أن يأمر جميع ملوك الأطراف الوقوف مع صلاح الدين، وألا "يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس"، في الوقت الذي طأطأت فيه رؤوسهم تحت عاره، وصارت قلوبهم صخرة لا ترق لصخرته المشرفة وأقصاه المبارك[1].

الدعوة إلى الوحدة سعياً إلى تحرير القدس:

وتجلت الدعوة إلى الوحدة بين المسلمين لتحرير ما احتل من ديار الإسلام، ومن أبرز من يمثلها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن الزكي، وغيرهم.

وفي هذا المضمار، يبين القاضي الفاضل، في رسالة كتبها على لسان صلاح الدين، أن الغاية التي كان يسعى إلى تحقيقها، تتمثل في الوحدة بين المسلمين لتحرير القدس وغيرها، كما يبدو في قوله: "إننا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما يجمع شملهم" للتحرير[2]. ومثل هذا قوله في رسالة أخرى: "... فكونوا يدا واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفا يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا".[3]

بين الفتوح الأخرى وتحرير القدس:

نظر الكتاب إلى الفتوح الأخرى، أو الاتفاقات بين المسلمين، مبشرة بفتح القدس، وأن فتح القدس مبشر بإقامة ممالك أخرى، فالعماد الأصفهاني، ينقل عن

(١) كتاب الروضتين ١/٥٣، ٥٤، ٥٥، ٢/٣٩.

(٢) سنا البرق الشامي/ ١٦٨، ١٦٩.

٣) كتاب الروضتين ١/٢٠٣.

القاضي الفاضل موقف صلاح الدين فيقول، إن فتح المغرب مهم، ولكن "فتح البيت المقدس أهم، والفائدة به أتم، والمصلحة منه أخص وأعم". ورأى أن فتح القدس والساحل، سيؤدي إلى ممالك أخرى، كما ورد في رسالة للعماد، ذكرت في حوادث سنة ٥٨٢هـ. وهو قول أورده الكاتب على لسان صلاح الدين مخاطباً تقي الدين عمر عندما أراد التوجه إلى بلاد المغرب لفتحها.

ورأى العماد في الاتفاق بين السلطان والمواصلة أنه سيؤدي إلى تحرير القدس، فهو يقول: إن أولى بركاته "فتح البيت المقدس وسائر البلاد"، وبه خص الله صلاح الدين، "وقضى حاجاته التي في النفس".[(١)]

وعبر القاضي الفاضل عن ذلك بقوله متحدثاً عن غاية صلاح الدين من ضم الموصل إلى دولته: "وكان عرضه من ضم الموصل أن يكون الموصل إلى القدس وسواحله".

ويربط القاضي الفاضل بين دخول صلاح الدين دمشق في سنة ٥٧٠هـ، والقدس، ويعد ذلك "خطوة على الطريق إلى فتح القدس كما يقول. وهو يري أن الإحجام عن القيام بواجب الحرب المقدسة... جريمة لا تغتفر".[(٢)]

وفي رسالة فاضلية أخرى، يرى القاضي الفاضل أن فتح حلب كان مَعْلما على طريق النصر في الجهاد المقدس[(٣)].

وفي رسالة فاضلية إلى سيف الدين طغتكين ابن أخي صلاح الدين، يقول: " لقد استيقظ الإسلام الآن ليطرد شبح ليل الكفر".[(٤)]

---

(١) سنا البرق الشامي/ ٣٢٧، كتاب الروضتين ٢/٧.

(٢) كتاب الروضتين ٢/٦٦.

(٣) المصدر نفسه ٢/٤٩.

(٤) سنا البرق الشامي/ ١٦١ وما بعدها.

خطبة لصلاح الدين: مكانة القدس في نظر صلاح الدين:

عندما حاصر صلاح الدين والمسلمون بيت المقدس لتحريرها في سنة ٥٨٣هـ، خاطب أشراف المدينة متحدثا عن مكانة القدس في نفسه وفي نفوس المسلمين، أنه غير راغب في انتهاك حرمتها، وطالباً من المحتلين مغادرتها، كما يبدو في قوله: "إنني أحترم مدينة القدس، ولا أرغب في انتهاك حرمتها بإراقة الدماء فيها، ولهذا أنصحكم بترك المدينة". وأبدى صلاح الدين تعهداً بأن يعوضهم بدلاً مما لهم من الأموال والأراضي، فرفضوا ، فقاتلهم، ثم جاءوا مستسلمين[١].

علاقة خاصة بين صلاح الدين والقدس:

ربط الكتاب والخطباء بين تحرير القدس وصلاح الدين، ففي كتاب فاضلي، يصور صلاح الدين بأنه "النور المحمدي الذي يضيء في كل فجر يجلب الظلمة للكافرين"، ويضيء الديار القدسية بتحريرها وتخليصها من داء الاحتلال الآثم[٢].

وربطوا بين شفائه من مرض نزل به، في غير مرة، ونذره بأنه سوف يكرس نفسه للاستيلاء على القدس، بعد أن يشفيه الله من المرض، مهما كلفه ذلك من تضحيات بالروح والمال[٣].

وفي رسالة فاضلية أخرى، وردت في حوادث سنة ٥٨١هـ، يربط الكاتب تحرير الأقصى بشفاء صلاح الدين من مرضه، كما يبدو في قوله: "والمسجد الأقصى مبشر تأنيسه بما استوحش منه من القرآن، وتطهيره مما استولى عليه من رجس الصلبان"[٤].

---

(١) وفيات الأعيان ٥٨٠/٢، وينظر المفصل في تاريخ القدس/١٧٣.

(٢) رسائل القاضي الفاضل (في ثوب قالبي سراي) عن صلاح الدين (ليونزر وجاكسون)/ ٣٢٢.

(٣) كتاب الروضتين ٦٥/٢.

(٤) المصدر نفسه ٦٦/٢.

وفي كتاب عمادي، على لسان صلاح الدين، إلى أخيه سيف الإسلام باليمن، ورد في حوادث سنة ٥٨٢هـ، نجد صلاح الدين قد نذر أيضاً أنه إن "خلصه الله من نبوة هذه النوبة، وأعفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية والصحة الحلوة، اشتغل بفتح القدس"(١). ولقد كان صلاح الدين كذلك منذ توليه الأمر في مصر والشام إلى أن حررت القدس في سنة ٥٨٣هـ.

التنبؤ بالفتح القدسي:

عندما فُتحت حلب، في صفر من سنة ٥٧٩هـ، أنشأ قاضي القضاة محيي الدين بن زكي الدين قصيدة يمدح بها السلطان، وقد ضمن قصيدته بيتا بشر فيه بالفتح القدسي، وهو قوله:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر   قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

وكان الفقيه مجد الدين بن جهبل الحلبي الشافعي(٢) قد كتب كتاباً إلى السلطان يبشره فيه بفتح القدس، وكان ذلك بعد دخول صلاح الدين مدينة حلب، ولم يتجاسر أحد على عرض الكتاب على السلطان، فهو لا يؤمن بالتنجيم، ثم عرف ابن الزكي بذلك فضمنه في قصيدته كما تقدم.

ولما تحققت النبوءة، وتم فتح القدس في رجب من سنة ٥٨٣هـ أكرم صلاح الدين ابن جهبل بأن جعله أول من يلقي درساً في الفقه في الصخرة المشرفة، وأكرم ابن الزكي بأن جعله أول من يخطب في المسجد الأقصى بعد تحريره من الاحتلال الصليبي"(٣).

(١) كتاب الروضتين ٦٦/٢.

(٢) ولد بحلب سنة ٥٣٢هـ. درس في حلب ودمشق والقدس. صنف كتاباً في الجهاد للسلطان نور الدين زنكي. توفي في القدس سنة ٥٩٦هـ (وفيات الأعيان ٢٧٢/٦، ٣٤٣/٧، بيت المقدس في شعر الحروب، الصليبية/١٣٣.

(٣) ينظر : البرق الشامي ١٠٩/٥، سنا البرق الشامي،/٢٢٩، الروضتين ٤٥/٢، ٤٦، مفرج الكروب ١٤٥/٢، الكامل ٤٩٧/١١، مرآة الزمان ٣٧١/٨، ١٤٣/١٤، ١٥٣، شفاء القلوب/ ١٠٦، ١٣٠، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية/٦٥.

ويذكر ابن أبي أصيبعة، [1] أنه قد ظهر للطبيب "أبي سليمان داود بن المنى بن أبي فانة[2]، "في أحكام النجوم أن الملك الناصر يفتح البيت المقدس، وأنه يدخل إليها من باب الرحمة". وأرسل هذا الطبيب ابنه أبا الخير رسولاً إلى صلاح الدين "يبشره بملك بيت المقدس"، وكان ذلك في سنة ٥٨٠هـ: فأجازه صلاح الدين، وقال له: "متى يسر الله ما ذكرت، اجعلوا هذا العلم الأصفر فوق داركم، فالحارة التي أنتم فيها تسلم جميعها في خفارة داركم"[3].

وتحسن الإشارة هنا إلى ما قاله أحد المنجمين لصلاح الدين: إنه قد يخسر عينه إذا هو دخل القدس، فأجاب صلاح الدين قائلاً: "إني لأوثر أن أفقد بصري كله إذا كان من وراء ذلك فتح القدس[4].

(١) موفق الدين، أبو العباس، أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي، المعروف بابن أبي أصيبعة، ولد في دمشق سنة ٦٠٠ هـ. اشتغل بالطب، وصنف كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، وهو كتاب مهم في بابه، توفي سنة ٦٦٨هـ. (ينظر مقدمة كتابه عيون الأنباء).

(٢) ينظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء/ ٥٨٧-٥٨٩. وأبو سليمان داود بن أبي المنى بن أبي فانة، طبيب بمصر، وهو من أهل القدس، ثم انتقل إلى الديار المصرية، أعجب الملك ماري بطبه، فطلبه من الخليفة، ونقله هو وأولاده الخمسة إلى القدس، وفيها ركب الترياق الفاروقي في بيت المقدس، لابن الملك ماري، وكان ابنه منجماً، وكانت له معرفة بأحكام النجوم، وتنبأ بفتح القدس. (ينظر: عيون الأنباء/٥٨٧-٥٨٩).

(٣) عيون الأنباء/٥٨٨، وينظر: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية/٦٦.

(٤) مرآة الزمان ٨/٢٥٤.

المبحث الرابع

القدس في النثر الفني في سنة الفتح القدسي الصلاحي(٥٨٣هـ)

- البشرى بتحرير القدس.
- كتب البشائر (التهاني) بتحرير القدس للعماد الأصفهاني.
- القدس في رسائل قدسية:
  - الرسالة القدسية للقاضي الفاضل وفصول أخرى.
  - الرسالة القدسية لابن الأثير، ضياء الدين.
- القدس في كتاب الفتح القدسي للعماد الأصفهاني:
  - إزالة الآثار التي أقامها الصليبيون في القدس.
  - العناية بالمقدسات في القدس.
  - المنشآت الصلاحية في القدس، ومنشآت أخرى.
- القدس في الخطبة القدسية -٤ شعبان ٥٨٣هـ.
- مجلس وعظ يعقده زين الدين بن المجاور -٤ شعبان ٥٨٣هـ.

الفتح القدسي سنة ٥٨٣هـ:

كانت سنة ٥٨٣هـ السنة التي تم فيها تحرير القدس، وكانت تلك السنة هي السنة "الحسنة المحسنة، والزمان الذي تقضت على انتظار إحسانه الأزمنة، وطهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الأمكنة، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة" كما يقول العماد الأصفهاني. وهكذا "نصرت الدولة الناصرية، وشاعت في الدنيا "محاسن الأيام الصلاحية"[(١)].

وكان للفتح القدسي هذا صدى كبير في النثر الفني: في الرسالة، والخطبة، والرحلة، والسيرة الذاتية، والسيرة الغيرية، والمنام.

يذكر العماد الأصفهاني أن الرسل وردت من الآفاق، من الروم وخراسان والعراق، للتهاني بالفتح القدسي العظيم. وهو الفتح الذي "درجت على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة، وتمكنت منه يده (السلطان صلاح الدين) الطولى، فما منهم إلى من يعترف بيمنه، ويغترف من يمه...، ويخطب بصداقته"[(٢)].

البشرى بتحرير القدس:

في رسالة للعماد الأصفهاني، أنشأها شارحاً الفتوح الصلاحية في سنة ٥٨٣هـ، قبل أن يتم تحرير القدس، إلى ديوان الخليفة العباسي ببغداد، يصور الفتح عظيماً، والنصر كريماً، "يشرح صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافة المسلمين"، فقد فتحت طبرية، وعكا، والناصرة وصفورية، وقيسارية، ونابلس، وحيفا، وغيرها من الفتوح،

(١) كتاب الروضتين ٢/٧٥.

(٢) المصدر نفسه ٢/١٢٠.

ويختتم العماد رسالته بقوله:" وما يتأخر النهوض إلى القـدس، فـهذا أوان فتحـه، ولقـد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهـدى عـن صبحـه"[1]. وبـهذا وذاك عـاد الإسلام الغريب فيها إلى وطنه، وتوطن الدين بها في مأمنـه، وسـكن في مسـكنه، كمـا يقول العماد في رسالة أخرى[2].

يذكر ابن القادسي نسخة كتـاب كتبـه السـلطان إلى بعـض أهلـه، وجـاء فيـه أن السلطان وجيوشه انتقلوا إلى الجانب الذي فيه القدس، وكان "لم يبـق في السـاحل مـن جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور، والعزم مصمـم علـى قصـد القـدس، فالله يسهله ويعجله"[3].

سار السلطان نحو القدس "معتمداً على الله، مفوضاً أمره إليه، منتـهزاً فرصـة فتـح باب الخير الذي حث على انتهازه إذا فتح، بقوله عليـه السـلام: "مـن فتـح بـاب خـير فلينتهزه، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه"[4].

وفي حديث العماد عن الفتح القدسي الآتي، يصور القدس عروساً يتوجه صـلاح الدين لخطبتها باذلاً النفوس مهراً لها. ويصور الصخرة المشرفة فيها "مستدعية مسـتعدية لأعدائها"، ولإجابة دعائها، وتلبية ندائـها، "وإعـادة الإيمـان الغريـب منـها إلى وطنـه"، وإقصاء أعداء الدين من الأقصى وتطهيره منهم. ولمـا وصـل الخـبر إلى القـدس، يصـور العماد الحالة التي كان عليها أهلها لما سمعوا بالخبر، فيقول: "فطارت قلوب منْ به رغبـا واطاشت، وخفقت أفئدتهـم خوفا من حسن الإسلام وجاشت". ثم يحدثنا عـن نصـب

(١) كتاب الروضتين ٨٩/٢.

(٢) المصدر نفسه، ٩٢/٢.

(٣) المصدر نفسه، ٩١/٢.

(٤) المصدر نفسه، ٩٢/٢.

المنجنيقات، وحفر الخنادق، وتوزيع الجنود على الأبراج[1].

ويحدد العماد المدة التي بقيت القدس فيها محتلة، بأنها إحدى وتسعون سنة، ويعقب على ذلك بقوله إنه "لم يتقبل الله فيه من عابد حسنة، ودامت همم الملوك دونه"[2].

صلاح الدين يطلب من العماد الأصفهاني إنشاء كتاب التهاني (البشائر):

ولما تم الفتح القدسي، جلس صلاح الدين بمخيمه ظاهر القدس يتقبل البشرى والتهاني، فإنه عندما "تسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، وفدوا للزيادة من كل فج عميق". جاء في كتاب الفتح القدسي أنه "لما تم الفتح الأكبر، وقطع دابر المشركين، وحط إقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين، أمرني السلطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق"[3].

واستجابة للطلب السلطاني، قام العماد بإنشاء سبعين رسالة من كتب البشرى بالفتح القدسي العظيم، لترسل إلى الأمصار الإسلامية المختلفة. يقول العماد حول كتب البشائر تلك: "فما شبهت قلمي إلا بشائر أري[4] البشائر، ولا وجهت كلمي إلا لطائف وحي اللطائف، وما أرسلت يراعي إلا ليُراعي الرسائل، ويشبع القول، ويسبغ الطول"، ثم يقول: "فبشرت بأقلامي أقاليم البشر، وعبرت بأعاجيبي عن عجائب العبر"، "وعلقت بفتح القدس بلاد الإسلام وزينت، وشرحت فضيلتها

(١) الفتح القدسي/ ١١٦-١١٧، كتاب الروضتين ٢/٩٣، ٩٦،٩٨.

(٢) الفتح القدسي/ ١٢٢،١٩٠، كتاب الروضتين ٢/٩٨،٩٩.

(٣) ينظر: الفتح القدسي/ ١٣٠، ١٣٤، ١٨١، ١٨٣، ١٩٠، كتاب الروضتين ٢/٩٦،١٢١. بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية/٨٦.

(٤) شائر أوي من يشتار العسال.

وبينت". ويبدو العماد مفتخراً بما كلفه به السلطان صلاح الدين، ويصور لنا كيف "اقترح المعنى المبكر للفتح البكر"، وأورد "المعنى البليغ في اللفظ الوجيز"، وكيف سهر الليالي حتى نظم اللآلي، وكيف سارت شوارده إلى المشرق والمغرب، "معربة عن الفتح المعرب عن النصر المذهب، وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وهنأت الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الإسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والأنبياء، ومقام إبراهيم بموضع قدم محمد المصطفى، صلى الله عليه وعليهم أجمعين"[1]، ويصور القدس بخلاصها من الاحتلال الصليبي قد خلعت لباس الذل، ولبست خلعَ العز[2].

ويعد العماد الفتح القدسي هجرة ثانية يؤرخ بها، يقول: "وأنا أرّخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى"، ويعد هذه الهجرة بأنها "هجرة الإسلام إلى البيت المقدس، وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب، وعلى عامها يحسن أن ينبى التاريخ وينسق"[3].

ويربط العماد بين الفتح القدسي العمري والفتح القدسي الصلاحي[4].

ومن كتب البشارة تلك التي كتبها العماد، كتاب أرسل إلى الديوان العزيز ببغداد[5]، وآخر إلى سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين[6] أخي صلاح الدين باليمن.

---

(١) الفتح القدسي/ ١٣١،١٣٣، ١٣٤.

(٢) المصدر نفسه/١٣٦.

(٣) المصدر نفسه/ ٤٨،٤٩.

(٤) المصدر نفسه/١٢٢، ١٢٣، كتاب الروضتين ٢/٩٤.

(٥) ينظر: الفتح القدسي/ ١٤٧-١٤٩، كتاب الروضتين ٢/٩٦-٩٩.

(٦) ينظر: الفتح القدسي/ ١٩٠-٢٢٠.

يصف العماد، في رسالته الأولى الفتح القدسي بالفتح العظيم، وقد "أعاد السلطان به القدس إلى قدسه، وأظهره وطهره"، وبه رجع الإسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس"، وحرر الأقصى والصخرة، وعادت الشعائر الإسلامية تقام فيهما. ويركز العماد في رسالته على فضائل بيت المقدس، "فهو ثاني المسجدين، بل ثالث الحرمين". ويربط بين المسجد الأقصى في القدس، والمسجد الحرام في مكة، فيقول: "فليُهنّ البيت الحرام خلاص أخيه بيت المقدس من الأسر"(١).

ويصف العماد الكتاب الثاني بأنه "كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن"، وفيه يصور القدس في ظل الاحتلال الصليبي(٢). ويتحدث فيه عن فتوحات صلاح الدين قبل حطين وبعدها(٣). ثم يصور الشعائر الإسلامية تقام في الأقصى والصخرة، يقول: "ودنا المسجد الأقصى للراكع والساجد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد، وطنت أوطانه بقراءة القرآن، ورواية الحديث، وذكر الدروس"(٤).

ويرى العماد، في كتابه هذا، البيت الحرام مساوياً للبيت المقدس، "وأنه من المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال".(٥)

ويذكر العماد، في رسالته، أن المسلمين بقيادة صلاح الدين، بدأوا بالنزول على القدس، في يوم الجمعة، الثالث عشر من رجب، من تلك السنة، ويصور محاصرتهم

(١)الفتح القدسي/ ١٤٧، ١٤٨، كتاب الروضتين ٢/٩٧.

(٢)الفتح القدسي/ ١٩١، كتاب الروضتين، ٢/٩٩–١٠٠.

(٣)ينظر: الفتح القدسي/ ١٩٧–١٩٩،٢٠٢.

(٤)الفتح القدسي/ ١٩٨، كتاب الروضتين، ٢/١٠٠.

(٥) الفتح القدسي/ ١٩٨.

المدينة، وطلب الفرنج الأمان، والمفاوضات التي دارت بين المسلمين والفرنج، وقد انتهى الأمر بتحرير القدس، ودخولها سلماً.

وبذلك "عاد الإسلام بإسلام بيت المقدس إلى تقديمه. ورجع بنيانه بالتقوى إلى تأسيسه". وبه "فتح باب الرحمة لأهلها، ودخلت قبة الصخرة لفضلها": وعادت الشعائر الإسلامية تقام فيه كما كانت تقام فيه قبل احتلاله، كما تقدم.

القدس في رسائل قدسية:

- **الرسالة القدسية للقاضي الفاضل وفصول أخرى:**

خص القاضي الفاضل الفتح القدسي بالعديد من رسائله. ونرى ذلك جلياً في عدد من المجموعات المنشورة من رسائله، مثل: "الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم". و" من ترسل القاضي الفاضل، رسائل عن الحرب والسلام" و "الفاضل من كلام القاضي الفاضل"، وإنشاءات القاضي الفاضل"، ورسائله المنشورة في صبح الأعشى، ومفرج الكروب، والروضتين، وغيرها.

ومن تلك الرسائل رسالة كتبها القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، مهنئاً بتحرير القدس من الاحتلال الصليبي[1]، ويصور الكاتب التحرير نعمة أنعم الله بها على المسلمين، كما يصوره بحراً تغرف منه الأقلام. وبه "صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصائرها". ويوازن الكاتب بين ما كانت القدس عليه في ظل الاحتلال، وما آلت إليه بعد التحرير، وقد أصبحت الشعائر الإسلامية تقام فيها بحرية، يقول: "وكان الدين غريباً، فهو الآن في وطنه": وما أجمل

(١) ينظر: من ترسل القاضي الفاضل رسائل عن الحرب والسلام/ ١٦٦-١٨٨، الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم/ ١٥-٣، إنشاءات القاضي الفاضل/ ٧٥-٨٤، كتاب الروضتين ٢/١٠٥، وفيات الأعيان ٢/٣٩٢، صبح الأعشى ٦/٤٩٦، ٨/ ٢٨١-٢٨٩.

ما يصور به القاضي الفاضل عودة القدس إلى أهلها وسائر المسلمين، حيث يقول: "واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقا"، وبذلك ارتفعت أعلام المسلمين عليه فوق الأقصى وغيره من المقدسات في القدس.

تشيع ظاهرة الموازنة والمقابلة بين حالتين (احتلال القدس وتحريرها)، في هذه الرسالة. لقد "أصبحت الأرض المقدسة الطاهرة" بعد تحريرها، "وكانت الطامث" في ظل الاحتلال. ومثل ذلك قوله مصوراً يوم التحرير: "وكان الضلال صارخاً" في ظل الاحتلال، و "كان الكفر مفقوداً، وكان الإسلام مولوداً" بعد التحرير.

ويصور الفاضل الصخرة المشرفة وتعلق المسلمين بها وتضحيتهم في سبيلها، بأنها سويداء قلب الدين، كما يصور الرباط الوثيق بين المقدسات في القدس، وفي مكة والمدينة، كما يبدو في قوله: "وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غُللهم، ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجر الأسود ببت عصمتها من الكافر بحربه".

ويصور الفاضل القدس وقد اجتمع إليها كل شريد وطريد من الفرنج، واعتصموا بها، "وظنوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم"، ولكن ذلك كله لم يتحقق، وذهبت ظنونهم أدراج الرياح، لما نازلها المسلمون بقيادة صلاح الدين.

ويصف الكاتب موقع القدس جغرافيا وتحصيناً، ويحدثنا عن أودية عميقة، "وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار". كما يحدثنا عن انتقال جيش المسلمين من الجانب الغربي إلى الجانب الشمالي، لسبب عسكري واستراتيجي، فالجانب الشمالي أكثر ملاءمة للمعركة، وهو جانب عال مرتفع، بينما الجانب الشمالي على عكس ذلك.

ويرتبط بحديثه هذا تصويره حصار جيش المسلمين القدس بمنجنيقاتهم وسيوفهم وقسيهم، يقول: "فقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون.." وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها، ولا يفارق سهامها نصالها، فصافحت السور بأكنافه". ويستكمل الكاتب تشكيل هذه الصور الأدبية التي أكثر منها في هذه الرسالة، واستعان في تشكيلها باستخدام ضروب علم البيان من تشبيهات واستعارات وغيرها من ضروب علم البيان، ومن ذلك أنه يصور حجارة السور يتبرأ بعضها من بعضها الآخر، وعندها قال الواحد من العدو: "يا ليتني كنت ترابا".

وينتهي الكاتب في رسالته هذه إلى الحديث عما فعله صلاح الدين تجاه القدس وأقصاها المبارك، فقد أوعز "برد الأقصى إلى عهده" الذي كان عليه قبل الاحتلال، وأقام له الأئمة. وأقيمت أول جمعة فيه في الرابع من شعبان، فرفعت "إلى الله كلمة التوحيد، وكانت طرائقها مسدودة..، وأقيمت الخمس، وكان التثليث يقعدها، وجهرت الألسنة بالله أكبر".

وللقاضي الفاضل رسالة أخرى أنشأها جواباً عن كتاب من السلطان يهنئه بفتح القدس(١)، وفيها يعظم النصر: ويعده "آية للعالمين، ونعمة على المسلمين، ونقمة على الظالمين، وعظيمة لا تبلغها الأوصاف ا لمتعاظمة". وبه رد إلى دار الإسلام زعامته.

ويؤكد الكاتب قدسية القدس، فيتحدث عن كونها مكان مسرى النبي ومعراجه، وفيها الأقصى المبارك والصخرة المشرفة.

ويصور البيت الحرام يفك أخاه المسجد الأقصى من الأسر.

وأنشأ القاضي الفاضل فصولاً بمناسبة تحرير القدس، تحدث فيها عن تحرير المسجد الأقصى، يقول: "فتح الله هذا المسجد الأقصى الذي سمع من ألقى السمع قوله إنه

(١) ينظر: من ترسل القاضي الفاضل، رسائل عن الحرب والسلام/ ٢٢٩-٢٣٢.

بارك حوله على الإسلام، في الليلة التي فتح باب السماء المُسرى بنبيه، صلوات الله عليه، في مثلها"، وبتحريره رد الله "على الإسلام مصعد نبيه ومهبطه، وأعز المسلمين".

ولقد عمر محراب الأقصى بالقرآن، واستنطقت منارته بالأذان، "وهذا ما أفاء الله على الإسلام بجهاده قائمه وقوامه، وسيد أهله وإمامه، مولانا أبي العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين". وهو الذي ولى "يوسف بن أيوب بائعاً نفسه لمن اشتراها، وبائعاً بها إمام هداها"، كما يقول القاضي الفاضل.

ويؤكد الفاضل هذا الولاء، فيذكر الخليفة العباسي الناصر لدين الله، ويقول: "وأصار إليه ميراثه من البيت المقدس"، ويحمد الله الناصر لناصر حقه، وموّلي "هذا الفتح وليه يوسف بن أيوب".

ويتحدث الفاضل في فصل آخر قائلاً: إن الرسول ﷺ ، كان "قد فتح هذا البيت الشريف، والمشهد العظيم، والمسجد القديم، والصخرة المقدسة". ويرى أن النصر نصر من عند الله.

ويصور الكاتب الصخرة في أحد فصوله، بأنها "فص خاتم الإسلام". ويتحدث في واحد منها عن معالم قدسية بيت المقدس، فهو "مكان معراج سيد أهل الأرض".(1)

وفي رسالة فاضلية، يعد القاضي الفاضل صلاح الدين قد أصبح سيد المسلمين في سائر ديارهم، بعد أن قادهم إلى تحرير القدس، كما يبدو في قوله: "وبتحريره المقام الشقيق لمكة من الأسر"، فقد أصبح سيدي وسيد كل مسلم"(2).

ويمكن القول هنا: تعد رسائل القاضي الفاضل التي كتبها على لسان صلاح الدين أهم المصادر التي تتحدث عن الأحداث في ذلك العهد"(3).

(1) ينظر: مراسلات فاضلية/ ١١٨-١٢١، عن القاضي الفاضل (هادية دجاني) ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥.
(2) رسائل القاضي الفاضل (في توب قابي) عن صلاح الدين (ليونز وجاكسون)/٣٢٢.
(3) صلاح الدين رجب/ ١٨٣،١٨٤، صلاح الدين، ليونز وجاكسون/١٧٣.

- **الرسالة المقدسية لضياء الدين بن الأثير**

وكتب ضياء الدين بن الأثير كتابا عن الملك الناصر صلاح الدين، إلى ديوان الخلافة ببغداد، يتضمن فتح البيت المقدس واستنقاذه من أيدي الفرنج، معارضاً كتاباً كتبه القاضي الفاضل في المناسبة ذاتها[1]، ويرى فيه أنه فتح "استرد به حق الإسلام".

ويصور ابن الأثير القدس بلداً قد استقر على متن الجبل بمثل الجبل، ويطيف به وادٍ تستهزئ عصمته بنوب الدهر"، ويصور انعطاف ذلك الوادي بانعطاف الحبوة على الظهر، كما يصور مسالكه بأنها مسالك ذات تعاريج. "وهي ضيقة مستوعرة"[2].

ويتحدث الكاتب عن معالم قدسية المدينة، فهي القبلة الأولى، وهي أرض المحشر، وموطن الإسراء والمعراج[3].

وينهج ابن الأثير نهج العماد الأصفهاني، إذ جعل الفتح القدسي تاريخاً يؤرخ بفتحه كما أرّخ النبي بدار هجرته".

ويربط الكاتب بين الفتح القدسي وبدر، ويجعل الفتح المقدسي أخاً لليوم البدري[4].

ويتحدث ابن الأثير عن عودة المشاعر الإسلامية تقام كما كان الحال قبل احتلالها[5].

ويصور الكاتب الآثار العجيبة في القدس، فيراها "تستلبث العجلان، وتستجلب الأذهان، وتستنطق الألسنة بالتسبيح لله"، ومنها "ما تنوهي في حسنه من البديع والصوامع، ذات الأبنية الروائع التي روضت بالزخارف ترويض الأزهار، ورفعت

---

(١) رسائل ابن الأثير/ ١٤٩.

(٢) المصدر نفسه/ ١٥٠.

(٣) المصدر نفسه/ ١٥٠، ١٥٢-١٥٣.

(٤) المصدر نفسه/ ١٥٣.

(٥) المصدر نفسه/ ١٥٤.

معاقدها حتى كادت النجوم توحي إليها بالأسرار" وكأنها "إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد".(١)

ويصور الصخرة المشرفة تتحدث عن الجمع بينها وبين الحجر الأسود يخاطب الإسلام، "والجمع بين الأختين في مثل هذا الأمر حلال". كما يصور الأقصى ينطق بأول آية من سورة الإسراء.

وبهذا الفتح عاد للأقصى والقدس عهد الفتح الأولى، وجدد به الإسلام "عهود ابن خطابه"(٢).

القدس في كتاب الفتح القدسي للعماد الأصفهاني:

صنف العماد الأصفهاني كتاباً يتحدث فيه عن الفتح القدسي بقيادة صلاح الدين، وسماه "ألفيح القسي في الفتح القدسي"، وابتدأه بأحداث سنة الفتح، وهي سنة ٥٨٣هـ، حيث تم الفتح في السابع والعشرين من رجب، من السنة المذكورة. وقد تحدث فيه عن الفتوح التي سبقت فتح القدس وبشرت به، ومنها فتح طبرية، وعكا، والناصرة، وصفورية، وقيسارية، ونابلس، والفولة، وتبنين، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وعسقلان، وغزة، والداروم(٣)، كما تقدم.

ثم تحدث عن فتح بيت الله المقدس، ووصف يوم الفتح، وخروج الفرنج من القدس، وخلاص القدس من احتلالهم. ووصف بيت المقدس والأقصى والصخرة، ومحراب داود، وتحدث عن إنشاء المدارس فيها.(٤)

---

(١) رسائل ابن الأثير/ ١٥٥.

(٢) المصدر نفسه/ ١٥٥.

(٣)ينظر الفتح القدسي/ ٨٥-١١٥.

(٤) المصدر نفسه/ ١١٦.

إزالة الآثار التي أقامها الصليبيون في القدس:

وبعد تحرير القدس تسليما، أمر السلطان بإظهار المحراب، وكان الداوية قد بنوا في وجهه جداراً، وتركوه مخازن للغلال، كما بنوا داراً وسيعة غربي القبلة. ثم نصب المنبر، وفرشت البسط، "وعلقت القناديل، وتلي التنزيل"، وأقيمت الصلوات. ونشطت الحركة الفكرية، وعادت إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال، يقول العماد: "وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدث الرواة، وروى المحدثون..، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء"، ونال شرف الخطبة الأولى في القدس بعد تحريره، محيي الدين أبو المعاني محمد بن زكي الدين. ثم رتب السلطان في المسجد الأقصى خطيباً استمرت خطبته في الأقصى بالقدس(١).

ويصف العماد الصخرة المعظمة، فيذكر أن الفرنج كانوا قد بنوا عليها كنيسة، "وزينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان". وبعد التحرير، أمر السلطان بإزالة ذلك كله. ورتب فيها "إماماً من أحسن القراء تلاوة، وأزينهم طلاوة..، وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر". ووقف عليه داراً وأرضاً وبستاناً". وخصص للأقصى والصخرة مصاحف، ورتب قَوَمَةً تقوم على مصالحها. ثم أمر صلاح الدين بترخيم الأقصى(٢).

العناية بالمقدسات في القدس:

ويتحدث العماد عن العناية البالغة بالمقدسات الإسلامية في القدس، ويذكر في هذا المجال، أن "الملك المظفر تقي الدين عمر" ابن أخت صلاح الدين، "حضر يوماً في قبة الصخرة" ومعه أحمال من ماء الورد، ومال للصدقة والعطاء، وتولى كنس

(١) ينظر: الفتح القدسي/ ١٣٧–١٤٠ ، كتاب الروضتين٢/١٠٧–١٠٩،١١٣.

(٢) ينظر: الفتح القدسي/ ١٤١–١٤٣، كتاب الروضتين، ٢/١١٣.

الساحات، وغسلها بالماء مراراً، وحمل مع آلـة في تطهير البقعة المباركة طول يومه. وشارك في مثل تلك العناية "الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الديـن)، و(الملـك العزيز عثمان ابن صلاح الدين)، وترك الأخير خزانة سلاحه بالقدس.[1]

ويصور العماد المسجد الأقصى في حديثه هذا عن تحرير القدس، فيذكر بأن المسجد "المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله المعشر بعد المعشر". ويضيف إلى ذلك مصوراً معالم قدسية القدس بقوله: "وهو أول القبلتين، وثاني البيتين، وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال، وتعقد الرجاء بها الرجال". كما ورد في حديث العماد الأصفهاني[2]. ويسترسل العماد في الحديث عن فضائل المسجد الأقصى، فيذكر أن "له فضائل ومناقب لا تحصى، ومنه كان الإسراء، ولأرضه فتحت السماء". ويسترسل في الحديث عن معالم قدسيته. ومن ذلك تصويره الصخرة المشرفة بأنه كان "منها منهاج المعراج لها القبة الشماء التي هي على رأسها كالتاج" ومنها تعالت القدم النبوية، وصلى النبي فيها بالنبيين، ومنها صعد إلى أعلى عليين[3].

ومن الأماكن التي يذكرها في هذا المجال: البراق، وباب الرحمة، ومحراب داود، وعين سلوان.

(١) ينظر: الفتح القدسي/ ١٤٣،١٤٤، كتاب الروضتين،٢/١١٤.

(٢) الفتح القدسي/ ١٢٢، كتاب الروضتين ٢/٩٤.

(٣) الفتح القدسي/ ١٢٢، ١٢٣، كتاب الروضتين ٢/٩٤.

المنشآت النبوية والصلاحية في القدس، ومنشآت أخرى:

- **المنبر القدسي في المسجد الأقصى (أمر بصنعه نور الدين زنكي):**

يذكر العماد الأصفهاني أنه بعد تحرير القدس، أمر السلطان صلاح الدين" بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حسنه وترميمه، ووضع منبر رسمي في أول يوم قضى به الفرض". ورأى السلطان أن الأقصى بحاجة إلى منبر "حسن رائق، بحسنه لائق، وبجماله شائق" كما يقول العماد، فذكر صلاح الدين "المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة". وأمر أن يكتب إلى حلب لإحضار المنبر للمسجد الأقصى، وتم ذلك، وأحضر المنبر، وأصبح منبر الأقصى. ويصفه العماد بأنه "جاء كالروض النضير، والوشي الحبير، عديم النظير"[(١)]. وكان نجار في حلب يعرف بالأختريني[(٢)]، وكان بارعاً في صنعته، متفرداً فيها، أمره نور الدين بعمل منبر لبيت المقدس، "فجمع الصناع، وأحسن الإبداع، وأتمه في سنين".[(٣)] ويحدثنا العماد في كتابه هذا كيف كان المسلمون آنذاك يستبعدون عودة القدس إلى حظيرة الإسلام، وذلك لسوء الأوضاع التي كانوا عليها. ثم تم الفتح بعد الاستمرار في طريق الجهاد، وتحقيق الوحدة بين مصر والشام والجزيرة الفراتية. وبذلك " ظهر سر الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة، وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصر والنعمة"[(٤)].

ويذكر العماد في كتاب آخر أن النجارين والصناع والمهندسين أبدعوا في تركيب المنبر إحكاماً وتزيينا. ويضيف بأن ذلك المنبر قد بقي "بجامع حلب منصوباً،

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٢.

(٢) الأختريني: ينسب إلى ضيعة يقال لها أخترين (ينظر: كتاب الروضتين ٢/١١٢).

(٣) كتاب الروضتين ٢/١١٢.

(٤) المصدر نفسه ٢/١١٢.

سيفا في صوان الحفظ مقروباً"، حتى أمر السلطان. "بالوفاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى موضعه القدسي"[١].

- **محراب داود:**

يصف العماد محراب داود في القدس، فيذكر أنه في حصن عند باب المدينة، وموضع عال، ويذكر أن السلطان قد عني به، ورتب له إماماً ومؤذنين وقواما". ووصف المحراب بأنه "مثابة الصالحين، ومزار الغادين والرائحين"[٢].

- **المدرسة الصلاحية والرباط الصلاحي:**

ويحدثنا العماد عن إنشاء السلطان صلاح الدين المدرسة الصلاحية المنسوبة إليه، ورباط للصوفية كما يبدو في قوله: "وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباط للصلحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب الأسباط، وعين دار البطرك، وهي بقرب كنيسة" القيامة للرباط، ووقف عليها أوقافاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف[٣].

كما يحدثنا عن معالم الحركة العلمية في القدس، حيث عادت إلى نشاطها بعد زوال الاحتلال، كما يقول متحدثا عما جرى بعد فتح القدس: "فما ترى إلا قارئاً باللسان الفصيح، وراوياً للكتاب الصحيح، ومتكلماً في مسألة، ومتفحصاً عن مشكلة، ومورداً لحديث نبوي، وذاكراً لحكم مذهبي، وسائلاً عن لفظ لغوي ومعنى نحوي، أو مقرضاً بقريض، أو طالباً لمدحة، أو طالباً لمنحة..، أو ناشداً بنشيد، أو مسمعا بتغريب وتغريد"[٤].

(١) كتاب الروضتين ٢/١١٢،١١٣.
(٢) الفتح القدسي/ ١٤٥، كتاب الروضتين ٢/١١٤.
(٣) الفتح القدسي/ ١٤٥، ٦١٢، كتاب الروضتين ٢/٩٨/ ١١٤.
(٤) الفتح القدسي/ ١٥١، ١٨٢.

كنيسة القيامة:

ويصف العماد الأصفهاني في كتابه "الفتح القدسي" كنيسة القيامة،على ألسن الفرنج ففيها "صور الحواريين[١] في حوارهم، والأحبار[٢] في أخبارهم، والأقساء في مجامعهم" وفيها" المائدة والحوت"[٣] وغيرها. ويصور تعلق الفرنج بها، ودفاعهم عنها، ولكن ذلك بدا غير مجد أمام "إقبال العساكر الناصرية" لتحرير القدس والأقصى[٤].

ويذكر العماد أنه قد أمر بإغلاقها، وأن الناس قد تفاوضوا في شأنها، وقال أكثر الناس بأنه "لما فتح أمير المؤمنين عمر ﷺ القدس في صدر الإسلام، أقرهم على هذا المكان، و لم يأمرهم بهدم البنيان"[٥]، وهكذا كان عمل صلاح الدين اقتداء بصنيع عمر بن الخطاب.

ويحدثنا العماد في كتاب له أن النصارى الساكنين بالقدس بذلوا مع القطيعة[٦] الجزية "ليسكنوا ولا يزعجوا، ويؤمنوا ولا يخرجوا"، وأقر من "قسوس النصارى أربعة قوام" للقيام بأمر كنيسة القيامة. وأقام في القدس وأعمالها ألوف من النصارى، "شمروا وعمّروا، وعرّشوا وغرّسوا، فلهم منها مجان وقطوف" كما يقول العماد[٧]. ويذكر العماد أن صلاح الدين بقي في القدس حتى يوم الجمعة في الخامس والعشرين من شعبان سنة ٥٨٣هـ[٨].

---

(١) الحواريون: أصحاب عيسى عليه السلام، وهم اثنا عشر حواريا (الفتح القدسي/ ١١٨، ح٣).

(٢) الأحبار: مفردها حبر، وهو العالم (الفتح القدسي/ ١١٨، ح٤).

(٣) مفردها قس.

(٤) المائدة التي أنزلها الله تعالى من السماء معجزة لعيسى عليه السلام (ينظر: الفتح القدسي)/١١٨ح٤،٥،٨)

(٥) ينظر: الفتح القدسي/ ١٤٦، كتاب الروضتين ١١٥/٢.

(٦) وفق ما اتفق عليه بين المسلمين والفرنج.

(٧) كتاب الروضتين ١١٥/٢.

(٨) كتاب الروضتين ١١٩/٢، ٢٠٠.

ونستكمل الحديث عن المراسلات والمفاوضات بين السلطان صلاح الدين، والملك ريتشارد، ملك الإنكليز، حول القدس، كما ورد في هذا الكتاب (الفتح القدسي)، في موضعه المناسب في الحديث عن القدس بعد الفتح القدسي، بعد سنة ٥٨٥هـ.

القاضي الفاضل يطلب توسيع جامع الطور في القدس:

كتب القاضي الفاضل رسالة باسم أهل القدس، ووجهها إلى السلطان صلاح الدين، وطلب منه توسيع الجامع القائم في جبل الطور شرقي القدس، فاستجاب صلاح الدين إلى ما طلبه القاضي الفاضل باسم القدس وأهلها، وجدد الجامع المذكور ووسعه(١).

القدس في الخطبة القدسية - ٤ شعبان ٥٨٣هـ:

يذكر العماد الأصفهاني أنه في يوم الجمعة الرابع من شعبان، تقدم صلاح الدين "في المسجد الأقصى ببسط العراص، وإخلائها لأهل الإخلاص، وتنظيفها من الأدناس". وكان قد أمر بإظهار المحراب القديم، وبإزالة ما أحدثه الداوية من الفرنج في المسجد كما تقدم.

ويحدثنا عن العديد من الفضلاء البلغاء، والعلماء الأتقياء، وقد تقدموا لنيل شرف الخطبة الأولى في المسجد الأقصى بعد تحريره من الاحتلال. ولما حضر السلطان "صلاة قبة الصخرة، بادية على أساريره أسرار سروره". عين القاضي محيي المعين أبا المعالي محمد بن علي القرشي، الزكي بن الزكي، للصلاة والخطبة، وبذلك فاز ابن الزكي

(١) مجموعة مراسلات للقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن بصاقة. (في مكتبة عيسى اسكندر المعلوف، عن المفصل في تاريخ القدس/١٨١).

بالسبق. ويعود ذلك إلى ما حدث به السلطان عن التنبؤ بالفتح القدسي، كما تقدم. ويعد هذا تكريماً لابن الزكي.

يستهل ابن الزكي خطبته بالتحميد، وهو أمر طبيعي، فقد حمد الله بعد "تطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره". ويبشر المسلمين "برضوان الله لما يسره الله على أيديهم "من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع، وأن يذكر فيه اسمه"، وهو بيت أسس على التقوى[1].

ويصور الخطيب الفتح القدسي فضيلة لا يجارى جند الإسلام فيها مجار، ولا يباريهم في شرفها مبار، فيقول مخاطباً أولئك الجند، مركزاً على الجماعة، وليس على الفرد: "فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية". ومن الواضح أن الخطيب يربط بين الفتح القدسي العظيم والفتوح السابقة الحاسمة في تاريخ الإسلام والمسلمين. ومما يزيد ذلك جلاء، ربطه بين الفتح القدسي الصلاحي، والفتح القدسي العمري، كما يربط بينه وبين القادسية واليرموك، فيقول: "جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية".[2]

ويسترسل الخطيب في الحديث عن الفتح، فيصوره نعمة أنعم الله بها على المسلمين، وهو "الفتح الذي فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، كما يقول ابن الزكي ناظراً إلى قول أبي تمام في قصيدته في وقعة عمورية:

فتحٌ تَفتّحُ أبوابُ السماءِ له ... وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ[3]

(١) كتاب الروضتين ٢/١٠٩.

(٢) المصدر نفسه ٢/١١٠، ١١١.

(٣) ديوان أبي تمام ١/٤٦.

ويصور الخطيب التهاني بهذا الفتح بين أهل الغبراء -الأرض-، وأهل الخضراء - السماء، بل إنها بين أهل السماء أكثر منها بين أهل الأرض. وكيف لا يكون ذلك، وهو الفتح الذي "قربه عينا الأنبياء والمرسلون"[1]؟

ويركز الخطيب في خطبته على بيت المقدس فيتحدث عن المقدسات فيه، كما تحدث عن فضائله ومعالم قدسيته، فيقول مخاطباً جند الإسلام: إنه محل الإسراء ج، وهو "موطن أبيكم إبراهيم، وهو "قبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء ، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحي...، وهو في المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين"، المسجد الذي صلى فيه نبينا بالملائكة المقربين[2].

ويؤكد الخطيب هذه المعاني في خطبته غير مرة، مستمداً من حديث رسول الله، فيقول: "وهو أول القبلتين وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه". وهو البيت الذي "عظمته الملوك، وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم"[3].

وبهذا الفتح أهدى جند الإسلام إلى القدس ومقدساته "طيب التوحيد، ونشر التقديس والتحميد"، وأماطوا عن طرقه الشرك[4].

ويدعو الخطيب جند الإسلام، ومنهم صلاح الدين، إلى الحفاظ على القدس وغيرها مما حرروه من أيدي المحتلين، كما يدعوهم إلى الاستمرار في الجهاد للتمكن من "حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض المحتلة.

(١) كتاب الروضتين ١١١/٢.
(٢) المصدر نفسه ١١٠/٢.
(٣) المصدر نفسه ١١٠/٢، ١١١.
(٤) المصدر نفسه، ١١١/٢.

ويحذرهم في الوقت نفسه من اتباع الهوى، كما يحذرهم من البطر بما أحرزوه من الانتصارات العظيمة[1].

مجلس وعظ يعقده زين الدين بن نجا[2] في القدس – ٤ شعبان ٥٨٣هـ:

وفي يوم الجمعة ذاتها، في الرابع من شعبان، وبعد أداء صلاة الجمعة: "نصب سرير الوعظ"، وتقدم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليعظ الناس، "وينفع بعظاته الصغير والكبير". وكان ذلك المجلس، كما يصفه العماد "أنور مجلس ومجلى، وأشرف جمع ومجمع، فحقق ورفّق، وأشهد وأشهق، وخلق بعباراته الحلوة العبرات)[3].

وتحدث زين الدين في خطبته في ذلك المجلس عن تحرير القدس ومقدساته، يقول العماد: "وذكر الفتح وبكارته، والقدس وطهارته، والصخرة وإصراخها..، والرحمة وبابها من باب الرحمة، والجنة وجفاها لهذه الأمة، وما أعده الله لهذه الطائفة، وما أنزله من الأفق على القلوب الخائفة".

ودعا زين الدين في مجلسه إلى الاستمرار في الجهاد لتحرير سائر ديار المسلمين، وأشاد بالسلطان فاتح القدس[4].

(١) كتاب الروضتين، ١١١/٢.

(٢) أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الحنبلي. ولد بدمشق سنة ٥٠٨هـ، ونشأ فيها، وهو سبط الشيخ أبي الفرج الحنبلي. اشتغل بالتفسير والوعظ. سكن مصر قبل دولة صلاح الدين، تبوأ منزلة جليلة في عهده: توفي في سنة ٥٩٩هـ. (ينظر تراجم رجال القرنين/ الذيل على الروضتين/ ٣٤،٣٥).

(٣) كتاب الروضتين ١٠٩/٢.

(٤) المصدر نفسه ١٠٩/٢،١١٠.

المبحث الخامس

القدس في النثر الفني بعد الفتح القدسي الصلاحي حتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ

- الفرنج يسعون إلى احتلال القدس ثانية.
- القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني يحذران من احتلال القدس ثانية.
- رسالة فاضلية للاستنجاد بملك المغرب.
- القاضي الفاضل يصور سوء الأوضاع آنذاك.
- خطبة لصلاح الدين يصور فيها الأوضاع آنذاك.
- تحصين القدس.
- العماد الأصفهاني يصف القدس في أواخر سنة ٥٨٧هـ.
- المراسلات والمفاوضات.
- صلاح الدين يعود إلى القدس لتفقد أحوالها.
- القاضي الفاضل يطلب من صلاح الدين تأجيل تأدية فريضة الحج لتولي الحفاظ على القدس.
- القدس في رسالتي "العتبى والعقبى" و "نحلة الرحلة" للعماد الأصفهاني.

الفرنج يسعون إلى احتلال القدس ثانية:

يصف ابن واصل الحموي الحالة التي كان الفرنج عليها بعد هزيمتهم في القدس وخروجهم منها، فيقول: "كان الرهبان والقسوس من حين ملك المسلمون بيت المقدس، قد لبسوا السواد، وأظهروا الحزن، وأخذهم بطرك القدس، ودخل بهم بلاد الإفرنج يطوفها بهم جميعاً، ويستنجدون أهلها، ويحثونهم على استرجاع القدس"(1).

القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني يحذران من احتلال القدس ثانية:

ويحذر القاضي الفاضل من سقوط القدس وفلسطين ثانية بأيدي الصليبيين، في رسالة كتبها على لسان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين، في اليمن، ويستنجد به فيقول: ".. فالبدار البدار، فإن لم يكن الشام له بدار، فما اليمن له بدار، والجنة الجنة، فإنها لا تنال إلا بإيقاد الحرب على أهل النار، والهمة الهمة، فإن البحار لا تلقى إلا بالبحار")(2).

ويبين القاضي الفاضل في رسالته هذه أن "الفرنج لا يسلون عما فتحنا، ولا يصبرون على ما جرحنا...، وإن لم يقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا، وكانوا لباطلهم الداحض أنصر منا لحقنا الناهض". وهم يسعون إلى احتلال القدس، فقد "كتب المستخدمون بالإسكندرية، وصاحب قسطنطينية، والثغور المغربية، ينذرون بأن العدو قد أجمع أمراً، وحاول نكراً...، وأوقدوا ناراً للحرب جعلها الله عليهم حطباً"(3).

(1) مفرج الكروب ٢/٢٨٨.

(2) كتاب الروضتين ٢/١٣٦.

(3) المصدر نفسه ٢/١٣٦.

ويبين العماد الأصفهاني، أن ملك الألمان قد خرج من بلاده، بجيوش كثيرة العدو والعدة، لاسترداد القدس، كما يقولون" ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق بغيتهم تلك، كما ورد في رسالة العماد، في حوادث سنة ٥٨٥هـ[١].

وفي حوادث ٥٨٦هـ، يصور العماد، في إحدى رسائله، كيف كانت القدس غاية يقصد الفرنج العودة إليها. ويقال إنهم "حرموا الملاذ على أنفسهم... حزناً على بيت المقدس". ويذكر أنهم، لما دخلوا قونية[٢]، وأحرقوها، أنفذوا إلى السلطان "قلج أرسلان" قائلين: "إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنما ثرنا لثأر بيت المقدس"، وطلبوا منه الهدنة فهادنهم[٣].

رسالة فاضلية للاستنجاد بملك المغرب:

لقد كان تحرير القدس أهم الأهداف التي كان المسلمون يرنون إلى تحقيقها، وتمثل ذلك في صنيع قادتهم من أمثال صلاح الدين. ويبدو هذا الهدف واضحاً في رسالة للقاضي الفاضل على لسان صلاح الدين، إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، في سنة ٥٨٥ هـ، مستنجداً به عندما كان المسلمون يقاتلون الفرنج حول عكا.

ويتحدث الفاضل في رسالته هذه عن تطهير بيت المقدس من الاحتلال، أو "ممن كان يعارض برجسه تقديسه، ويزعج ببناء ضلاله تأسيسه" كما يقول الكاتب.

ويصور الفاضل القدس قبل احتلالها جنة إسلام، فأصبحت مكانا لإبليس بعد احتلالها، كما يبدو في قوله: "وما كان إلا جنة إسلام، فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنة، وأعقبهم فيها إبليس الكفر وما أجارته مما أعقبه اللعنة، وما كانت لنا بذلك قوة بل لله القوة، ولا لنا على الخلق مِنّة بل لله المنة".

(١) كتاب الروضتين ١٥١/٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦.
(٢) قونية: في تركيا اليوم.
(٣) كتاب الروضتين ١٥٥/٢.

وبتحرير القدس، "فُكت الصخرة من أسرها، وخف ما كان على قلب الحجر الأسود بخفة ما كان على ظهرها". كما يقول الكاتب. ويحمد الله بعد أن "أحرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط، وطهرها ماطرٌ من دم الكفر وما كان ليطهرها البحر المحيط"، كما يصور القاضي الفاضل.

ويبين الفاضل أن الأمر قد تحول عما كان عليه، فقد سعى الفرنج سعيا حثيثا لاسترداد القدس كما يقولون، وجاءت نجداتهم تترى، ولهذا كان الاستنجاد بملك المغرب أمرا مقضيا، للحفاظ على القدس وعكا وغيرهما مما حرره المسلمون بقيادة صلاح الدين.(١)

وعندما اشتد أمر الفرنج على عكا، وفي الثامن والعشرين من شعبان سنة ٥٨٦هـ، كتب القاضي الفاضل رسالة إلى ملك المغرب "يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن" عن صلاح الدين، يستنجد به على الفرنج، يصور فتح بيت المقدس "مِنَّة الله العظمى" التي أنعم الله بها على المسلمين. ويدعوه فيها إلى الجهاد للحفاظ على ديار الإسلام في عكا والقدس وغيرهما من ديار الإسلام، فيقول: "فالبدار البدار أيها الأمير.."(٢).

ويشير في الرسالة إلى هنائه بفتح القدس: "وكان وقت المواصلة، وموسم المكاتبة هناؤه بفتح البيت المقدس، وسكون الإسلام منه إلى المقيل والمعرس" كما يقول القاضي الفاضل(٣)، ولكن دون جدوى، فلم يستجب ملك المغرب إلى "ما التمس منه من النجدة".(٤)

(١) ينظر: صبح الأعشى ٥٢٦/٦-٥٣٠.

(٢)ينظر: كتاب الروضتين ١٧٠/٢-١٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ١٧٢/٢.

(٤) المصدر نفسه، ١٧٤/٢.

القاضي الفاضل يصور سوء الأوضاع:

وفي كتاب فاضلي كتبه القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين، وهو على عكا، في سنة ٥٨٦هـ، يصور سوء الأوضاع، وكان القاضي الفاضل آنذاك في الديار المصرية، "يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وتتمثل تلك الأوضاع في حديث القاضي الفاضل عما كانت الحالة عليه في القدس وغيرها، في فصل الشتاء من ذلك العام، وكأن النوازل البشرية قد تضافرت مع النوازل الطبيعية لتزيد الأوضاع سوءاً هناك، يقول: "المملوك ينهي أن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان بادية، والمظالم في كل موضع فاشية"، إلى أن يقول:

"وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمشيئة الله به حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه، بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة، بأنه على صفة تقشعر منها الأجساد..".

وبسبب تلك المنكرات التي ظهرت، والخراب الذي حل، كما يقول القاضي الفاضل، نجم عدم قدرة على مرمة "قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتها، وبفقدهما في أشتية القدس العظيمة الجليلة المثلجة، لا يؤمن سقوطهما، وافتضاح القدرة في العجز عن إعادتهما، والمرمة أقرب تناولاً من الإنشاء والتجديد".(١)

(١) كتاب الروضتين ٢/١٦٦، وينظر: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ١٩٩، ١٧٠.

خطبة لصلاح الدين يصور فيها الأوضاع:

وتجدر الإشارة هنا إلى خطبة لصلاح الدين ارتجلها مخاطباً جند الإسلام، داعياً إياهم إلى الاستمرار في الجهاد للحفاظ على القدس وغيرها من ديار الإسلام، ومحذراً إياهم في الوقت نفسه من النكوص، كما يبدو في قوله: "إنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم، والعياذ بالله، طوى البلاد كطي السجل الكتاب، وكان ذلك في ذمتكم".

ولكن بعض قادة المسلمين خافوا أن يحصروا ويجري عليهم ما جرى على أهل عكا، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام، ورأوا لقاء الفرنج بدلاً من الحصار، فإذا انتصر المسلمون "انخفضت بلاد الإسلام بعساكرها مدة نفير القدس".

وقيل: وكان عند السلطان "من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال".

ثم اختلف الفرنج في "الصعود إلى القدس والرحيل إلى بلادهم"، وأصبحوا في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين نحو الرملة، ناكصين على أعقابهم[1].

عبد اللطيف البغدادي يصف مجلس صلاح الدين لتحصين القدس:

يصف عبد اللطيف البغدادي مجلساً من مجالس صلاح الدين في القدس، وهو مجلس كان قد شارك فيه القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، وكان السلطان معتنياً عناية شديدة بتحصين القدس للحفاظ عليها من رجوع الفرنج إلى احتلالها ثانية، يقول البغدادي: وأول ليل حضرته في القدس "وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم"، وكان صلاح الدين فيه "يأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقه في ذلك

(١) ينظر: كتاب الروضتين ١٩٨/٢، ١٩٩.

بكل معنى بديع. وكان مهتماً في بناء سور القدس وحفر خندقه، يتولى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الناس الفقراء والأغنياء، والأقوياء والضعفاء، حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر".(١)

أظهر الفرنج قصد القدس آنذاك، ورحل السلطان إليه "بنية المقام، في الثالث والعشرين من ذي القعدة" سنة ٥٨٧هـ، وكان الفصل شتاء في بدايته، ونزل بدار الأقساء المجاورة كنيسة القيامة. وفي الثالث من ذي الحجة وصل عسكر من مصر، وتحول الفرنج إلى النطرون، وجرت مناوشات بين الطرفين. ثم وصل رجال من الموصل للمشاركة في التحصين وإعداد العدة.

وشرع صلاح الدين في "تحصين القدس، وعمارة أبراجه وأسواره، وحفر خنادقه، وأرسل إلى البلاد في جمع" الرجال. وعمل السلطان في ذلك بنفسه، "هو وأولاده وأمراؤه وأجناده، ومعهم القضاة والعلماء والولاة والأمراء(٢)".

وفي قصد الفرنج القدس، وكان صلاح الدين فيها، يقول الرشيد بن بدر النابلسي، معرضاً بالفرنجة، ومشيداً بصلاح الدين، وداعياً للحفاظ على القدس ومنع العدو من احتلالها ثانية:

ويحَ الفرنجةِ بل ويلَ أمهم أو ما ... فيهم لبيبٌ على العِلاّت يعتبرُ

إلى أن يقول:

فحامِ عن حوطةِ البيتِ المقدّس لا ... خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر

هو الشريفُ وقد ناداك معتصماً ... فما على مجده من بعدها حذر

---

(١) الإفادة والاعتبار/ ١٥١.

(٢) ينظر: كتاب الروضتين ٢/١٩٤.

وسوف تستغفرُ الأيام هفوتها وتحصد الفئةُ الأوغادُ ما بذروا[1]

ويذكر العماد أنه في ذي القعدة من سنة ٥٨٧هـ، لم يشك المسلمون أن الفرنج قد عزموا على قصد القدس، ولذلك توجه السلطان صلاح الدين إلى هناك. ووصل إليها في الثالث والعشرين من الشهر نفسه، ونزل بدار الأقساء"، وشرع في تحصين المدينة، حيث حفرت الخنادق، وجددت الأسوار والأبراج. وقد شارك صلاح الدين نفسه في ذلك، كما شارك فيه أخوه العادل وأولاده وأمراؤه، واجتمع لذلك العلماء القضاة والصوفية، والعسكر، والرعية،[2] كما تقدم.

وبقي صلاح الدين مقيماً في القدس مستهل سنة ٥٨٨ هـ، وعمل على زيادة تحصينها، ومن ذلك أنه قد شرع في إنشاء سور جديد. وجد في حماية الصخرة المقدسة، ووقف "ثلث نابلس وأعمالها لصالح البيت المقدس، وتشييد ركن سوره"، وذلك لحماية القدس من تكرار محاولات الفرنج إعادة احتلالها[3].

ويصف العماد تلك المحاولات الفرنجية لاحتلال القدس ثانية، في كتاب كتبه على لسان صلاح الدين، إلى الديوان العزيز في بغداد، ويبين فيه أن الأمر قد آل إلى أنه "لم يستقم لهم ما سولوه في الأنفس"، وأنهم قد عادوا خائبين[4].

وفي كتاب كتبه العماد الأصفهاني إلى ديوان الخلافة في بغداد، على لسان صلاح الدين[5]، يتحدث عن عودة السلطان إلى القدس، والشروع في "ترتيب قاعدته في ولايته وعمارته"، وتفويض الولاية إلى "عز الدين جرديك".

(١) كتاب الروضتين، ١٩٤/٢.

(٢)الفتح القدسي/ ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٥.

(٣)المصدر نفسه/ ٥٨١، ٥٨٧، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٧. كتاب الروضتين ٢٠٩/٢، ٢٢٨.

(٤)الفتح القدسي ٦٠١، ٦٠٥.

(٥)المصدر نفسه/ ٦٠٣-٦٠٥، وينظر: ٦٠٨، ٦١٠، كتاب الروضتين/ ٢٠٣.

ويذكر بأن صلاح الدين كان قد زاد في أوقاف المدرسة الصلاحية، وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار" بقرب كنيسة القيامة، بيمارستانا للمرضى، واتخذ فيها حاجات أصحاب الأمراض على اختلافها تقضى"، ووقف عليها أوقافا، "وسير أدوية وعقاقير عزيزة الوجود إليها، وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء، الدين يوسف بن رافع بن تميم". وطلب منه البقاء فيها لعمارة البيمارستان وإدارة المدرسة الصلاحية، ويخبرنا القاضي بن شداد أنه خرج من القدس يوم الجمعة في الثالث والعشرين من المحرم(١).

ويصف العماد القدس آنذاك بأنها كانت، في أواخر سنة ٥٨٧هـ، "من أحسن المدن وأحصنها وأحكمها". ويتحدث عن معالم قدسيتها، فهي " مقام الأنبياء والمرسلين، ومقر الأولياء والصديقين، وموضع معراج سيد المرسلين".(٢)

كما يتحدث عن ولاية القدس، ويذكر من تولاها آنذاك كما تقدم، وأثبت نص كتاب تعيين الوالي فيها، وهو "حسام الدين سياروخ النجمي".

وأتبع ذلك بالحديث عن تحرير القدس والأقصى من الاحتلال الصليبي(٣).

ودخلت سنة ٥٨٨هـ، والسلطان صلاح الدين مقيم بالقدس، وكان مستمراً في تحصينها، وقد ذكر العماد الأصفهاني بأنه "قسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده، فشرعوا في إنشاء سور جديد، محدق به مديد"، وشارك في العمل والتحصين، و"جدَّ في حماية الصخرة المقدسة".(٤)

واستمرت محاولات الفرنج للرجوع إلى القدس، وفي جمادى الآخرة صح عزمهم

(١)الفتح القدسي/ ٦١١، ٦١٢، كتاب الروضتين٢/٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٢، ٢٢٤،٢٢٥.

(٢) الفتح القدسي/ ٥٧٨.

(٣) المصدر نفسه/ ٥٧٩، ٥٨٠.

(٤) كتاب الروضتين ٢/١٩٦.

على قصدها بقيادة ملك الإنكليز، ولذا تقدم صلاح الدين إلى أمرائه" بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ في إفساد المياه ظاهر القدس، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلاً"[١]، كي لا يستفيد الفرنج من ذلك، وتوصف أرض القدس بأنها "لا يطمع في حفر بئر فيها ماء معين، في جميعها لأنها جبل عظيم، وحجر صلب"[٢].

ويذكر أن المسلمين رأوا أن "المصلحة الاجتماع عند الصخرة، والتحالف على الموت"[٣]، للدفاع عن الصخرة والأقصى والقدس كلها.

المراسلات والمفاوضات مع الفرنج:

ويتحدث العماد الأصفهاني عن الهدنة التي عقدت بين السلطان صلاح الدين وملك الإنكليز ريتشارد، في سنة ٥٨٨هـ، ويبين أنها قد عقدت "في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان"، من السنة المذكورة، الموافق الأول من أيلول، لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر[٤].

يتحدث العماد في كتابه الفتح القدسي عن المراسلة بين ريتشارد ملك الإنكليز والعادل أخي صلاح الدين، حول القدس، فقد ترددت الرسل أياماً، على أن يتزوج الملك العادل بأخت ملك الإنكليز، ويقيما في القدس، "ويرضي العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى، ولا يمكنهم من الحصون التي في الذرى، ولا يقيم معها في القدس إلا قسيسون ورهبان". وكان ذلك في سنة ٥٨٧هـ، قبل التاسع

(١) الفتح القدسي/ ١٩٧، ١٩٨.

(٢) كتاب الروضتين٢/١٩٨.

(٣) المصدر نفسه ٢/١٩٨.

(٤) الفتح القدسي/ ٥٥٥-٥٥٧، كتاب الروضتين ٢/٢٠٠، ٢٠٤.

والعشرين من رمضان. ولكن هذا الأمر لم يتم الاتفاق عليه[1].

وفي كتاب فاضلي، ورد حديث عن القدس والمفاوضات بشأنها بين ملك الإنكليز ريتشارد والسلطان صلاح الدين، فقد أرسل ريتشارد إلى صلاح الدين قائلاً:

" إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد، وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن"، فأجابه السلطان: "القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم"، ويصوره كتاب السلطان بأنه "مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها".

وفي الثامن عشر من شوال اجتمع الملك العادل، أخو صلاح الدين، مع ريتشارد ملك الإنكليز، "وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان"، فامتنع، وقال: "الملوك إذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك".[2]

وطلب رسول ملك الإنكليز "أن يكون في قلعة القدس عشرون نفراً، وأن من سكن من النصارى والفرنج في البلدة لا يتعرض لهم". وقيل إن الرسول أخبر "من عند نفسه مناصحة، أنهم قد نزلوا عن حديث القدس ما عدا الزيادة"، وأنه ليس على الزوار شيء يؤخذ منهم[3].

وأرسل الفرنج رسولين نصرانياً وفرنجياً يطلبان الصلح، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته، فأجابوا إلى ذلك"، ثم حاول العدو المخادعة إلى أن تصل نجدة يقوون بها، فرفض

(١) كتاب الروضتين ٢/٢٠٤.

(٢) كتاب الروضتين ٢/١٩٣،١٩٤، وينظر: النوادر السلطانية.

(٣) كتاب الروضتين ٢/٢٠٠.

صلاح الدين، وانتهى الأمر بطلبهم الأمان، فأعطوا الأمان على قطيعة القدس[١].

وانتظم الصلح، ونودي في الأسواق: "من شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل إلى بلادهم فليفعل". وكان يوم الصلح يوماً مشهودا، وغشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور الكثير. ووصل كثير من الفرنج إلى القدس للحج، وبذلك يقضون وطرهم من الزيارة، ويرجعون إلى بلادهم[٢].

صلاح الدين يعود إلى القدس لتفقد أحوالها:

وعاد صلاح الدين، بعد السلم، إلى القدس "لتفقد أحواله، وعرض رجاله، واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها". وزاد في وقف المدرسة "سوقاً بدكاكينها، وأرضاً ببساتينها". ورتب أحوال الصوفية فيها[٣].

القاضي الفاضل يطلب من صلاح الدين تأجيل تأدية فريضة الحج لتولي الحفاظ على القدس:

ورأى القاضي الفاضل وغيره من أركان الدولة، والمسلمون عامة، وجوب الحفاظ على القدس. وفي هذا السياق، قيل إنه "لما بلغ القاضي الفاضل، من قبل السلطان، أنه عازم على الحج، كتب إليه مشيراً بتبطيله، لأن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام، ولا سلوا عن القدس، ولا وثق بعهدهم في الصلح"، ولذلك يخشى أن يسري العدو ليلة فيصبحوا القدس على غفلة، فيدخلوا إليه، والعياذ بالله، ويفرط من يد الإسلام، ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغفر، ومن العثرات التي لا تقال" كما تقدم.[٤]

(١) المصدر نفسه ٢/ ٢٠٠، ٢٠٢.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢٠٢، ٢٠٨.

(٤) ينظر: الروضتين ٢/ ٣٠٥.

ويذكر في هذا الصدد ما قاله العماد الأصفهاني مخاطباً السلطان صلاح الدين: "هذه البلاد إذا سافرت تركتها على ما بها من الشعث، وهذه المعاقل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتر بعقد الهدنة"، فالغدر شأنهم، واستجاب صلاح الدين لما طلب منه، وأجل الحج إلى سنة قادمة، وشرع في "ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته".(١)

ويذكر، في حوادث سنة ٥٨٩هـ، في كتاب للعماد، أن السلطان أو ابنه "قدم امر بيت الله المقدس وعجل له عشرة آلاف مصرية لتصرف في وجوه ضرورية، ثم أفاض عليه بالحمل، وأفاض عليه من الفضل...، ووالى حمل الغلات من مصر والقدس، وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفائه بالأنس". ووجه التجهيزات من العساكر إلى القدس(٢).

القدس في رسالتي "العتبى والعقبى" و"نحلة الرحلة" للعماد الأصفهاني:

بعد وفاة صلاح الدين في سنة ٥٨٩هـ، تأثرت القدس بما كان يجري من صراع بين أولاده وأخيه العادل، بل بين الأيوبيين بصورة عامة. ويتحدث العماد الأصفهاني، في رسالته العتبى والعقبى" عن ذلك، ويبين أن القاضي الفاضل رأى أن أمور الأفضل ابن صلاح الدين كانت مختلة، وأن وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري، شرع في "تفريق العصبة الناصرية". كما يبين أنه قد أشير على الأفضل بإخلاء القدس لنواب الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، "حذراً من تكاليفه وأثقاله"، فاستجاب الأفضل إلى ذلك. ويتضح هذا كله في رسالة العماد المذكورة، كما يتضح في رسالته الأخرى المسماة "نحلة الرحلة"(٣).

ويبين العماد أن الأمور قد تغيرت، فقد تسلم القدس "أبو الهيجاء السمين" بأمر الأفضل والعادل، فرتب فيها نوابه، وأسكنها أصحابه(٤).

---

(١) ينظر الروضتين ٢/٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) المصدر نفسه ٢/٢٢٥.

(٣) العقبى والعقبى / عن الروضتين ٢/٢٢٨، نحلة الرحلة عن الروضتين ٢/٢٣١.

(٤) المصدر نفسه ٢/٢٣٠، ٢٣٤.

المبحث السادس

القدس في النثر الفني في ظل التراجع بعد وفاة صلاح الدين

- تخريب القدس سنة ٦١٦هـ.
- التنازل عن القدس سنة ٦٢٦هـ.
- مجلس لسبط ابن الجوزي في الجامع الأموي للتنديد بفعلة السلطان الكامل.
- الملك الناصر داو يكتب إلى عز الدين بن عبد السلام مصورًا سوء الأوضاع.

الفتح القدسي الثاني:

- القدس في النثر الفني في سنة تحريرها ثانية سنة ٦٣٧ هـ.
- التنازل عن القدس مرة أخرى سنة ٦٤١هـ.
- تحرير القدس سنة ٦٤٢هـ.
- القدس في النثر الفني سنة تحريرها ثالثة سنة ٦٤٢هـ .

القدس وحملة لويس التاسع:

- رسالة لويس التاسع إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب.
- رد الملك الصالح نجم الدين أيوب على لويس التاسع بقلم البهاء زهير.

القدس في النثر الفني في ظل التراجع بعد وفاة صلاح الدين:

◻ تخريب القدس في سنة ٦١٦هـ:

يذكر أبو شامة المقدسي أن بيت المقدس لم يزل محاطاً بالعناية، وبالعمارة والتحصين، منذ تحريرها سنة ٦١٦هـ، فقد خرب في مستهلها، خوفاً من استيلاء الفرنج عليه، بعد خروجهم وانتشارهم في البلاد، ففيها نزلوا على دمياط، وهي المرة الأولى التي نزلوا فيها عليها.(١)

ويذكر ابن شداد أن الملك الكامل في مصر، طلب من أخيه الملك المعظم عيسى، أن "يعطيه القدس..، ليعطيها للفرنج عوضاً عن دمياط، فأسرّها في نفسه"، ثم خربها الملك المعظم(٢)، فقد خرب أبراجه وأسواره، "وكانت قد صارت في غاية العظمة والوثاقة، فإنه من حين استنقذه الملك الناصر صلاح الدين..، مازالت فيه العمارة قائمة، فكان كل برج من أبراجه نظير قلعة". وهدمها "ما خلا برج داود عليه السلام (٣)".

ويذكر أن صدى هذا الحدث كان كبيراً، فقد "وقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات، والبنات، والشيوخ، والعجائز، والشبان، والصبيان، إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم، بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى، من الشعور، وخرجوا هاربين، وتركوا أموالهم وأثقالهم، وما شكوا أن الفرنج تصحبهم، وامتلأت بهم الطرقات".(٤)

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٢٠٥، ٢٠٦، تراجم رجال القرنين.. الذيل على الروضتين/١١٥.

(٢) الأعلاق الخطيرة- لبنان والأردن وفلسطين/٢٢٣.

(٣) مفرج الكروب ٤/٣٢؟.

(٤) تراجم رجال القرنين/ الذيل على الروضتين ٢/١١٥، ١١٦. وينظر: بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية/ ٢٢٧،٢٢٨.

وكانت القدس آنذاك، قبل تخريبها" على أتم الأحوال، وكثرة السكان.[١]

وكان الخطيب في القدس "محمد بن المبارك القرقساني".[٢] وقد عبر عن موقفه من الحدث، وصور أحاسيسه ومشاعره شعراً، وهو ما لا مجال للحديث عنه هنا.

وكان صدى هذا الحدث في الأدب غير كبير، ويقتصر على قصيدة لمحمد بن المبارك القرقساني، وثلاث مقطوعات أخرى[٣].

التنازل عن القدس سنة ٦٢٦هـ:

يذكر ابن واصل الحموي، في حوادث سنة ٦١٨هـ، أنه "كما قوي أمر الفرنج واستفحل بالديار المصرية، واصل الملك الكامل كتبه إلى اخوته وأهل بيته يحثهم على سرعة الحركة والقدوم عليه في العساكر الإسلامية لدفع العدو عن مصر"، واستجاب إليه عدد من اخوته وأهل بيته"، وقدموا بعساكرهم إلى مصر[٤].

وفي الوقت نفسه، كانت رسل الفرنج تتردد لتقرير قواعد الصلح بين الطرفين، ومما يستغرب أن نجد الملك الكامل يعرض على الفرنج التنازل لهم عن بيت المقدس وغيره من الفتوح الصلاحية مثل "عسقلان، وطبرية، واللاذقية وجبلة، وجميع ما فتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين من الساحل، ما عدا الكرك والشوبك، ليسلموا دمياط، ويرحلوا عن الديار المصرية". ولكن الفرنج لم يقبلوا بذلك كله! وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن الأسوار التي خربت بالقدس، ليعمروه بها، واشترطوا

(١)تراجم رجال القرنين (الذيل على الروضتين)/ ١٠٦، شفاء القلوب/ ٣٠٥، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية/ ٢٣١.

(٢) ينظر: عقود الجمان لابن الشعار الموصلي (خ) ٦/٢٦٠-٢٦١.

(٣) ينظر : بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية/ ٢٣١،٢٣٢.

(٤) ينظر: مفرج الكروب ٤/٩٢-٩٥.

التنازل عن الكرك والشوبك أيضاً، و لم يتم الأمر بين الطرفين.[1] فتأمل!

ومما يدعو إلى العظة والاعتبار، قول ابن واصل: "واضطر المسلمون إلى قتالهم ومصابرتهم"، فانتصروا، وسلمت القدس والبلاد الساحلية، في هذا العام (٦١٨هـ)[2].

إن التنازل عن القدس وغيرها للعدو الصليبي مقابل الانسحاب من دمياط، يدل على الضعف الذي استفحل في مصر والشام آنذاك، نتيجة للصراع الذي كان قائماً في البيت الأيوبي.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أنه في حوادث سنة ٦٢١هـ، طلب والد ابن واصل الحموي من الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، "المقام بالقدس الشريف لينقطع فيه للعبادة"[3]. ويدل هذا الصنيع على مظهر من مظاهر التعلق بالقدس، والتبتل فيها، ولا غرو في ذلك، فهي مدينتنا المقدسة، موطن الإسراء والمعراج، والقبلة الأولى، وفيها المسجد الأقصى والصخرة المشرفة. ومسجدها هو الذي تشد إليه الرحال. وأصر والد ابن واصل على التوجه إلى القدس، فاستجاب له الملك المعظم، بعد توقف، وفوض إليه التدريس في المدرسة الصلاحية في القدس. ومضى ابن واصل ووالده إلى القدس، في أوائل سنة ٦٢٢هـ، وأقاما فيه. وكانت المدرسة الصلاحية "دار علم قبل أن يملك الفرنج القدس، كما يذكر ابن واصل الحموي. وكان يدرس فيها نصر بن إبراهيم المقدسي قبيل احتلال القدس[4].

ودرس ابن واصل في القدس، وقرأ على والده، كما قرأ على الشيخ شمس الدين ابن رزين البعلبكي[5]، وقرأ عليه الإيضاح لأبي علي الفارسي، وجود عليه القرآن

(١) مفرج الكروب ٩٥/٤.
(٢) مفرج الكروب ٩٥/٤، شفاء القلوب/ ٣٠٦، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٢٠٩/٧.
(٣) مفرج الكروب ١٤١/٤.
(٤) ينظر: مفرج الكروب ١٤١/٤،١٤٢، ٤٠٧/٢، المختصر في أخبار بني البشر ٤٠٧/٢، تتمة المختصر ٨٣/٢.
(٥) ينظر: مفرج الكروب ٢١١/٤،٢١٢.

الكريم. وشارك ابن واصل في مجالس عقدها الملك المعظم عيسى خارج الصخرة الشريفة. وبقي ابن واصل الحموي ووالده في القدس حتى سنة ٦٢٦هـ، حيث جرى التنازل عنها للفرنج.(١)

وعاد الملك الكامل يعرض التنازل عن القدس للامبراطور فردريك ثانية، بسبب الصراع المستمر في البيت الأيوبي، "ووعده أن يعطيه القدس وبعض الفتوح الناصري". فقصد الامبراطور الساحل. وكان والد ابن واصل مقيماً في القدس بالمدرسة الصلاحية، فناب عنه ابنه في التدريس(٢).

وفي السنة التالية قدم الإمبراطور إلى عكا، وفي سنة ٦٢٦هـ، جرى التنازل عن القدس إلى الإمبراطور فردريك، على أن تبقى خراباً، والأقصى والصخرة بيد المسلمين، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة. ووقعت هدنة بين الطرفين، ونودي بخروج المسلمين من القدس، فعظم "ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل" فعلته الشنيعة هذه(٣).

مجلس لسبط ابن الجوزي في الجامع الأموي:

عقد شيخ الإسلام شمس الدين يوسف بن جمال الدين بن الجوزي مجلساً في الجامع الأموي بدمشق، وشنع فيه على الملك الكامل، وفي ذلك المجلس حضر ابن واصل الحموي(٤).

وفي مجلس ابن الجوزي ذاك، تحدث سبط ابن الجوزي عن فضائل القدس، وما

(١) مفرج الكروب ٤/٢٤١،٢٤٢، كتاب الروضتين ٢/٢٠٥-٢٠٦، مرآة الزمان ج١ ق٢/٦٥٦-٦٥٧، المدارس في بيت المقدس ١/٢١٢،٢١٣.

(٢) مفرج الكروب ٤/٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨.

(٣) المصدر نفسه ٤/٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٤٣.

(٤) المصدر نفسه ٤/٢٤٥، ٢٤٦.

ورد فيه من الأخبار والآثار. ونفّر الناس من الملك الكامل، وشنع عليه.

ويرثى سبط ابن الجوزي القدس وأهلها، بعد التنازل عنها فيقول: "انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، وكم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيونا لما وفت، ولو انقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت".

أحسن الله عزاء المؤمنين. يا خجلة ملوك المسلمين. لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تتقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات"(١) وهو بهذا يرثي القدس وأهلها، ويرثي الحالة التي آل إليها المسلمون آنذاك.

استمرت الهدنة بين المسلمين والفرنج، والملك الكامل يتبادل الرسائل مع الإمبراطور فردريك، واستمر النزاع في البيت الأيوبي(٢).

ولعله يحسن التمثل هنا بقول القاضي الفاضل، بعد وفاة صلاح الدين، متحدثا عما آل إليه البيت الأيوبي، ومصوراً ما تسببه ذلك للقدس والمسلمين، يقول: "أما هذا البيت الأيوبي، فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا أغرب نجم فما الحيلة في تشريقه، وإذا بدا تخريق ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على قدر طريقه، وقد قُدِّر طروقه"(٣).

---

(١) ينظر: مرآة الزمان ج١ ق٦٥٤/٢، مفرج الكروب ٢٤١/٤ وما بعدها، شفاء القلوب/ ٣١١-٣١٣، كنز الدرر الدر المطلوب ٢٩٣/٧-٢٩٤، الأنس الجليل ٤٠٦/١-٤٠٧، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية/ ١٨٥-١٨٨، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية/ ٢٣٩.

(٢) ينظر : مفرج الكروب ٢٤٦/٤، مرآة الزمان ٦٨٥/٨.

(٣) كتاب الروضتين ٢٣١/٢-٢٣٢.

الملك الناصر داود يكتب إلى عز الدين بن عبد السلام مصوراً سوء الأوضاع:

كتب الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى رسالة[1] إلى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام (وكان هذا الأخير في مصر)، يدعوه فيها إلى حث الملوك على التعاضد والوحدة، والابتعاد عن الخلاف والفرقة، لتحرير القدس المحتلة.

يذكر الناصر داود أن الفرنج قد "اجتمعوا على باطلهم"، ونزلوا بعسقلان، وشيدوا ما وَهَى من مبانيها. ويتحدث عن جهاد والده، واستنجاده بالملك الصالح نجم الدين أيوب، صاحب مصر، دون جدوى تذكر، في الوقت الذي سلط فيه الفرنج القتل والأسر على نابلس، ورموا أهلها بقاصمة الظهر، وبذلك "أعضل الداء، وعز على اللديغ الشفاء" كما يقول الناصر نفسه[2].

ويشكو الناصر داود إلى العز بن عبد السلام "ما لقي الإسلام من إهلاك النسل والحرث"، ويدعوه إلى أن يحث الصالح نجم الدين على فرض الجهاد لإعلاء دين الله، وتحقيق النصر، وتحرير ديار الإسلام المحتلة[3].

ويصور الناصر داود مصيبة المسلمين في نابلس، وهي تلك المصيبة التي "قتلت فيها المشايخ والشبان، وسببت الخلائل والصبيان"، واستولى الفرنج على الأموال والغلال. ويرثي الكاتب لحال المسلمين آنذاك، مصوراً ما حل بهم وبدينهم، كما يبدو في قوله: "فيا لها من فجيعة أبكت العيون، وأنكت الجفون، وهجمت على القلوب"، مما دعاه إلى أن يتمنى الموت قبل أن يرى ما يحل بالإسلام والمسلمين، فيقول شعراً مؤكداً ما قاله نثراً:

---

(١) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية/ ١٣٣-١٣٨.

(٢) المصدر نفسه/ ١٣٣، ١٣٤.

(٣) المصدر نفسه/ ١٣٤، ١٣٥.

ألا ليت أمي أيِّمٌ طول عمرها   فلم يَقضها ربي لمولىً ولا بَعْلِ
ويا ليتها لما قضاها لسيِّدٍ   لبيب أريب طيب الفرع والأصل
قضاها من اللاتي خُلقن عواقراً   فما بشرتْ يوماً بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدَتْ بي حاملاً   أصيبت بما اجتنتْ عليه من الحَمْل[1]

ويخاطب الملك الناصر العز بن عبد السلام قائلاً: "فيا أيها العز الذي كنا نظن أن الإسلام يتزيد بسعيه عزاً، وأن رقى عزائمه تكون عليه من سحر الكفار حِرْزا، لا تيقّن أنه قد عم بالشام النفير، ووجبت الغزاة على ما ينزل بالإسلام والمسلمين". ويستشهد الكاتب بقوله، ﷺ : "بدأ الإسلام غريباً، وسيرجع غريباً كما بدأ". وذلك في تصويره صبر المسلمين على احتمال ما يحل بهم من الأذى ، كما يبدو في قوله: "... وصبر في " الله على احتمال الأذى ورؤية جانبه"[2]، يقول أبو الطيب المتنبي:

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانِبـ   ـه غذاءٌ تَضْوى به الأجسامُ[3]

الفتح القدسي الثاني:

كان الملك الناصر داود يتولى "الأراضي المقدسة وأعمالها"، كما يذكر أبو شامة المقدسي، في حوادث سنة ٦٣٦هـ[4].

وكان الفرنج قد أخلوا بشروط الاتفاق الذي تم بينهم وبين الملك الكامل الأيوبي في سنة ٦٢٦هـ، وعمروا القلعة، وجعلوا برج داود من أبراجها، وقد حدث ذلك في سنة ٦٣٧هـ[5].

(١) ينظر:الفوائد الجلية/ ٢٥٤، ٢٥٥، ذيل مرآة الزمان ١٥٨/١، المختصر ١٩٦/٣، تيمة المختصر ٢٨٦/٢، شفاء القلوب/ ٣٥٨.

(٢) ينظر: الفوائد الجلية/ ١٣٥-١٣٨، ذيل مرآة الزمان ١٥٨/١، شفاء القلوب/ ٣٥٨.

(٣) ديوان المتنبي، ٩٣/٤.

(٤) تراجم رجال القرنين (الذيل على الروضتين)/ ١٦٧.

(٥) ينظر: مفرج الكروب ٢٤٦/٥، شفاء القلوب/ ٣٥١، الأنس الجليل ٥/٢، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية/ ٥٠٥.

ودعت البابوية إلى حملة صليبية للاستمرار في احتلالهم القدس، ولاقت تلك الدعوة استجابة، ووصلت إلى عكا في السنة ذاتها.[1]

وفي هذا العام –٦٣٧هـ– يذكر الناصر داود، في رسالته إلى الخليفة العباسي، أنه قد انتهز الفرصة، وتوجه إلى القدس، وحاصر القلعة، ونصب المنجنيقات، وبقي يحاصرها مع عساكره، إلى أن طلب الفرنج الأمان، فمنحهم أماناً، وسمح لهم بالرحيل، وهدم القلعة، وأعاد القدس إلى حظيرة الإسلام[2].

ويشيد الأمجد الأيوبي ابن الملك الناصر داود، بصنيع والده، فيصور هذا الموقف واحداً من مواقف والده المشهودة في الإسلام، ويبين أن والده قد "جعل دأبه المحاماة عن الإسلام وأهله"، وأنه "نصير دين الله فارتضاه له ناصراً، وطهر به وبسميه بيته المقدس أولاً وآخراً"، كما ورد في حديثه عن والده تحت عنوان: "شيء من مآثره وكرم خلاله"، وذلك في المقدمة الطويلة التي قدم بها الأمجد لرسائل والده وشعره، وهو "الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية"[3].

(١) ينظر : تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/٣٣٧٠، الحركة الصليبية ٩٨٧/٢، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية/٢٠٥.

(٢) الأعلاق الخطيرة–لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٥، مفرج الكروب ٢٤٧/٥، شفاء القلوب/.٥١، الأنس الجليل ٥/٢، تاريخ الحروب الصليبية–رنسيمان ٣٧٣/٣–٣٧٦، الحركة الصليبية ٩٨٧/٢، بيت المقدس في ادب الحروب الصليبية/ ٢٠٥–٢٠٨.

(٣) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية/ ٧٥، وينظر: ٥١–٨٢.

القدس في النثر الفني في سنة تحريرها ثانية سنة ٦٣٧هـ:

□ رسالة للملك الناصر داود إلى الخليفة العباسي يهنئه بتحرير القدس

كتب الملك الناصر داود[١] بن الملك المعظم عيسى، رسالة إلى الخليفة المستنصر بالله أبي جعفر المنصور الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد العباسي، في بغداد، وهي من إنشاء الناصر نفسه، يبشره بتحرير القدس، فيقول على سبيل الدعاء: "وأذاع ببركته سر النصر المصون، وأطلع البشائر ببابه يافعة الثمار، ناضرة الغصون".

ويخبر الملك الناصر الخليفة العباسي بأمر الهدنة التي كانت قد عقدت بين المسلمين والفرنج أيام الملك الكامل بن الملك العادل، "وانقضاء مدتها، وانفساخ عقدتها"، ولهذا أخلى الفرنج القدس من سكانه، وأقام به مقدم من جنودهم، وكان قد عمر قلعة القدس خلال الهدنة، وملأها بالعدد والآلات، ووصلها ببرج داود، وستروا القلعة والبرج "بالستائر المخلدة، والخشب المسندة". وأوقدوا نار الحرب، كما يقول الناصر داود، "فنزل عليهم بطائفة من عسكره، وراوحهم وغاداهم بالمناوشة في أصائل الحصار وبكره، ورجا بالمطاولة أن يسلموها من غير إراقة دم، أو قتل موحد". ولكنهم رفضوا ذلك، فقاتلهم قتالاً شديداً[٢].

ويسترسل الناصر داود في وصفه الحرب الدائرة بين الجانبين، فيقول إنه نصب عليها المجانيق التي تزاحم الحصون بمناكبها، وأحدث النقابون في الأسوار ثقوبا، "ورمى الزراقون"[٣] في الستائر نيرانا هتكت حجابها". وحقق المسلمون النصر على الفرنج، وأخذ الناصر القلعة وتسلمها، "وافترع ذروتها العليا وتسنمها، وتبرجت له أبراجها

(١)ينظر: الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية.

(٢)الأعلاق الخطيرة، لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٦-٢٢٩.

(٣) الزراقون: الذين ينصبون أنابيب النفط ويرمون بها في القتال. (ينظر: الأعلاق الخطيرة/ ٢٢٩).

المصونة وتجلت، ومدت له أرضها، فألقت ما فيها وتخلت" كما يقول الناصر نفسه. ولم يستجب الناصر لطلبهم الأمان على نفوسهم وأموالهم، ثم عادوا فطلبوا الأمان على نفوسهم فقط، فاستجاب لطلبهم[1].

وبهذا الفتح القدسي الثاني، "اجتمع شمل المساجد الثلاثة": المسجد الأقصى، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، "بما منح الله من التأييد"، وافترق "شمل تثليث الشرك باجتماع ثلاثة التوحيد، وعطف الله على حزب الإيمان بالنصر، وعاد على حزب الطغيان بالكسر"[2].

ويصف الناصر برج داود، فيصوره في عظمته ومنعته وارتفاعه، وأناقة بنائه وإحكامه، فيقول: وهو برج عظيم المقدار والحجم، مبار في المنعة الجبل وفي الرفعة النجم، ينقلب البصر عن نظره خاسئاً وهو حسير، ويتهم الراوي في خبره ولو أنه به خبير، قد بني بالصفاح والعمد[3]. وتأنق بانوه في إحكامه"[4].

ويبالغ الكاتب في وصف حصانة البرج ومتانته، فيقول مستلهما القرآن الكريم في وصفه البرج: "وهو من أسفله إلى ثلثه قد صبت فيه الحجر والكلس صباً، وردم بقوة لو حضره يأجوج ومأجوج ما استطاعوا أن يظهروه ولا استطاعوا له نقبا". ويبالغ حين يقول: "كأنه استعان في إتقانه بجن سليمانه"[5].

ويحدثنا الملك الناصر داود أن كاتبه "فخر الدين بن بصاقة"[6] كتب رسائل إلى

(١) الأعلاق الخطيرة/ ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١.

(٢) المصدر نفسه/ ٢٣١.

(٣) الصفاح: حجارة عريضة رقيقة. العمد: اسطوانات من الرخام.

(٤) الأعلاق الخطيرة–لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٥) المصدر نفسه/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٦) أبو الفتح فخر الدين نصر الله من هبة الله بن محمد بن عبد الباقي بن بصاقة الغفاري المصري الناصري، من أصحاب الناصر داود ووالده. وزر في عهديهما. شاعر كاتب خطيب. ولد في قوص سنة ٥٧٩هـ، وتوفي في دمشق سنة ٦٥٠هـ. (ينظر: الفوائد الجلية/ ٩٦وما بعدها، فوات الوفيات ٤/١٨٧-١٩٢، عقود الجمان لابن الشعار الموصلي ٩/٤٩-٥٩، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية /٢٠٨-٢٠٩.

الخليفة والملوك والأمراء يبشرهم بهذا الفتح القدس الثاني سنة ٦٣٧هـ. ومنها رسالة إلى الخليفة العباسي يتحدث فيها عن الملك الناصر داود وعساكره، ومحاصرتهم القدس، يقول فيها: "وجرد إليهم جماعة من عسكر الديوان تشهر عليهم الصواعق من نصالها...، ونصب عليهم المجانيق التي تزاحم الحصون بمناكبها". وكان السبق فيها للمنجنيقات وصخرها(١).

▫ التنازل عن القدس مرة أخرى سنة ٦٤١هـ:

استمر النزاع في البيت الأيوبي، ففي سنة ٦٣٩هـ، اقتتل عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب، وعسكر الملك الناصر داود، في جبال القدس، وقد هزم أولهما(٢). ثم أدى هذا الاقتتال إلى الاستعانة بالفرنج، إذا اتصل بهم الملك الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، وطلب الوقوف معه ضد نجم الدين ايوب، وتنازل لهم عن الشقيف وصفد(٣): فأنكر عليه ذلك العز بن عبد السلام، وجمال الدين بن الحاجب(٤).

وأدى هذا النزاع في البيت الأيوبي إلى التنازل عن القدس، فقد اتفق الملك الصالح إسماعيل مع الفرنج على "تسليم البيت المقدس إليهم"، ودخل الفرنج القدس، وتسلموا الصخرة والأقصى. ويذكر ابن واصل الحموي أنه دخل القدس في تلك السنة (٦٤١هـ)، ورأى فيه الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة، وعليها قناني الخمر، ورأى جرساً معلقاً بالأقصى(٥).

(١) ذيل مرآة الزمان ١٤٣/١.
(٢) مفرج الكروب ٣٠٠/٥، ٣١.
(٣) مفرج الكروب ٣٠١/٥، ٣٠٢، مرآة الزمان ٧٤٥/٨، تراجم رجال القرنين (الذيل على الروضتين)/ ١٧٠، بيت المقدس في ادب الحروب الصليبية/ ٢٧١.
(٤) مفرج الكروب ٣٠٢/٥، ٣٠٣، تراجم رجال القرنين/ الذيل على الروضتين)/ ١٧٠، مرة الزمان ٧٣٢/٨.
(٥) مفرج الكروب ٣٣٢/٥، مرآة الزمان ج١، ق٢/ ٧٤٥، ٧٤٦، الأعلاق الخطيرة– لبنان والأردن وفلسطين/ ٢٣٤، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية / ٢١٨، ٢١٩.

وكان الملك الناصر داود نفسه واحداً ممن تنازلوا عن القدس. يقول مجير الدين العليمي الحنبلي: "وكان الناصر داود فتح بيت المقدس سنة ٦٣٧هـ، ثم فعل هذه الفعلة القبيحة".(١)

◻ تحرير القدس سنة ٦٤٢هـ:

يذكر في حوادث سنة ٦٤٢هـ، أن الفرنج لما سمعوا بمقدم الخوارزمية الذين كان قد استعان بهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، أدركوا الأخطار التي تحيط بهم، وعمل البطرك ومقدما الداوية والاسبتارية على تعزيز حاميتهم هناك، ولكن دون جدوى. ولما وصل الخوارزميون إلى القدس، هاجموها واقتحموها، وأعطى الفرنج الأمان على أن يسلموا القلعة. وعادت المدينة إلى حظيرة الإسلام/ والمسلمين(٢).

القدس في النثر الفني في سنة تحريرها ثالثة (٦٤٢هـ):

وبعد تحرير القدس، للمرة الثالثة، في سنة ٦٤٢هـ، كتب أحدهم(٣) رسالة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، مبشراً ومهنئاً بهذا الفتح القدسي الثالث، وهو ما يمكن أن يوصف بالفتح القدسي النجمي، يقول: "ولا زالت البشائر تؤم جنابه – السلطان– وتنتحيه، والبصائر تشكر فعله وترتضيه، والأولياء تقصد حسن بشره وإحسان بره".

ويتحدث الكاتب في رسالته هذه عن إخلاء الفرنج القدس من السكان، وأنه لم يبق فيه إلا "طاغية من طغاتهم، وداهية من دهاتهم، كان في مدة الهدنة قد بذل في

(١) الأنس الجليل ٩،٦/٢، ١٠.

(٢) مفرج الكروب ٣٣٦/٥، ٣٣٧، الأعلاق الخطيرة/ ٢٣٤، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية/ ٢٢٠.

(٣) ذكر أنها للقاضي الفاضل، وهي ليست له لأنه كان قد توفي، ينظر: مجموعة مراسلات للقاضي الفاضل (؟) والعماد الأصفهاني، وفخر الدين بن بصاقة– عن المفصل في تاريخ القدس/ ١٩٠، ١٩١.

عمارة قلعتها غاية الاجتهاد، وجنى لها ثمرات الأموال من جميع البلاد". وشحنها بالذخائر والأزواد، وشجع طائفة من الفرسان، واستحلفهم على الموت، فأطاعوه وبايعوه، وعاثوا في البلد فسادا، يقطعون الطريق، ويرمون النار.

ويبين الكاتب في رسالته أن أولئك الفرسان قد "عمدوا إلى القلعة والبرج، فحفوهما بالستائر وآلات القتال، وشحنوهما بالعدد والذخائر والرجال"، وبهذا توجه المملوك (الملك الصالح نجم الدين أيوب) إلى القدس، ونزل عليها بعسكره، و"طاولها لعله يتسلمها بالأمان، كما سلمت بالأمس، وقصد أن لا يراق بها دم مسلم"، ولكن الفرنج رفضوا وأصروا على الممانعة، فقاتلهم، ونصب المنجنيقات، ورماهم بها، ورمى الزراقون النار في ستائرهم، ودخل النقابون من أسوارهم. ولما رأى الفرنج أن الحرب قد اشتدت أوزارها، طلبوا الأمان على نفوسهم، وبذلك "قنعوا بالإياب، وراوه نعم الغنيمة". فاستجاب لهم المملوك، كما يقول الكاتب. ومكنهم من الخروج بأنفسهم، واستولى المسلمون على ما في القلعة والبرج من العدد والذخائر[1].

وتحسن الإشارة هنا إلى أن مقدم الخوارزمية الذين جاهدوا لتحرير القدس الأمير حسام الدين بن بركة خان.

ويذكر أن الملك الصالح نجم الدين أيوب زار القدس سنة ٦٤٤هـ، وقيل ٦٤٦هـ، فتصدق على فقرائها، واعتنى بعمارة سورها[2].

القدس وحملة لويس التاسع:

لقد تعددت الحملات الصليبية للرجوع إلى القدس واحتلاله ثانية، وعندما قدمت الحملة الصليبية السابعة فلسطين، بقيادة لويس التاسع، في سنة ٦٤٧هـ، أرسل إلى

(١) مجموعة مراسلات... عن المفصل/ ١٩٠،١٩١.

(٢) ينظر: النجوم الزاهرة ٣٥٤/٦، المفصل، في تاريخ القدس/ ١٩١.

الملك الصالح نجم الدين أيوب، رسالة مهدداً بقوله: "وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، ما رد في ذلك عن الوصول إليك، وقتالك في أعز البقاع عليك"، إلى أن يقول: "وقد عرفتك وحذرتك فرد عليه السلطان بكتاب كتبه البهاء زهير بن محمد، الشاعر المعروف،(١) يقول فيه مهدداً ومفتخراً: "وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه"، ويصفه بالغرور، ويذكره بالفتوحات الإسلامية ضد الفرنج، وأنه سيعض على أنامله بالندم، "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب منقلبون".

ويختتم الكتاب بقوله: "فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة "النحل": "أتى أمر الله فلا تستعجلوه"(٢). وكن على آخر سورة "ص"، ولتعلمن نبأه بعد حين. ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾(٣)، وإلى قول الحكماء: إن الباغي له مصرع، وبغيك مصرعك(٤).

وبقيت مدينة القدس بأيدي المسلمين تابعة للملك الصالح نجم الدين أيوب.

(١) ينظر: السلوك ١/٣٣٣، ٣٣٤، المفصل في تاريخ القدس/ ١٩٢.

(٢) النحل آية ١٦.

(٣) البقرة آية ٢٤٩.

(٤) السلوك ١/٣٣٥، المفصل في تاريخ القدس/ ١٩، ١٩٣.

ثبت المصادر والمراجع

- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الإشارات إلى معرفة الزيارات، أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي، عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل، طومين، دمشق، ١٩٥٣م.
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ابن شداد، عز الدين محمد بن علي، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، عني بنشره وتحقيقه د. سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
- الإفادة والاعتبار، عبد اللطيف البغدادي.
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، قاضي القضاة أبو اليمن مجير الدين العليمي الحنبلي، عمان، ١٩٧٣م.
- إنشاءات القاضي الفاضل، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، تحقيق د. فتحية النبراوي.
- الاعتبار، أسامة بن منقذ، حرره فيليب حتى، مطبعة جامعة جونستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠م.
- بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، د. عبد الجليل عبد المهدي، دار البشير، عمان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، د. عبد الجليل عبد المهدي، دار البشير، عمان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، د. كامل جميل العسلي، عمان، ١٩٩٢م.
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، كراتشكوفسكي، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين

هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٥٧م.

- تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان، نقله إلى العربية، الباز العريني، دار الثقافة، بيروت.
- تتمة المختصر (تاريخ ابن الوردي)، إشراف وتحقيق أحمد رفعت البدراوي –دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- الحركة الصليبية، د. سعيد عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة.
- الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، د. عبد الجليل عبد المهدي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر، تحقيق د. أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ١٣٧٨هت/ ١٩٥٩م.
- ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، الطبعة الثانية، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق د. محمد عبده عزام، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.
- ديوان أسامة بن منقذ، حققه وقدم له د. أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥٣م.

- ديوان التدبيج، الحكيم عبد المنعم الجلياني (مخطوطة، ولدي نسخة منه).
- ديوان الحكم وميدان الكلم، الحكيم عبد المنعم الجلياني، تحقيق فخري كتاني، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة.
- ديوان المبشرات والقدسيات، الحكيم عبد المنعم الجلياني، جمع وتحقيق ودراسة، د. عبد الجليل عبد المهدي، دار البشير، عمان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين) ابو شامة المقدسي، دار الجيل، بيروت.
- ذيل مرآة الزمان، الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني البعلبكي، الطبعة الأولى، حيدر آباد الركن.
- رسائل ابن الأثير (ضياء الدين)، حررها وحققها أنيس المقدسي، بيروت، ١٩٥٩م.
- رسائل عن الحرب والسلام، من مرسل القاضي الفاضل، اختيار موفق الدين بن الديباجي، تحقيق د. محمد نغش، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- رسائل قرة بن شربل (برديان).

- (كتاب) الروضتين في أخبار الدولتين، ابو شامة المقدسي، دار الجيل، بيروت.
- سفر نامة، ناصر خسرو، نقلها إلى العربية د. يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠م.
- سنا البرق الشامي، ابو الفتح البنداري، تحقيق د. فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٧٩م.
- شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- شفاء القلوب في أخبار بني أيوب، أحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد، من منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أبو العباس القلقشندي، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

- صلاح الدين وعصره، ترجمة ممدوح عدوان، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٣م.
- صلاح الدين، ليونز وجاكسون، نقله إلى العربية د. علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م.
- طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- العتبى والعقبى (رسالة) للعماد الأصفهاني، مطبوعة مع كتاب الروضتين، دار الجيل، بيروت.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الإبياري، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٢هـ، ١٩٥٢م.
- عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أصيبعة، شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
- الفتح القدسي للعماد الأصفهاني، شرح وتقديم وتحقيق محمد محمود صبيح، الدار القومية للطباعة والنشر.
- الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية، الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى، تحقيق د. ناظم رشيد، الطبعة الأولى، بغداد، ١٩٩٢م.
- فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر بيروت.
- القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، د. هادية دجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٣م.
- قانون التأويل، الإمام القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي، دراسة وتحقيق محمد السليماني، جدة/ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- الكامل في التاريخ، عز الدين بن الأثير، دار صادر، بيروت.
- كنز الدرر، وجامع الغرر، الدواداري، ابو بكر عبد الله بين أيبك، ج٧ (الدر المطلوب في أخبار بني ايوب)، تحقيق د. سعيد عاشور، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م.
- اللزوميات (لزوم ما لا يلزم)- أبو العلاء المعري- الطبعة الأولى مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م.
- المختصر في أخبار بني البشر، أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، الطبعة الأولى، حيدر آباد، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ابن واصل الحموي، جمال الدين محمد، نشره د. جمال الدين الشيال (ج١، ٢،٣)، ود. حسنين محمد ربيع (ج٤و٥).
- المفصل في تاريخ القدس، عارف العارف، مكتبة الأندلس، القدس، ١٩٦١م.
- منامات الهراني ومقاماته ورسائله، الوهراني، الشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن محرز، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، مراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي.
- نحلة الرحلة (رسالة) للعماد الأصفهاني، مطبوعة مع كتاب الروضتين دار الجيل، بيروت.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري، حققه د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- وفيات الأعيان، شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن خلكان، حققه د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

انتفاضة الأقصى في الأدب

مراثي محمد الدرة في الشعر نموذجاً

أ. د. أحمد الخطيب

قسم اللغة العربية -جامعة البترا

ليس من اليسير الآن تقديم دراسة بعنوان "انتفاضة الأقصى في الأدب"؛ لأن الأنواع الأدبية السردية من قصة قصيرة، ورواية، ومسرح تتأخر استجابتها عن الشعر، فهي بحاجة إلى وقت أطول في معايشة الحدث الضخم، لتقوم من ثَمَّ برصد أثره على نسيج الحياة، وشبكة العلاقات الاجتماعية والإنسانية. والشعر وحده هو الأقدر على مواجهة سخونة الحدث وجدته. وهذا ما لاحظناه إبان الانتفاضة الأولى، وها نحن ذا نراه مجددا في انتفاضة الأقصى.

لذا، آثرنا أن يظل العنوان كما اقترحته اللجنة التحضيرية للندوة، ولكن على أن ينصب جهدنا على التجارب الشعرية التي كان الشهيد "محمد الدرّة" محورها. ولم يعدْ خافياً أن الفتى الدرة قد غدا رمزا لهذه الانتفاضة، وجسدت القصائد التي خصته بالاهتمام والرثاء صورة لحركة شعر انتفاضة الأقصى المباركة.

لقد كان للباحث شرف التصدي لجمع فيض الشعر العربي، الذي جاء استجابة للانتفاضة الأولى، تلك الوثبة التاريخية المشهودة، ومن ثم تمحيصه ودرسه، مقدِّما بذلك "ديوان الانتفاضة"، تلك الوثيقة التي وضعت بين أيدي المهتمين صورة لحركة شعر الانتفاضة.

وطالما نحن بصدد الحديث عن التجارب الشعرية، التي كان الفتى الشهيد محمد الدرّة محورها، وهي تجارب جاءت تلبية لانتفاضة الأقصى التي تفجرت بتاريخ ٢٨/٩/٢٠٠٠م، وما زالت متقدة بعد مرور سبعة أشهر على تلك البداية يحضرنا القول بأن المد الشعري الذي واكب الانتفاضة الأولى كان أكثر وأوفر من المدّ الشعري الذي رافق انتفاضة الأقصى الحالية. ولا يعد هذا تقليلا من قيمة الدور الذي تنهض به الكلمة المبدعة شعراً في دعم الحجر الفلسطيني المناضل.

فمن المعلوم أن الوثبة الأولى انبثقت من رحم اليأس، فكانت ضد توقع

المتشائمين، وأبعد وأكبر من أحلام المتفائلين، ولا سيما أن الجيل الذي حمل عبئـها هـو الجيل الذي راهن عليه العدو الصهيوني؛ فقد راهن على وعيه وولائه لأرضـه وقضيتـه. لذا، شكلت تلك الوثبة حالة شعرية غير عادية، فجاءت الاستجابات الإبداعيـة عربيـاً على نحو غير مسبوق كماً وكيفاً، فكان لتلك الانتفاضة فضل توحيد المشـاعر العربيـة، والتفاف الجمهور العربي حول القصيدة العربية بعد أن غـدا كـل مـن الروايـة والقصـة القصيرة منافساً خطيراً، زاحم القصيدة الشعرية مكانتها لدى جمهور المتلقين.

بلغ عدد القصائد التي اجتمعت لدينا ثلاثاً وعشرين قصيدة، رأينا أنها قد حققـت من شروط الجودة ما يجعلها صالحة للدراسة، واستبعدنا بعض التجارب المتواضعة فنيـاً. فقد عودتنا الصحافة العربية على نشر كل ما يصل إليها من فيـض الشـعر الانتفـاضي، انطلاقاً من دورها المقدر في إفساح المجـال أمـام تلـك التجـارب، دون النظـر إلى أسمـاء أصحابها، أو قيمتها الفنية، وحسبها دفق المشاعر النبيلة فيها وطيب النوايا.

والتجارب التي بـين أيدينـا تنتمـي إلى عـدد مـن الأقطـار العربيـة، مثـل: الأردن، وفلسطين، والعراق، والسعودية، ومنها قصيـدة مترجمـة لشـاعرة أمريكيـة. ونحـن علـى يقين بأن هناك تجارب أخرى لشعراء من أقطار عربية أخرى، لكنها لم تصل إلينا، لكن ما بين أيدينا فيه غناء عما لم تصل إليه أيدينا.

لقد تنوع شكل هذه التجارب بـين الشـعر العمـودي، وشـعر التفعيلـة، وقصيـدة النثر. وبعضها لشعراء كبار، وأخرى لشعراء معروفين، وثالثة لأصـوات شـعرية بـدأت تشق طريقها علـى دروب الإبـداع. وقـد رأينـا أن تكـون الدراسـة في محوريـن: الأول دراسة في الموقف، والثاني دراسة في التشكيل.

دراسة في الموقف:

لذا، تفاوتت هذه التجارب فنيا، كما سنرى من خلال الدراسة الفنية لها، ولكـن

ما يوحدها تمحورها حول استشهاد الفتى الدرة، وكونها تنتمي إلى الأدب المقاوم بكل مفرداته المكرسة.

فقد صدر أصحابها فيها عن موقف مقاوم، له أطيافه المتنوعة، فمن تعريض بالموقف العربي المتخاذل، إلى إدانة الهجمة الصهيونية الشرسة، إلى تصوير استشهاد "الدرة" واغتيال براءته، بالإضافة إلى الدعوة للجهاد، انطلاقاً من رؤية متفائلة بالنصر والتحرير، تصل –أحياناً– حد اليقين.

وقد كان لهذا الموقف المقاوم بأطيافه المتنوعة –كما سنرى– أثره الجلي على أدوات التشكيل لهذه التجارب على مستوى اللغة، والتصوير، والإيقاع، والبناء.

كان مشهد استشهاد محمد الدرة، وقصدية العدو في اغتيال طفولته، يشكل إدانة لصور التخاذل والعجز العربي، مما دفع ناصر شبانة لأن يصرخ قائلاً "دمي.. لا تصدق رصاص الكلام"، فكانت هذه الصيحة عنوان قصيدته، واستهلالها، وبها أختتم مقطوعاتها الخمس، وهي صرخة تقطر مرارة، وتضج بالسخرية من حالة التردي النضالي العربي، الذي يجعل الدم الفلسطيني عارياً وحيداً بلا دعم في هذه الحرب الظالمة:

يا دمي

......

فلا تنتظرْنا غداةَ غدٍ

كي نخبّئ عوراتِنا خلفَ أوراقِ

توتِ الشهامة

إنا رضينا بما قَسّم النّفطُ

للشهداءِ

من الوجباتِ السريعة.

وإذا كان ناصر شبانة قد شغل نفسه على امتداد القصيدة بهاجس تعرية الراهن

العربي، فالشاعر عباس أمير يكتفي بسطر واحد من قصيدته ليدين ويسخر معاً، فيقول مخاطباً الدرة:

ولا أحد يجير سوى ملائمةِ اللحى خلفَ الموائد.

وهذا محمد ضمرة يخاطب "الدرة" لحظة حصار الموت له، وتطلعه إلى ملاذ عربي أو معتصم:

لا تلتفتْ كلُّ الجهات حبيسةٌ ... فلأيّها ترنو سترجعُ خاليا
إنّا يتامى فالبلادُ ترمّلت ... والموتُ صار لدى القنوط مداويا
لولاك أنت لم تفجّر غيظنا ... ولما انتشلنا مَجْدَنا المتهاويا
فلقد مشينا في جنازةِ يومنا ... حيث انطرحْنا للغزاةِ مواليا

أما الشاعر السعودي عبد العزيز بن عبد الله العزاز، فتكاد تكون قصيدته كلها إدانة وتعريضاً بالتهاون والتواني العربي، مما أوقعه في المباشرة والخطابية، ومنها يقول:

فيا عرباً تعامَوْا عن عدوّ ... يكشّر عن نيوبٍ بالتياحِ
تعامَوْا، ثم ناموا، ثم ماتوا ... وشأنهم التفرّقُ والتلاحِ
ومن يطلبْ من العربِ انتخاءً ... كمنتظرِ العطايا من شِحاحِ

ويتكئ الشيخ عائض القرني على بانية أبي تمام، وبخاصة على مقدمتها الداعية إلى الأخذ بأسباب القوة، والتخلي عن "رصاص الكلام"، والخطب الجوفاء، حيث يقول:

السيف أمضى من التهريج والخطب ... في مَتْنه الحَسْمُ للبهتان والكَذِبِ
والثأر يبعثه الأبطال إنْ صَدقوا ... والموتُ بالعزّ معشوق لك أبي[1]
لا تنجد اللغةُ الفصحى مصيبتَنا ... ولا الحروف ولو كانت من الذهبِ

وفي تجربة عدنان النحوي التي بناها على حوار حميمي رهيف متخيل بين الشهيد

ووالده، وذلك حين استحكمت حلقة الموت حولهما، يقول الابن لأبيه متسائلاً:

قلتَ لي يا ابي: ملايينُ هم في الـ   أرض، نحنُ المليارُ أو قد نزيدُ
هل يرانا الأرحامُ في الأرض؟ هل هبْ   ـبَ أبيٌّ أو مشفِقٌ أو نجيدُ
أين إخوانُنا؟ وأين بنو العمْـ   ـمِ، واين الأخوالُ؟ أين الجدودُ؟

وهي تساؤلات: تصور حجم الخيبة التي تصدم هذا الفتى حين يبحث عن ملاذ، أو معتصم من أمته: العربية والإسلامية. وكأني بالشاعر يستحضر أجواء مسرحية صمويل بيكيت "في انتظار جودو". فهذا حال الفلسطيني الآن، والذي يجسده "الدرّة"، فقد وقع ضحية ما لا يجيء، ووقع ضحية شعارات مضللة، يتحمل الكبار وزرها أمام جيل المستقبل.

ويكرّس أيمن العتوم مثل هذا المعنى بقوله:

والله والله ما في العُرْبِ لو حشدوا   مليونَ مليونَ... غيرُ العدِّ والرَّقَمِ

التجارب التي بين أيدينا –في مجملها– إدانة لهمجية العدو الصهيوني، وقد سلك أكثرها سبيل المباشرة والصراحة في تصوير بشاعة هذا العدو. لكن محمود درويش يتجاوز تلك المباشرة التي وقع فيها الآخرون إلى ضرب من التعبير الإيحائي، مستغلاً تقنية المونولوج، والاستدعاء من الذاكرة، ليحدث تلك المفارقة المدهشة، التي تضعنا أمام عدو، يعد الحيوان المفترس أرقى منه سلوكاً وغريزة:

مُحَمّد
يرى موته قادماً لا محالة. لكنّه
يتذكّر فهداً رآه على شاشة التلفزيون،
فهداً قويّاً يحاصر ظبياً رضيعاً. وحين
دنا منه شمّ الحليبَ، فلم يفترسْه.

أما سائر التجارب، فقد وقعت في المباشرة حين سعت إلى تصوير بشاعة العدو وهمجيته، وربما كان أقلها مباشرة قول الشاعر العراقي علي الطائي:

سلبوا منكَ الشبابَ والشيخوخةَ مرةً واحدةً
وهم يفتحون النارَ على فتوّتك العزلاء.
كفرقة تنفيذ حكم الإعدامْ
رأيناهم يجرّون الحاضر أمام الجميع إلى القتلْ.

وكان الشاعر الفلسطيني المغترب في فرنسا (أحمد منصور) أكثرهم انشغالا بتقديم صورة العدو الهمجية، حيث يبدأ برسم صورة يتوسل لتشكيلها بلغة تتراوح بين الإيحاء والمباشرة:

شاهدتهم بالأمسِ
في عزّ نار الشمسِ
لا يرمشون الرمش
في حصد الصغارْ
لا يعرفون الحسّ
في جزّ الكبارْ.

ثم يمضي بعد ذلك إلى تقديم صورة لهم تذكرنا بدراكولا، ومصاصي الدماء، وأبطال أفلام الرعب:

فالدمُ لا يرويهمو
واللحمُ لا يكفيهمو
جباههم يا والدي لُمْعُ الفؤوسْ
تنقضّ من معاقد الرؤوس
أصداغُهم خناجرُ
عيونهم مجامرُ

أنيابُهم تبارقت حراب

تسابقت للنهش في الرقاب

ويراهم أيمن العتوم ذئاباً مفترسة لا تروضها اتفاقيات السلام، وأفاعي لا تعرف سوى الغدر خلُقا، ونوعاً دموياً من البشر، لا يفهم إلا لغة القوة:

والحالمون بترويض الذئاب كمن يروض الذئب في شعب من الغنمِ

هي الأفاعي وإنْ أغراكَ ملْمَسها فليس تنفثُ غيرَ السمِ في الدسمِ

تمُدّ كفاً إلى كفٍ ملطّخةٍ وكمْ تصيحُ بمن هم عنك في صَمَمِ

لا يسمعون سوى قرعِ السيوف ولا يُخاطَبون بغير النار والضّرمِ

واكتفت الشاعرة الأمريكية بيغي أبو جابر برميهم بالجنون، واتهامهم بالتخلي عن آدميتهم:

رجال مجنونون يقتلون الأبرياء؟

هل ثمة حلّ لهذه الثورة العارمة؟

أم أنّ قَدَر الإنسانِ أن يكونَ فريسة

لمن أغلقوا عيونهم، وصموا آذانهم

عن رؤى الطبيعة الخلابة، والسماء الزرقاء المسالمة،

وحقول القمح المرتعشة، والأزهار الفوّاحة؟

ولا ندري أهذه التقريرية مردّها إلى الترجمة، أم أنّ النص الأصلي يتحمّل هذا الوزر؟ و لم يستطع الشاعر السعودي عبد الرحمن العشماوي أن يخلّص تجربته من هذه المباشرة، والتقريرية، والبساطة في التعبير على امتداد قصيدته، وبخاصة حين يلتفت بين الحين والآخر إلى صورة العدو:

– إنّ جندياً يهودياً على الساحة عربد

وتمادى وتوعّد..
- أن جيشا من بني صهيونَ،
للإرهاب يُحشَد
إنّ نار الظلم والطغيانِ تُوقَد
أنّ آلاف الخنازيرِ
على المنبعِ تُورَد..

ولعل أجمل ما في هذه التجارب عنايتها الفائقة بتصوير استشهاد الدرة، ورسم ذلك المشهد، لا سيما وأن وسائل الإعلام: المرئية، والمسموعة، والمقروءة قد نهضت بدور مهم في ملامسة تلك المواطن العميقة الدافئة فينا، وهي تعرض صور استشهاده لحظة بلحظة، وكيف تكوّر متشبثا بخاصرة أبيه، وكيف لوح الأب بيده العزلاء المرتعشة، ولكن عبثا حاول، فقد استحكمت حلقات الموت.. وعندئذ دار بين الابن وأبيه حوار حميمي، قالا بعضه، وصاغ الشاعر العربي من وجدانه ومخيلته أكثره. إنها لحظة خاصة بكل تفاصيلها ودقائقها، وحالة شعرية نادرة، منحت الشاعر أفاقا رحبة من تجليات الإبداع.

لذا، افتنّ الشعراء في تصوير مشهد الشهادة هذا، وبرعوا في توهم حوار ما قبل الموت، أو ما قبل الشهادة، أو حوار اللحظات الأخيرة، وذهبوا إلى أبعد من ذلك، فتخيلوا ذلك المونولوج الذي دار في نفس الفتى الصغير، وهو على مشارف الشهادة، وتخوم الموت.

فمحمود درويش يعبر عن هذه اللحظة بكل زخمها في ومضة شعرية كثيفة، فصورّ الهولَ المُحْدِق، وضعفَ الصغير وخوفه، وهاجسَ الموت الذي غدا يستشعره يقينا، وذاكَ الحوار الحميمي المتخيّل بين الابن وأبيه، حيث يقول في استهلال قصيدته:
مُحَمّد

يعشّشُ في حَضنِ والده طائراً خائفا
من جحيم السماء: احمني يا أبي
من الطيران إلى فوق! إن جناحي
صغير على الريح... والضوء أسود

وفي المقطع الرابع من القصيدة تمتزج صورة العدو الهمجية مع جانب من تفاصيل مشهد الشهادة، من خلال عملية موازاة أو موازنة بين صورة فهد يحجم عن افتراس ظبي صغير، وصورة عدو لا يتورع أن يقتل صبياً في مثل عمر الدرة، وقد استعان درويش في ذلك بتقنيتي الاسترجاع والمونولوج الداخلي، وختم تلك الموازنة بقوله:

- مُحمّد
ملاكٌ فقيرٌ على قاب قوسين منْ
بندقية صيّادِه البارِدِ الدم
- كان في وُسْعِ صيّاده أن يُفكّرَ بالأمرِ
ثانيةً ويقولُ: سأتركه ريثما يتهجّى
فلسطينَهُ دون خطإٍ..

ويركّز الشاعر عدنان النحوي على حوار اللحظات الأخيرة، وبه يستهل قصيدته:

ضمّني يا أبي إليك ! فإني خائفٌ ! والرصاص حولي شديدُ
ضمّني ! واحمني ! فما زال ينصبْـ ـبُ علينا رصاصُهم ويزيدُ

وبه يمضي إلى نهاية القصدية، فيقول في المقطع الأخير منها:

يا أبي.. ! يا... ! وغابَ منه نداءٌ وطوتْهُ عنّا فيافٍ وبيدُ
أسكتته رصاصةٌ ورماه في ذراعَيْ أبيه سَهْمٌ حقودُ

فهو يرسم باللغة وعلامات الترقيم بداية الصمت الأبدي، وولوج بوابة الشهادة.

وهكذا أتاح حوار ما قبل الرحيل للشاعر النحوي أفقاً إبداعياً خصباً، فأقام تجربته على تقنية الحوار، مما منح القصيدة حيوية وشفافية، جعلته يتجاوز المألوف في شعره الموسوم بالجزالة.

ويبدو أن منظر الاستشهاد، وما رافقه من حوار، هو الذي أوحى لأحمد منصور بعنوان قصيدته "افتح لخوفي خاصرة"، وكان الحوار هو عصب تجربته، وبه استوى بناؤها. فهو يستهلها به مصورا ذلك الحوار الحميمي لحظة الاستشهاد، فيقول:

روحي تهاوَتْ ضُمّني
هبْني يديك
رشٌّ الرصاص يقُضّني
درِّعْ فؤادي ساعِدَيْك
اغرُزْني بصلبِكَ كرمةً
ما بين وادي عاتقيْك
بابا! أنا شفةٌ على قلبٍ
كمصلوبٍ عليك

ويمضي بهذا الحوار المشحون بلغة المجاز عبر مقاطع تجربته، ولا يخفى أن استخدامه لكلمة (بابا) إيماءة ذكية إلى طفولة الدرة المستهدفة بالموت.

ولا نسمع صوت الأب إلا في مستهل المقطع السابع من القصيدة، ويصر الشاعر على استخدام تلك اللغة المحكية في بلاد الشام، حيث يقول على لسان الأب:

"طَخّوك يابا"... خافقي "طخُّوا" معك

و لم يتكرس استخدام الألفاظ الدارجة في هذه التجربة أو في سواها من التجارب، علماً بأن هذا المنحى يشكل ظاهرة في تجربة شعراء المقاومة في فلسطين، هي ظاهرة لها أسبابها ودواعيها، فاستخدام شعراء فلسطين بخاصة للكثير من الألفاظ

الدارجة في أشعارهم -وإن كان لبعضها أصل في اللغة الفصحى- إنما يهدف إلى تشبثهم بجذورهم العربية الفلسطينية، وتثبيتهم لها، أمام عدو شرس، يحاول بشتى السبل اقتلاعهم من وطنهم، وطمس ملامح هويتهم(٢).

أما الشاعر محمد القيسي فلم يشغله حوار لقطة الموت، ففي تفاصيل المشهد ما يغنيه، ويثري تجربته، فقد جعل المقطع الثاني من قصيدته الطويلة تصويراً لاستشهاد الدرة، ومنه يقول:

هذا البكاء الذي لا شفيع له،
خلف متراسه الأبويِّ،
فأيّة تلويحةٍ توقف النار،
أية تلويحةٍ توقف النارَ !
يبكي مُحَمّدُ، يبكي محمّدُ، يبكي
يشدّ على الرغباتِ الأخيرةِ في دمه،
قبل أن يستكين إلى فخذِ والدهِ،
ويغطي الدخانُ المكان..

وقد وفق في تجنب الوقوع في شرك الخطابية، ولكن التجربة في اعتمادها واقعية التعبير كانت بحاجة إلى لغة أكثر كثافة واكتنازاً.

ويقدم عباس أمير صورة مدهشة لاستشهاد الدرة. فهو يفتتح تجربته بالاعتراف بتواضع الشعر أمام هذا الحدث، فيقول:

إنّ الذي سالتْ به أرضُ القصيدةِ لم يكُنْ يعني دَمَكْ،
أنّى له يعني دَمَكَ!

ويأتي هذا القول متسقا مع مقولة الشاعر عبد العزيز المقالح، حين اعتذر عن

كتابة قصيدة الانتفاضة الأولى؛ لأن أطفال الحجارة سرقوها من أقلام الشعراء، وكتبوها بالأيدي والأقدام المكسورة. فالشعر عنده لا يكتب بالكلمات، والصورة الشعرية ليست تركيبا لغويا فحسب، لكنها قد تكون موقفا عظيماً، وقد تكون حركة احتجاج صامتة(٣).

وإذا كان الآخرون قد جعلوا همهم التركيز على صوت الدرة في لقطة الموت، فهو يجعل مبتغاه صوت الأب المكلوم، الذي لا نسمع سواه على امتداد التجربة، وعلى الرغم من اتكائه على الأساليب الطلبية التي يتطلبها هذا النوع من الحوار، إلا أنه ينجح في استخدام لغة إيحائية شديدة التوتر، والاكتناز، والومض، وقد بلغ الغاية بقوله:

أألمّ ظلُّكَ في المكان، أم اقترحْتَ تقدُّمَكْ؟ ماذا ترى؟
أوَما قدِمْتُك كي أليقَ بناظريك..
وقد قرُبْتَ من البنادق قدْرَ قلبٍ
ثمّ سَرْدقْتَ الطفولةَ في يديك؟
أبني، احشر رأسك الورديّ في خصري، وعلّمْني عليك.
أبنيّ، قدمني إليك، وألجئ الحجر العنيد إلى جهاتك
أبنيّ، لُملمْني إليك إذا انكشفت،
ودُلّ أطرافي عليك.

ولعل تركيز الشاعر على صوت الأب علـى هـذا النحو هـو ضـرب مـن التحام الشاعر وتوحده مع صوت الأب، وتمثل تجربته في فقـد صغيره، وهـذا هـو الإحساس الذي سكن كل أب منا، وهو يعاين استشهاد الابن والأب عـاجز عـن افتدائه، ودفع شبح الموت عنه. إنها لحظة تفيض بزخم من التساؤلات والهواجس، لا سبيل إلى التعبير عنها إلا من خلال الشعر بكل ومضه، وامتلاء لغته واكتنازها.

ولم يوفق الشاعر عبد الرحمن العشماوي في السمو بتجربته "هـو رامـي أو محمـد(٤)"

إلى هذا المستوى، أو إلى ما هو دون ذلك. فلا نظفر في تصويره للحظة الاستشهاد بتلك المعاناة في البحث عن لغة خاصة تليق بهذه اللقطة الشعرية، حيث يقول:

هو رامي أو محمد
صورة المأساة تشهد:
أن طفلاً وأباً كانا على وعدٍ من الموت محدّد
مات رامي أو محمد
مات في حضن الأب المسكين،
والعالمُ يشهد
مشهدُهُ أبصره الناس...
وكم يخفى عن الأعين مشهدا

وهكذا ظلت لغته أسيرة دلالتها المعجمية، فلم تغادر تقريريتها وسياقاتها النثرية، ولم ترتفع إلى مستوى الموقف، فحرمت القصيدة من إيقاعها الداخلي أيضاً.

ومثل هذه البساطة في التعبير، كان تصوير الشاعر عبد العزيز بن العزام للقطة الموت، حيث يقول:

فهذا الدرّة المقتول طفلا   تمطّره رصاصٌ كالرياحِ
حماه أبوه بالجسم اتقاءً   من القتل الشنيع المستباحِ
توارى بين (برميل) وسورٍ   ولكن بادروه بانتطاحِ

ويفسح الشاعر أيمن العتوم جانبا كبيرا من قصيدته الطويلة لتصوير استشهاد الدرة، وأجمل ما جاء في تلك الصورة وصفه لتشبث الطفل -بعد إصابته- بأبيه العاجز عن حمايته، حيث يقول:

تشبّث الطفل والأنفاس لاهثةٌ   عن موج موتٍ خلال الوجه مُلْتطمِ

لعل خيط حياة سوف ينقذه   أو صرخة في سماء الموت والعدمِ
فصاح والرعب يمشي ملءَ أضلُعِهِ   أبي حبيبي.. وغام الصوتُ في الغممِ

ولكن ايمن العتوم زاد عن الآخرين في تصوير المشهد بأن تخيل وصية يكلف الفتى أباه بتبعة حملها وتنفيذها، وذلك بعد أن أيقن أنه راحل لا محالة، فيقول:

أنا سأقضي دفاعا عن حمى وطني   فإنْ أَنَمْ مَيْتا وحدي فلا تَنَمِ
وعُدْ إلى البيت واحملني لوالدتي   هديّة، إنّ هذا العيد عيدُ دمِ

ومثل هذا النهج كان صنيع موسى حوامدة، الذي ألهب مشاعره هذا الحدث، فبه افتتح قصيدته "أبي، يا أبي.. لا تنتظر كبش السماء"، وبه اختتمها، وظل هاجسه على امتدادها، وظل صوت الفتى هو المسموع، وكأنه وأمثاله يقدمون أرواحهم فداء لنا، ونحن وقوف في انتظار ما لا يجيء.

لم يكن بيني وبينك يا موت سوى أبي
والشكر للرصاص الذي يعرف اللحم الطري
يعرف معنى العيد ويوم الفداء
أنا كبش يا أبي، فلا تنتظر كبش السماء.

ثمة ملاحظة مهمة، ونحن بصدد الحديث عن صورة استشهاد الدرة، انتهينا إليها اثناء تأملنا لتجارب بعض الشعراء العراقيين، وهي ملاحظة لم نظفر بمثيل لها في تجارب أندادهم في الأقطار العربية الأخرى. فالشاعر العراقي عندما واجه مشهد استشهاد الدرة رأى نفسه في المشهد؛ رأى حصاره، وجرحه، ودمه.. فحصار فلسطين هو حصار العراق، واستهداف أطفال فلسطين بالقتل هو استهداف أطفال العراق بكل أشكال الموت. إذن، العدو واحد، والهدف واحد، والجرح النازف واحد.. ومن ذلك قول الدكتور حكيم الجراخ مخاطبا محمد الدرة:

قرأتُ بعينيك –عفوك– إني نسيتْ
حصاري
وشَحّةَ ماء الفراتْ
وجئتُكَ ألثمُ جرحي
لأنّ دماك.. دمائي
فنَمْ هانئا، فوقَ صدْر العراقْ

وقريب من هذا قول واحدة من جيل الشعراء الشباب في العراق، هي فليحة حسن، من قصيدتها "الشهيد البطل":

سأجمع هذي الدماء التي
ما تزال تحطُّ الرحال
لكيما أقول
بأنّ تفاصيلنا واحدةٌ
وثمّة ما بيننا فارق
بسيطٌ، بسيطٌ
هو الجرحُ يا صاحبي
غير أنّي صداه!

التجارب التي بين أيدينا تمتح تجلياتها من أفق المقاومة، وأدب المقاومة "رفض للواقع، وإيمان بالقدرة على تغييره، وتعبير عن الألم، وغضب عارم ضد صور القمع، والاضطهاد، والاستلاب.. وأمل في استشراف حياة أخرى(٥)".

وحين نتأمل هذه التجارب نلاحظ أن الكثير منها كان صريحاً في الدعوة إلى النضال، والجهاد، ومعانقة الموت. وهذا لا يعني أن سائر التجارب قد تخلت عن هذه المفردة من أدب المقاومة، أو قد تناستها. فالفن الأصيل حسبه أن يخلق فينا وعيا

بمعادلات الراهن الذي نعيش، وحسبه أن يكشف عن علاقة الفرد بالحياة من حوله. والفنان ليس مطالبا بأن يكشف الداء، ويصف الدواء في آن واحد.

فقصيدتا محمود درويش ومريد البرغوثي لم تكن الدعوة فيهما صريحة إلى النضال والمقاومة، من خلال أساليب الطلب وأفعال الأمر، ولكنهما تصبان في الغاية ذاتها. فقد استخدما لغة إيحائية لبقة في مواجهة حدث استشهاد الدرة. والتجارب الشعرية الأصلية هي التي تشغلنا بنفسها بعد فراغنا من قراءتها، تحاورنا ونحاورها، وتظل تطرح علينا سيلا من الأسئلة، ومهمة الفن أن يثير فينا الأسئلة، لا أن يجيب عنها.

وفي المقابل، لا تعني الدعوة الصريحة إلى الجهاد، والتحريض على النضال عيبا ألم بسائر التجارب، فهذا أدب مقاوم، يتوجه فيه الشعراء إلى جماهير عريضة من أبناء أمتنا، ممن تتفاوت مستويات وعيهم الفني، وليس أدبا نخبويا. وقد تعود المتلقي العربي على هذا الصوت منذ أن دوى صوت جدنا أبي تمام في الوجدان العربي يوم فتح عمورية، ومنذ أن أنشد جدنا الأكبر (المتنبي)- من فوق صهوة حصانه في حضرة سيف الدولة المنتشي بانتصار "الحدث" – رائعته ذائعة الصيت "على قدر أهل العزم..".

فناصر شبانة واحد من أصواتنا الشعرية الشابة، التي تشق طريقها بقوة على دروب التميز الإبداعي، جعل قصيدته إدانة للراهن العربي المتردي، وفي الوقت ذاته لم يكتف بهذه الإدانة، التي تعني في وجهها الآخر التحريض والدعوة إلى الخروج من صدفةَ الذل والمهانة إلى آفاق البذل والتضحية، بل نجده يؤكد على امتداد تجربته ضرورة اعتماد الدم الفلسطيني على نفسه:

وكنْ يا دمي الحرّ
في ساحةِ العرسِ وحدكْ
أنت الذي قمتَ فينا تُصلّي
ونحن نيام.

ويستلهم الشيخ عائض القرني موقفا سابقا في تراثنا الشعري، يعد أنموذجا فذا في الدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة، وذلك باتكائه على (بائية) أبي تمام، حيث يقول:

واكسر براعك صاحَ الدهرُ مرتجلا   المجدُ يا قوم للهنديّةِ القُضُبِ
مليونُ ملحمةٍ خرساءَ تحرقها   رصاصةٌ، فاشترِ البارودَ بالكُتُبِ

وتأتي دعوة الدكتور عبد الحكيم الجراح إلى الجهاد من خلال تناص موفق مع قصيدة علي محمود طه "أخي جاوز الظالمون المدى"، حيث ختم قصيدته بهذه اللقطة الكثيفة من حوار لحظة الموت:

أبي، جاوز الظالمون الـ..
بلى، ولدي قد سمعتُ الندا
فحقّ الجهادُ
وحَقّ الجهادُ
وحَقّ الفِدى،

ويخاطب عباس أمير "طفل الانتفاضة" في شخص الشهيد محمد الدرة، فيقول:

ابجس دَمَكْ
ثم اقترحْكَ مُعَلّماً، بي حاجةٌ لِتعلُّمَكْ،
علّمْ نباتاتِ الروابي أنْ تَطالَ توسُّمَكْ،
علّم صلاة الراكعينَ على التوضّؤ في دَمِكْ
علّم نياشينَ القيادة أن تُعلّقَ فوق منكبِها غباراتِ
الطفولة كي تُعلّم مأتمكْ

فالشاعر يرى الدرة قد غدا مَعْلَماً سامياً للجهاد، ومُعلّما فذّا للتضحية، يلقي علينا دروس الفداء النبيل.

ويذهب حسام اللحام إلى معنى قريب مما ذهب إليه عباس أمير، مكرسا معنى "الدرة النموذج والقدوة"، فيختتم قصيدته بامتزاج الدعوة إلى الجهاد بتلك الرؤية اليقينية لاستشراف غد أفضل، حين يموت رصاص الكلام ويبقى رصاص المسدس.

ويمتزج التحريض على المقاومة بالرؤية المستقبلية المتفائلة –أيضا– في تجربة محمد القيسي، ولكن على نحو أكثر شفافية وإيحاء، حيث يقول في ختام المقطع الأول:

هيّئي الفَلَذاتِ فما من عذابٍ،
يُشابه هذا العذاب،
وما من جنونٍ
واحذري أنْ تَشُقّي ثيابَكِ،
أو تقعدي عند بابك،
مُنْتَحِبةْ
هيّئي أيّ شيءٍ لنا
وارفعي الرقبةْ
ارفعي الرقبةْ.

وتستغرق الدعوى إلى الكفاح الشطر الأول من قصيدة الشاعر أيمن العتوم، ويصوغها في سياقات شعرية خطابية، يستهلها بسلسلة من أفعال الأمر وأساليب النهي (لا تبرح، واحم القدس، والتحم، وانقشْ دماك، واقبضْ على الجمر، وجابه، وقف، ولا تدع..) ولعل أجملها قوله:

نقضي عمالقة حتى إذا حسبوا　　　أنّا انتهينا، أتيناهم من العَدَم

وإذا كان الشاعر غازي الذيبة قد اتكأ على أفعال الأمر في دعوته النضالية، لكنه استطاع أن ينجو من تلك الخطابية الزاعقة في تجربة أيمن العتوم، ولنأخذ مثلا قوله:

خُذْ رسْمَ قُدْسِك شارةً

للانعتاق من السكينة والسكون

وخُذْ نهارك بعد صليةٍ حرقةٍ في القلب

واذهبْ كي تردّ الصاعَ

فالخفراءُ في جبل المُكبّر

لم يعودوا غيرَ وَهْمٍ رابضٍ في الخوف..

ويصدر وليم الصناع في دعوته إلى النضال والمقاومة عن موقف ديني متسامح، يقر بدور المسلمين في تاريخ الأقصى، حيث يقول:

لا طاب عيش والأسير مُقيّدٌ فالقدسُ تصرخ إذْ تُريدُ تحرّرا

لو جاء (خالد) أو (صلاح) فإننا نحكي الحكاية ثانيا، كي نشكرا

ويتصل اتصالا وثيقا بهذه الدعوى إلى المقاومة والجهاد تلك الرؤية التفاؤلية، التي تعد مفردة جوهرية في الأدب المقاوم، والشاعر بخاصة هو ضمير أمته الحي القادر على استشراف الآتي من خلال قراءته المستأنية للحاضر، ووعيه العميق بماضي أمته وتاريخها. وهذا ما دفع درويش إلى القول" إننا نصرخ وننزف.. وليس لدينا وقت للسقوط أو الانكسار، أو الانهزام النفسي.. إننا نخوض المعركة، إن لم نتسلح بتفاؤل تاريخي، وبحوافز تشد العضد في معركة التحدي، فكيف نمضي؟"(٦).

وحين نقرأ قصيدة درويش "أبد الصبار" من ديوانه "لماذا تركت الحصان وحيدا؟" نجد أنفسنا أمام رؤية يقينية بالعودة، والتحرير، وقيام دولة فلسطين. وهي رؤية تفاؤلية تأتي من خلال بمحمل القصيدة، لا من خلال مقطع فيها يلحقه الشاعر بدعوته إلى الجهاد، ويأتي ختاماً لقصيدته، وكأنه وحدة بنائية تفرضها واجبات الأدب المقاوم. ومثل تلك التجربة يعد الأرقى والأسمى، لأنها تحترم وعي المتلقي العربي، ولأنها

تخاطب عقل المتلقي العربي ووجدانه معاً.

لم نجد في التجارب التي بين أيدينا قصيدة الرؤية المتفائلة، وإن كان معظمها قد التزم بمقطع ختامي، أو ما أشبه، يمنحنا الأمل في استشراف غد أفضل، مثل قول غازي الذيبة:

حتّى إذا خفّتْ إلى أوكارها الطير
صعد الغناءُ من الحناجر
والمساءُ بصمتك الغافي تردّدْ
يا أيها الولدُ النديّ
ستقومُ بعد هُنَيْهةٍ
لترى الظلام وقد تبدّدْ

أما الرؤية المتفائلة في ختام قصيدة عباس أمير، فتصل حد اليقين، حين يخاطب "الدرة" معلم النضال النموذج بقوله:

عَلِّمْ بنودُ الذلّةِ الرقطاءِ فقرة: أنّ موتَكَ واحدٌ،
ثم أنَّ عمْرك واحدٌ، ثم أنّ ظلك واحدٌ،
ولذا، فدربك واحدٌ، لا لن يُجزّأ..
ولذا، فأرضُكَ مثلّ موتِك، مثلُ عمرك، مثلُ دربك، مثل
ظِلك، لن تصيرَ إلى اختصار، أو تُجزّأ..

ويمثل هذه الرؤية اليقينية يختتم الشاعر العراقي علي الطائي قصيدته، حيث يقول بعد أن تساءل في مقطع سابق منها عن إمكانية "سقوط المطر" وسط هذا الهول المحدق:

فهل ستنزلُ الأمطارُ؟
ستنزلُ الأمطارْ
ستنزلُ الأمطارُ يا فتى المطر.

وكلما حلمنا بتحرير الأقصى راودتنا صورة خيل المعتصم وصلاح الدين، "العاديات ضبحا" على ثرى عمورية وحطين، وهي ترسم بسنابكها مجد أمة، وترفع ظلما وقع هنا وآخر هناك، فبعد قرن من المعاناة في ظل حملات الفرنجة يتنفس الأقصى الصعداء. والسؤال الذي يلح علينا: هل يمكن أن يتكرر المشهد ثانية؟ ويجيب الشاعر أيمن العتوم بأنه يراه ممكنا:

غداً تعود إلى ساحاتها أَلَقاً ... خيلُ المغيرين من أحفاد مُعْتَصِمِ
وتلتقي بصلاح الدين موعدُنا ... حطين ثانيةً في ساحةِ الحرمِ

ويجعل ناصر شبانة المقطع الأخير من قصيدته تعبيراً عن رؤيته المتفائلة، بعيدا عن ضجيج السياقات الطلبية، في لغة تفيض بالصور والرموز الدالة على الأمل، والنصر، واستشراف الغد المرتجى:

ها هي القدس
راحت تمسدُ شعرَ الصغار
تقلّم أظافرهم بالحجارة والنار
تُكحّلُ أجفانهم بالدماءِ المحلاةِ
بالجمرِ
كل صباح انتظار
كي يزرعوا الأرضَ
بالبرتقال وبالغار

دراسة في التشكيل:

نحن على يقين أن أدوات التشكيل هي الوجه الآخر للموقف، لذا كانت الضرورة تستدعي أن نشير إليها أحيانا، ونحن بصدد الحديث عن الموقف المقاوم

بتنويعاته المتعددة. وقد آثرنا أن نرجئ الحديث عنها على نحو تفصيلـي، لنبلـور ملامـح التشكيل المشتركة بين مجموعة من التجارب لعدد كبـير مـن الشعراء، ممـن ينتمـون إلى بيئات شعرية مختلفة. وكل ما يجمع هذه التجارب أنها جاءت اسـتجابة لموقـف بعينـه، واضعين في الاعتبار تفاوت هذه الاستجابة بين تجربة وأخرى.

وينبغي التنويه بداية أنّ انتفاضة الأقصى هي امتداد للانتفاضـة الفلسـطينية الأولى، تلك الانتفاضة التي تركت بصماتها على قصيدة الشعر العربية، فمنحتها تجليات خاصة على مستوى الموقف، وشحنتها بمضامين جديدة، ولغـة جديـدة، وأسـاليب جديـدة في التعبير، ودخلت بها إلى حداثة جديـدة، وهـي "حداثـة المعانـاة والواقعيـة الثوريـة[٧]" . وهي حداثة تنأى بالقصيدة عن الإمعان في الغمـوض، والإغـراق في الرمزيـة، وتقـترب بها من وعي الجمهور العربي العريض[٨]، دون أن تفتح الباب واسـعاً لتلـك التجـارب المتهافتة، التي لا يمتلك أصحابها سوى النوايا الطيبة.

وبين أيدينـا بعـض هـذه التجـارب الـتي جـاءت علـى مركـب الوضـوح والمباشـرة، والتلطف في مخاطبة وعي جماهيري عام، ظناً منهم أن الوضوح يتعـارض مـع العمـق، مثـل تجربة عبد الرحمن العشماوي "هو رامي أو محمد"، التي وقعـت في مـأزق التقريريـة، ومثـل قصيدة "يا درة تـاج فلسـطين" لريـاض العـزة، وقصيـدة "كـم شـهيداً قـد رزقنـا" لشـفيق عجاج بن مفرج، وقصيدة "أغنيـة صغـيرة لمحمـد الكبـير" لعـامر عبـد الأمـير. ولعـل عبـد العزيز المقالح كان يقصد مثل هذه التجارب التي سحقتها المباشرة في الانتفاضة الأولى[٩].

أما سائر التجارب فقد امتـازت بـالوضوح دون أن تقـع في فـخ سـذاجة التعبـير، وبساطة الإيقاع وشحوبه، ودون أن تفقد قدرتها على الإيحاء.

وكانت تجارب محمود درويش، ومريـد الـبرغوثي، وعبـاس أمـير، وحكيـم الجـراخ، وفليحة حسن الأكثر توفيقا، يليها في ذلك تجارب نـاصر شـبانة، وغـازي الذيبـة، ومحمـد

القيسي، وأحمد منصور، وعلي الطائي، وعدنان النحوي، وأيمن العتوم، وحسام اللحام.

كلنا يذكر قصيدة درويش "عابرون في كلام عابر"، التي قالها إبان الانتفاضة الأولى، وزلزلت -حينها- الكنيست الإسرائيلي، ودفعت ناقدا يهوديا حاقدا (عاموس كينان) للقول بأنها "قصيدة خرقاء لشاعر مشبوه ". هذه القصيدة جاءت في وضوحها الغامض، وبساطتها التعبيرية عملا مغايرا في سياق ما وصل إليه محمود درويش في تجربته السابقة(١٠). فقد قفز بها إلى مستوى مستقبلي ما كان له أن يتحقق، لولا أن الانتفاضة قد أعقبتها انتفاضة أخرى في جسد القصيدة(١١). وهي التي دفعت الشاعر الكبير نزار قباني إلى القول في افتتاحية ديوانه "ثلاثية أطفال الحجارة": "كان علي أن أكون معهم، أو أكون ضد الشعر.. إن أطفال الحجارة نقلوا الشعر العربي من حال إلى حال، ومن مرحلة إلى مرحلة".

ففي مثل ذلك الوضوح الغامض صاغ درويش تجربته الجديدة "محمد"، صاغها بلغة حميمية مدهشة -تلامس شواطئ أدب السرد دون أن تنال من قدرتها على التوهج.. حيث يقول منها:

مُحمّد
ملاكٌ فقيرٌ على قابِ قوسين من
بندقيةِ صياده الباردِ الدم. من
ساعةٍ ترصد الكاميرا حركاتِ الصبيّ
الذي يتوحد في ظلّه:
وجهُهُ، كالضحى، واضحٌ
قلبُهُ، مثلُ تفاحة، واضحٌ
وأصابعُه العشر، كالشمعِ، واضحةٌ
والندى فوق سرواله واضحٌ..

فهذه هي اللغة الجديدة التي اقترحتها قصيدة الانتفاضة، والتي يشكل بها درويش هذه الصورة الانتشارية المدهشة، من خلال حشد هائل من الصور التي تتصادم معا؛ لاستقصاء الحدث من جوانبه كافة[١٢].

أما تجربة مريد البرغوثي، فلا تقل عن سابقتها دفئا، وحميمية، وشفافية، مع توسلها بالنسق القصصي، واتكائها على تقنية الحلم. فقد اقتربت لغته من اللغة المحكية دون أن تفقد بلاغتها الجديدة، مكرسة منحى البرغوثي في تجاوز قصيدة الأذن، إلى ما يشبه شعر الهمس.

لقد شاعت الأساليب الطلبية من أمر، ونهي، واستفهام، ونداء في أغلب هذه التجارب، و لم ينج من مدها القوي في لغتها إلا القليل منها، مثل تجارب درويش، والبرغوثي، وحكيم الجراح، وفليحة حسن، وعلي الطائي، وحسام اللحام.

وقد ألفنا أن نلاحظ مثل هذه الأساليب التعبيرية في تجارب الشعر المقاوم بعامة، وقصيدة الانتفاضة بخاصة، حتى غدت من لوازمها اللغوية، ومن شاء فليرجع إلى "عابرون في كلام عابر" لدرويش، و"تقدموا" لسميح القاسم في الانتفاضة الأولى، ليجد تراكم أفعال الأمر وتكاثرها على نحو مثير للدهشة. ولا يعني ذلك أنهما وقعا ضحية ضجيج الخطابية والشعر السياسي، الذي يفتقر إلى ماء الشعر، بل يعني أن الانتفاضة قد غيرت لغة الخطاب الشعري في القصيدة الفلسطينية، "وأعطت هذا الخطاب صيغته الآمرة بما تحمله هذه الصيغة من دلالات مترعة بالأمل والحدس العميق. لقد نجحت الانتفاضة حتما في تطهير اللحظة الحاضرة من حالات الإحباط والقلق، وأشعلت في الوعي العربي- والفلسطيني بخاصة- حالة من الحيوية المتفجرة بالفخر والاعتداد بالنفس."[١٣]

على هذا النحو يمكن أن نفسر شيوع الصيغ الطلبية في بعض التجارب دون أن

تقع ضحية الخطابية، التي لا تفضي إلى شيء سوى الفراغ والجدب، ويمكن أن يسوغ لهم الاتكاء عليها، انطلاقا من تلك الحيوية المتفجرة بالفخر والاعتداد بالنفس. وخير ما يمثل هذه التجارب قصائد كل من ناصر شبانة "يا دمي لا تصدق رصاص الكلام" وعباس أمير "واحدٌ موتك"، وأحمد منصور "افتح لخوفي خاصرة"، ومحمد القيسي "عند باب العظم".

ولكنّ بعض التجارب وقعت ضحية الخطابية المجلجلة، والشعارات السياسية، دون وعي بقيمة الأساليب الطلبية في قصيدة الانتفاضة، وتمثلها تجارب كل من عبد العزيز بن العزاز "أشلاء درة"، ومحمد ضمرة "من سواك راميا"، وأيمن العتوم "عيد الدماء"، ورياض العزة "يا درة تاج فلسطين"، وشفيق عجاج بن مفرج "كم شهيدا قد رزقنا"، وعبد الرحمن العشماوي "هو رامي أو محمد". أما تجربة موسى حوامدة "أبي، يا أبي.. لا تنتظر كبش الفداء"، فقد تأرجحت بين هذه المجموعة وسابقتها. "فالشعر يجب أن يكون شعراً أولا، ثم وطنيا ثانياً".(١٤)

فالموضوع وحده مهما كان نبيلاً وعظيماً، لا يكفي لتقديم تجربة شعرية متميزة، "وكون هذا الشعر جماهيريا قد يملك بعض الشعراء فنياً، عندما تصبح النية الطيبة، والمباشرة، والخطابة الرنانة هي العناصر الرئيسية في شعرهم. إنّ اللعبة الفنية في شعر المقاومة تصبح أكثر انفضاحاً..". (١٥)

ولنأخذ مثلا قول الشاعر عبد العزيز العزاز:

فيا عربَ استفيقوا واستعيدوا مكارم عزّكم ذاتَ السماحِ
دعوا عنا الكلام بلا فعالٍ وعوْدا للعطايا بامتياحِ
فهل من باسل شهْمٍ همام شكيمتُه كسعدٍ أو صلاح؟
ألا هبّوا لنصرتنا أعيدوا كرامتنا وقوموا للكفاحِ

فمثل هذا الضجيج التعبوي، الذي يملأ الفم والأذن، يفتقر لماء الشعر وروحه، مما يحول دون ملامسته لتلك المناطق العميقة من وديان قلوبنا، قبل أن يخاطب وعينا وعقولنا، كقول ناصر شبانة مثلا:

يا دمي لا تصدّق رصاص
الكلام
وكنْ يا دمي الحرَّ وحْدك
أنت الذي قمت فينا تصلي
ونحن نيام
لا تقشّرْ بلاغة أيامنا
لا تُحدق بمرآة أحلامنا
لا تُروّجْ شعاراتنا في الغمام
يا دمي كنْ مزيجاً من النار والقار
للثائرين الكسالى
وكن للشهيد الذي أشعل الأرض بالعشق
تعويذةً كي ينام.

فهذا ضرب من الفن ينطوي على حيوية، وخيال، وشكل، ومهارة، كما يقول توماس مونرو[١٦]، وليس مثل ذلك الفن الدعائي الصارخ بالشعارات، والهتاف، والتحريض.

وطالما نحن بصدد شيوع الأساليب الطلبية، ينبغي أن نشير إلى أن طبيعة هذه التجارب التي جاءت استجابة لحدث بعينه، هو استشهاد "محمد الدرة"، كانت تستدعي بعض تلك الأساليب، مثل النداء والاستفهام، باعتبارهما من لوازم الحوار الذي أداره الشعراء بين الشهيد وأبيه في لقطة الموت. وهذا الحوار بأدواته كان وراء حيوية عدد من تلك التجارب، وتماسك بنائها.

وإذا كانت "نا" الفاعلين"، أو ضمير "النحن" من مألوف شعرنا العربي في طوره البدوي القبلي بخاصة، والتي لم يتخل عنها تماما بعد ذلك، حيث تمتزج ذات الفرد بالآخرين أو الضمير الجمعي، فالملاحظ أن الضمير الجمعي هذا قد عاد إلى الظهور جليا في تجارب الانتفاضة الأولى، وها نحن ذا نراه في عدد من القصائد التي بين أيدينا، مثل تجارب ناصر شبانة، وعدنان النحوي، وغازي الذيبة، وايمن العتوم، وعبد العزيز بن العزاز. ولعل تجربة غازي الذيبة "نرمي عليهم خوفهم" خير ما يمثل هذا التماهي بين ذاته والآخرين، ليعبر من خلال الضمير الجمعي عن جماهير الفعل، فيقول:

– من رآنا عند مُفْتَرِقِ الشهادة
نحتمي بصدورنا من ليلهم
ونعوقُهم
نرمي عليهم خوفَهم؟
– وأننا جُزْنا حدود الأبجدية
وارتفعنا عن مخاوفنا
قرأنا في كتاب النار
أشعار الفينيقيين..

وجماهير الفعل قد تتسع لأبعد من حدود فلسطين، لتشمل الوطن العربي من البحر إلى البحر، إيمانا من شعراء الأدب المقاوم أن الوقوف في وجه الهجمة الصهيونية الشرسة، لا يعني المناضل الفلسطيني وحده، بل هو هم عربي مشترك.

بقيت ملاحظة أخيرة، لم نظفر بها إلا في تجربتين لشاعرين فلسطينيين، هما محمد القيسي وموسى حوامدة، ألا وهي ورود عدد من أسماء المدن والأماكن الفلسطينية في قصيدتيهما، مثل القدس، والأقصى، وبوابة القدس، وباب الخليل، وحي المغاربة،

والخليل، والجلزون، وبيت جالا، والمصرارة، وطريق الإسراء. ومن الواضح أن هذه أسماء لأماكن في مدينة القدس وما جاورها. فهل أراد الشاعر بذلك أن يومىء إلى أن هذه الانتفاضة هي انتفاضة الأقصى التي سقط "الدرة" شهيدا فيها؟ أم أراد أن يمتحن الذاكرة بوصفها العلاقة الجدلية الوحيدة بينه وبين المكان البعيد القريب؟

وهذه ملاحظة مطردة في الشعر الفلسطيني المقاوم، حيث سعى الشاعر الفلسطيني –بكل السبل– لتأكيد تشبثه بالمكان، هذا المكان الذي يعاني الاحتلال، وسعي العدو لاستلابه بتغيير اسمه وملامحه. وكأن الشعر المقاوم لا يكتفي بالتعبئة، والتحريض، بل يتقدم ليقاوم في معركة شرسة مفتوحة على كل أدوات الصراع الممكنة.

كان استشهاد "محمد الدرّة" هو محور هذه التجارب وقلبها، لذا، كانت صورة "الدرة" في بؤرة اهتمامهم، فتصدوا لها يشكلونها من مجموعة ضخمة من الصور الجزئية، وكانت الصور التشبيهية سيدة الموقف، وحضورها كان طاغيا على ما عداها. وحين تأملناها، وجدنا جانبا منها يتشكل وفق معايير الصور العصرية، التي تقيم علاقات بين أطراف متباعدة، مما يمنح هذه الصور دهشتها وطرافتها وقدرتها على التوهج، ويجعلها متسقة مع الموقف، مثل قول درويش "محمد دم زاد عن حاجة الأنبياء"، وقول حكم الجراح "سيبقى صلاة.. ووهجا.. ونبضا"، وقول حسام اللحام "محمد غيمة من بكاء، ودماء من رحيق"، وقول محمد القيسي "محمد رعب السموات في الحدقات الصغيرة يلمع"، وقول فليحة حسن "كان لقائي سريعا به مثل طلقة.. كان لقائي بطيئا به مثل دمعة"، ومثل قول موسى حوامدة، التي شكلت صوره عنقودا من التشبيهات المتراكمة، التي حاول من خلالها تكوين صورة انتشارية، تسعى إلى استقصاء صورة الشهيد بكل جوانبها:

– أنا صقرُ الذُّرى يا أبي
رعْدةُ الأنبياء

بابُ المدى
زكاةُ الفقراء
طهارةُ الحدود
– اسمي خاتَمُ الذلّ والهزيمة
فاتحُ النصر وترنيمةُ الرجاء

كما وجدنا جانبا آخر من تلك الصور التشبيهية يتشكل على نحو مألوف، مثل قول درويش "محمد ملاك، وجهه كالضحى"، وقول أحمد منصور "حمل أنا، كالكسير، كالكسيح، كالعين في الأجفان، كالسمك في الماء"، وقول الشيخ عائض القرني "كأنه بدر، أنت هيكل مجد، نهر الدماء"، وقول أيمن العتوم" رصاص الغدر، شهداء القدس كالحمم، لكنهم كغثاء السيل"، وقول عبد العزيز بن العزاز "كمثل الصقر، نار الحقد، شكيمته كسعد أو صلاح، ويجعلهم كمذرور الرياح".

والملاحظ أن هذا النوع من الصور التشبيهية حفلت به التجارب العمودية، التي ما زالت تنهل من معين التراث لغة، وتصويرا، وإيقاعا. ويمكن أن نضيف إليها بعض التجارب حديثة الشكل، مثل قصيدة عبد الرحمن العشماوي، وقصيدة شفيق عجاج بن مفرج اللتين حرمتهما التقريرية والنثرية وهج الخيال، فلم يبق لهما من تجربة الشكل الجديد في الشعر سوى التخلص من وحدة الوزن والقافية، حيث استسلم العشماوي وصاحبه لتقريرية النثر، فلا نرى في تجربتيهما بناء شعريا حديثا، ولا لغة عصرية، يفجر فيها صاحبها علاقات جديدة بين عناصرها، فوقعت تجربتيهما في مزلق الواجبات الاجتماعية.

لكن حين يرد مثل هذه الصور عند درويش نجده يسعى من خلال تلاحق عدد منها إلى رسم صورة كلية، فلا تظل هذه الصور الجزئية منعزلة داخل السياق العام

للتجربة، كما هو الحال في استخدام التجارب السابقة لها، مما يفقد هذه الصور طرافتها، ويوقعها في شرك الألفة.

وقد كانت صورة السيد المسيح مصلوباً هاجس عدد من الشعراء، وهم يبحثون عن لغة تليق بالتعبير عن الظلم الفادح الذي وقع على محمد الدرة. وهذه الصورة الرمز كثيرة الدوران في تجربة الشعر الفلسطيني المقاوم، وبخاصة في شعر محمود درويش. ذلك لأنّ الشاعر العربي الذي يعيش في الأرض المحتلة يحس أنه مصلوب هو وشعبه وأرضه. فقصة الصليب –منذ أن أعده اليهود لقتل السيد المسيح، الذي يمثل الدعوة إلى الرحمة والعدل –هي رمز الفداء والتضحية من أجل خلاص الإنسان.

ونجد مثل هذه الصورة في بعض مراثي الدرة، لكل من محمود درويش، وأحمد منصور، وعلي الطائي، وناصر شبانة. ومنها قول درويش:

مُحمّد

يسوعٌ صغيرٌ ينام ويحلم في

قلب أيقونةٍ

صُنعت من نحاسٍ

ومن غُصْن زيتونة

ومن روح شعب تجدّد

وإذا كانت صورة "السيد المسيح مصلوباً" قد أسعفتهم في تصوير جانب من مشهد الشهادة، فقد وجد بعضهم في صورة النبي موسى عليه السلام مخلصا لقومه في رحلة الضياع مادة خصبة، يتراسلون معها في تصوير طفل الحجارة بنموذجه الفذ "محمد الدرة"، وهم يرونه –أيضا– مخلصا لشعبه وأمته من ضياعهما المحتوم، ومن ذلك قول محمد ضمرة:

فاضربْ إذن حجراً ليفجُرَ ماءَه   مثلَ الفراتِ لكلّ عجْزٍ شافيا
وافتحْ بموجِ البحر دربْاً موصلا   للعابرين وخلّ صوتك حاديا

وقولِ عباس أمير:

ومطمئناً كنتَ تسري، تضربُ الحجرَ المُطِلَّ على عصاك، وتحسِرُ الآياتِ عن معنًى يشفُّ، عن اثنتي عشرة عينا، وانْفَجَرَتْ

كأنّما، كنتَ اقترحْتَ نُبوعَةً لِتفجُّرِكْ

وقد لاحظنا في تجربتي عدنان النحوي، ومريد البرغوثي أن الحوار الممتد في الأولى قد أغنى عن الصور الخيالية الجزئية، وفي التجربة الثانية أغنى عنها الحس الدرامي الذي لف التجربة كلها من خلال تقنية الحلم. مع ملاحظة نزوع البرغوثي إلى الصور البصرية في قصيدته، مثل قوله:

فهذي حقيبتُهُ المدرسيةُ مثقوبةٌ
بالرصاص،
على حالها،
ودفاترُهُ غيّرتْ لونَها،
والمعزّون ما فارقوا أمّه.

بقي أن نقول بأن هذه التجارب التي كانت تتغيا مخاطبة جمهور عريض، وتسعى إلى تشكيل وعيه النضالي، قد استغنت تماما عن توظيف الأسطورة والاعتماد على الرموز، وتجنبت الدخول في دوامات الحداثة، وجاءت –كما أراد لها أصحابها– مصابيح تضيء كل البيوت، والعقول، والقلوب.. عملا بنصيحة درويش شاعر المقاومة، الأكبر:

قصائدنا بلا لونٍ

بلا طعمٍ، بلا صوتٍ
إذا لم تحمل المصباحَ..
من بيتٍ إلى بيتِ
إذا لم يَفْهم البُسَطا معانيها
فَأَوْلى أنْ نذريها
ونخلدَ نحنْ.. للصمتِ

لقد تنوعت مراثي الدرة، فمنها تجارب عمودية، وأخرى من شعر التفعيلة، وثالثة من قصائد النثر. وليس هذا ما نحن بصدده في دراسة الإيقاع، وإنما ما يعنينا من هذه التجارب إيقاعيا، هو مقدار تورطها في، أو تجنبها لمزلق الخطابية أو ما يسمى بقصيدة الأذن.

فهذه تجارب انبثقت من موقف سياسي مقاوم، وشاعت فيها الأساليب الطلبية على نحو ملحوظ، وتسربت إلى كثير منها لغة لاهبة، مما وضع أكثرها في مواجهة ابتلاء خطابية الشعر المقاوم. وتجاوز هذه المحنة –ولا شك– بحاجة إلى موهبة، ولباقة، وذوق.. وقد أومأنا –أحياناً– أثناء دراسة الموقف ودراسة اللغة إلى شيء من ذلك.

ويمكن القول بأن التجارب التي برئت تماما من هذا الامتحان العسر قليلة، مثل قصائد درويش، والبرغوثي، وعلي الطائي، وفليحة حسن، وحسام اللحام. وقد استطاعت هذه التجارب أن تحقق المعادلة الصعبة في الشعر المقاوم. ومن الواضح أن محمود درويش قد بدأ يخاطب وعي متلقيه أكثر من مخاطبته لمشاعرهم منذ أن أصدر ديوانه "لماذا تركت الحصان وحيدا؟"، فبدأنا نلحظ ميله إلى هدوء النبرة، وتبسيط اللغة، والتخلص من المرتكزات الصوتية المجلجلة.

أما الشاعر البرغوثي فتجربته التي بين أيدينا تأتي متسقة تماما مع التحقيق الصحفي الذي أجري معه مؤخراً، وصرّح فيه بأنّ مشروعه الشعري يتمثل في محاولة

الابتعاد عن قصيدة الأذن بضجيجها اللغوي، ومفرداتها اللاهبة، وأنه يسعى جاهداً إلى "تبريد اللغة"، تجنبا لتلك اللغة العالية الصوت، التي تصلح للغزل الكاذب لا للحب، وتصلح للرجل السياسي لا للبرامج، وتصلح للدعاء لا للصدق، ولا يعني ذلك أن البساطة أمر هين، فهي شيء معقد، وإنّ أهم ما يمكن أن يصل إليه الشاعر هو أن يجعل تعقيد النص يفضي إلى البساطة.(١٨)

لذا، فقد تهيأ لهذه التجارب من الإيقاع الداخلي ما أغناها عن صخب الإيقاعات الظاهرة، وجعلها أقدر على ملامسة وعينا ومشاعرنا على نحو حميمي دافئ.

وهناك مجموعة أخرى من التجارب تفاوتت بتورطها في اللغة العالية الصوت، واستخدامها لتلك الأساليب الطلبية الخطابية، لكننا نظفر فيها بإيقاعات داخلية متفاوتة في ثرائها. ولعل أكثرها توفيقا قصيدتا محمد القيسي، وحكيم الجراح، يليهما تجارب ناصر شبانة، وغازي الذيبة، وعباس أمير، وأحمد منصور.

وهناك بعض التجارب التي شحب فيها الإيقاع الداخلي، وتراجع حظها منه على نحو لافت، مثل قصائد عبد الرحمن العشماوي، وعامر عبد الأمير، وشفيق بن مفرج، ورياض العزة، ولم يكن مرد ذلك إلى اللغة العالية الصوت، ولكن مرده الوقوع في شرك ضرورة (تسجيل موقف)، أو لتواضع الموهبة.

أما القصائد العمودية لكل من أيمن العتوم، ومحمد ضمرة، وعائض القرني، وعبد العزيز العزاز، فقد لوحظ أن نسيجها الصوتي مما يملأ الفم والأذن. ولم تستطع تلك التجارب -على الرغم من موسيقاها الظاهرة- أن تثري إيقاعها الداخلي. وشكلت تجربة عدنان النحوي حالة استثنائية، وربما كان للحوار الحميمي بين الابن وأبيه -الذي شغل القصيدة كلها- دوره في إثراء إيقاعها الداخلي.

لقد استرعى انتباهنا أثناء تأمل إيقاع قصيدة "محمد" لمحمود درويش، أنه قد اختار

لها تفعيلة المتقارب (فعولن)، وهي تكافئ كلمة (محمد) إيقاعياً. ونحن نعلم أن الشعراء المعاصرين يحتفون كثيرا بتفعيلتي المتقارب والمتدارك، ولكن تجربة درويش بحاجة إلى وقفة خاصة. فهو يفتتح مقاطع قصيدته السبعة بكلمة واحدة، هي "محمد"، وهي عنوان القصيدة، وهذا الإلحاح من الشاعر على كلمة بعينها، أو عبارة بعينها أكثر من سواها، يكشف عن اهتمامه بها، وبهذا يصبح التكرار جزءا مهما من البناء العضوي للقصيدة، لا مجرد صدفة أو حلية(١٩)، ففي تجربة يكون "محمد الدرة" بؤرتها، لا نستبعد أن يقترح الشهيد إيقاع قصيدته، وأن يصبح استهلال اسمه لكل مقطع منها ضربا من اللوازم الموسيقية الضابطة لإيقاعها الموحد.

وحين حاولنا تلمس ذلك في سائر التجارب،وجدنا ثلاثة قصائد أخرى تقيم بناءها الإيقاعي على تفعيلة (فعولن) وهي من التجارب الهامسة، التي تخلت عن اللغة العالية الصوت، لكل من: مريد البرغوثي، وفليحة حسن، وحكيم الجراح.

ولعل دراسة إيقاعية مستأنية لمراثي محمد الدرة يمكن أن تكشف عن صلة أعمق وأبعد من ذلك.

وحين نتأمل أبنية هذه المراثي، نجد أنها تتراوح بين بناء تقليدي، وبناء حديث عضوي، وبين تجارب أخرى تحاول البناء العضوي فيخونها التوفيق.

أما التجارب العمودية، فقد غلب عليها ذلك البناء الكلاسيكي، الذي يقوم على منطق التراكم. أما التجارب الأخرى ذات البناء الحديث العضوي، فأولها تلك المجموعة من القصائد التي اتكأت على تقنية الحوار المتخيل بين الابن وأبيه في لقطة الموت، وألحت على استفراغ طاقة الحوار، مما هيأ لها بناء عضويا متماسكا. وخير ما يمثل ذلك تجارب أحمد منصور، وعباس أمير، وعدنان النحوي. أما قصيدة الدكتور حكيم الجراح، فهي قصيدة تمتاز بكثافتها، واعتمادها لغة الومض، بالإضافة إلى تقنية الحوار،

ولكنه حوار بين الشاعر الذي تقمص دور الأب وبين الفتى الـدرة، مما أتـاح لتجربتـه بناء متميزا.

وأما الشاعران الكبيران درويش والبرغوثي، فقد قدمـا بنـاء عضويـا يرتكـز علـى تقنيات السرد الحديث، حيث اعتمد درويش على تقنيـتي المونولـوج، والاسـتدعاء مـن الذاكرة، واعتمد البرغوثي علـى تقنيـة الحلـم، فـالقصيدة كلـها حلـم، وتذكـر ببعـض الأعمال السردية القصيرة التي تتوسل بتقنية الحلم، وتأتي اللقطة الأخيرة منـها لتحـدث المفارقة، وتنقلنا من عالم الحلم الجميل إلى دنيا الحقيقة المرة والواقع الأليم:

– وعند الصباح تهامس أهلُ الجِوار بأنَّ
الرواية
محضُ خيال،
فهذي حقيبتُهُ المدرسيةُ مثقوبةٌ
بالرصاص..
– ثم كيف يعود الشهيد إلى أهلِهِ، هكذا،
ماشيا
تحت قصفِ مساءٍ طويل؟!

كما أنّ روح السرد الـتي أطّرت تجربـة علـي الطـائي كـانت وراء بنائـه المتنـامي المحكم، فجاء ختام القصيدة، الذي كشف عن رؤيته المسـتقبلية، وكأنـه نهايـة منطقيـة لتراتب الأحداث وتناميها، حيث يقول في المقطع الرابع، و لم تكن الرؤية قد اتضحت:

البردُ يحاصر الأرضَ المحتلةَ من جميع الجهات
فهل ستنـزلُ الأمطار؟
لو تنـزلُ الأمطار!

ولكنّه يختم قصيدته بقول:

فهل ستنـزلُ الأمطارْ؟

ستنـزل الأمطارُ يا فتى المطرْ.

ومن التجارب الحديثة التي سعت لتحقيق شروط هذا البناء العضـوي، ولكنـها لم توظـف تلـك التقنيـات الـتي منحـها حـدث الشـهادة لقصيـدة الانتفاضـة مـن حـوار، ومونولوج، واستدعاء مـن الذاكـرة، وحلـم، وحـس درامـي.. تجـارب نـاصر شبانة، وغازي الذيبة، وفليحة حسن، وحسام اللحام.

ولعل تجربة ناصر شبانة بحاجة إلى وقفة قصيرة، فقد استعان بتكرار جملـة شـعرية، هي عنوان قصيدته "يا دمي لا تصدق رصاص الكلام"، وذلـك في اسـتهلال القصيـدة، وفي ختام مقاطعها الخمسة، في محاولة منه لتأطير مقاطعها بجملة شعرية تضمـن لهـا بنـاءً فكريا وإيقاعيا محكمـا. ولكـن المتـأمل للتجربـة يلاحـظ أن المقـاطع لا تتواشـج بمنطـق التنامي والتآزر، بقدر ما تتواصل بمنطق التوازي.

بقي أن نشير إلى تلك التجارب ذات الشكل الحديث، ولكنها لم توفـق في تحقيـق بناء عضوي محكم قائم على منطق التنامي بين عناصرها الفنية، نظرا لحاجتها إلى مزيـد من التكثيف لتخليصها مما ألم بها من زوائد لغوية، ومن تـرف لغـوي. ومـن أصحـاب تلك التجارب موسى حوامدة، وعبد الرحمن العشماوي، وعامر عبـد الأمـير. وكـانت مشكلة موسى حوامدة تتمثل في رغبته بأن يقول كل شيء. فلو تخلى عن هذه الرغبة، وتخلص من بعض التكرارات التي لا تخدم بناءه الإيقاعي والفكـري لاسـتطاع أن يحقـق لتجربته بناء أنضج وأكمل.

الخاتمة

تقدّم مراثي "محمد الدرّة" التي بين أيدينا صورة لحركة شعر انتفاضة الأقصى. وهي تجارب تنتمي إلى عدة أقطار عربية، وتتنوع في شكلها بين الشعر العمودي، وشعر التفعيلة، وقصيدة النثر، ولكن يوحدها هم مشترك، وتمحورها حول موضوع موحد، وانتماؤها إلى الأدب المقاوم.

فعلى مستوى الموقف، فقد صدرت عن موقف سياسي مقاوم، كانت له تجلياته من التعريض بالخذلان العربي، وإدانة الهجمة الصهيونية الشرسة، وتصوير استشهاد الدرة، والدعوة إلى الجهاد انطلاقا من رؤية متفائلة بالنصر والتحرير. ولعل مشهد استشهاد الدرة كان أكثر هذه التجليات عناية، فافتن الشعراء في تصويره بكل دقائقه.

على هذا النحو أخذت قصيدة انتفاضة الأقصى تتشكل من مجموعة من المحاور، وغدا الشعراء ملتزمين بتحقيق تلك المضامين كافة، أو بتحقيق أكثرها، مكرسين بذلك تقاليد فنية لقصيدة انتفاضة الأقصى، ولكنها تقاليد تكاد توقعها في شرك النمطية، تلك النمطية التي لم يفلت منها إلا النادر من تلك التجارب، مثل تجربة محمود درويش، ومريد البرغوثي.

وقد كان لهذا الموقف المقاوم أثره الجلي على أدوات التشكيل لهذه التجارب على مستوى اللغة، والتصوير، والإيقاع، والبناء.

ومما لا شك فيه أن انتفاضة الأقصى هي الدورة الثانية لانتفاضة الحجر الأولى، وهي امتداد طبيعي لها، تلك الانتفاضة التي تركت بصماتها على قصيدة الشعر العربية، فمنحتها تجليات خاصة على مستوى الموقف، وشحنتها بمضامين جديدة، ولغة جديدة، وأساليب جديدة في التعبير، ودخلت بها إلى حداثة جديدة.

ولذلك واجه شعراء مراثي الدرة أكثر من تحد أثناء تشكيلهم لتجاربهم، كان أولها مزلق الوضوح. فكيف يمكن للشاعر أن يكون واضحاً وعميقاً في آن واحد، دون أن يقع في شرك سذاجة التعبير، وبساطة الإيقاع وشحوبه، ودون أن تفقد التجربة قدرتها على التوهج؟

وكان ثانيها مأزق الخطابية. فكيف يستجيب الشاعر لمطالب الموقف تعبيرا، باستخدام مجموعة من السياقات الطلبية دون أن يقع ضحية الضجيج الخطابي التعبوي، الذي يملأ الفم والأذن، ويحول دون ملامسة وعي المتلقي، وولوج مسارب روحه؟

وقد أفضى المأزق السابق إلى ابتلاء آخر، يتمثل في توريط كثير من تلك التجارب فيما يسمى "بقصيدة الأذن"، التي يتوسل مبدعوها لتشكيلها بتلك اللغة اللاهبة، والعالية الصوت، وبالتالي لم تستطع موسيقاها الظاهرة أن تثري إيقاعها الداخلي.

وعدا ذلك، يمكن القول بأن هذه التجارب قد أفضت إلى جملة ملاحظات على مستوى الموقف والتشكيل، يمثل بعضها تكريسا للتقاليد الفنية لتجربة الشعر المقاوم، ويمثل بعضها الآخر منحى فنيا جديداً، يتصل بحدث استشهاد الدرة، وانتفاضة الأقصى المباركة، وهي على النحو التالي:

- التحام الشاعر العراقي بخاصة بمشهد استشهاد الدرّة، والذي رأى فيه حصاره، وجرحه، ودمه...
- الرؤية المتفائلة في ختام مراثي الدرّة، والتي تصل –أحياناً– حد اليقين. لكن مع غياب القصيدة التي تعد في مجملها رؤية متفائلة.
- امتزاج ذات الفرد بالضمير الجمعي من خلال "نا" الفاعلين، أو ضمير "النحن"؛ ليعبر الشاعر عن جماهير الفعل العربي التي قد تتسع لأبعد من حدود فلسطين.
- تشبث الشاعر الفلسطيني بخاصة بالمكان، مما دفع بعضهم إلى إيراد أسماء عدد من

المدن والأماكن الفلسطينية.

- توظيف صورة المسيح عليه السلام مصلوبا للتعبير عن فداحة الظلم الذي وقع على "محمد الدرّة"، والتراسل مع صورة موسى عليه السلام مخلصا لقومه في رحلة ضياعهم، للتعبير عن أثر طفل الحجارة في شعبه وأمته، ممثلا في "محمد الدرة".
- حوار لقطة الموت/ الشهادة بين الابن وأبيه أثرى الكثير من التجارب بالحيوية، والحميمة، وبتماسك بنيتها، وربما أغنى هذا الحس الدرامي بعضها عن استخدام الصور الجزئية.
- استغناء هذه التجارب عن توظيف الأسطورة والرمز، وتجنبها الدخول في دوامات الحداثة سعيا لمخاطبة قاعدة جماهيرية عريضة.
- تجاوز بعض التجارب "قصيدة الأذن" إلى قصيدة يسعى صاحبها جاهداً إلى تبريد لغتها، وصولاً إلى تلك البساطة المعقدة، التي تضمن لتلك القصائد إيقاعا داخليا ثريا.
- اتخاذ تفعيلة بحر المتقارب (فعولن) وحدة إيقاعية لبناء عدد من قصائد شعر التفعيلة، وهي تكافئ كلمة (محمد) إيقاعاً. فهل اقترح الشهيد إيقاع قصيدته؟ ربما، فالدراسة لا تستبعد ذلك.
- استعانة بعض الشعراء بتقنيات السرد الحديث لتحقيق بناء عضوي لتجاربهم، مثل المونولوج، والحوار الظاهر، والاستدعاء من الذاكرة، والحلم، والحس الدرامي. والملاحظ أن اكثر هذه التقنيات مما يتطلبه مشهد استشهاد الدرّة.

هوامش الدراسة

١- هناك خلل عروضي في الشطر الثاني من البيت.

٢- راجع في ذلك:

- محمد شحادة عليان- الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني- دار الفكر بعمان، ١٩٨٧، ص٣٠٥.
- د. صالح أبو اصبع –الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة- المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ١٩٧٩، ص٢٩٤ وما بعدها.
- د. عبد الرحمن ياغي _حياة الأدب الفلسطيني الحديث- دار الآفاق الجديدة بيروت- ١٩٨٧، ص٢٩٠.
- رجاء النقاس –ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء- دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٢، ص٦٥.

٣- راجع: د. عبد العزيز المقالح – صدمة الحجارة.. دراسة في قصيدة الانتفاضة- دار الآداب – بيروت، ١٩٩٢، ص ١٥٤-١٥٥.

٤- حين استشهد محمد الدرة، أذاعت بعض وكالات الأنباء خبر استشهاده باسم رامي، لذا، رثاه بعضهم على أنه رامي، مثل محمد ضمرة في قصيدته "من سواك راميا".

٥- ظواهر حديثة في شعر المقاومة – شعر أحمد الريماوي نموذجا- د. أحمد الخطيب، منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين بالسعودة، ١٩٩٦، ص١٨.

٦- محمود درويش، مختارات شعرية، تقديم توفيق بكار، دار الجنوب للنشر، تونس ١٩٨٥، ص٣١١.

٧- نزار قباني-ديوان ثلاثية أطفال الحجارة- منشورات نزار قباني، بيروت ١٩٨٨، من المقدمة.

٨- انظر: د. إبراهيم خليل – الانتفاضة الفلسطينية في الأدب العربي- دار الكرمل للنشر

والتوزيع، ١٩٨٩، ص٣٧، ٤٩- ٧٣.

٩- انظر: صدمة الحجارة، ص١٢٧.

١٠- راجع: المرجع السابق، ص٦١.

١١- راجع: الانتفاضة الفلسطينية في الأدب العربي، ص ٢٩.

١٢- راجع في مفهوم الصورة الانتشارية: شاكر النابلسي -مجنون التراب- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧، ص٦٢٩. وانظر: حيدر توفيق بيضون ، محمود درويش... شاعر الأرض المحتلة، دار الكتاب العلمية، بيروت، ١٩٩١، ص٨٩.

١٣- راجع: صدمة الحجارة، ص٨٩.

١٤- شاكر النابلسي -رغيف الحنطة والنار- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٦، ص١٣٨.

١٥- محمود درويش – شيء عن الوطن، دار العودة، بيروت، ١٩٧١، ص٢٧١-٢٨٢.

١٦- انظر: توماس مونرو – التطور في الفنون- ترجمة محمد علي أبو درة وآخرين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١، ص٢٤١.

١٧- راجع: رجاء النقاش، محمود درويش.. شاعر الأرض المحتلة، ص٢١٠.

نادي ساري الديك، محمود درويش.. الشعر والقضية، دار الكرمل، عمان، ١٩٩٥، ص١٢٨.

١٨- صحيفة الرأي الأردنية، الجمعة ٢٧/٤/٢٠٠١.

١٩- انظر: نازك الملائكة -قضايا الشعر المعاصر- دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣، ص٢٧٦، ٢٩٠.

مختارات من مراثي محمد الدرة
"مرتبة هجائياً"

١- أحمد منصور	افتح لخوفي خاصرة
٢- ايمن العتوم	إلى الطفل الشهيد
٣- حسام اللحام	افق
٤- حكيم الجراخ	قراءة في مشهد محمد الدرة
٥- عباس أمير	واحد موتك
٦- عدنان النحوي	درة الأقصى
٧- علي الطائي	إلى الفتى محمد الدرة
٨- غازي الذيبة	إلى محمد الدرة.. إلى الانتفاضات كلها
٩- فليحة حسن	الشهيد الطفل
١٠- محمود درويش	محمد
١١- مريد البرغوثي	ليلة لا تشبه الليل
١٢- ناصر شبانة	يا دمي لا تصدق رصاص الكلام

افتتح لخوفي خاصرة

شعر أحمد منصور

من كلمات محمد الدرة الأخيرة التي قالها والأخرى التي لم يقلها إلى أبيه آن استشهاده.

–١–

روحي تهاوت ضمني
هبني يديك
رشُّ الرصاص يقضني
درِّع فؤادي ساعديك
اغرزني بصلبك كرمة
ما بين وادي عاتقيك
بابا: أنا شفة على قلب
كمصلوبٍ عليك

–٢–

افتتح لخوفي خاصرة
كهفاً بأرض غائرة
دعني أكور في الضلوع
الشرك يا بابا مريع
حمل أنا فقد الخطى أذوي صريع
لا حول لي
تحيط بي أعمدة من نار
أمسيت كالكسير كالكسيح في حصار
لما يزل أزيزه الرصاص
فوق الثرى.. لا أعرف الخلاص
كالعين في الأجفان
كالسمك المسجون في الحيتان

–٣–

عينين غدت سمعي
أبي
شاهدتهم بالأمس
في عز نار الشمس
لا يرمشون الرمش
في حصد الصغار
لا يعرفون الحس
في جز الكبار

–٤–

منيتي دنت دنت
سمر ولحّف بي حشاي
طرّف بي أبي لأنهم لم يرحموا
من كان مثلي أو سواي
طر بي فهم لا يشفعون
لأنهم يا والدي لا يرعوون
فالدم لا يرويهمو
واللحم لا يكفيهمو
والعظم لا يشفيهمو
وكل من يصرخ في غزة
إن صاحت ولاده
عدوهم عدوه في حكم الإبادة

-٥-

جباههم يا والدي لمع الفؤوس
تنقض من معاقد الرؤوس
أصداغهم خناجر
عيونهم مجامر
أنيابهم تبارقت حراب
تسابقت للنهش في الرقاب

-٦-

سميتني محمداً
علقت في صدري حجاب
يفيض بالدعاء للسحاب
ليدرأ الشرور والعذاب
نسيت نازيي الجوار
كالبوم تنعب في الديار

-٧-

"طخوك يابا" ... خافقي "طخوا" معك
عن أنملى عن أعيني لن أرفعك
صدقت أن الذئب مهدي الوئام
وتركتنا لرصاصهم مرمى حمام
أفديك صوتاً إنني منك الصدى
فأنا رداك على الردى
بابا علمت الآن.. من أنت: أنا
آمنت كيف الأب صار الابن
في روح السنا

-٨-

يا أمي الوداع.. يا دفاتري..
يا شجر المعابر
يا أهل يا أصحاب
مزقني الرصاص
والدماء كالأقلام كالرياش في الثياب
قدرنا جميعنا نكتبها
نكتبها ملحمة التراب
لتزهر الأحجار كالأقمار
من ملاحم الشباب

أيمن العتوم

الإهداء: إلى الطفل الشهيد (محمد الدرة)، وإلى كل الأطفال الشهداء الذين جعلوا من أجسادهم وأشلائهم جسراً تعبره الأمة إلى عزتها وكرامتها..

لا تبرحِ الأرضَ واحمِ القدسَ والْتحمِ ... وانقش دماك على بوابة الحرم
واقبضْ على الجَمْرِ إنَّ القابضينَ على ... جمر البلاد أضاؤوا عزة الأمم
وخلّ خلفَكَ كُلَّ الراكنين إلى ... صلح اليهود، وإن ساغوه فاتهم
وجابه الموت عاري الصدر، مشرعه ... وإن أتاك رصاص الغدر فابتسم
وغن للأرض، إن الأرض عاشقة ... وسوف تطرب إن بالغت في النغم
وكلما طربت واهتز جانبها ... تساقطت شهداء القدس كالحمم
وقف على باب (نتساريم) ملتهبا ... واعتبر حواجزها بالنار واحتدم
ولا تدع ليهودي بها أثرا ... فإنهم نجسوها، بائعو ذمم
واخلع فؤادك بالوادي المقدس كي ... يقبل الأرض من شوق ومن نهم
القدس أقدس من روح على جسد ... فقل لقدسك: يا روحي ويا رحمي
نموت في كل يوم دون صخرتنا ... وليس نبخل عنها لحظة بدم
نمضي عمالقة حتى إذا حسبوا ... أنا انتهينا، أتيناهم من العدم
في كل ذرة ترب روحنا التصقت ... فكيف تفهم هذا (هيئة اللمم)؟
يا أمة العرب، والأحزان جارحة ... وصوت روحي يحز القلب من ألم
وقد بكيت دما عمري لما سكنت ... دموع قلب من الآلام منقسم
قد فرق الشمل بالأهواء، وانفردت ... بنا شراذم أقوام من الخدم
وكل بيت له وجه، وكل يد ... لها سبيل، وكل المشي للظلم
يمضي بنا العمر، والرايات تائهة ... والمهتدون بها رتل من الرمم
الحالمون بترويض الذئاب كمن ... يروض الذئب في شعب من الغنم
إن الأفاعي وإن أغراك ملمسها ... فليس تنفث غير السم في الدسم
لا يسمعون سوى قرع السيوف ولا ... يخاطبون بغير النار والضرم

وليس يرعبهم شجب بمؤتمر   ولا اجتماع، ولا ألف من القمم
وكل جرح مع الأيام ملتئم   لكن جرح بلادي غير ملتئم
ما دام فيها يهودي ينجسها   فسوف يكبر فيها الجرح كالورم
أطفالنا بالرصاص الحي قد ذبحوا   على يدي حاقد، بالقتل منتقم
كم من بريء لقد غالوا براءته   وحاسبوه على التفكير بالحلم
أبوه لم يستطع منهم حمايته   في وابل من رصاص عاطش نهم
فخر بين يديه وهو يحضنه   وسال جرح ابنه خطا على القدم
وخط بالجرح فوق الأرض من دمه: "فدى فلسطين كل العرب والعجم"
(محمد الدرة) المجبول من دمه   حكاية سوف تبقى ذروة الألم
تشبث الطفل والأنفاس لاهثة   عن موجِ موت خلال الوجه ملتطم
لعل خيط حياة سوف ينقذه   أو صرخة في سماء الموت والعدم
فصاح والرعب يمشي ملء أضلعه: أبي حبيبي ... وغام الصوت في الغمم
أنا سأقضي دفاعا عن حمى وطني   فإن أنم ميتا وحدي فلا تنم
وعد إلى البيت واحملني لوالدتي   هدية، إن هذا العيد عيد دم
وإن بكت حرقة فامسح مدامعها   حق الشهيد زغاريد بكل فم
أم الشهيد وما فينا بطولته   ولا لدى العرب غير الشجب والكلم
أغرى بجرح ابنك الغالي حميته   ألا يرى لبني صهيون من قدم
حميته فلتفخري بدماه إنها نقشت   عزا لأمته بالنار لا القلم
والله.. والله.. ما في العرب لو حشدوا   مليون مليون... غير العد والرقم
لو كان فيهم رشيد واحد رشدوا   لكنهم كغثاء السيل والعرم
فقل لكل شهيد: أنت أرشدنا   وأنت أكرمنا إذ فزت بالنعم
كل الخيول بأوطاني بلا سرج   –ولا فوارس تعلوها– ولا لجم
والخير بين نواصي الخيل منعقد   إن قيل يا خيل: هذي الساح فاقتحمي
فمن يجيء بها للقدس عادية   ضبحا على صهوات العزم والهمم
غدا تعود إلى ساحاتها ألقا   خيل المغيرين من أحفاد معتصم
وتلتقي بصلاح الدين، موعدنا   حطين ثانية في ساحة الحرم

صحيفة المجد الأردنية ٢٠٠٠/١٠/٣٠م

أفـق

حسام اللحام

هادرا
كان صمت الطريق
حين مر محمد
غيمة من بكاء
ودما من رحيق
كان يعرف
أن المدى سيد الانتظار ويعرف
أن اختباء الغريب
وراء الرصاص ابتداء النهار
ساكن يا محمد فينا
أيا نفحة من مداد السماء
كان يكفي لكي يقتلوك
أن يردوا إليك
حطام اللعب
أو حصان اللعب
أو حصان الخشب
كان يكفي لكي يحرموك الصباح
أن تعود بدفتر رسم ممزق

أن تظل بلا قفزة أو نشيد
حزننا صارخ يا مدانا البعيد
حزننا قمر طالع من ضلوع الشهيد
آن يا ظلنا المستفيق
سوف نطوي كثيرا من الحزن
حين تسيل دموعك فينا نداء مقدس
سوف نطوي كثيرا من البؤس
حين يموت رصاص الكلام
ويبقى رصاص المسدس

قراءة .. في مشهد محمد الدرة

د. حكيم الجراح

-١-

قرأت بعينيك حلم الصغار
وحلم الكبار
وما رجعته المساجد
بأن الذي قتلته اليهود
سيبقى..
صلاة..
ووهجا..
ونبضا لكل القصائد

-٢-

قرأت بعينيك حزن الشوارع
وحزن الدمى الغافيات
على جرحك الراعف
فأورق تأشيرة للدخول
إلى الوطن النازف
فلاحت فلسطين بين اللهب
وقال الوطن
هنا تمتحن
لافتات العرب

-٣-

قرأت بعينيك -عفوك- إني نسيت
حصاري..
وشحة ماء الفرات
وجئتك ألثم جرحي
لأن دماك... دمائي
فنم هانئا، فوق صدر العراق

-٤-

قرأت بعينيك سر افتضاح النهار
وسر احتشاد الرؤى
....
أبي، جاوز الظالمون الـ...
بلى، ولدي قد سمعت الندا
فحق الجهاد
وحق الجهاد
وحق الفدا

واحد موتك

عباس أمير

ومهداة إلى الطفل الفلسطيني محمد الدرة
أألم ظلك في المكان، وفي المكان. تدافع الضوء البهي ليلثمك
أم أشرب اللحظات كميا أوهمك.
أن الذي سالت به أرض القصيدة لم يكن يعني دمك.
أنّى له يعني دمك!
أنىّ! وما خثرت به الطلقات، واستجلت بنادقها البنادق؟
أنى، وفي شرف الكواكب، أشرعت عينيك للضوء البهي، لكي يقول القائلون
خبا أوار زنادها،
فهوت، ولا أحد يجير، سوى ملاءمة اللحى خلف الموائد
ها؟ ما ترى، يا حكمة الضوء التي أسرجت ظلي في صداها، والتجمت غبارها، وبها ثلمت؟
أألّم ظلك في المكان. أم اقترحت تقدمك؟ ماذا ترى؟
أو ما قدمتك كي أليق بناظريك..
وقد قربت من البنادق قدر قلب
ثم سردقت الطفولة في يديك؟
أبنيّ احشر رأسك الوردي في خصري، وعلمني عليك
ابنيّ قدمني إليك وألجئ الحجر العنيد إلى جهاتك
أبنيّ لملمني إليك إذا انكشفت.
.ل أطرافي عليك

أبني إن قشع الرصاص غمامتي عن راحتيك.
فلمّني، لملم ظلالي في المكان، وفي المكان، سأستعيد ظلال صوتك في
الخلايا كي أفز لألثمك
أبنيّ كيف نَزَرْتَ بالموت الذي هيأتني لأنز به؟
ونزعتني نفسا يفتتنه الدوار، ولا دوار، سوى عزوفك عن سؤالي، وقد
فاجأت المساحات التي تترى أمام خيالك الوردي في ظل الفجيعة وفجأتني...
أواه حين فجأتني.
كنت انتزعت يديك من جهتي، ثم سدلت ضوءك
ثم سرت على مساحة خاطري، وخواطري درب يسيجه الرصاص،
ومطمئنا كنت تسري، تضرب الحجر المطل على عصاك، وتحسر الآيات عن
معنى يشف، عن اثنتي عشرة عينا. وانفجرت،،
كأنما كنت اقترحت نبوءة لتفجرك
وكأنما كنت ابتكرت رصاصة لتترجمك!!
أبجس دمك
ثم اقترحك معلما، بي حاجة لتعلمك،
علم نباتات الروابي أن تطال توسمك
علم صلاة الراكعين على التوضؤ في دمك
علّم نياشين القيادة أن تعلق فوق منكبها غبارات الطفولة كي تعلم مأتمك
علم بنود الذلة الرقطاء فقرة، أن موتك واحد،
ثم أن عمرك واحد، ثم أن ظلك واحد
ولذا فدربك واحد، لا لن يجزأ..
ولذا فأرضك مثل موتك مثل عمرك، مثل دربك، مثل ظلك، لن تصير إلى
اختصار أو تجزأ...

الرأي الأردنية ٢٠٠٠/١١/١٠

درة الأقصى

محمد الدرة وأبوه جمال الدرة

الدكتور عدنان علي رضا محمد النحوي

ضمني يـا أبي إليك! فـإني خائف! والرصاص حولي شديدُ
ضمّني! واحمني! فما زال ينصـ ـبّ علينا رصاصهم ويزيدُ
لا أرى في يديك أي سلاح لا ولا في يدي سلاح يفيـدُ
كيف نلقى عدونا عزلا وهـ ـو لديه سلاحه والحشـود
ضمني! ضمني! ولست جباناً إن عزمي، كما علمت، حديدُ
أنا من أمة بناها رسول اللـ ـه والوحي والكتـاب المجيد
غير أن الهوان رعب! ففيه نُذُر ولولتُ وفيـه وعيدُ
نزع الذل عن محياي آمـا لا وغابت مع الفضاء الوعود
ها هم المجرمون! ويحي! وحوش نفرت أم جحافل وجنـودا
اقبلوا يا أبي! ودوى رصاص كل سـاح عواصف ورعـود
لا تخف يا بني! صبرا! فإن الـ لهِ يقضي من أمره ما يريد
وحدنـا نحن يا بني! فصبرا كل ركن نرجو حماه بعيد
كيف جئنا هنا؟! وكيف حصرنا؟! لا أرى ملجأ إليـه نعود
إنه الله وحـده ملجأ الخا ئف يأوي إلى حماه الشريـد
عجبا يـا أبي! لديهم سلاح فأتت نـاره لظى ووقود
جردونا بُنيَّ منـه! رمونـا! ثم دارت بنا ليالٍ سودُ
قلت لي يا أبي: ملايين هم في الـ أرض، نحن المليار أو قد نزيد
هل يرانا الأرحام في الأرض؟ هل هـ ـبَّ أبيٌّ أو مشفق، أو نجيد
أين إخواننا؟! واين بنو العم؟! وأين الأخوال؟! أين الجدود؟!

وتوالى الرصاص! والموت دفـا ق ودوى نداؤه المفؤود
شدّه خلف ظهره واستغاثت أضلع أو خنـاجر أو زنـود
يا أبي..!...! وغـاب منه نداء وطوتـه عنا فيـاف وبيد
أسكتته رصاصـة ورمـاه في ذراعي أبيه سهم حقـود
ضمّه ضمـة المودع! والدمع لهيب على الهـوان شهيد
أسكتته رصاصـة ثم أخرى وطوى صوتـه النديّ حدود
رجَّعتـه كل الروابي دويّا وصداه على الزمـان جديد
غير أن الآذان صمت فأغفت أعينٌ دونها ونامت جهـود

إلى الفتى محمد الدرة

علي الطائي

عند الظهيرة الدخانية
بين صباحها الدامي، في القدس وغزة
ومسائها المحاصر بالبنادق والدبابات
سلبوا منك الشباب والشيخوخة مرة واحدة
وهم يفتحون النار على فتوتك العزلاء.

كفرقة تنفيذ حكم الإعدام
رأيناهم يجرون الحاضر أمام الجميع إلى القتل
دافعين صخرة ماضيهم الداكن
مدحرجينها ببرود القتلة
لسحق الأيام والناس
إنها فتراتهم الدموية التي لا تطول
فعادة ما تتلاشى كالبرد بعد المطر

دارت رؤوس الناس
وهم يضربون الحيطان والركب
ويشاهدون صلبك الصابر
عبر قنوات التلفاز الفضائية
في تلك الأمسية الرمادية

الأمسية التي لم ينقطع بكاؤها حتى الآن.

البرد يحاصر الأرض المحتلة من جميع الجهات
فهل ستنـزل الأمطار.
لو تنـزل الأمطار!

من حلمي عبر شبابيكه المحطمة
والدخان وأصوات الرصاص والقنابل
تيسر لي أن أراك هناك في الأعالي
تحف بك الملائكة والشهداء
متغلبا على بكائك الطفولي بالشكوى
كاشفا عن جراحك القاتلة أمام الله والأنبياء

ما زال حلمي يمسك جمرة الأرض
فيقظتي دم يهز القارات
البحار ضاجة تدفعها ريح ملبية دعواتنا
فهل ستنزل الأمطار؟
ستنـزل الأمطار؟
ستنـزل الأمطار يا فتى المطر.

إلى محمد الدرة .. إلى الانتفاضات كلها

غازي الذيبة

من أخرج الكلمات عن سطر البداية؟
من أضاع النقطة الأولى
وألقى بالكلام عن النهاية في صناديق الغياب؟
ومن تحرق لاشتعال القمح في صدر النهار
أماط أسئلة الصغار عن الخرافة
وهي تجثو تحت وابل عارها؟
من أطلق الكلمات عفوا بعدها
وأشار عن بعد إلى غيم ينـز
وحرقة تجتاحنا
وهدوء عاصفة يمر
ولا تقوم على سنابله الحكايات الصغيرة والكبيرة؟
من رآنا عند مفترق الشهادة
نحتمي بصدورنا من ليلهم
ونعوقهم
نرمي عليهم خوفهم؟
ونزيد من ماء الرواية
أننا كنا وقفنا في الطريق على حفاوتها
وأشعلنا إطارات النهاية
بين ظل الخوف
والباب جزنا حدود الأبجدية وارتفعنا عن مخاوفنا

قرأنا أشعار الفينيقيين في كتاب النار
أشعار القمح الموشى بالدماء
وسلسبيل الماء والتيه المعطر بالمنافي والهواء
خذ وجهك المحفور في صدر الرصاص
خذ انتباهك عند تينات الحواكير القصية
خذ خفق قلبك في الطريق إلى الرواية
واستعد شجرا يغني في الحقول
ويتقد
خذ رسم قدسك شارة
للانعتاق من السكينة والسكون
وخذ نهارك بعد صلية حرقة في القلب
واذهب كي ترد الصاع
فالخفراء في جبل المكبر
لم يعودوا غير وهم رابض في الخوف
والمدن العتيقة لا تسلم ظلها للخائفين
خذ ما تيسر من جموحك
وارتعد
هذا دم متحرق للاشتعال
رجوعنا كان احتداما مع قصائدنا
وصوت آخر يرتج في ميناء شهقتنا
لترتفع المهابة في الطريق
وتشعل النايات
تنثرها على أفق مديد

صوته شجر
وموسيقاه
طارت في ذرى أرواحنا
وتعطرت بالريح والشهقات
والحجر المعلق في هواء الله
مرتجفا
ومشدودا إلى صدر البداية من جديد
هذا دم
ورفيف عشب أخضر
تتطاير الكلمات
تقفز عن جدار الخوف
تخرج من براثنها إلى طرف الحديقة
كي تشاهدنا نمور
وفي غلالتنا حريق
واشتعال
يتقي بيديه أرتال الخرافة
هذا دم مستفحل
يا موج
يا قمر الإفاقة في ملامحنا الحزينة
يا خيول
ويا سهول
ويا سلالات النشيد
لا تنحنِ
لا تنحنِ

لا تنحنِ
وتلك أغنية تطير على قميصك يا
"محمد"
يا أيها الولد الذي ارتجفت حنايا روحه
وأتته من رحم الشساعة غفوة
ومضى بها
كانت رياح الله طالعة وكان الصوت أرمد
والصمت أجفل من تهدجه
وكان الضوء أسود
حتى إذا خفت إلى أوكارها الطير
صعد الغناء من الحناجر
والمساء بصمتك الغافي تردد
يا أيها الولد الندي
ستقوم بعد هنيهة
لترى الظلام وقد تبدد

الشهيد الطفل

فليحه حسن

وأكتب فيك الرسائل
ينتابني الآخرون
فأهرع للبئر أهمسه
كان لقائي سريعا به
كما طلقه
كما دفنتها الهراوة في ضلوع الجنود
كان لقائي بطيئاً به
كما دمعة أم تعد المزادة للذي أنجبته الحدود
وكانت شهادة ميلاده تثير القلق
فكل المعاطف عليه كبيرة
يقال ارتدى معطفا وهذا كلام يشك به
فما راودته غريزة خلع البلاد
سأجمع هذي الدماء التي ما تزال تحط الرحال
لكيما أقول
بأن تفاصيلنا واحدة
وثمة ما بيننا فارق
بسيط، بسيط
هو الجرح يا صاحبي
غير أني صداه

محمد

محمود درويش

محمّد
يعشش في حضنِ والده طائراً
خائفاً
من جحيم السماء: احمني يا ابي
من الطيران إلى فوق! إن جناحي
صغيرٌ على الريح... والضوء أسودْ
***

مُحمّد
يريد الرجوع إلى البيت،من
دون دراجة... أو قميص جديد
يريد الذهاب إلى المقعد المدرسي...
إلى دفتر الصرف والنحو: خذني
إلى بيتنا، يا ابي، كي أعدّ دُرُوسي
وأكمل عمري رويداً رويداً...
على شاطئ البحر، تحت النخيل...
ولا شيء أبعدَ، لا شيء أبعدْ
***

مُحمّد
يُواجه جيشاً بلا حجرٍ أو شظايا
كواكبَ. لم ينتبه للجدار ليكتب:
"حُريّتي لنْ تموت".
فليستْ له، بعد، حريةٌ
ليدافع عنْها. ولا أفق لحمايةِ بابلو
بيكاسو. وما زال
يولد في اسم يُحمّله لعنةَ الاسم. كَمْ
مرةً سوفَ يُولدُ مِنْ نفسه ولداً
ناقصاً بلداً... ناقصاً موعداً للطفولة؟
أين سيحلم لو جاءه الحلم...
والأرض جرح... ومعبدْ؟
* * *

محمد
يرى موته قادما لا محالة. لكنه
يتذكرُ فهداً رآه على شاشةِ التلفزيون،
فهداً قوياً يحاصرُ ظبياً رضيعاً. وحينَ
دنا منْه شم الحليبَ، فَلَمْ يَفْترسه
كان الحليب يُروّضُ وحش الفلاة
إذنْ، سوف أنْجو. يقولُ الصبيُّ
ويبكي: فإنّ حياتي هناك مخباةٌ
في خزانة أمي. سأنْجو...واشهدْ
***

مُحمد
فقيرٌ على قاب قوسين منْ
بندقية صياده البارد الدم. منْ
ساعةٍ ترصدُ الكاميرا حركات الصبيّ
الذي يتوحدُ في ظلّه:
وجهُه، كالضحى، واضحٌ
قلبه، مثل تفاحة، واضحٌ
واصابعه العشر، كالشمع، واضحةٌ
والندى فوق سرواله واضحٌ
كان في وسع صياده أن يفكر بالأمر

ثانيةٌ ويقول: سأتركه ريثما يتهجى
فلسطينه دون ما خطأ...
سوف أتركه الآن رهن ضميري
وأقتله، في غد عندما يتمرد!

***

مُحمّد
يسوعٌ صغيرٌ ينامُ ويحلمُ في
قلبِ أيقونةٍ
صُنعتْ من نحاس
ومن غصن زيتونة
ومن روح شعب تجدد
مُحمد
دمٌ زاد عن حاجة الأنبياء
إلى ما يريدون، فاصعد
إلى سدرة المنتهى
يا مُحمدا

ليلة لا تشبه الليل

مريد البرغوثي

يكاد يلامس زر الجرس،
فإذا الباب، في مهل لا يصدق، يأخذ في الانفراج
ويدخل.
يخطو إلى غرفته
حيث صورته بجوار السرير الصغير،
وحيث حقيبته المدرسية ساهرة في الظلام
يرى نفسه نائما بين حلمين أو علمين.
يدق على غرف البيت،
يدق على غرب البيت،
-يوشك-
لكنه لا يدق،
فيستيقظ الكل في ذهل:
عاد!
والله عاد! يصيحون،
لا يسمعون لصيحتهم أي صوت،
يمدون أذرعهم لاحتضان محمد
لكنها لا تلامس أكتافه.
ودّ لو يسأل الكل على حالهم تحت قصف المساءات.
لم يجد الصوت،
قالوا كلاما، و لم يجدوا الصوت!
يدنو. ويدنون.
مر. ومروا، استمروا ظلالا تمر خلال ظلال
ولا تلتقي!
أرادوا السؤال إذا ما تعشى
أيبرد في الليل أم أنّ سمك الغطاء الترابي يكفي؟
وهل أخرج الطب من قلبه طلقة الخوف؟
أم أنه لم يزل خائفاً؟
ثم هل حل مسألتي الحساب
لئلا يخيب آمال أستاذه في الصباح
وهل..؟
وهو ود، بكل بساطته، أن يقول
أتيت "أطل" عليكم
لكي أطمئن
وقلت أبي سوف ينسى، كعادته، حبة الضغط،
جئت أذكره مثلما اعتدت،
قلت مخدة رأسي هنا لا هناك...
وقالوا...
وقال
ولا صوت!
ولا جرس الباب رن!
ولا كان زائرهم نائماً في السرير الصغير
ولا هم رأوه!
وعند الصباح تهامس أهل الجوار بأن الرواية
محض خيال،
فهذي حقيبته المدرسية مثقوبة بالرصاص،
على حالها
ودفاتره غيرت لونها،
والمعزون ما فارقوا أمه
ثم كيف يعود الشهيد إلى أهله، هكذا،
ماشياً
تحت قصف مساء طويل!

الرأي الأردنية ٢٤/١١/٢٠٠٠

يا دمي... لا تصدق رصاص الكلام

ناصر شبانة

(١)

يا دمي لا تصدق رصاص الكلام
وكن يا دمي الحر
في ساحة العرس وحدك
أنت الذي قمت فينا تصلي
ونحن نيام
لا تقشر بلاغة أيامنا
لا تحدق بمرآة أحلامنا
لا تروج شعاراتنا في الغمام
يا دمي
كن مزيجاً من النار والقار
للثائرين الكسالى
وكن للشهيد الذي أشعل الأرض بالعشق
تعويذة كي ينام
يا دمي النازف الآن في كل حارة
لا تصدق خطى القادمين إلى ظلك الأرجواني
لا تفرغ الريح من عنفوان الحجارة
وخل "المقاليع" تثقب لحم الرخام
يا دمي لا تصدق رصاص الكلام

(٢)

يا دمي
لا تفكر كثيرا
بمن قد أعدوا مراكبهم
للرحيل إلى جثة فارهة
تقدم لتكسر موج الزرد
قبيل الوصول إلى غرفة ما استفاقت
سوى لتعمد آخر جدرانها بالزبد
وحين ينز صديد السؤال
فليس لمن يكسرون الهلال أن يوقفوا النزف في الخاصرة
وليس لهم أن يشدوا وثاق القتيل
إذا أشعلوا النار في الناصرة
يا دمي
كن صليباً على ظهر أجدادهم
كان لهيباً على نهر أحفادهم
كن غريباً على صفحات الجرائد
أو في هديل الحمام
يا دمي لا تصدق رصاص الكلام

(٣)

يا دمي لا تراهن على فارس
لم يجرب صهيل الخيول
ولا تلتفت صوب من تخذوك
وساما لياقاتهم
أو شعارا لباقاتهم
لا تصدق جموع المهلهل حين يدق الطبول
إنهم بعد حين
تدار بنادقهم صوب رأسك
كي يقتلوك ويبكوا عليك

لسوف تسيل على عشرات الأصابع
سوف تعانق صمغ اللغات
ووحل العقول
لا تصدق بطولاتهم يا دمي
في رقاع السلام
يا دمي لا تصدق رصاص الكلام

يا أرضنا وسمانا
ويا قمحنا ورحانا
ويا ملحنا الخام
يا دمي
لا تصدق رصاص الكلام

(٤)

يا دمي
قد شربت حليب الندى
من عروق الردى
أو سماء البنفسج
حين شربنا حليب النعامة
فلا تنتظرنا غداة غدٍ
كي نخبئ عوراتنا خلف أوراق توت الشهامة
إنا رضينا بما قسم النفط للشهداء
من الوجبات السريعة
نحن الذين عبدناك حين دفناك
واكتفينا بمجدك في لقطات "الجزيرة"
نحن الذين سكبنا على لونك الماء
كي يتبخر صوب السماء
وتبقى عيون الكرامة
تحدق في عورة اليافطات
دمي يا يتيم البدايات
يا شهيد النهايات

(٥)

ها هي القدس
راحت تمسد شعر الصغار
تقلم أظفارهم بالحجارة والنار
تكحل أجفانهم بالدماء المحلاة بالجمر
كل صباح انتظار
تلقنهم سورة الفتح
كي يزرعوا الأرض
بالبرتقال وبالغار
ها هم الآن
يرفعون المآذن فوق الدمار
في كل حاراتها، والأذان
يشاركهم صرخة العنفوان
فكن يا دمي أول النازفين
وكن سيد العارفين
وكن كوكبا يا دمي في الظلام
يا دمي
لا تصدق رصاص الكلام

الدستور ٣٠/١٠/٢٠٠٠

الانتفاضة الفلسطينية

في الصحافة الأردنية والعربية

أ.د. تيسير أبو عرجة

قسم الصحافة والإعلام - جامعة البترا

مدخل
الانتفاضة حدث جليل ودرس يستوجب البحث

عندما يتعلق الأمر بكيفية معالجة الصحافة المكتوبة لأخبار الانتفاضة ووقائعها ومجرياتها، فهذا يعني أننا نقف أمام خضم واسع من الأفكار والآراء ووجهات النظر التي تقدمها تعليقات الصحف وعناوينها الإخبارية والمقالية وزواياها وأبوابها الصحفية ومقالاتها الافتتاحية ومقالات كتاب الأعمدة فيها. كما أننا نقف أمام معالجات تتسم بالتناقض أو التعارض أو الاختلاف في وجهات النظر حتى على الصفحة الواحدة أو بين كتاب الصحيفة الواحدة، وأمام معالجات متشعبة من النواحي الفنية والتحريرية، سواء فيما يتصل بالنواحي الإخبارية أو التحليلات والتعليقات والمقالات، أو تلك المتصلة بالنواحي الفنية التي قوامها الصورة الصحفية والرسوم الكاريكاتورية.

وقد حظيت الانتفاضة كحدث كبير جليل في حياتنا العربية، وفي مسيرة كفاح الشعب الفلسطيني بذلك كله من الاهتمام والمعالجة.

وإذا كان المقام يضيق عن متابعة وصفية وتحليلية شاملة لهذه الصحافة منذ اندلاع شرارة الانتفاضة في أيامها الأولى في أيلول ٢٠٠٠ فإننا متيقنون من أن عينات محدودة من صحفنا العربية، وعينات أكثر اتساعا من صحافتنا الأردنية، يمكن أن تعطينا صورة لهذا الدور الذي وقفته وتقفه هذه الصحافة إزاء الانتفاضة الفلسطينية وتطوراتها، وتقدم لنا نماذج من القضايا والموضوعات التي توقفت عندها، وأخذت من مساحاتها حيزا كبيرا من الصفحات والأنهر، ومن أقلام كتابها مزيدا من الجهد والفكر والمتابعة.

وتجب الإشارة إلى أن الانتفاضة الراهنة قد حظيت بقدر كبير من المتابعة الصحفية نظراً لوقوعها في الوقت الذي تشهد فيه الصحافة نقلة نوعية مهمة في استقبال الأخبار من مصادر إعلامية وصحفية متعددة متنوعة، مستفيدة من التقدم التقني الكبير الذي يميز عمل وسائل الإعلام ووسائل نقل الأخبار في الوقت الحاضر. إضافة إلى الشجاعة الكبيرة التي يتحلى بها المندوبون الصحفيون الذين يقومون بتغطية أخبار الانتفاضة، الذين وجدناهم لخطورة دورهم وأهمية رسائلهم الصحفية يتعرضون لشتى أنواع المضايقات والعقوبات والمنع والمطاردة، ناهيك عن أساليب الإرهاب والقتل والتهديد بالقتل من جانب قوات الاحتلال التي تدرك أهمية ما تفعله الرسائل الصحفية والإعلامية في كشف أساليب الاحتلال الوحشية وفضح ممارساته القمعية والعدوانية ضد أبناء الشعب الفلسطيني الأعزل الرازح تحت الاحتلال.

وكانت المفارقة المؤلمة أن بعض الصحف الغربية ووكالات الأنباء العالمية التي تعرض مراسلوها للاعتداءات الإسرائيلية لم تقم بما ينبغي عليها من الاحتجاج وتعرية الاحتلال وذلك بسبب اليد الطولى للوبي اليهودي الصهيوني داخل وسائل الإعلام الغربية وداخل وكالات الأنباء العالمية، التي مهما كانت ضراوة العدوان، وعدالة الكفاح الفلسطيني المشروع ضده، إلا أنها ما تزال خاضعة للمقولات الصهيونية والمنطلقات الدعائية الصهيونية، والتي لم تشأ أن تقدم للرأي العام العالمي الذي تخاطبه رسائل إعلامية صادقة ومحايدة، بسبب السيطرة التي يمارسها الصهاينة على هذه الوسائل الإعلامية الدولية.

إن هذه الحقيقة بدت واضحة في مسألة المفردات والمصطلحات التي قامت بتكريسها هذه الوكالات العالمية للأنباء والصحف الدولية الغربية خصوصاً، وهي المصطلحات المغايرة للواقع، والهادفة إلى قلب حقائق الصراع، وجعل المعتدى عليه

والمعتدي في مركب واحدة، وذلك عندما تسمي النضال المشروع ضد الاحتلال إراهاباً أو عنفاً. وهي لا تنقل بصدق صورة القهر والفضائع الوحشية ضد الشعب الفلسطيني، والتي عندما تحاول نقلها إعلامياً تمثلها في عبارة (الاستخدام المفرط للقوة). والعمليات الاستشهادية تصبح عمليات انتحارية. والحرم القدسي الشريف يصبح جبل الهيكل، وأسماء المدن والقرى الفلسطينية تتحول إلى مسميات عبرية تنطلي على وسائل الإعلام والصحف العربية. وقد أصبحت كلمة العنف مصطلحاً مقرراً بصورة يومية أخذ يحل محل كلمة الانتفاضة، علماً بأن المساحة واسعة بين المعنيين، فالانتفاضة ثورة شعبية يمارسها الشعب الخاضع للاحتلال سعياً وراء استقلاله وخلاصه، والعنف حالة من الشغب والتمرد بين طرفين يسود علاقتهما الكراهية، علماً بأن حالة الكراهية قائمة ولكنها حالة مرتبطة بالحقوق السياسية المشروعة لشعب يطالب بتقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة، ومن حقه أن يسعى إلى أهدافه سلماً أو حرباً وبجميع الوسائل المتاحة للمقاومة.

لقد عالجت الصحافة الأردنية، على اختلافها، وما تزال، أحداث الانتفاضة الفلسطينية بشيء كبير من الاهتمام والتوسع في التغطية سواء من حيث الأخبار أو الكتابات الصحفية المتمثلة بالتعليقات والتحليلات.

وقد تصدرت أخبار الانتفاضة الصفحات الأولى لهذه الصحف، وذلك تعبيرا عن الإيمان بالمصير الواحد الذي يربط بين الأردن وفلسطين، وخصوصية القضية الفلسطنية في حياة الشعب والمجتمع في الوطن الأردني، ودخولها صميم هذه الحياة تاريخا وفكراً، سياسة واقتصادا، وحياة اجتماعية يومية.

أخبار الانتفاضة في جريدة (الرأي) الأردنية

لقد أفردت صحيفة الرأي مساحات مهمة لأخبار الانتفاضة وكان عدد هذه الأخبار في عدد واحد على سبيل المثال (يوم ١٤/١٠/٢٠٠٠) تسعة وعشرين خبراً تتصل جميعها بأحداث الانتفاضة وتطورات القضية الفلسطينية، وجاءت عناوين هذه الأخبار والتقارير الإخبارية على النحو التالي:

- إخفاق الجهود الدبلوماسية.. وإسرائيل تواصل التصعيد
- قمة أردنية سعودية.. اليوم.
- القمع الإسرائيلي في فلسطين.. والغضب يعم العالم الإسلامي
- استبعاد عقد القمة الرباعية بشأن الأزمة في المنطقة.
- تأجيل اجتماع مجلس الأمن بعد التهديد الأمريكي (بالفيتو).
- المغرب يستدعي مبعوثه الدبلوماسي في إسرائيل.
- عرفات يأمر بالتحقيق في مقتل الجنديين الإسرائيليين في رام الله.
- العفو الدولية قلقة على المدنيين الفلسطينيين.
- إسرائيل تدعو لإعادة ناشطي حماس إلى السجن.
- مشروع عربي في الأمم المتحدة لتشكيل لجنة تحقيق حول الاعتداءات الإسرائيلية.
- مساعدات عربية جديدة تصل إلى الفلسطينيين.
- تظاهرات في الأزهر تطالب بالحرب ضد إسرائيل.
- شهيد وعشرات الجرحى.. مظاهرات الغضب تعم المدن الفلسطينية.
- شارون في باريس الثلاثاء.. للمشاركة في مهرجان لدعم إسرائيل.

- برنامج الخليج العربي يتبرع بمليون دولار لدعم أطفال فلسطين في مواجهة العدوان الإسرائيلي.
- الصحف الأوروبية ترى بوادر حرب جديدة في الشرق الأوسط.
- خرازي: إسرائيل تريد سحق الفلسطينيين.
- مستشار باراك: لا بديل عن عملية السلام.
- المخابرات الإسرائيلية توصي بدمج فلسطينيي ٤٨ لتفادي غضبهم.
- باراك يكثف جهوده لتشكيل حكومة طوارئ.
- كنيس أريحا لم يتعرض لأضرار تذكر.
- تظاهرات فلسطينية حاشدة في لبنان ضد الوحشية الإسرائيلية والولايات المتحدة.
- الاتحاد الأوروبي يدعو أطراف النزاع في الشرق الأوسط إلى قمة عاجلة.
- ألمانيا تشدد الأمن على المباني اليهودية والأمريكية.
- واشنطن تغلق مؤقتاً عدداً من سفاراتها في آسيا وأفريقيا لأسباب أمنية.
- إسرائيل تغلق الحدود مع مصر.
- الشرق الأوسط يواجه فترة من الاستقطاب.
- مجلس وزراء الداخلية العرب يدعو إلى دعم الشرطة الفلسطينية.
- مفتي سوريا يطالب بقطع أي علاقة مع إسرائيل.

وكان عدد الأخبار الخاصة بالانتفاضة والقضية الفلسطينية في الرأي يوم (٢٠٠٠/١١/٨) اثني عشر خبراً وتقريراً إخبارياً، جاءت تحت العناوين الآتية:

- شهيدان والاحتلال يكثف البناء في المستوطنات.
- الأمهات الفلسطينيات ينجبن المزيد لرفد الانتفاضة ودحر الاحتلال.
- شهيدان في بيت لحم ورفح وإطلاق النار على دورية للاحتلال في قلقيلية.
- هجوم استشهادي ضد زورق عسكري قبالة غزة.
- قبعة: إعلان الدولة الفلسطينية في ١٥ الجاري.
- موفاز يتهم الفلسطينيين باستخدام طائرة عرفات الخاصة لنقل أسلحة.
- ٦٣٪ نسبة زيادة البناء في المستوطنات عام ٢٠٠٠.
- ضغوط فلسطينية لنشر قوات دولية لحماية المدنيين.
- باراك يحمل بيروت ودمشق مسؤولية الاستقرار على الحدود.
- وزراء المالية العرب يناقشون صندوق دعم الفلسطينيين.
- الإسرائيليون يميلون إلى آل غور والفلسطينيون لا يتوقعون شيئاً من الرئيس المقبل.
- سوريا تطالب القمة الإسلامية بقرارات صارمة ضد إسرائيل.
- دنيس روس يتخلى عن منصبه مطلع العام المقبل.

أما عدد صحيفة الرأي الصادر يوم (٢٠٠٠/١١/٢٥) فقد تضمن (ستة عشر خبراً وتقريراً إخبارياً) جاءت عناوينها على النحو التالي:

- مقتل ضابط وجندي إسرائيليين واستشهاد سبعة فلسطينيين.
- إسرائيل تغير أساليب المواجهة للتكيف (مع نموذج كوسوفو).
- مقتل ضابط وجندي إسرائيليين والاحتلال يشن حملة اعتقالات بين الفلسطينيين.

- آلاف الفلسطينيين يشيعون الشهيد بني عودة في نابلس.
- المطالبة بالاستعداد لاحتمال انفلات المواجهة إلى حرب شاملة.
- أوسلو تقترح نشر مراقبين عسكريين لوقف المواجهات الفلسطينية –الإسرائيلية.
- صحافيون لبنانيون يتضامنون مع الانتفاضة.
- مبارك يحذر من انتقال (الإرهاب) لأماكن أخرى ويشترط وقف العدوان الإسرائيلي لعودة السفير.
- عرفات واثق من إمكانية الحل وبوتين يتعهد بدعم السلام.
- الفلسطينيون على وشك العودة للحطب لطهي الطعام بسبب حظر المحروقات.
- نتنياهو وشارون يتقدمان على باراك وثلثا الإسرائيليين يستبعدون تحقيق السلام.
- عرفات وباراك يتفقان على استمرار التعاون الأمني وعمل مكاتب الارتباط.
- الانتفاضة مرشحة للتصعيد بحلول رمضان المبارك.
- الجهاد تؤكد استمرار الهجمات على إسرائيل.
- اجتماع طارئ لوزراء الإعلام العرب حول الانتفاضة اليوم.
- مبارك: غياب عرفات عن الساحة السياسية (كارثة).

أخبار الانتفاضة في جريدة الدستور الأردنية

أبدت صحيفة الدستور اهتماما مماثلا بتغطية أحداث الانتفاضة وتطوراتها، ففي عددها الصادر يوم (٢٠٠١/١/٩) بلغ عدد الأخبار المتصلة بهذه القضية ثمانية عشر خبرا وتقريرا إخباريا كانت عناوينها كما يلي:

- كلينتون يعلن أمام منظمة يهودية خطته للتسوية.
- جدد التمسك بحق العودة لجميع الفلسطينيين، سفير فلسطين: ٣٠٠ الف طن من المساعدات معرضة لرفض إسرائيل إدخالها.
- حفل خيري يرصد ريعه لدعم جرحى انتفاضة الأقصى.
- لجنة الدفاع عن حق العودة ترفض مقترحات كلينتون.
- برنامج الشهيد (الدرة) على الانترنت يعطل مواقع المؤسسات الاقتصادية الإسرائيلية.
- جيش الاحتلال يعد قواته الاحتياطية لقتال ميداني.
- الاحتلال يحرك حدوده وراء (الخط الأخضر) في الضفة الغربية.
- إصابة ١٦ صحفيا خلال ٦٠ يوما من الانتفاضة.
- أمهات شهداء ٤٨ في بيان عام: أصبنا في الصميم وحان الوقت لأن نكسر صمتنا.
- حكم بالسجن لمدة ٩ سنوات على فتى مقدسي.
- جيش الاحتلال يغلق الأغوار والطرق المؤدية إلى بيسان.
- في دراسة توثيقية: قلعة داود دليل على استهداف إسرائيل للأماكن التاريخية في القدس.
- كلينتون يعرض الخطوط العريضة لمقترحاته (السلمية).
- رفض فلسطيني وقبول إسرائيلي لأفكار كلينتون كأساس لاتفاق سلام ينهي الصراع في المنطقة.

- فلسطينيو لبنان يتمسكون بحق العودة ورفض التوطين.
- هولبروك يعتبر تدخل الأمم المتحدة في الشرق الأوسط (صباً) لـ (الزيت على النار).
- مهاجمة كل مواقع الجيش الإسرائيلي في غزة بالرشاشات.
- فشل المحادثات الأمنية الرباعية في القاهرة.

أما في عدد اليوم التالي (١٠/١/٢٠٠١) فقد بلغ عدد هذه الأخبار والتقارير الإخبارية خمسة عشر خبراً وتقريراً إخبارياً كانت عناوينها على النحو التالي:

- باراك يتوعد بضم المستوطنات والانفصال الجزئي.
- البدء بتحويل رواتب شهرية للصيادلة الفلسطينيين المتضررين من الاعتداءات الإسرائيلية.
- وكالة الغوث تطلق مناشدة لتعزيز عملياتها في الضفة وغزة.
- مذكرة موجهة لرئيس الوزراء: لجنة التنسيق الحزبي تدعو لإعادة نظرة شاملة بالرواتب وضريبة المبيعات ووقف العمل (بمعاهدة السلام) والانفتاح على العراق وسوريا.
- جسر الملك حسين مغلق حتى إشعار آخر.
- حزب جبهة العمل الإسلامي يدعو لرفض مقترحات كلينتون الصهيونية.
- أحزاب المعارضة: المقترحات الأمريكية لن تساهم في تحقيق الأهداف الفلسطينية.
- رمضان: فلسطين لا تتحرر إلا بالقوة.
- الأسد وبرودي يبحثان عملية السلام.
- اشتباك مسلح شمال قطاع غزة.
- أرملة شهيد فلسطيني تقاضي باراك.
- جماعة يهودية تطالب كلينتون بإطلاق سراح الجاسوس (بولارد).
- عرفات: لا سلام دون القدس وحق العودة، باراك: الشرق الأوسط على مفترق طرق.

- لقاء أمني سياسي بين الإسرائيليين والفلسطينيين بحضور أمريكي.
- أمريكا وبريطانيا تعارضان طلب العراق تلبية احتياجات الفلسطينيين من مبيعات النفط.

وفي العدد الصادر يوم (٢٠٠١/١/١٣) كان عدد الأخبار والتقارير الإخبارية المتعلقة بالانتفاضة ثلاثة عشر خبراً وتقريراً إخبارياً جاءت عناوينها على النحو التالي:

- ٤٨ ساعة حاسمة لإنقاذ عملية السلام.
- فتح جسر الملك حسين وحركة عبور غير عادية.
- إسرائيل لقوات الطوارئ: لا نملك خرائط للألغام بجنوب لبنان.
- اتفاق بين الأردن وفلسطين في مجال نقل الحجاج.
- مدير دائرة الشؤون الفلسطينية يؤكد حرص الحكومة على تحسين أوضاع المخيمات.
- الشيخ ياسين: خيارات التسوية سقطت.
- الفلسطينيون يرفضون اقتراحاً كندياً لاستقبال اللاجئين.
- الأسد يطالب بدور صيني فاعل في المنطقة.
- مسؤول إسرائيلي إلى واشنطن لاستيضاح توجهات إدارة بوش.
- إيران ونيجيريا تدعوان إلى عودة اللاجئين الفلسطينيين.
- تفكيك عبوتين ناسفتين في القدس الغربية.
- الأسد والحريري يبحثان اعتداءات إسرائيل على فلسطين.
- تل أبيب: إيران تدرب فلسطينيين لتنفيذ هجوم شراعي وشيك.

الانتفاضة في المقالات الافتتاحية ومقالات كتاب الأعمدة في "الرأي"

ولعل هذه الكثافة الإخبارية كما أسلفنا، تعبر عن الاهتمام الكبير الذي أبدته الصحف الأردنية في نشر أخبار الانتفاضة وتطوراتها التي تحتل عناوين صفحاتها الأولى، وجانباً مهماً من المساحة المخصصة للأخبار العربية والدولية في صفحاتها الداخلية.

وإلى جانب هذه التغطية الإخبارية، كان هناك اهتمام بهذه الأحداث لدى الكتاب والمعلقين في هاتين الصحيفتين، إلى جانب ما تقدمه الصحيفتان من آراء وتعليقات عبر المقالات الافتتاحية التي توقعها هاتان الصحيفتان.

فلا يكاد يخلو عدد من أعداد صحيفة (الرأي) منذ اندلاع الشرارة الأولى للانتفاضة من مقالات لكتاب الأعمدة المتفرغين فيها، وأولئك الكتاب الصحفيين، تتناول هذا الحدث الكبير وأبعاده وانعكاساته العاجلة والآجلة على مجمل الصراع العربي الصهيوني، وعلى مستقبل المنطقة العربية.

وبقراءة مجموعة من أعداد صحيفة (الرأي) بطريقة عشوائية نجد أن عناوين المقالات الافتتاحية التي تطرقت لمعالجة الشأن الفلسطيني المتصل بأحداث الانتفاضة كانت على النحو التالي:

- المنطقة لا تحتمل انتكاسة في عملية السلام (١٦/٢/٢٠٠١).
- قبل جولة كولن باول.. احتقان وأجواء مضطربة (٢٠/٢/٢٠٠١).
- في جولة الوزير باول.. هل من مبادرة أمريكية (٢٣/ ٢/ ٢٠٠١).
- مغامرة لن يكتب لها النجاح.. ومسمار أخير في نعش عملية السلام (٢/٣/٢٠٠١).
- دور أمريكي من خلف الكواليس لن يخدم عملية السلام أبداً (٤/٤/٢٠٠١).

- تصعيد مبرمج يستهدف إطاحة عملية السلام (٢٠٠١/٣/٤).
- يقرعون طبول الحرب.. فيما العالم يدعو للسلام (٢٠٠١/٣/٨).
- إجراءات عنصرية مصيرها الفشل (٢٠٠١/٣/١٣).
- فلنضع المصلحة العربية العليا فوق كل المصالح والاعتبارات (٢٠٠١/٣/٢٨).
- عدوان سافر لن يحقق أهدافه (٢٠٠١/٣/٣٠).
- هل تدرك واشنطن أن عملية السلام تحتضر (٢٠٠١/٤/١).
- لا حل عسكرياً للصراع.. ونحن مع فلسطين وحقوق شعبها (٢٠٠١/٤/١٣).
- المنطقة لا تحتمل كل هذا التوتر والتصعيد (٢٠٠١/٤/٢٣).
- بداية جديدة أم استثمار للوقت (٢٠٠١/٤/٢٤).
- حكومة شارون تسعى لتفريغ المبادرة من محتواها (٢٠٠١/٤/٢٦).
- ماذا في جعبة بيرس (٢٠٠١/٤/٢٧).
- القبول التكتيكي وحقيقة دور شمعون بيرس (٢٠٠١/٤/٢٨).
- لا حل بغير الطرق السياسية (٢٠٠١/٥/٢).

أما كتاب الأعمدة الصحفية، والمحللون السياسيون، فقد تناولوا مختلف جوانب أحداث الانتفاضة بالتعليق والتحليل، وكانت هذه التعليقات تدور حول مجريات أحداث الانتفاضة وتطوراتها، والتطورات المتصلة بالحياة السياسية والحزبية داخل الدولة الصهيونية، وهذه بعض النماذج من عناوين هذه المقالات والتعليقات التي نشرتها صحيفة الرأي، نأخذها بطريقة عشوائية، إضافة إلى ما نرى ضرورة تسجيله من مقتطفات تعبر عن ما تتضمنه هذه المقالات من أفكار ووجهات نظر:

ففي الرأي بتاريخ ٢٠٠١/٢/١٧ جاء مقال الكاتب (محمد خروب) بعنوان: ماذا يعني ائتلاف شارون... الوطني. ومقال (فالح الطويل) بعنوان: حرب هي، وتهديد بها، أيا كانت مسمياتها؟. ومقال (هاشم سلامة): جميعهم أعداؤنا. ومقال (سلامة عكور): تصعيد العنف الإسرائيلي يجابه بتصعيد الانتفاضة.

وفي عدد (الرأي) بتاريخ ٢٠٠١/٢/٢٠ كتب فهد الفانك مقاله بعنوان (الانتفاضة وكلمة جاء وقتها) دعا فيها إلى وجود أهداف سياسية واضحة، معتبرا أن الانتفاضة (حققت أغراضها الحقيقية في وقت مبكر بإفهام العالم أن الاحتلال الإسرائيلي مرفوض) وأن المفاوض الفلسطيني أضاع فرصة استثمار ما قدمه باراك من تنازلات لصالح الفلسطينيين. وأن (استمرار الانتفاضة ستة أشهر لم يحقق إجلاء الاحتلال الإسرائيلي بالقوة، ولم يزعزع أمن إسرائيل بل زعزع أمن المواطنين العرب على جانبي الخط الأخضر، وأسقط الحكومة التي أبدت رغبة في الوصول إلى تسوية، وجاء بحكومة شارون صاحب نظرية الترانسفير أي طرد السكان الفلسطينيين إلى (دولتهم) في الأردن.

وقد جوبه رأي د. الفانك هذا بردود غاضبة من بعض المحللين الذين اعتبروا أنه لم تكن هناك فرصة ضائعة وأن الإسرائيليين هم الذين اختاروا شارون ولم تأت به الانتفاضة، ولم يقبل الإسرائيليون أية تنازلات من جانب باراك.

ونشرت (الرأي) في عددها يوم ٢٠٠١/٢/٢٣ المقالات الآتية:

- جرائم إسرائيلية بشعة.. بلا ضجيج (د. فايز رشيد).
- ماذا في جعبة باول (هشام عزيزات).
- دور الأقلام في معارك الأمة (يوسف الغزو).

وفي عدد يوم (٢٠٠١/٢/٢٤) جاءت المقالات على النحو الآتي:

- حكومة الحرب في إسرائيل (د. عبد الله السيد ولد أباه).
- استحقاقات المرحلة الشارونية (د. سليمان الطراونة).
- نحو قمة للسلام العربي.. العربي (د. رسول محمد رسول).

وفي عدد يوم (٢٠٠١/٣/٢) كان هناك مقال بعنوان: يهود روسيا والحقد على العرب لـ (د. فايز رشيد).

ويوم (٢٠٠١/٣/٣) كان هناك مقالان لـ: (سلطان الحطاب) بعنوان: حكومة إرهابية –ولعبة لن تطول.

وفي عدد يوم (٢٠٠١/٣/٤) من الرأي كانت المقالات الآتية:

- ثبات الأهداف الأمريكية والصهيونية وتراجع الأهداف العربية (عبدالله الحوراني– فلسطين).
- طريف وبن اليعازر معا في حكومة شارون الائتلافية (محمد ناجي العمايرة).
- إسرائيل والاستقرار السياسي في الدول العربية (د. أحمد البرصان).

وفي عدد (الرأي) الصادرة يوم (٢٠٠١/٣/٨) جاءت المقالات الآتية:

- أمن مقابل سلام.. أم سلام مقابل سلام (هشام عزيزيات).
- لكي تراجع تل أبيب وواشنطن ولندن حساباتها ومواقفها (سلامة عكور).
- حكومة شارون: مأزق للجميع (رجا طلب).

وفي الرأي الصادر يوم (٢٠٠١/٣/١٠) كانت المقالات الآتية:

- هذا الانشغال بشارون وتصريحاته؟ (محمد ناجي العمايرة).
- انظروا إلى تاريخه وما فعلت يداه (سلطان الحطاب).

- اتحاد ضد كل العرب (محمود الريماوي).
- الارتباك العربي سيد الموقف.. فيما شارون يعرف ما يريد (محمد خروب).
- نحو ولادة جديدة للجامعة العربية (حسين أبو رمان).
- ماذا بعد حكومة شارون (مفيد نحلة).
- هل القيادة الإسرائيلية قادرة على الوقوف لحظة للتأمل (فالح الطويل).
- مستقبل الانتفاضة في عهد شارون (د. عبد الله السيد ولد اباه–نواكشوط).
- الاعتذار قبل الكلام عن (الجيرة الحسنة)، طارق مصاروة الذي يقول فيه: (..فإن عليه "أي شارون" أولا أن يقول كلاما واضحا بأن الأردن ليس جزءا من ارض إسرائيل وأنه خرج عن النص حين دعا إلى إسقاط النظام الأردني ومنح الفلسطينيين دولة في الأردن).

وفي عدد (الرأي) بتاريخ (٢٠٠١/٣/١٣) كانت المقالات الآتية:

- نحو قمة مصالحة عربية أولا (محمد ناجي العمايرة).
- عن القمة العربية القادمة (سلطان الحطاب).
- واشنطن: القمة والحرب (محمود الريماوي).
- لكي يستعيد العرب أراضيهم وحقوقهم (سلامة عكور).
- الفلسطينيون ورهانهم الخاسر (خالد محادين).
- حكومة شارون: خلطة عجيبة بين المصالح المتناقضة والأهداف الإسرائيلية (غازي السعدي).

وفي عدد الرأي يوم (٢٠٠١/٣/١٦) نشرت المقالات الآتية:

- خيارات شارون (د. فهد الفانك) قال فيه: (.. فإن شارون مدان سياسيا ومرفوض عربيا حتى تثبت براءته ويكفر عن ذنبه).

- العداء الصهيوني عبر الإنترنت (ليلى الحمود).
- حتمية فشل حكومة شارون (هايل الدعجة).

وفي عدد يوم (١٨/٣/٢٠٠١) كانت المقالات الآتية:

- أيها القادة: لا نسألكم أموالكم، بل نسأل عن سيوفكم. (عبدالله الحوراني.. فلسطين).
- قمة عمان التاريخية والقضية الأشد إلحاحا (سلامة عكور).
- الموسيقى والأغاني في خدمة الانتفاضة، ماذا سيقول شارون في واشنطن (محمد خروب).
- بمناسبة انعقاد القمة العربية: سأل المنتفضون: نحن هنا صامدون، فأين.. أين أنتم (د. أسعد عبد الرحمن).
- القدس مفتاح السلام الوحيد (د. محمد شحادة عليان).

وقبل انعقاد مؤتمر القمة العربية في عمان، بيوم واحد أي في (٢٦/٣/٢٠٠١) نشرت الرأي المقالات الآتية:

- قمة إعادة بناء النظام العربي (محمد ناجي العمايرة).
- لسان حال العرب (محمود الريماوي).
- ما وراء الوفاق اللفظي (إبراهم العجلوني).
- الخطأ التاريخي.. شارون أم لجنة ميتشيل (محمد خروب).
- نحو خيار قومي ينتصر لفلسطين وينهي حصار العراق (النائب منصور مراد).
- الأمة العربية أمانة في أعناقكم (شهلا الكيالي).
- الأمن القومي العربي: حدود بناء الثقة (باسم الطويسي).
- أنين الأقصى في مؤتمر القمة (د. عبد العزيز المقالح–صنعاء).

وفي العدد الصادر يوم (٢٨/٣/٢٠٠١) أي يوم افتتاح القمة العربية في عمان، كانت المقالات الآتية:

- فلنتجنب الفخ الإسرائيلي، ولندعم الانتفاضة الفلسطينية (حسني عايش).
- شارون ينتظر اختتام قمة عمان لتنفيذ تهديداته وإعلان مفاجآته (غازي السعدي).
- كشف الغمة عن أهل القمة (د. صلاح جرار).
- التضامن العربي أساس الخيار الاستراتيجي للسلام (محمد مثقال عصفور).
- الحالة بين شارون والانتفاضة (رجا طلب).
- تجملي بالصبر يا أم الشهيد (ليلى الحمود).
- البقاء للأقوياء (د. محمد القضاة).
- ما ترجوه الأمة من زعمائها (د. سمير قطامي).
- مخاوف أمريكية إسرائيلية (إبراهيم العجلوني).
- حكمة القادة العرب والحل التفاوضي (محمد ناجي العمايرة).
- دعونا نختلف في العلن (د. فهد الفانك).

وفي عدد يوم (٢٠٠١/٣/٢٨) من (الرأي) كانت المقالات الآتية:

- إسرائيل إذ تمارس ضبط النفس، ماذا سيفعل شارون بعد قمة عمان (محمد خروب).
- حكومة شارون: التوازن المستحيل بين الأمن والسلام (نهاد أبو غوش).
- الكلمات التي نقولها كلنا (طارق مصاروة) وجاء فيه: (.. كلنا في مواجهة الخطر نتحدث اللغة ذاتها، ونستحضر الدعوة القومية ذاتها، لكننا لا نملك إرادة النهوض.. لأن قلوبنا شتى).

ويوم (٢٠٠١/٣/٢٩) من (الرأي) كانت المقالات الآتية:

- قمة رحلة الألف ميل (سلطان الحطاب).
- عفا الله عما مضى (رجا طلب).
- القرار العربي أولا (طارق مصاروة).
- إسرائيل فوق القانون (يوسف عبد الله محمود).
- واشنطن وتل أبيب، هل بدأت مرحلة ما بعد عرفات (محمد خروب).

وفي عدد (الرأي) الصادر يوم (٢٠٠١/٣/٣٠) نشرت المقالات الآتية:

- غزة والحرب البيولوجية (د.يوسف الفقهاء).
- وحبر القمة لم يجف بعد (سلطان الحطاب).

ونشرت في العدد الصادر يوم (٢٠٠١/٤/١) من (الرأي) المقالات الآتية:

- عندما يستعير شارون لسان وعقل بيرس (د. أسعد عبد الرحمن).
- فضائيات إيقاظ الفتنة النائمة (محمد ناجي العمايرة).

وفي العدد الصادر يوم (٢٠٠١/٤/٤) كانت المقالات الآتية:

- لماذا الحفاوة الأمريكية بشارون: لماذا الاستهتار الأمريكي بالعرب (معن بشور– بيروت).
- الغضب الأمريكي آت (ضرغام هلسا).
- الموقف الأمريكي.. هل ثمة جديد (محمد ناجي العمايرة).
- شيء من رماد النار (مفيد نحلة).
- أوروبا.. الاحتياط الجاهز في خدمة واشنطن وتل أبيب (محمد خروب).

وكانت مقالات الكتاب في العدد الصادر يوم (٢٠٠١/٤/٧) من الرأي كما يلي:

- العودة إلى ما قبل أوسلو (طارق مصاروة).
- انتفاضة الأقصى إلى أين (د. عبد الله السيد ولد أباه).
- إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية (محمود الشيبي).
- الانتفاضة الفلسطينية أثبتت قصر نظر بلفور (هاشم سلامة).

وتضمن العدد الصادر يوم (٢٠٠١/٤/١٣) المقالات الآتية:

- أمة لن تفلس أبدا (ضرغام هلسا).
- عالم منافق.. عالم كذاب (سلطان الحطاب) وفيه يقول: (لماذا يصمت العالم على بطش القوة المحتلة وإرهاب الدولة الإسرائيلية ويضغط باتجاه إدانة المقاومين واتهامهم بالعنف، ولماذا تمشي أوروبا في نفاق مفضوح خلف الموقف الأمريكي الأعمى).

وفي العدد الصادر يوم (٢٠٠١/٤/١٥) كانت المقالات الآتية:

- التجربة المرة (محمود الريماوي) ويقصد بها دخول صالح طريف عضو الكنيست العربي من حزب العمل وزارة شارون.
- ماذا عن التقصير العربي (د. محمد شحادة عليان).
- ظواهر مجتمعية فاشية في إسرائيل (د. فايز رشيد).
- أم المجازر (د. اسعد عبد الرحمن)، يعقب فيه على اجتياح جيش الاحتلال لمخيم خان يونس في قطاع غزة.

ونشرت (الرأي) في عددها الصادر يوم (٢٠٠١/٤/١٧) المقالات الآتية:

- صواريخ البقاع مرة أخرى (طارق مصاروة).
- سفر شارون (نايف النوايسة).

- حزب الله.. لماذا (رجا طلب).
- دورة العربدة في مواجهة دورة الكلام هل انتهت فرصة شارون إذاً ؟ (محمد خروب).
- لا وجود لخطة المائة يوم.. كل الأيام خطة إسرائيلية متكاملة للسيطرة على الأرض (غازي السعدي).

وفي عدد الرأي يوم (٢٠٠١/٤/٢١) كانت المقالات الآتية:

- استثمار الشرعية الدولية لمقاضاة الصهيونية (د.عبد الله السيد ولد أباه).
- الصراع القادم: شارون–بيريز؟ (رجا طلب).
- المنامة السلطانية (د. صلاح جرار).
- انحسار إسرائيل (د. فهد الفانك)، وجاء فيه (يقول البعض إن زوال إسرائيل حتمية تاريخية، ومن المؤكد أن سلوك إسرائيل غير السوي، واعتداءاتها المتكررة تعطي مصداقية لما يقوله هؤلاء، خاصة بعد أن أعطى العرب إسرائيل فرصة تاريخية لتحقيق سلام عربي –إسرائيلي شامل ودائم، ولكنها أضاعت الفرصة).

وفي عدد يوم (٢٠٠١/٤/٢٣) جاءت المقالات الآتية:

- الأزمة الإسرائيلية الفلسطينية (د.بسام العموش).
- القلم كالحجارة، تحية إلى ليلى عودة (د. رسول محمد رسول) وليلى عودة هي مراسلة تلفزيون أبو ظبي في فلسطين وقد تعرضت لرصاص جنود الاحتلال مما أدى لإصابتها بجراح .
- البعد الديني في العلاقات الأمريكية الإسرائيلية (د. فايز رشيد).
- سياسات شارون، عودة إلى الجذور (ضرغام هلسا).
- هل بدأت مرحلة خلط الأوراق (هشام عزيزات).
- إيلاء الاعتبار (للألم) أكذوبة اسمها اليسار الإسرائيلي (محمد خروب).

وفي الرأي الصادرة بتاريخ (٢٠٠١/٤/٢٤) كانت المقالات الآتية:

- متى سيكون الزمان مناسباً لردع الغطرسة الإسرائيلية (د. محمد شحادة عليان).
- الوعل الإسرائيلي والصخرة الفلسطينية (د. سمير قطامي).
- بيرس وبن اليعازر إذ يبسطان مظلة لشارون. رسالة إلى دمشق وأخرى إلى عمان والقاهرة (محمد خروب).
- القلعة العنصرية التي تتصدع كل لحظة (خالد محادين).
- كورال العنصرية الصهيونية (رحاب القوصيني).

وفي عدد يوم (٢٠٠١/٤/٢٨) من الرأي كانت المقالات الآتية:

- "الهوبرة" الإسرائيلية التي يمثلها بيرس (سلطان الحطاب).
- بيريز يحمل (لعم) إسرائيلية (رجا طلب).
- الورقة الأردنية –المصرية هل هي قابلة للتعديلات الجوهرية (سلامة عكور).
- هلم نشتكي على إسرائيل (حسن أبو نعمة).
- الدول الأوروبية باتجاه المنطقة، دور جديد أم باتفاق مع واشنطن (محمد خروب).

وفي عدد يوم (٢٠٠١/٤/٢٩) من الرأي، كانت هذه المقالات:

- زيارة شمعون بيريز إلى عمان، هل تصب الماء البارد على المبادرة الساخنة (رمضان الرواشدة).
- المبادرة وأهدافها (طارق مصاروة).
- في متاهة القراصنة وبشاعة الجنرال (مفيد نحلة).
- جواب الانتفاضة على المطالبين بوقفها (د. أسعد عبد الرحمن)، قال فيه: (الجديد أن التطورات جاءت لتعزز وجهة النظر القائلة بأن دفاع الشعب الفلسطيني عن

نفسه بالانتفاظة/ المقاومة في مواجهة شارون وبرنامجه وائتلافه هو السلاح الأمضى والأفعل).

وفي (الرأي) الصادرة بتاريخ (٢٠٠١/٤/٣٠) كانت المقالات الآتية:

- نحن وأمريكا–أين الخطأ (د. فهد الفانك).
- خرائط الجنرال (أحمد ذيبان).
- وقف إطلاق النار والتباسات المعاني والدلالات (محمد خروب).
- وجاء في مقالة (د. عبد العزيز المقالح): (إن المفاوضات بعد أن طالت وتعثرت وحققت هدف العدو لم تعد مقبولة ولا تحظى بالثقة المطلوبة من الشعب العربي الفلسطيني بكل فصائله واتجاهاته).

وفي عدد (الرأي) الصادر يوم (٢٠٠١/٥/٣) كتب طارق مصاروة في مقالة (كل يوم) يقول: (إن الانتفاضة الفلسطينية هي الدرع الواقي، وهي الخندق الأمامي الشرس في مواجهة الغزوة الصهيونية).

الانتفاضة في المقالات الافتتاحية ومقالات

كتاب الأعمدة في (الدستور)

قامت صحيفة الدستور بكتابة العديد من المقالات الافتتاحية، التي تعبر عن رايها كصحيفة يومية أردنية، تجاه أحداث الانتفاضة وتطوراتها وأساليب القمع الإسرائيلية الوحشية ضد شبان الانتفاضة والشعب الفلسطيني الأعزل.

وكانت عناوين هذه المقالات، المنشورة في أعداد الصحيفة التي تم اختيارها عشوائياً من الشهور التي انقضت من عمر الانتفاضة التي تتواصل منذ شهر أيلول

سبتمبر ٢٠٠٠ على النحو التالي:

- العنف لا يولد إلا العنف (٢٠٠١/٢/١٥).
- كلنا مستهدفون بالعدوان (٢٠٠١/٢/١٩).
- تفاقم الأوضاع الفلسطينية والمسؤولية العربية الملحة (٢٠٠١/٢/٢٠).
- القضية الفلسطينية أولوية عربية (٢٠٠١/٢/٢٥).
- جرائم الحرب الإسرائيلية (٢٠٠١/٣/٣).
- الدائرة الإسرائيلية الدامية (٢٠٠١/٣/٦).
- شارون وحكومة الحرب (٢٠٠١/٣/٧).
- مواقف أمريكية استفزازية (٢٠٠١/٣/٩).
- الدعوة العربية لعقد اجتماع مجلس الأمن (٢٠٠١/٣/١٣).
- ادعاءات إسرائيل بالليونة (٢٠٠١/٣/١٨).
- الأولوية.. المصالح القومية العليا (٢٠٠١/٣/٢٥).
- قمة الرجاء والأمل (٢٠٠١/٣/٢٧).
- تمادي الإنحياز الأمريكي الأعمى (٢٠٠١/٤/٢).
- إعادة عملية السلام إلى مسارها الصحيح (٢٠٠١/٤/٣).
- بلدوزر الحرب والاستيطان (٢٠٠١/٤/٧).
- خطوة أمريكية في الاتجاه الصحيح (٢٠٠١/٤/٨)، (تعقيباً على تصريح أمريكي بالاحتجاج على سياسة الاستيطان الإسرائيلية).
- الكونغرس الأمريكي والعدوان الإسرائيلي (٢٠٠١/٤/٩).
- تصعيد عسكري إسرائيلي يسابق التصعيد السياسي (٢٠٠١/٤/١٥).
- التصعيد الإسرائيلي إذ يتجاوز كل الحدود (٢٠٠١/٤/١٨).

- فعالية الدبلوماسية الأردنية (١٩/٤/٢٠٠١).
- حرب شارون طويلة الأمد (٢١/٤/٢٠٠١).
- تجليات عجز النظام العربي (٢٢/٤/٢٠٠١) فيها: (البيان الذي أصدره مجلس الجامعة العربية المنعقد على مستوى المندوبين الدائمين يوم أمس، وما انطوى عليه من عبارات شجب واستنكار معهودة للعدوان الإسرائيلي المتواصل ضد الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين، بيان يثير الأسى ويدعو إلى الرثاء إزاء ما آل إليه حال النظام العربي الرسمي العاجز عن الاستجابة لأيّ من التحديات المحدقة بحاضر ومستقبل هذه الأمة).
- حذار من لعبة تقطيع الوقت الإسرائيلية (٢٥/٤/٢٠٠١) وجاء فيها: (.. إن حكومة شارون ماضية في سياسة "شراء الوقت" من أجل استكمال مهمة تقويض السلطة والمجتمع الفلسطيني، توطئة لفرض الإملاءات السياسية على الشعب الفلسطيني الشقيق، وكسر إرادة الصمود التي جسدتها انتفاضته الباسلة المستمرة للشهر السابع على التوالي).
- الاستهداف الإسرائيلي للدور الأردني (٢٦/٤/٢٠٠١) وقالت فيها: (وبالنظر إلى ما يمثله الدور الأردني العملي والدبلوماسي في هذه المرحلة من قوة دعم وإسناد للفلسطينيين، حقوقاً وسلطة وشعباً وانتفاضة، فقد سعت الدبلوماسية وآلة الدعاية الإسرائيليتان في زرع الأسافين بين الأردن وفلسطين تارة، وبين الأردن والشقيقة الكبرى (مصر) تارة أخرى، غير مدركة حقيقة أن العلاقات بين هذه الأطراف الثلاثة باتت عصية على هذه الألاعيب والأفخاخ الغبية).
- المكتوب الإسرائيلي يقرأ من عنوانه (٢٨/٤/٢٠٠١).

وقام كتاب الأعمدة الصحفية في صحيفة الدستور إضافة إلى المحللين السياسيين والكتاب الصحافيين بكتابة العديد من المقالات والتعليقات المواكبة لأخبار الانتفاضة الفلسطينية وكل ما يتصل بها من سياسات سواء على الصعيد العسكري أو السياسي أو الاجتماعي.

وهذه المقالات التي نشرتها الدستور في مجموعة الأعداد التي خضعت للدراسة عشوائياً، كانت على النحو التالي:

- الخروج من التاريخ (يعقوب جابر ٢٠٠٠/١٢/٢٣) تعقيباً على فشل كلينتون بتحقيق السلام في المنطقة قبل رحيله عن البيت الأبيض.
- فلسطينيو الداخل الأكثر فقراً وتهميشاً – علي الصفدي، (٢٠٠٠/٢/٢٣).

وفي عدد يوم (٢٠٠١/٢/١٥) من الدستور كانت المقالات الآتية:

- السارق وهواجسه المقيمة – خيري منصور.
- يستطيع شارون – أحمد المصلح.
- هستيريا الغازات واليورانيوم – عريب الرنتاوي.
- التصعيد الشامل هو الحل – ياسر الزعاترة.
- العنف لا يولد إلا العنف – باتر وردم.
- يوم الحب، يوم تل أبيب – باسم سكجها (تعقيباً على عملية فدائية بواسطة حافلة قادها شاب فلسطيني في قلب تل أبيب).
- فلسطين الدامية ومن هم الذين أدموها – علي الدجاني.
- لا عهود لقادة اليهود – علي الصفدي.

وفي عدد الدستور يوم ٢٠٠١/٢/٠١٧ كانت المقالات الآتية:

- خيار القوة إلى جانب خيار السلام – بدري الملقي.

- دعونا نرى شارون بعيونهم – د. عبد الله الخطيب.
- نظرة الغرب لظاهرة شارون... إسرائيل فوق الجميع !! – راكان المجالي.
- حزب الله ... تدخل محمود – ياسر الزعاترة (تعليقاً على تصريحات للسيد حسين نصر الله أمين عام حزب الله الذي (قال للفلسطينيين مراراً نحن لن نتركم).
- موسى حوامدة – علاء خليل أبو علبة (وهو الشاب الفلسطيني الذي قاد حافلة في تل أبيب قتلت وجرحت بعض الصهاينة).

وفي عدد الصحيفة يوم ٢٠٠١/٢/١٩:

- مطرقة شارون وسندان بوش – عريب الرنتاوي.

وفي الدستور الصادرة بتاريخ ٢٠٠١/٢/٢٠:

- بين إرهاب بوش والإرهابي شارون – د. عبد الله المالكي.
- فلسطين والعراق أولويات وتحديات – ليلى الأطرش.
- الإرهاب.. مهمة أمريكية روتينية – عوني صادق.
- سأخون وطني – موسى حوامدة (وهو تعليق عن العملاء داخل فلسطين).
- صور مثيرة للغثيان – عريب الرنتاوي. وهو يكتب عن : مجلي وهبة النجم العربي في خدمة شارون. وحزب العملاء والجواسيس، وأحمد الجلبي العراقي الذي يفخر بضرب العراق.

وفي الدستور يوم ٢٠٠١/٢/٢١ كانت هذه المقالات:

- انهيار السلطة الفلسطينية – عريب الرنتاوي، الذي يقول (والحقيقة أن انهيار السلطة الفلسطينية ليس أمراً مرغوباً فيه سوى من تيارات معينة داخل المجتمع

الإسرائيلي – تشاركها الرغبة المجنونة هذه، فئات قليلة من الذين أعماهم التعصب من بين الفلسطينيين الغلاة).

- كلهم يؤيدون قتلنا – ياسر الزعاترة.
- هذه سياسة إدارة بوش إزاء السلام – توفيق أبو بكر.

وبتاريخ ٢٠٠١/٢/٢٥، نقرأ في الدستور:

- الغرام الأمريكي الإسرائيلي – حسام عايش.
- الوزير باول واللغة العبرية – جورج حداد.

وفي عدد يوم ٢٠٠١/٣/٣ من الدستور نقرأ:

- تصريحات (موفاز) والارتباك الإسرائيلي وموقف السلطة – ياسر الزعاترة.
- تخبط واشنطن – هل من نهاية – عريب الرنتاوي.

وفي عدد يوم ٢٠٠١/٣/٦ من الدستور كانت هذه المقالات:

- التهديدات الإسرائيلية.. وعملية ناتانيا – عوني صادق.
- على حافة الهاوية – عريب الرنتاوي.
- دموع التماسيح – د. حلمي الأسمر، الذي قال (البكاء على بوذا صرفني فوراً إلى دم أطفال فلسطين، الذين يذبحهم اليهود).

وفي الدستور الصادرة يوم ٢٠٠١/٣/٧ جاءت هذه المقالات:

- الزيتون الصعب – خيري منصور
- سبعة أعوام على مذبحة الحرم الإبراهيمي الشريف – عرفات حجازي.
- شاهد الزور – عريب الرنتاوي (ويقصد به عضو الكنيست صالح طريف).
- إسرائيل والأمن والمفاوضات – أحمد المصلح.

- التحول نحو التطرف – د. مصطفى الفار.

وفي الدستور يوم ٢٠٠١/٣/٩ نقرأ:

- الأمريكيون وأكاذيب لعينة – إبراهيم العبسي.
- لماذا تنحاز موسكو أكثر وأكثر إلى الدولة العبرية – ياسر الزعاترة.

وفي الدستور يوم ٢٠٠١/٣/١٣ نقرأ:

- أحمد عمر عليان – ياسر الزعاترة، وهو يشيد ببطل إحدى العمليات العسكرية ضد إسرائيل.
- أموال الدعم والاشتراط العربي والأوروبي – جورج حداد.
- صالح طريف اسمع كلام وليد بيك– موسى حوامدة (والكاتب يخاطب صالح طريف ويدعوه لأن يسحب البساط من تحت قدمي شارون وأن يعلن في بيان صريح موقفه الرافض للاحتلال وخدمة أبناء الطائفة في جيش الاحتلال) ويقصد بها الطائفة الدرزية. أما (وليد بيك) فهو الزعيم اللبناني وليد جنبلاط.

وفي الدستور يوم (٢٠٠١/٣/١٤) كانت هذه المقالات:

- معيار النجاح والفشل في المؤتمر القادم – جورج حداد.
- هل تملك القمة العربية مفتاح السجن الفلسطيني – باتر وردم.
- برنامج شارون والرد العربي الرسمي – مازن الساكت.
- القبيح البشع حين يتجمل – موسى حوامدة.
- القمة وصيف الجنرالات – حياة الحويك عطية.
- شارون: التحدي والاستجابة – أحمد المصلح.

وبتاريخ ٢٠٠١/٣/١٨ من الدستور نقرأ:

- القمة والقضية المركزية والمرجعية القومية – راكان المجالي.
- القدس والقمة – أحمد المصلح.
- القمة العربية وتطلعات الجماهير – فؤاد دبور.
- شارون يستهدف (شرعية) السلطة – عريب الرنتاوي.

وفي عدد يوم ٢٠٠١/٣/٢٥ من الدستور كانت هذه المقالات:

- شارون.؟. محطة لا بد من عبورها – د. عبد الله المالكي.
- هذا الرجل: لكل مناسبة قناع – د. إبراهيم بدران (يقصد شيمون بيريز).
- الحصار العربي للعرب – حلمي الأسمر.
- على مرمى قبلة أو رصاصة – خيري منصور.
- القمة: قصور عربي وضغوط أمريكية – راكان المجالي.
- اللامبالاة الإسرائيلية بالقمة – عريب الرنتاوي.
- انتفاضة أقل عنفاً – لماذا – ياسر الزعاترة.
- ها آرتس تطالب بإبادة الشعب الفلسطيني – موسى حوامدة.

ونشرت الدستور مقالات عديدة حول القمة العربية التي عقدت في عمان يوم ٢٠٠١/٣/٢٧ جاءت تحت العناوين الآتية:

- القمة والرأي العام – عيسى الشعبي.
- أضعف الإيمان: مقاطعة العدو – جورج حداد.
- حمى الترانسفير ترتفع في إسرائيل – عريب الرنتاوي.
- القمة العربية: دعوة للإحساس بالتفاؤل– باتر وردم.
- على هامش القمة – باسم سكجها.

- المحاور العربية في رحلة شارون إلى واشنطن – ياسر الزعاترة.
- مصير القدس – مصير الخليل– عرفات حجازي.
- رسائل القمة– أحمد المصلح.
- بين ما نرغب وما نتوقع من قمة عمان – مازن الساكت.

وقدمت الدستور (لمحرر الشؤون العربية) تحليلاً سياسياً بعنوان (القراءة الأمريكية السيئة لأوضاع المنطقة لا تساعد على الاستقرار وتوازن العلاقات).

وأصدرت الدستور ملحقاً مستقلاً عن القمة العربية يوم ٢٠٠١/٣/٢٧ تضمن عدداً من التقارير الإخبارية التي تحمل تمنيات الجماهير وتوقعاتها ومطالباتها من قادة الأمة في يوم انعقاد مؤتمرهم في عمان. ومقالة للدكتور نبيل الشريف تحت عنوان (قمة الآمال الكبيرة).

وفي عدد الدستور يوم ٢٠٠١/٣/٢٨ نقرأ:

- القدس مسؤولية الأمة الإسلامية – كامل الشريف.
- القدس المحتلة لا اسم آخر لها في ظروف الاحتلال – علي الدجاني.
- القمم العربية والدولة الفلسطينية – راكان المجالي.
- لا نريد سلاماً.. شاملاً وعادلاً – رشاد أبو داود، قال فيه: (لا نريد سلاماً شاملا وعادلاً مع إسرائيل. فلقد أثبت الإسرائيليون أنهم غير مهيئين للسلام أما العدل فليس له وجود في وجدانهم).

وفي عدد يوم ٢٠٠١/٣/٢٩ من الدستور نقرأ:

- حق إسرائيل في القتل – د. نبيل الشريف.
- العبرة في الترجمة – عريب الرنتاوي.
- نجاح وتميز في قمة عمان – علي الصفدي.

- كلمات الدعم للانتفاضة والمقاومة – ياسر الزعاترة.
- الخطاب الرسمي العربي في قمة عمان –مازن الساكت.
- القمة لم تفشل – موسى حوامدة.

وكتبت الصحيفة تحليلاً سياسياً بعنوان: هل تشكل قمة عمان بداية صحوة عربية ووضوح سياسي وإنها للخلافات العربية؟

- المخطط الإسرائيلي لوقف الانتفاضة – د. محمد المحاسنة.
- بيريز المتنكر لمبادئ السلام – علي الصفدي.

وفي الدستور بتاريخ ٢٠٠١/٤/٨ نقرأ:

- حفار مهود الشهداء – خيري منصور.
- ماذا وراء قرار شارون بزيارة اليهود للأقصى – راكان المجالي.
- الانتفاضة أكبر من محاولات التحجيم – عريب الرنتاوي.
- نفس الخطة الجهنمية – حسام عايش.
- عوباديا يوسف مرة ثانية – موسى حوامدة.
- شارون ولغة التطرف – د. مصطفى الفار.
- الانتفاضة وتحرير الخليل – عرفات حجازي.
- رائحة الانتصار – حلمي الأسمر.

وكتبت الدستور تحليلاً سياسياً لمحرر الشؤون العربية تحت عنوان: ظاهرة شارون ليست حالة استثنائية لمجتمع يمجد القوة ويعتبرها القيمة الوحيدة.

وفي عدد الدستور يوم ٢٠٠١/٤/٩ كانت هذه المقالات:

- عدنان ومحمد وحكاية تجنيد الأطفال – عريب الرنتاوي.
- الكلمات الخادعة في تغطية الإعلام الغربي للانتفاضة– باتر وردم.

- شعب عظيم وأمة خائرة– د. سليمان العباسي.
- سلام من الورق المقوى– خيري منصور.
- ليس هذا الزمان.. زماننا (..) – محمد شريف الجيوسي.
- إذا سرقت الكنيسة فماذا يفيد الجرس؟ – جورج حداد.
- العرب المجرمون الملاعين– حلمي الأسمر (تعقيبا على تصريحات الحاخام عوفاديا يوسيف العنصرية ضد العرب).

وفي الدستور يوم ٢٠٠١/٤/١٠ نقرأ:

- ردود أفعالنا المعلبة – خيري منصور.
- إسرائيل لا تريد إنهاء أسلو ولا تريد تفعيله – راكان المجالي.

وفي العدد الصادر يوم ٢٠٠١/٤/١، من الدستور نقرأ:

- العلاقات الأمريكية العربية بين التفاؤل والتشاؤم – راكان المجالي.
- الضعف لا يفيض إلا ضعفا – جورج حداد.
- قدر الفلسطيني – موسى حوامدة.
- الساتشهاديون يفجرون والعدو في مأزق – ياسر الزعاترة.
- دلالات يوم الأرض – أحمد المصلح.
- الفيتو الأمريكي والتصعيد الإسرائيلي– د. محمد مصطفى الفار.
- الأرض – حياة الحويك عطية.
- التصعيد الإسرائيلي ضد الانتفاضة والشعب الفلسطيني – مازن الساكت.
- وفي الدستور الصادرة يوم ٢٠٠١/٤/٢ نقرأ:
- طريق العزة – المهند رائف نجم.
- تحالف ريغان.. بيغن هل يعود ثانية – جورج حداد .

- انتفاضة بلا مقاومة – ياسر الزعاترة.

وفي عدد اليوم التالي ٢٠٠١/٤/٣ نقرأ:

- ريغان– بيغن، بوش – شارون – جورج حداد.
- عودة أمريكا (الإمبريالية) – ياسر الزعاترة.
- المأزق العربي الراهن – مازن الساكت.
- بواكير الرئيس بوش – د. كمال رشيد.
- في وصف حالتنا – أحمد المصلح.
- أين هي مصالح الأمريكان الاستراتيجية– محمد شريف الجيوسي.
- الطريق إلى القدس – فتحي الحمود.

وفي الدستور الصادرة يوم ٢٠٠١/٤/٧ نقرأ:

- هذا هو الواقع الذي علينا أن نصدقه – د. عبد الله الخطيب.
- صراعنا مع الغزاة وشروط انتصاره – جورج حداد.
- نحن نقتل الأطفال للشاعر الإسرائيلي دام الماغور– جورج لطفي الصايغ.
- هل تعيد الانتفاضة ترتيب الأجندة الأمريكية– عريب الرنتاوي.
- المخطط الإسرائيلي لوقف الانتفاضة – د. محمد المحاسنة.
- بيريز المتنكر لمبادئ السلام – علي الصفدي.

وفي الدستور بتاريخ ٢٠٠١/٤/٨ نقرأ:

- حفار مهود الشهداء – خيري منصور.
- ماذا وراء قرار شارون بزيارة اليهود للأقصى – راكان المجالي.
- الانتفاضة أكبر من محاولات التحجيم– عريب الرنتاوي.

- نفس الخطة الجهنمية – حسام عايش.
- عوباديا يوسف مرة ثانية – موسى حوامدة.
- شارون ولغة التطرف – د. مصطفى الفار.
- الانتفاضة وتحرير الخليل – عرفات حجدازي.
- رائحة الانتصار – حلمي الأسمر.

وكتبت الدستور تحليلاً سياسياً لمحرر الشؤون العربية تحت عنوان: ظاهرة شارون ليست حالة استثنائية لمجتمع يمجد القوة ويعتبرها القيمة الوحيدة.

وفي عدد الدستور يوم ٢٠٠١/٤/٩ كانت هذه المقالات:

- عدنان ومحمد وحكاية تجنيد الأطفال – عريب الرنتاوي.
- الكلمات الخادعة في تغطية الإعلام الغربي للانتفاضة – باتر وردم.
- شعب عظيم وأمة خائرة – د. سليمان العباسي.
- سلام من الورق المقوى – خيري منصور.
- ليس هذا الزمان.. زماننا (..) – محمد شريف الجيوسي.
- إذا سرقت الكنيسة فماذا يفيد الجرس؟ – جورج حداد.
- العرب المجرمون الملاعين – حلمي الأسمر (تعقيباً على تصريحات الحاخام عوفاديا يوسيف العنصرية ضد العرب).

وفي الدستور يوم ٢٠٠١/٤/١٠ نقرأ:

- ردود أفعالنا المعلبة – خيري منصور.
- إسرائيل لا تريد إنهاء أوسلو ولا تريد تفعيله – راكان المجالي.
- خيار "تجميد" الانتفاضة هل هو منطقي – باتر وردم.
- الدستور المغيب وظاهرات العنصرية اليهودية – جورج حداد.

- العبرية.. لغة العالم – عوني صادق.
- أيام شارون المائة – أحمد المصلح.
- المحرقة – موسى حوامدة.

وفي الدستور الصادرة يوم ٢٠٠١/٤/١١ نقرأ هذه المقالات:

- الاستيطان إذ يتحول إلى خط التماس الأول – عريب الرنتاوي.
- واحدة الديموقراطية وقوانين الانتداب القمعية – جورج حداد.
- أقاموا الكنيس في ساحة الأقصى – عرفات حجازي.
- القدس وقف عربي إسلامي – أحمد المصلح.

وفي عدد اليوم التالي ٢٠٠١/٤/١٢ نقرأ هذه المقالات:

- الانتفاضة والحرب الإعلامية الشرسة – د. محمد علي الفرا.
- حقاً إنه مجتمع عنصري – علي الصفدي.
- إسرائيل هي الأضعف – شحادة أبو بقر.
- هزيمة الفكرة – عيسى الشعبي، الذي قال: (إن الانتفاضة مقدر لها تماماً ومطالبة بإلحاح ومؤهلة إلى أبعد الحدود لإلحاق هزيمة بفكرة الاحتلال وإضعاف رغبة المحتلين واستنزاف مقدرتهم وتظهير صورتهم بأبشع الصور في زمن باتت فيه المواجهات تدور في فضاء الرأي العام، ويتحقق فيه النصر على شاشات التلفزيون، ويزداد التحسس إزاء الخسائر البشرية وفظاعات الحروب غير الأخلاقية).

وفي عدد الدستور بتاريخ ٢٠٠١/٤/١٥ نقرأ:

- التحرك الأردني المصري – عريب الرنتاوي.

- أول الرصاص أول الحجارة – باسم سكجها (في ذكرى اغتيال خليل الوزير أبو جهاد)، يقول فيه: (ولقد كان الشهيد أول الرصاص وأول الحجارة، وصار تلاميذه أول الهاون وأول الآربيجي، وسيظل يخرج علينا من فلسطين مناضلون مجاهدون يحملون لواء التأسيس لأدوات نضالية جديدة لا تنتهي إلا بأول الدولة).
- حقائق طبيعة الصراع – مازن الساكت الذي يقول : (الحقيقة التي تعلن نفسها الآن رغم إصرار بعض العرب على تجاهلها هي سقوط التسوية السياسية الراهنة التي بدأت في مدريد. إن التعامل مع هذه الحقيقة على المستوى الرسمي العربي لا يزال من خلال تجاهلها ومن خلال المراهنة على اختلاف الموقف الإسرائيلي الأمريكي).

وفي الدستور الصادرة يوم ٢٠٠١/٤/١٨ كانت هذه المقالات:

- المصالح الأمريكية والخرائط المعلقة – جورج حداد.
- شارون خارج التوقيت العالمي – رشاد أبو داود.
- التصعيد العسكري الإسرائيلي تهديد أم تمهيد لحرب شاملة – مازن الساكت.
- ضربة إسرائيلية ورسالة أمريكية– راكان المجالي.
- ديبلوماسي في وكر الذئاب – عريب الرنتاوي.
- ما يساعد شارون في حربه القذرة – ياسر الزعاترة.
- أبعد من الرادار – حياة الحويك عطية.
- وكتبت الدستور تحليلاً سياسياً لمحرر الشؤون العربية بعنوان: أمريكا مطالبة اليوم أكثر من أي وقت توضيح سياستها تجاه العرب.

وفي عدد صحيفة الدستور يوم ٢٠٠١/٤/١٩ جاءت المقالات الآتية:

- ليلى الفلسطينية والذئب اليهودي – خيري منصور.

- احتلال ليوم واحد– عيسى الشعيبي.
- فشل شارون الوشيك – عريب الرنتاوي.
- أصحاب الفرص الضائعة – د. كمال رشيد.
- الاختراق الإعلامي – د. محمد علي الفرا.

وفي العدد الصادر يوم ٢٠٠١/٤/٢١ نقرأ:

- زمام الحرب والسلام والكذب– خيري منصور.
- نقع مصيدة للإعلام المتصهين – د. عبد الله الخطيب.
- قناة الجزيرة و (التوقيت الأسود) – باتر وردم.
- عطاء عربي لاستمرار الصمود والمقاومة– ياسر الزعاترة.
- العودة بالانتفاضة من العسكرة إلى المدننة– علي الصفدي.
- زيارة الخطيب لإسرائيل – عريب الرنتاوي.
- شارون– باسم سكجها.
- أكذب ثم أكذب – موسى حوامدة.
- حقائق المفاوضات في الغرف المغلقة – عرفات حجازي.
- إسرائيل جديدة في أفريقيا – محمد شريف الجيوسي (ويقصد الكاتب بذلك التسلل الإسرائيلي داخل ما يعرف بجمهورية أرض الصومال التي يرأسها محمد إبراهيم عقال).

وفي الدستور يوم ٢٠٠١/٤/٢٢ نقرأ هذه المقالات:

- قياس الخطأ الشاروني – أحمد المصلح.
- أبناء غزة في الأردن– موسى حوامدة.

- السياسة الإسرائيلية طويلة المدى – د. عايدة النجار.
- أبعاد العدوان الصهيوني على موقع للجيش السوري في لبنان – فؤاد دبور.
- أطفال وسط جحيم الحروب – مها الشريف (حول ما يتعرض له أطفال فلسطين من قمع وقتل).
- فلسطين والأعداء الثلاثة – د. كمال رشيد (وهؤلاء الأعداء هم: الجيش الإسرائيلي، والمستوطنات الإسرائيلية، وطابور العملاء والجواسيس).
- الصراع على الرأي العام – عريب الرنتاوي، ويقول فيه (هي إذن معركة فلسطينية إسرائيلية هدفها الرأي العام المحلي والإقليمي والدولي، فهو المخاطب بهذه التصريحات، وهو المدعو لممارسة الضغط على الآخر، وهو المراهن عليه في نصرة هذا الفريق أو ذاك).

وفي عدد الدستور يوم ٢٠٠١/٤/٢٤ نقرأ:

- استشهاد لا انتحار– ياسر الزعاترة.
- بيريز ودور الخاطبة– أحمد المصلح.
- من اللعب على المسارات إلى اللعب على (الواسطات) – عريب الرنتاوي.
- وفق مخططاتهم: الحرب.. وحال المنطقة – محمد شريف الجيوسي.
- إنهم لا يستحون وهم يزورون التاريخ – عرفات حجازي.

ويوم ٢٠٠١/٤/٢٥، نقرأ في الدستور هذه المقالات:

- إعادة تنظيم الانتفاضة – توفيق أبو بكر (ويدعو إلى عدم قيام المنتفضين باستخدام السلاح وإطلاق قذائف الهاون لأن ذلك يضر بقضيتهم).
- في البدء كانت الخيمة – رشاد أبو داود.

- إفراغ المبادرة الأردنية المصرية من مضمونها – عريب الرنتاوي.
- لك الله أيها الفلسطيني – موسى حوامدة.
- إحياء المقاطعة العربية الشاملة – بدري الملقي.
- من سيناء إلى فلسطين – أحمد المصلح.
- رحل إسرائيل في وزارة الدفاع الأمريكية – يعقوب جابر (ويقصد به دونالد رامزفيلد وزير الدفاع الأمريكي الجديد).
- المقاومة وقذائف الهاون – ياسر الزعاترة (وهو يرد على مهاجمي استخدام الهاون) قائلاً: (وكأن ذلك الجيش كان يقصف الضفة والقطاع بالورود قبل انطلاق قذائف (الهوان) أو لكأن على الشعب الفلسطيني أن يوقف مقاومته بشكل كامل في ظل غطرسة شارون لمجرد تجنب رد الفعل الصهيوني).

وفي الدستور يوم ٢٠٠١/٤/٢٦ نقرأ:

- الاستقلال / النكبة – عريب الرنتاوي.
- الالتفاف على الورقة الأردنية المصرية– علي الصفدي.
- عقلنة الانتفاضة– موسى حوامدة.

ويوم ٢٠٠١/٤/٢٨ نقرأ في الدستور هذه المقالات:

- سياسة عض الأصابع – أحمد المصلح.
- سلام الحمضيات المزورة – باتر وردم.
- مشروع أمريكي متكامل للحرب الشاملة– محمد شريف الجيوسي.
- التطبيع ومقاومة التطبيع والإضرار بالاقتصاد الوطني – مازن الساكت.
- خطة المائة يوم – فتحي الحمود.

- شارون.. مسيح مخلص أم دجال- د. عبد الوهاب المسيري.

ونقرأ في الدستور يوم ٢٠٠١/٤/٢٩:

- قبية مدينة المسلخ.. وتاريخ شارون الأسود – عرفات حجازي.
- إسرائيل والصهيونية بين الحقيقة والخرافة- سليمان نصيرات.

ويوم ٢٠٠١/٥/١ نقرأ في الدستور المقالات الآتية:

- بيريز.. محامي الشيطان أم الشيطان نفسه- باتر وردم.
- غياب الموقف العربي –مازن الساكت.
- إجراءات في غير أوانها – عريب الرنتاوي (ويقصد بذلك دعوة السلطة الوطنية الفلسطينية لحل لجان المقاومة الشعبية).
- وقف إطلاق النار – ياسر الزعاترة.
- ما يريده شارون فعلاً- أحمد المصلح.

الانتفاضة في الصحافة الأسبوعية الأردنية

قراءة تحليلية لصحيفتي المجد واللواء

شاركت الصحف الأسبوعية الأردنية، على اختلاف توجهاتها بمتابعة أخبار الانتفاضة الفلسطينية، وقد اخترنا نموذجين للدراسة من هذه الصحف هما (المجد) التي تعبر عن التيار القومي الناصري ويرأس تحريها فهد الريماوي، و(اللواء) المعبرة عن التيار الإسلامي المستقل ويرأس تحريرها بلال حسن التل.

أولاً: صحيفة المجد

في عدد صحيفة المجد الصادرة يوم ٢٠٠١/٢/١٩ نقرأ المقالات الآتية:

عن التطبيع والمطبعين –خليل السواحري، الذي يقول: (المسألة في غاية الوضوح، فالأمة بأجمعها ترفض التطبيع، وترفض الحوار مع عدو لا يعرف غير منطق القوة، والشعوب لا يمكن لها أن تخضع لمنطق الغالبية، وإلا كانت أمم كثيرة قد اندثرت، لأنها انساقت وراء زمرة من دعاة التطبيع مع الغزاة).

وفي المجد يوم ٢٠٠١/٢/٢٦ نقرأ:

- أموال دعم الانتفاضة لماذا لم تصل للسلطة – عرفات حجازي.
- ماذا أعددتم للحرب القادمة – أنصاف قلعجي.

وفي عدد المجد بتاريخ ٢٠٠١/٤/٢ نقرأ:

- وحدة الهدف هي الحل – فهد الريماوي.
- العدوان الوحشي على السلطة الفلسطينية – عرفات حجازي.
- العجز الرسمي وإرادة المقاومة الشعبية – طلال خالدي.
- تطبيع وتسامح –موسى الأعرج.
- وطن الفلاشا– خليل السواحري.
- تطالبون من – إنصاف قلعجي، وتقول: (أتثاءب والسيد عصمت عبد المجيد يتلو البيان الختامي.. وأسقط مكسورة حتى مؤتمر قادم).

ونقرأ في العدد نفسه تحقيقاً صحفيا بعنوان:

- فعاليات نيابية وحزبية وشعبية ونقابية للمجد: قرارات قمة عمان أقل بكثير من مستوى التحديات وطموح المواطن العربي.

وفي العدد الصادر يوم ٢٠٠١/٤/٩ من المجد نقرأ هذه المقالات:

- ما جدوى الكلام – خليل السواحري.
- شعب غير قابل للموت– عرفات حجازي.
- كي لا يبقى قرار قمة عمان حول الصهيونية حبراً على ورق– د. فايز رشيد.
- العدوان الصهيوني وأكذوبة السلام – طلال خالدي.

وفي المجد يوم ٢٠٠١/٤/١٦ نقرأ:

- في قلب العاصفة: بالوحدة والصمود يندحر العدوان– طلال خالدي.
- حديث الفرص الضائعة – خليل السواحري.

وفي المجد الصادرة يوم ٢٠٠١/٤/٢٣، كانت هذه الموضوعات والتعليقات:

- نحن والانتفاضة – ماجد الخضري، الذي يقول : (فالعدو ورغم الوضع الذي سببته له الانتفاضة والخسائر التي إصابته جراء ذلك فإنه ما زال قادراً على مواجهتها ولن يوقفه عند حده إلا وحدة عربية في الموقف والمصير وهبة رجل واحد لتحرير ما احتل من أرض مقدسة وتطهيرها من رجس اليهود).
- لأجلك يا أردن.. نقاوم التطبيع – هاشم الخالدي.
- إرادة الأمة فوق العدوان – طلال خالدي.
- تحية لشركات المقاطعة ودعوة لمقاومة التطبيع – عرفات حجازي.
- المزاعم الصهيونية والقانون الدولي – د. غازي حسين.
- ليس عوفاديا وحده– خليل السواحري.
- الرهان الحقيقي يجب أن ينصب على الحجر الفلسطيني المقاوم– راشد عبد الجواد.
- أمريكا وطن اللعنة– فهد الريماوي.
- رسائل أمريكية وشارونية – نوال عباسي.

- العدوان على دمشق عدوان على عمان – حسين مجلي.

وتنشر المجد حديثاً صحفياً مع (ناجي علوش) تحت هذه العناوين:

- سياسة السلام والتفاوض مع العدو الصهيوني هدر للدم العربي وتفريط بالأرض.
- الرد الوحيد على سياسة شارون هو استخدام السلاح لإيقاع المزيد من القتل في صفوف جنوده.
- تفعيل اتفاقية الدفاع العربي المشترك والسوق العربية يخرج اللاعب الأمريكي من أرضنا.
- العدوان الصهيوني والأمريكي يهدف لتفجير الجبهة اللبنانية وضرب وحدتها الوطنية.

وفي عدد صحيفة المجد الصادرة يوم ٢٠٠١/٤/٣٠ نقرأ:

- العمليات الجهادية وفتوى مفتي السعودية– عرفات حجازي.
- فخ سياسي إسرائيلي – د. فايز رشيد.
- الإفتاء في خدمة الصهيونية – خليل السواحري.
- بغل أم بطل–فهد الريماوي.

ويقول الريماوي في مقاله: (باختصار.. لقد ذهب المجتمع الإسرائيلي إلى أقصى درجات التطرف، وصعد شارون إلى أعالي شجرة الغرور والإرهاب، ووقفت الدولة العبرية مباشرة أمام مأزقها التاريخي ودربها المسدود.. فلا مجال للتقدم إلا بمجازفات المغامرة والمقامرة، ولا مجال للتقهقر أو التراجع إلا لحسابات الهزيمة والانكسار.. ولا خيار آخر).

ثانياً: صحيفة اللواء.

تابعت صحيفة (اللواء) الأسبوعية أحداث الانتفاضة وتطوراتها بالخبر والتعليق والعناوين العريضة. فقد تصدر عددها الصادر يوم ٢٠٠١/٢/١٤ العنوان التالي:

- التفوق العسكري للعدو لا يمنع من تحرير الأرض.

وفي العدد الصادر يوم ٢٠٠١/٢/٢٨ كان العنوان الرئيسي التالي:

- انتفاضة الأقصى ولادة جديدة للأمة.

وفي اللواء الصادرة يوم ٢٠٠١/٣/١٤ نقرأ التقارير الصحفية الآتية:

- تفاصيل عن دور العملاء في اغتيال قادة المقاومة الفلسطينية (المخابرات الإسرائيلية تجندهم بعد أن تبتزهم بالجنس والمخدرات).

وتقريراً آخر جاء فيه:

- حتى الآثار السياحية لم تسلم من القصف الإسرائيلي.
- ١٠٠ مليون دولار خسائر القطاع السياحي في فلسطين.

ونشرت اللواء في العدد نفسه، حلقة جديدة من سلسلة حلقات بعنوان:

- اليهود والتطبيع في القرآن الكريم، للكاتب (محمد نور الدين شحادة)، وقد تضمن الأفكار الآتية:
  - إفساد المجتمع شرط أساسي للسيطرة عليه لأن المجتمع الفاسد لا يفكر بالتغيير.
  - الجمعيات والمؤسسات والتجمعات غطاء استخباري لليهود من أجل الإفساد.
  - الإرهاب والجرائم الدموية من مظاهر الإفساد والفساد اليهودي.

وفي عدد صحيفة اللواء الصادرة يوم ٢٠٠١/٤/٤ نقرأ مقالاً بعنوان:

- انتفاضة الأقصى أنتجت نموذجاً جديداً في المقاومة والصمود كتبه مروان دودين.
- وعدداً من التقارير الإخبارية والتعليقات التي جاءت تحت العناوين التالي:

– في يوم الأرض، الفلسطينيون يقسمون على إحراق الأرض تحت أقدام المحتلين.

– سرقة المأثور الشعبي الفلسطيني من قبل إسرائيل.

- فيلم إسرائيلي يناقش تفجير المستوطنين لقبة الصخرة.
- وتقرير صحفي عن كتاب (صناعة الهولوكست) لصاحبه: فنكلستين، الصادر عن دار الآداب/ بيروت. وذلك تحت العناوين الآتية:
- اقتراح بتحويل جزء من أموال الهولوكست لتعويض اللاجئين الفلسطينيين.
- البروفسور اليهودي فنكلستين يتأمل صناعة الهولوكست وتحويل المعاناة إلى كازينو.
- الصهيونية حققت أرباحاً مهمة من خدمة الهولوكست.

وفي عدد اللواء الصادرة في يوم ٢٠٠١/٤/٢٥ نقرأ:

- تصريحاً لآية الله محمد على التسخيري مستشار الإمام السيد علي الخامنئي لشؤون العالم الإسلامي رئيس رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية في إيران يقول فيه: (.. حركة حزب الله في جنوب لبنان وحركة الانتفاضة الفلسطينية تمثلان واجهتين لحركة الجماهير الإسلامية والعربية في أنحاء العالم).

وفي العدد نفسه من اللواء نقرأ تعليقاً للصحيفة بعنوان:

- (النصر دائماً للشعوب المقهورة) تقول فيه: (إذا أراد شارون هذا المتطرف الأعمى أن نعطيه مزيداً من الأمثلة فهي موجودة وكثيرة لكن ليعلم هذا العسكري الأهوج أن النصر في النهاية سيكون للشعب الفلسطيني مهما استعمل من قوة هوجاء. وليعلم أيضا بأن الحرية لا تعطى بل تؤخذ قسراً ومهما كانت التضحيات كبيرة، لكن هؤلاء الضحايا هم أبطال هذا الوطن وهم الشهداء الأبرار وسيبقى شعبنا الفلسطيني يدافع عن أرضه ومقدساته مهما كان الثمن كبيراً حتى يحقق أحلامه بالحصول على دولته المستقلة وعاصمتها القدس رغم أنف شارون ورغم أنف كل هؤلاء الصهاينة المتغطرسين).

وفي اللواء يوم ٢/٥/٢٠٠١ نقرأ لرئيس التحرير بلال التل مقالاً بعنوان: (دروس من انتفاضة الأقصى) يقول فيه: (إن أولى الحقائق التي أكدتها انتفاضة الأقصى، هي أن العملية السلمية برمتها لم تكن أكثر من خدعة إسرائيلية خدمت المخطط الصهيوني أكثر مما خدمته بعض الحروب التي نشبت في المنطقة، أما ثانية الحقائق.. فهي أن جماهير الأمة ما زالت حية وقادرة على الرفض).

أخبار الانتفاضة في الصحافة العربية

أولاً: صحيفة القدس العربي

ثانياً: الصحافة المصرية

أولاً: صحيفة القدس العربي

جاء اندلاع الانتفاضة ليشكل حدثاً هاماً على صفحات الصحف العربية، سواء منها ما يصدر داخل العواصم العربية أو في المهجر. وتعتبر صحيفة (القدس العربي) التي تصدر في لندن برئاسة تحرير (عبد الباري عطوان) الصحفي الفلسطيني إحدى أكثر الصحف العربية اهتماماً بأخبار الانتفاضة وتطورات القضية الفلسطينية سواء من خلال المتابعة الإخبارية أو كتابة المقالات والتحليلات السياسية، أو نشر المقالات والتعليقات المترجمة عن الصحف الإسرائيلية لكتاب إسرائيليين يعبرون من خلالها عن آرائهم واتجاهاتهم إزاء هذا الحدث السياسي الهام الذي تفرضه الانتفاضة على الساحتين العربية والإسرائيلية.

وقد بلغ عدد الأخبار المتصلة بالانتفاضة في العدد الصادر من جريدة (القدس العربي) بتاريخ (٢٠٠١/١١/١٦) ستة عشر خبراً وتقريراً إخبارياً كانت على النحو التالي:

- موريتانيا تصر على موقفها من إسرائيل.
- ثمانية شهداء في ذكرى إعلان الاستقلال وعرفات يوقف إطلاق النار تحت الضغوط الأمريكية.
- زعيم كشميري يحذر من التعاون بين إسرائيل والهند.
- رجل دين مسيحي: لا دليل على قداسة (الحرم القدسي) لدى اليهود.
- وزير إسرائيلي: ضبط النفس لم يعد ممكناً.
- بن عامي: عنف الفلسطينيين يذكر بعنف حزب الله.
- رصاص الاحتلال الإسرائيلي يخلف مئات المعاقين الفلسطينيين.
- إسرائيل تبحث خططاً للفصل من جانب واحد.
- الجيش الإسرائيلي يعتقل ١٥ مسؤولاً من حركة فتح.
- إصابة طفل فلسطيني بقذيفة مورتر إسرائيلية.
- عرفات: إعلان الدولة الفلسطينية قريب جداً.
- عبد الرحيم: لا نزال مع خيار السلام لكن من حقنا الدفاع عن النفس.
- شارون يطالب بعقد انتخابات مبكرة.
- تشييع ليا رابين إلى مثواها الأخير في القدس.
- قرار إغلاق المكتب الإسرائيلي في الدوحة ليس مؤقتاً.
- إسرائيل منعت الوفد الفلسطيني من التوجه إلى مرسيليا.
- مؤتمر في بيروت لمقاطعة السلع الأمريكية.

وفي العدد الصادر يوم ٢٠٠١/١١/٢٨ من (القدس العربي) كان عدد الأخبار المتعلقة بالانتفاضة أربعة عشر خبراً وتقريراً إخبارياً وذلك على النحو التالي:

- ستة شهداء في أول أيام رمضان والسلطة ترفض تسوية تدريجية.
- إسرائيل تتهم الاسد بمحاولة تأجيج الصراع في لبنان.
- قوات الاحتلال الإسرائيلي تغتال خمسة فلسطينيين في قلقيلية.
- لقاء بين زعيم الشين بيت والعقيد دحلان في القاهرة.
- مسؤول أمريكي: موسكو تعارض إرسال مراقبين دوليين إلى الأراضي الفلسطينية.
- روبنسون تساند نشر مراقبين دوليين في الأراضي المحتلة.
- حكومة باراك مهددة بإجراء انتخابات مبكرة.
- استشهاد أحد جرحى الانتفاضة الذين يعالجون في السعودية.
- استشهاد شاب ثان متأثراً بجراحة في حي البصيرة بغزة في اقل من ٢٤ ساعة.
- حلم العودة لا يفارق عائلة عبد الجواد.
- مستشفى تخصصي في رام الله من الشيخ زايد وطائرة إماراتية رابعة لدعم ضحايا الانتفاضة.
- الحكم على ١٨ لبنانياً بتهم تتعلق (بالتعامل مع إسرائيل).
- الأردن يعيد إلى إسرائيل نفايات كيميائية سامة.
- دمشق: خطأ سياسي أن ينظر الغرب إلى الوجود الإسرائيلي على أنه ضرورة.

وفي عدد (القدس العربي) بتاريخ ٣٠-٢٠٠٠/١٢/٣١ كان عدد هذه الأخبار أربعة عشر خبراً وتقريراً إخبارياً جاءت تحت العناوين الآتية:

- كلينتون يجند ضغطاً دولياً على عرفات ودعوات للتصعيد في أول أيام العام الجديد.
- احتدام الخلاف في إسرائيل بشأن المقترحات الأمريكية.
- إيران تحذر إسرائيل من الاعتداء على سورية ولبنان.
- استشهاد شرطي فلسطيني بقذيفة أطلقتها دبابة إسرائيلية.
- الرأي العام لدى الفلسطينيين والإسرائيليين ضد مقترحات كلينتون.
- جيش الاحتلال الإسرائيلي في حالة استنفار قصوى.
- أولمرت ينصب مكاتبه بالقرب من الحرم القدسي.
- حماس تطالب السلطة بوقف التفاوض مع إسرائيل.
- حركة الجهاد الإسلامي تعلن عن مسؤوليتها عن تفجير غزة.
- فرنسا تجدد دعوتها الإسرائيليين والفلسطينيين لعقد اتفاق سلام.
- وفاة أمريكي من اصل فلسطيني احتجزه الجيش الإسرائيلي.
- وساطة نمساوية في قضية الأسرى الإسرائيليين بلبنان.
- صحيفة سورية: المقترحات الأمريكية تهدف إلى تهميش الحقوق الفلسطينية وتكريس الاحتلال بصيغ جديدة.
- الفلسطينيون أمضوا أيام العيد في مقابر الشهداء وتحت القصف الإسرائيلي.
- قرى لم يتمكن أهلها من مغادرتها بسبب الحصار المحكم.
- خطيب المسجد الأقصى: ستفشل كل محاولات تهويد القدس.
- قوات الاحتلال والمستوطنون يضرمون النار في مسجد في الخليل.

ثانياً: الصحافة المصرية.

تحتل أخبار الانتفاضة الفلسطينية حيزاً مهماً من الأخبار العربية والدولية التي تنشرها الصحف اليومية المصرية الرئيسية (الأهرام والأخبار والجمهورية) رغم الطابع المحلي الغالب على صفحات هذه الصحف.

وبالإطلاع على عدد صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٠٠١/٣/٢٣ وجدنا الصحيفة تنشر عدداً من المقالات والتعليقات الخاصة بالشأن الفلسطيني والتطلعات العربية إزاء القمة العربية في عمان.

وهذه المقالات كان بعضها نقلاً عن صحف عربية أخرى، وجاء على النحو التالي:

- منطق القوة– أحمد بهجت.
- القمة العربية والأمل المرتقب –د. عبد الرحمن الصالحي.
- التضامن العربي كي يعود قوياً –د. بكر مصباح تنيرة.
- ضرورة تحقيق الوحدة العربية– د. جيلان حمزة.

أما في المقالات التي جاءت ضمن زاوية الصحافة العربية والإسرائيلية فكانت:

- نجاح قمة عمان يتوقف على استبعاد المزايدات – صالح القلاب (عن الشرق الأوسط).
- هل تصحح أمريكا سياستها؟ –محمد علي بوظة– عن الثورة السورية.
- مكاسبنا لم تبدا بعد – عبد الله العمادي– عن الشرق (القطرية).
- إطلاق النار على مناطق الخط الأخضر يخدم شارون –أليكس فيشمان– يديعوت أحرونوت.
- قوى (كل فلسطين لنا) ترسم الخريطة الإسرائيلية – مائير شتيحليتش – يديعوت أحرونوت.

وكان الخبر الرئيسي في صحيفة الأخبار المصرية بتاريخ ٢٠٠١/٣/٢٣ ضمن زاوية عربية (ص١١) عن شارون وعرفات والموقف الأمريكي.

وكتب (وجيه أبو ذكرى) في زاوية (حكايات عربية) تعليقاً بعنوان (الخبز: مقابل وقف الانتفاضة).

وتابعت صحيفة (الجمهورية) المصرية أخبار الانتفاضة وذلك في إطار زاوية (الدنيا أخبار) ص٥ بهذين الخبرين:

- الدبابات والمدفعية الثقيلة تدك المخيمات والمدن الفلسطينية.
- إسرائيل تطلب من مصر: التدخل لوقف الانتفاضة.

وكانت المقالة الافتتاحية في (الجمهورية) بعنوان: مغالطات شارون.

وتناول (سمير رجب)في زاويته (خطوط فاصلة) موضوع الصلف والغطرسة اللذين يميزان شخصية شارون.

وكتب (كامل زهيري) في زاويته (من ثقب الباب) عن الدبلوماسية الشعبية وضرورتها لفضح الاحتلال والعنصرية الصهيونية.

ونشرت صحيفة (الوفد) المصرية بتاريخ ٢٠٠١/٣/٢٣ الخبر الرئيسي ضمن زاوية (أخبار عربية وعالمية) في ص ٩ تحت العناوين التالية:

- شارون يحذر الأمم المتحدة من إرسال قوات دولية للأراضي المحتلة.
- واشنطن ترفض التدخل في المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية وتكتفي بدور المساعد!!
- استشهاد فلسطيني وإصابة العشرات في اعتداءات إسرائيلية جديدة على المواطنين العزل.
- وكتب (محمد مصطفى شردي) مقالاً حول ممارسات (شارون) بعنوان (صدقوا أنفسهم).

وأبدت صحيفة (آفاق عربية) الأسبوعية التي يرأس تحريرها (محمود عطية) في عددها بتاريخ ٢٠٠١/٣/٢٢ اهتماماً واضحاً بمتابعة أخبار الانتفاضة والأساليب الوحشية الإسرائيلية في مواجهتها وذلك بالخبر والتعليق. ومن ذلك:

- تصريح للشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة حماس يقول فيه: الانتفاضة أصبحت مسلحة وزوال دولة اليهود حقيقة.
- ونشرت الصحيفة حديثاً مع (الدكتور رشاد الشامي) المتخصص باللغة العبرية قال فيه إن: العالم العربي يعاني عجزاً خطيراً في دراسة ثقافة العدو.

وكتب (حلمي محمد القاعود) مقالاً بعنوان: (بداية الطريق يا أهل القمة) يقول فيه: (.. إنني لا أطلب منكم شن الحرب وإعلان الجهاد ضد الكيان الاستعماري الآثم، مع أن ذلك أمر طبيعي واستراتيجي ويفترض في أية أمة مستباحة، ناهيك عما يلزمنا به الإسلام من ضرورة المقاومة والمدافعة والجهاد، وإعداد ما نستطيع من قوة، لكن الذي أراه وتطالب به الأمة من حد أدنى، هو محاصرة العدو مثلما يحاصر الشعب الفلسطيني المظلوم).

واهتمت صحيفة (صوت الأمة) الأسبوعية التي يرأس تحريرها (عادل حمودة) بأخبار الانتفاضة والشؤون الفلسطينية والإسرائيلية.

وكتب (عادل حمودة) تحليلاً سياسياً بعنوان (وثيقة إسرائيلية تطالب بدولة قبطية في الصعيد). ونشرت الصحيفة تقريراً إخبارياً بعنوان: (يوميات الفشل الإسرائيلي على الإنترنت) ضمنته الموضوعات الآتية:

- محمد الدرة يشعل معركة جديدة بين العرب وإسرائيل.
- الموساد يبرر فشله في قضية الفيلالي.
- حماس تغلق موقع إسرائيل بكلمة واحدة.

وتعتبر مجلة (روز اليوسف) من أكثر المجلات المصرية اهتماماً بمتابعة الانتفاضة والقضية الفلسطينية، وقد ناقشت في عددها الصادر بتاريخ ٢٨/٤/٢٠٠١ مسألة الفتاوي الإسلامية حول العمليات الاستشهادية بقلم (عبدالله كمال) الذي قال: (إننا كمسلمين ننفرد بين أتباع كل الأديان بأن لدينا عدداً من رجال الدين لم يصلوا إلى كلمة سواء، وراح كل منهم يختلف مع الآخر حتى لو كان الأمر مصيرياً كما هي الحال في فلسطين).

الخلاصة

القراءة النقدية للتغطية الصحفية لأخبار الانتفاضة

نستطيع القول إن الصحافة الأردنية والعربية، وهي بصدد متابعة أحداث الانتفاضة، خاضت في كل جوانب الصراع العربي الصهيوني، وفي كل أبعاد القضية الفلسطينية، وأعادت هذه القضية إلى واجهة الأحداث، نظراً لضراوة المواجهات اليومية، وسقوط المئات من الشهداء، والتعامل الإسرائيلي الحاقد بكل أنواع السلاح ضد المنتفضين الذين بدأت انتفاضتهم سلمية مقتصرة على الهتافات والشعارات وتشييع جثامين الشهداء واستخدام الحجارة ضد جنود الاحتلال، ثم تطورت أمام الاستخدام الإسرائيلي الواسع للقوة العسكرية والاقتحامات المتوالية للمدن والمخيمات تأخذ شكلاً آخر هو استخدام المتوفر بين الأيدي من أسلحة خفيفة ومتفجرات مصنعة محلياً.

أما أبرز هذه الجوانب التي تناولتها الصحافة الأردنية والعربية فهي:

أولاً: قضية القدس، كواحدة من أهم ما أفرزته أحداث الانتفاضة التي حملت اسم انتفاضة الأقصى عندما اندلعت كرد فعل لزيارة شارون لباحة الأقصى الشريف في شهر أيلول ٢٠٠٠ بحراسة ثلاثة آلاف من الجنود الإسرائيليين.

ثانياً: قضية الاستيطان والمستوطنات أو المستعمرات اليهودية، لما يشكله الاستيطان من نقطة مركزية في الصراع مع الحركة الصهيونية، وهو يعني قضم المزيد من الأرض الفلسطينية لحساب التوسع الإسرائيلي.

ثالثاً: قضية العرب الفلسطينيين الذين يعيشون منذ عام ١٩٤٨ في أرضهم تحت الكيان الإسرائيلي، وقد شاركوا في فعاليات الانتفاضة في مراحلها الأولى متضامنين مع

أهلهم في الضفة الغربية، وقطاع غزة، وقدموا ١٣ شهيداً، سقطوا برصاص الجيش الإسرائيلي.

رابعاً: انعقاد مؤتمر القمة العربية في كل من القاهرة وعمان، إضافة لمؤتمر الدول الإسلامية في الدوحة، وهو ما اعتبرته الصحافة العربية نجاحاً للانتفاضة في كسر جمود النظام العربي، وحفزه لتحمل مسؤولياته إزاء الصراع الدامي على أرض فلسطين.

خامساً: بحث قضية الإعلام العربي وأهمية تفعيله على الساحة الدولية نظراً لغيابه عن تلك الساحات المؤثرة التي يقوم فيها الإعلام الغربي معتمداً على ما يستقيه من الإعلام الإسرائيلي والصهيوني، بتشويه صورة الانتفاضة، وصورة الكفاح الفلسطيني، وصورة الشخصية العربية ككل، دون أن يكون في مواجهته إعلام عربي قادر على الرد والتوضيح.

سادساً: إثارة الصحافة الأردنية في تعليقات كثيرة للآثار التي تحدثها الانتفاضة على الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على الساحة الأردنية، الأمر الذي أدخل عدداً من الكتاب والمعلقين في دائرة الجدل حول العلاقة الأردنية- الفلسطينية، وحول مستقبل العلاقة بين الأردن والدولة الفلسطينية القادمة، وحول مستقبل اللاجئين الفلسطينيين، وحول حق العودة للاجئين الذي يعتبر أحد أهم بنود المفاوضات الفلسطينية –الإسرائيلية. ناهيك عن إثارة بعض الكتاب للانعكاسات السلبية التي تركتها أحداث الانتفاضة على الاقتصاد الأردني وعلى السياحة واقتصادياتها في الأردن، والتخوف من احتمالات الترحيل الجماعية أو التسفير الذي يمكن أن تمارسه حكومة شارون ضد الفلسطينيين من الضفة والقطاع إلى الأردن.

سابعاً: رغم تفاوت اهتمام الصحافة بأخبار الانتفاضة بين يوم وآخر، بين

الاهتمام الكامل أو المتوسط، أو غياب الاهتمام في أحيان معينة، تبعاً لحالة المد والجزر التي تمر بها الانتفاضة نفسها، أو لأسباب تتصل بوجود أحداث محلية وداخلية ضاغطة، إلا أن الثوابت التي ميزت المقالات الافتتاحية للصحافة بخصوص الانتفاضة تركزت فيما يلي:

- حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة، على أرض وطنه وعاصمتها القدس.
- الخيار السلمي لقضية الصراع العربي – الإسرائيلي لا محيد عنه، لأن الحل العسكري الأمني لا يحسم هذا الصراع. وان العرب ملتزمون بالسلام مع إسرائيل.
- أن مسارات التفاوض العربي الإسرائيلي متكاملة ومتلازمة ولا يعمل فيها مسار على حساب مسار آخر.
- أن هناك فرصة تاريخية لإسرائيل لأن تكون مقبولة داخل المنطقة، وأن هناك إمكانية لعقد سلام معها.
- التركيز على أهمية الموقف .الأمريكي وضرورة أن تأخذ إدارة بوش الجمهورية دورها في رعاية عملية السلام.
- خيبة الأمل من لجوء حكومة باراك للأساليب الوحشية في مواجهة الانتفاضة، وهو الذي كانت معلقة عليه آمال إحلال السلام بين الطرفين.
- استقبال فوز شارون برئاسة الحكومة الإسرائيلية، بالقلق والحذر، والتذكير بتاريخه العدواني ضد العرب واستعداده لنسف جهود السلام وشهوته المتصلة للحرب.
- التركيز على شخصية بيريز شريك شارون في الائتلاف الحكومي، والدهاء والمكر اللذين يميزانه وبأنه جيء به لتلميع صورة شارون وتسويق سياسته العدوانية للعرب.

وفتحت أحداث الانتفاضة للصحافة الأردنية والعربية الباب للبحث في المجتمع الصهيوني الذي عبر باختياره لشارون عن سيادة عناصر التطرف في كيانه وعن عدائه غير المحدود للعرب والسلام معاً، وكان من عناوين هذا البحث المستفيض للمجتمع الصهيوني، ما يلي:

- الأسس المنهجية والتاريخية للتطرف الصهيوني، وأساليب هذا التطرف.
- الطبيعة الدينية المتعصبة للكيان الصهيوني.
- التركيبة الحزبية، وطبيعة الائتلاف الذي اعتمد عليه شارون في تشكيل حكومته.
- لغة المصالح والروح الزعامية التي تتصف بها مواقف بيريز شريك شارون ووزير خارجيته.
- مؤسسة الجيش الإسرائيلي ودورها في صناعة القرار السياسي والعسكري.
- الازدواجية الصارخة في الخطاب السياسي الإسرائيلي بين التباكي على السلام وذبح هذا السلام بالأفعال الحربية اليومية.
- ما يقوم به النواب العرب في الكنيست الإسرائيلي والدور المطلوب منهم.
- النظرة التاريخية الصهيونية للعرب، وجذور الكراهية ضد كل من هو عربي.
- نظرية الأمن الإسرائيلي القائمة على عدم الاعتراف بأمن الآخرين وسلامهم.
- ما تقوم به إسرائيل على الأرض من تقطيع لأوصال الأراضي المحتلة، ومن حصار اقتصادي وحرب تجويع وهدم المنازل..الخ.

وقد كانت هناك إيجابيات للانتفاضة وللفعل الفلسطيني المقاوم، بينتها الصحافة، ومنها ما يلي:

- الانتفاضة حرب استنزاف يومية ضد الاحتلال، تستخدم فيها الأسلحة المشروعة كافة.
- الانتفاضة تعبير شعبي واضح عن الرغبة العارمة في نيل الاستقلال ودحر الاحتلال.

- الانتفاضة توحد بين الفصائل الوطنية والإسلامية فكريا وميدانيا.
- الانتفاضة تقرب المسافة بين أطروحات الفصائل الفلسطينية كافة في المواجهة مع الاحتلال.
- الانتفاضة قامت بتحريك الشارع العربي خاصة في المرحلة الأولى من عمرها، وذلك من خلال المظاهرات والمسيرات وحملات التبرع المالي لدعم المنتفضين.
- الانتفاضة دفعت بعض الفئات السياسية العربية إلى القول بضرورة إعادة النظر في معاهدات السلام الموقعة بين كل من مصر والأردن مع إسرائيل.

لقد كانت الأساليب العدوانية التي اتبعتها حكومة شارون مع الانتفاضة، حافزاً للصحافة العربية، أن تزيد من وتائر تحذيرها من مغبة هذه السياسات الشارونية، وأن تبدي الكثير من التخوف على مصير المنطقة، ومن احتمال نشوب حرب جديدة يسعى إليها لخلط الأوراق وإضاعة أي مكسب سياسي يمكن للفلسطينيين أن يحصلوا عليه، وقد اكتست هذه الكتابات الصحفية نوعا من الهجوم الصريح على شارون وشخصيته وأهدافه وبرنامجه العدواني والاستيطاني، وقد تمثل ذلك، من خلال:

- التأييد الكامل لكل خطوات السلطة الوطنية الفلسطينية والدفاع عن توجهاتها السلمية وصمودها في وجه العدوان.
- الهجوم الصحفي الكاسح ضد إسرائيل وسياساتها العدوانية، بما فيه قيام بعض الكتاب بتعرية الحركة الصهيونية وطبيعتها العنصرية.
- الإصرار على أن المفاوضات يجب أن تستأنف من حيث توقفت، وهناك إطار مقترح ينظمها متمثلا بالمبادرة الأردنية المصرية، التي رفضها شارون، وطالب بيريز بتعديلها، ويبدو أنها تراوح مكانها.
- الموقف الصحفي الذي ينتقد بحدة الضعف الرسمي العربي والصمت العربي إزاء المجازر اليومية التي يرتكبها شارون ضد الفلسطينيين.

- انتقاد الصحافة للنكوص عن الدعم المالي الذي قررته القمم العربية لدعم الانتفاضة.
- قيام بعض الكتابات الصحفية بالجمع بين ما يجري من قمع إسرائيل للانتفاضة وحصار جائر على الشعب العراقي.
- لقد أجمعت الصحافة الأردنية والعربية على أن الانتفاضة حدث كبير يعبر عن آمال الشعب الفلسطيني والشعوب العربية في مقاومة الاحتلال الصهيوني ودحره وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.
- كان التأييد كبيراً للانتفاضة من الصحف العربية وكتابها على اختلاف توجهاتهم، قومية ويسارية وإسلامية ومنستقلة.
- اهتمت الصحافة بمناقشة الفتاوي الإسلامية لبعض علماء الدين حول العمليات الجهادية ضد العدو الصهيوني.
- تناول بعض الكتاب (وهم أقلية) مسألة الفرص الضائعة التي أهدرها الفلسطينيون لاستثمار نتائج الانتفاضة لإنجاز مشروعهم السياسي.
- اهتمت الصحافة بتخصيص مساحات مهمة للجوانب الإنسانية المتصلة بالانتفاضة والناشئة عنها، مثل: ظروف استشهاد الشبان الفلسطينيين، والآثار النفسية التي يتركها غيابهم على أهلهم وذويهم. والظروف التي تحيط بالأطفال الفلسطينيين وتعرضهم للقتل وهم في طريقهم إلى مدارسهم أو عند رشقهم قوات الاحتلال بالحجارة.
- اهتمت الصحافة بنشر الصور الصحفية المعبرة التي تنقلها وكالات الأنباء من ساحات المواجهة وهي تختصر بكل دقة وحيوية طبيعية المواجهات بين صاحب الحق المستعد للتضحية والعدو الذي يفرض جبروته وعنفه وعدوانيته.
- أفردت الصحافة الأردنية والعربية مساحات واسعة للحديث عن شارون وشخصيته وماضيه الإجرامي ولم تتحفظ إزاء أي لفظ يمكن إلصاقه بهذه الشخصية.

- قدمت الصحافة مادة متفائلة لجمهورها حول فشل المشروع الصهيوني وفشل القوة العسكرية في ضمان أمن الإسرائيليين.
- ألقت الصحافة الأردنية والعربية الضوء على الشرخ الذي أحدثته الانتفاضة في المجتمع الإسرائيلي وفي صفوف الشباب الذين يتهربون من أداء الخدمة العسكرية في الأراضي المحتلة.
- أظهرت الصحافة أيضاً آثار الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على الشعب الفلسطيني من النواحي الاقتصادية وحرب التجويع والحصار، ناهيك عن الآثار النفسية على الأطفال وبروز ظاهرة البطالة بحدة في صفوف العمال.
- كشفت الصحافة باستمرار أساليب الإسرائيليين بإحداث الوقيعة بين الدول العربية المعنية مباشرة بالصراع وخاصة: مصر والأردن وسوريا والسلطة الوطنية الفلسطينية.
- استخدمت الصحافة الأردنية والعربية الفنون الصحفية كافة في تغطية أخبار الانتفاضة كالخبر والتعليق والتحليل والصورة الصحفية والرسم الكاريكاتوري.
- لقد وجدنا الصحافة الأردنية والعربية المكتوبة تمتلك مساحة أوسع للمعالجة وهامشاً أكثر للحرية الصحفية يتيحان لها إمكانية الخوض في الشأن الفلسطيني الذي حركته الانتفاضة وجعلته يحتل صدارة الانشغالات التي تقف في طليعة ما يواجهه النظام العربي من قضايا ومشكلات.
- وإذا كانت الصحيفة عادة تتكون من عدد من الصفحات والأبواب والزوايا الصحفية التي تعني بالشؤون المحلية والاقتصاد والرياضة والإعلانات، إضافة إلى تلك المساحات المخصصة للأخبار الخفيفة وأخبار أهل الفن والغناء والأبراج، إلا أنها قدمت مساحات معتبرة لأخبار الانتفاضة الفلسطينية التي جاءت تحرك المياه الراكدة في الحياة السياسية العربية وسط العجز العربي الرسمي الذي شهد في العقد الأخير

وبعد حرب الخليج الثانية حالة صعبة من التراجع والتمزق في الصف العربي.

- وقد تحركت قضية القدس والمقدسات الإسلامية والمسيحية فيها إلى بؤرة الاهتمام بعد سنوات من التغييب والتجاهل. وبرزت حالة متقدمة من الوحدة الوطنية (الإسلامية – المسيحية) داخل فلسطين شكلت رداً حازماً جازماً على محاولات إسرائيل المستمرة لشق الصف الوطني الفلسطيني. وكانت الصحافة الأردنية والعربية تنقل باستمرار تصريحات لعلماء الدين المسلمين ورجال الدين المسيحيين تؤكد على صلابة الموقف الفلسطيني إسلامياً كان أم مسيحياً ومن ذلك ما كرره كل من الشيخ عكرمة صبري مفتي القدس والأب الدكتور عطا الله حنا راعي الكنيسة الأرثوذكسية فيها.

ورغم هذا الجهد الذي بذلته الصحافة الأردنية والعربية في تغطية أخبار الانتفاضة إلا أن العديد من الصحف العربية قامت بحشر أحداث الانتفاضة في نطاق ضيق من المساحة واعتبارها مسألة قابلة للاحتواء لأنها تتمثل بشيء من (العنف وبعض المواجهات) بين الفلسطينيين وجيش الاحتلال. وجاء ذلك منسجماً مع حالة التردي في الواقع العربي الناتج عن سوء الحال الذي يعيشه هذا الواقع، وعدم اليقين الذي يسود العلاقات الدولية، خصوصاً بعد انهيار القطبية الثنائية وتسيد منطق الدولة الواحدة التي تنظر إلى الدنيا من منظار مصالحها الاستراتيجية فحسب متحالفة فيها مع المصالح اليهودية العالمية.

وقد عبر العديد من التعليقات والكتابات الصحفية عن الهوة الشاسعة التي تفصل بين أحلام الجماهير العربية وإفرازات النظام العربي الرسمي الذي يتسم بالضعف والتراخي وعدم القدرة على إثبات الوجود أمام الجبروت الاستعماري الكوني الذي يدعم هذا العدو المتغطرس المستعد دائماً للحرب والتدمير.

الجزء الرابع

العمارة والآثار في القدس

العمارة والفنون في القدس الإسلامية قبل غزو الفرنجة

أ.د. صفوان التل

قسم الآثار - الجامعة الأردنية

بدأ الأمويون في التركيز على مدينة القدس منذ عهد الخليفة عبد الملك بن مروان لاعتبارات كثيرة وباعتبارها مدينة مقدسة، فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وخاصة بعد إعلان عبد الله بن الزبير خروجه على الدولة الأموية، واحتلاله لمكة والمدينة، حيث الحرمان الشريفان خلال السنوات الأولى من حكم عبد الملك. لقد جاء عبد الملك إلى القدس باعتبارها المكان الذي أسري إليه الرسول الكريم وعرج منها إلى السماء، وكذلك من أجل خلق محاولة سياسية تؤكد شرعيته في الحكم الذي يواجه الانفصال عن الجزيرة العربية. واستقر قراره على إقامة بناء عظيم فوق الصخرة المشرفة، وكان ذلك في عام ٦٨٨م. وقد كلف لهذه المهمة كلا من رجاء بن حياة الكندي ويزيد بن سلام من أبناء القدس وبيسان، حيث أقيم البناء موازياً في أسلوبه المعماري والفني لأجمل وأضخم المباني العربية المسيحية في مدينة القدس. ومن خلال مقارنة المخطط المعتمد لبناء قبة الصخرة نجد أنه متشابه إلى درجة كبيرة مع مخططات بناء كنيسة القيامة وكنيسة الصعود وقبر مريم وجميعها في مدينة القدس، وفي نابلس بناء كنيسة هبة الله وفي مدينة بيت لحم بناء كنيسة المهد، وغيرها من الكنائس التاريخية المهمة. وكان البناء فوق الصخرة المشرفة وما يقع تحتها من آثار المغارة المحفورة في الصخر والتي شهدت محاولة تضحية إبراهيم الخليل عليه السلام بابنه إسماعيل. لقد كانت القبة وأقسامها من حيث البناء والزخارف تمثل المدرسة المعمارية والفنية الأولى في الإسلام، لا بل هي البناء الأول الذي اكتسب الأسلوب الهندسي والفني في العمارة والفنون الإسلامية.

لقد أمر عبد الملك بتحويل خراج ولاية مصر لمدة سبع سنوات لرصدها لإقامة البناء في الحرم الشريف، كما شرع في بناء المسجد الأقصى في الطرف الجنوبي من ساحة الحرم الشريف، وأتمه ابنه الوليد الأول (عام ٧٠٥-٧١٥م).

ويمكن القول إن بناء قبة الصخرة هو صرح تذكاري مناسب للحفاظ على الصخرة المشرفة. بينما يعتبر المسجد الأقصى المسجد الأول في بلاد الشام، لا بل أوسع وأضخم المساجد في مدينة القدس آنذاك. فهو يقع ضمن أسوار المدينة التي تبلغ مساحتها كيلو متراً مربعاً، ويقع الحرم الشريف في الناحية الجنوبية الشرقية منها بمساحة ٥٠٠ × ٣٠٠م٢. وتتوسط قبة الصخرة ساحة الحرم الشريف، بينما يقع المسجد الأقصى إلى الطرف الجنوبي من الساحة. يحيط بالمدينة سور حجري فيه خمسة أبواب مفتوحة، هي : باب الزاهرة وباب الأسباط وباب العمود وباب الجديد وباب الخليل وباب النبي داوود عليه السلام، كما يوجد أربعة أبواب مقفلة. هذا ويحيط ساحة الحرم سور حجري أيضاً فيه تسعة أبواب، هي: أبواب الأسباط، وحطة، وفيصل، والغوانمة، والناظر، والحديد، والقطانين والسلسلة والمغاربة. وتم وصل ساحة الحرم الشريف ببقية أطراف المدينة القديمة عبر طرق وأدراج معظمها يعود إلى العصور الوسطى، الأيوبية والمملوكية. وقد انتشرت المدارس والزوايا والسبل بالإضافة إلى البيوت والمساكن والأسواق في أرجاء المدينة القديمة، الأمر الذي يقدم لنا صورة وديعة عن المدينة الإسلامية. ولعل الأساليب المعمارية تمثل متحفاً لنماذج العمائر التي أقيمت خلال الفترات الإسلامية منذ العهد الأموي حتى العهد العثماني.

تعتبر مدينة القدس متحفاً للمرافق المعمارية الإسلامية بأنواعها، وعبر فترات تاريخية متصلة منذ العصر الأموي والعباسي والفاطمي والأيوبي والمملوكي والعثماني. فهي تضم أكثر من (٢٠٠) بناء إسلامي تشمل المساجد والقصور والزوايا والبيماريستانات والأضرحة والقلاع والأسواق والسبل والأبواب والمدارس والخانات والحمامات والمنارات والمآذن والقناطر والآبار والأبراج والأسوار. ومعظم هذه المنشآت من الحجارة، وقد اتسمت بطابع ديني اعتمد الساحات والقباب والواجهات

المزخرفة بالأقواس والأعمدة والنوافذ، كما اعتمدت أساليب النحت أو التجميل مادة الطوب أو الخزف.

لقد بدأت معالم الحضارة الإسلامية في بلاد الشام منذ أن تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة عام ٦٦١م، وتم قيام الدولة الأموية بعد مبايعته بالخلافة في مدينة القدس. وبدأت بلاد الشام بذلك عهداً جديداً من الاستقرار والعمران. وقد أشار المطران المؤرخ أركولفوس Arculfus خلال زيارته للقدس عام ٦٧٠م إلى عدد من المباني التي أقامها المسلمون منذ قيام الدولة الأموية في بلاد الشام. غير أن تلك الإنجازات كانت بسيطة جداً قياساً بتلك التي ظهرت في مدينة القدس خلال عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م). فعندما زار الخليفة مدينة القدس توجه نحو مكان الصخرة المباركة التي عرج منها الرسول الكريم إلى السماء، وكلف كلاً من رجاء ابن حياة الكندي ويزيد بن سلام بإقامة بناء مهيب فوق الصخرة المشرفة، لكي تبقى خالدة في ذاكرة التاريخ، وحتى تكون محفوظة وسط ساحة الحرم الشريف، يزورها المسلمون باعتبارها رمزاً هاماً ومقدساً من رموزهم. وفي عام ٦٩١م، تم إكمال البناء مع زخارفه الجميلة.

كان المخطط الذي يحيط بالصخرة ثماني الشكل، تتوسطه قبة يبلغ قطرها وارتفاعها حوالي ٢٠,٤٤ متراً، كما يبلغ طول الضلع الثماني ٢٠,٦٠ متراً. لقد تم إقامة ثمانية دعائم بشكل ثماني، وكذلك تم توزيع مجموعة من الأعمدة يبلغ عددها ١٦ عموداً، موزعة بشكل ثماني يوازي المثمن الخارجي، وذلك لرفع السقف فوقها. بينما أحيط بالصخرة المشرفة أربعة دعائم بشكل مربع، تقترن مع إثني عشر عموداً لتكوين دائرة تحيط بالصخرة من جميع الجهات. واعتمد المهندسون أربعة أبواب محورية تؤدي إلى داخل البناء. لقد أقيمت القبة على أقواس تنطلق فوق الدعائم والأعمدة، وكانت

القبة من الخشب المغطى بأشرطة من الرصاص، وبعد تحرير القدس من الفرنجة عام ١١٨٨م على يد صلاح الدين الأيوبي، أعيد بناء القبة مرة أخرى، بينما تم تجديد القبة بأخرى من الألمنيوم المطلي بالذهب، وقد تم ذلك في عهد جلالة المغفور له بإذن الله الملك الحسين بن طلال.

أقيمت في بناء قبة الصخرة شبكة منتظمة ودقيقة من الأعمدة والدعائم، يبلغ عددها ٤٠ عموداً ودعامة، تم إعدادها لتحمل الجسور والسقف بواسطة الأقواس المستديرة.

لا شك أن بناء قبة الصخرة من حيث المخطط يمثل خطوة مثالية كبداية للعمارة الإسلامية؛ فهي تعتبر أول عمارة إسلامية رصينة تمت إقامتها في إطار الحضارة الإسلامية. ومن خلال مقارنتها بالمباني التي أقامها العرب قبل الإسلام، أي خلال الفترة البيزنطية، فهي تمثل أسلوباً متجانساً من حيث المخطط الثماني، ومن حيث الاعتماد على الأقواس والجسور لرفع السقف والقبة. ويظهر ذلك في مباني كلٍ من كنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم، بالإضافة إلى كنائس الصعود وقبر مريم وكنيسة هبة الله في جبل جرزيم قرب نابلس. كما ازدهر هذا الأسلوب في كنائس كلٍ من جرش وأم قيس في الأردن وبصرى الشام في سوريا خلال العصر البيزنطي.

لقد جسد المسلمون في بناء قبة الصخرة الأسلوب العربي الذي ازدهر خلال الفترة البيزنطية المسيحية والذي اعتمد المخطط الثماني والقبة المركزية في أمهات الكنائس التي انتشرت في فلسطين والأردن وبقية أقاليم بلاد الشام. وكانت المعالم والرموز الدينية في عمارة فلسطين البيزنطية تجسد الأسلوب العربي المسيحي الذي نراه قد طوّق المعالم الدينية الخاصة مثل كنائس مغارة المهد في بيت لحم والجلجلة والقبر المقدس ومكان الصعود في القدس وقبر السيدة مريم في جبل الزيتون وسواها من المباني. ولعل ذلك يجسد الأسلوب العربي في العمارة العربية المسيحية والعمارة

الإسلامية في بلاد الشام والذي انتقل خلال القرن السادس الميلادي إلى العاصمة البيزنطية وإلى أوروبا في عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)، وقد تم إعادة هذا النظام المعماري في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في نهاية القرن السابع الميلادي.

لا شك أن الأسلوب الثماني يجسد الهيبة والوجدان الديني، ولعل القبة المركزية المقامة على الأعمدة والأقواس تشدنا نحو التأمل في أساليب بناء المظلات المهيبة والصواوين الأنيقة التي اعتمدها العرب خلال تاريخهم قبل الإسلام بعدة قرون.

إن مخطط بناء قبة الصخرة يؤكد دقة التنظيم والتناسق في حمل القبة فوق الصخرة المشرفة، مما دفع العديد من علماء الآثار والفنون والمهندسين إلى الإشادة بهذه الأسلوب الرفيع ومنهم: هارتمان وهايتز لويس وكروزيل وجرابار وبورجين وماكس فان برشم وجوناثان بلوم وزكي حسن وفريد الشافعي وعبد الرحيم غالب والريحاوي وأحمد فكري وغيرهم الكثيرون.

أما فيما يتعلق بالفنون الزخرفية فإن الآثار الإسلامية في مدينة القدس تعتبر النماذج الأولى في الفنون الإسلامية كلها، سواء من حيث شكلها أو مضمونها. ويقدم لنا بناء قبة الصخرة بواكير الفنون الإسلامية التي اعتمدها المسلمون بأسلوب مجرد من التصوير وخال من الرمزية والإيحاء الذي اعتمدته الفنون البيزنطية أو الكلاسيكية القديمة.

لقد اعتمد الفنان المسلم جميع أنواع الصناعات القديمة لتلك الفنون، غير أنه طبق أساليب جديدة في الشكل والمضمون من خلال فلسفة جديدة ذات أبعاد جمالية مجردة. فمثلاً استعمل الفسيفساء الجدارية على معظم الواجهات الداخلية لبناء قبة الصخرة وعلى معظم الجسور والأقواس، وهي مادة زجاجية ملونة ومذهبة ومصدفة،

اعتمدت الزخارف النباتية الخالصة مثل الأشجار والأغصان والأوراق والأزهار والثمار. وقد تم تشكيلها بأسلوب فني بديع لملء الفراغات بطريقة هندسية متوازنة اعتمدت على التماثل والتكرار، وكأنها إيقاع موسيقي هادئ يتصف بالدقة والرشاقة في الحركة والألوان. وقد سيطرت هذه النماذج على معظم الفنون والصناعات الزخرفية الإسلامية، بحيث أطلق عليها مؤرخو الفن اسم (الأرابيسك Arabesque) وهو التوشيح أو الرقش العربي الذي ارتضاه المسلمون لفنونهم، وكان أول من أطلق هذا التعبير هو المستشرق الألماني (ألويس ريجال Alois Riegal) وكذلك الأستاذ (أرنست كوهنل Ernest Kuhnel).

لم يستقر فن الأرابيسك هذا على الأشكال النباتية، بل اعتمد أيضا على التشكيلات والوحدات الهندسية المتنوعة والمتكررة بأسلوب ينسجم مع طبيعة المكان. فالدوائر والمثلثات والمربعات والخماسيات والسداسيات وغيرها قد تم رسمها منفردة أو متداخلة أو متقاطعة بأسلوب فني رفيع.

وفي مواقع أخرى، اعتمد الفنان المسلم على ملء الفراغات بواسطة الكتابة بالخطوط العربية، فملأ المكان بنماذج من الكتابات الأنيقة بأسلوبها الكتابي وبأبعادها الجمالية المادية والمعنوية. ومن أهم نماذج الكتابات العربية بالخط الكوفي اليابس هو الشريط الذي يمثل كتابة بمادة الفسيفساء بطول (٢٤٠م) والموجود على قمة الجدران الداخلية في البناء، ويعتبر من أقدم نماذج الخط الكوفي في الفنون الإسلامية.

وبهذه الطريقة، تم اعتماد أسلوب الفنون الإسلامية منذ أيام عبد الملك بن مروان حتى هذا اليوم، حيث لم تحتو تلك النماذج الفنية على أية صورة لمخلوق وخاصة في الصروح والمباني الدينية.

لقد بات في حكم المؤكد أن مدينة القدس تمثل بواكير الفنون الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي، ولعل النماذج التي أشرنا إليها من فنون نباتية أو هندسية أو كتابية هي القاعدة الأولى المعتمَدَة، وهي الأقدم تاريخا، واستمرت الأمة الإسلامية في تقليد هذه المدرسة الفنية سواء على الفسيفساء أو على الرسوم أو النحوت الجدارية أو في أعمال الحفر على المعادن أو الأخشاب أو الجبصين، وعليه فالواجب العلمي يدعونا إلى اعتماد تعريف هذه النماذج بأسلوب (مدرسة القدس الفنية) التي استمرت على امتداد العصور الإسلامية اللاحقة العباسية والأيوبية والسلجوقية والمملوكية والعثمانية.

ولنا من زخارف الدولة العثمانية نماذج مثالية لهذا النمط من الفنون، فقد قدم السلطان العثماني سليمان القانوني هدية فنية رائعة لغطاء واجهات بناء قبة الصخرة. فأمر بتبليط واجهات البناء الثماني بالبلاط العثماني المزجج والملون الذي أنتجته مصانع الخزف في الأناضول، في كل من أزنك وكوتاهية واستانبول. وهي بلاطات بلغ عددها ٤٥ ألف بلاطة، تم توزيعها بشكل هندسي بديع على جميع الواجهات الخارجية للبناء. لقد أظهرت جميع معالمها أشكال النباتات والأشكال الهندسية والكتابية التي اتخذت ألوانا مذهلة تمثل الانسجام والسكينة في قلوب المؤمنين، فهي، بدون شك، تدعو للتأمل في الأحداث التي تطوق مدينة القدس في هذه الأيام.

لا شك أن مدينة القدس قد اعتادت الصراع والهموم المختلفة عبر تاريخها المجيد. فالتاريخ يشهد لعروبتها منذ خمسة آلاف عام مضت، ولعل آلام السيد المسيح تلتقي مع عذاب الأطفال الأبرياء من أبنائها مع كافة المؤمنين الصادقين على ثراها الطهور.

مصادر ومراجع البحث

١- البلاذري: فتوح البلدان، بيروت ١٩٨٣م.

٢- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.

٣- ابن الجوزي: فضائل القدس، بيروت ١٩٨٣م.

٤- مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، القاهرة ١٨٦٦م.

٥- لي سترانج: فلسطين في العهد الإسلامي (ترجمة محمود عمايري) عمان ١٩٧٠م.

٦- عارف العارف: المنهل في تاريخ القدس، القدس ١٩٦١م.

٧- رائف نجم وآخرون: كنوز القدس-عمان ١٩٨٣، فضائل بيت المقدس، عمان ١٩٨١م.

٨- كامل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس، عمان ١٩٨١م.

٩- عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت ١٩٨٨م.

١٠- شاكر مصطفى: المدن في الإسلام ج١،٢، الكويت ١٩٨٨م.

١١- ك. كرزويل: الآثار الإسلامية الأولى (ترجمة عبد الهادي عبلة) دمشق ١٩٨٤م.

١٢- محمد أديب العامري: عروبة فلسطين في التاريخ، بيروت ١٩٧٢م.

١٣- أحمد فكري: "قبة الصخرة"، عالم الفكر، م١١، ١٩٨٠م.

١٤- إحسان عباس: تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي، عمان ١٩٩٩م، م٥. جامعة اليرموك ١٩٨٩م.

١٥- صفوان التل: "أصول المخطط الثماني في بناء قبة الصخرة" أبحاث اليرموك، م٥، العدد٣، ١٩٨٩.

١٦- صفوان التل: "بناء وزخارف قبة الصخرة-دراسة تحليلية" منشورات مؤتمر بلاد الشام، عمان ١٩٨٠م.

١٧- صفوان التل: "الفنون الإسلامية بين الأصالة والتقليد" مجلة المنهل العدد ٤٥٤، ١٩٨٧م.

18- Creswell, K.A.C., Early Muslim Architecture, Oxford 1975 V.I-II.

19- Burgoyne, M.H., Mamluk Jerusalem, London 1987.

20- Duncan Alistair, The Noble Sanctuary, Norwich 1972.

21- Bloom, Jonathan, Minaret Symbol of Islam, Oxford 1989.

22- Grabar, O., The Umayyad Dome of The Rock in Jerusalem, Ars, Orientalis, Vol.3. 1959.

23- Wilson, Charles, Jerusalem the Holy City, Oxford, 1969.

القدس: الاحتلال وتحديات الهوية العمرانية

د. ياسر إبراهيم الرجال

قسم هندسة العمارة– جامعة البترا

ملخص الدراسة

شهدت مدينة القدس مجموعة من التحولات الناتجة عن ممارسات الاحتلال الإسرائيلي، والتي أثرت على البيئة الحضرية للمدينة من عدة نواح، مما أدى إلى تغيير واضح في الهوية العمرانية للمدينة.

تسجل الدراسة مظاهر هذا التغيير في كل من:

١- بنيوية المدينة: النسق والنسيج والنمط العمراني المميز للمدينة، وتشكيل الأرض وعلاقته بالمحيط المبني والطبيعي.

٢- النواحي السلوكية: وتتعلق بالعلاقات الإنسانية التي تولدها البيئة الحضرية، والفعاليات والنشاطات التي تنتجها المدينة وتستوعبها.

٣- المعاني الروحية والرمزية والمرتبطة بالبيئة الحضرية لمدينة القدس.

حيث تبين الدراسة دور الاحتلال الإسرائيلي في دعم وتشجيع مظاهر التغيير السابقة، مما أدى إلى تحويل الهوية العمرانية للمدينة لتصبح نموذجاً للقمع والسلطة بدلاً من أن تكون نموذجاً للمدينة الروحية.

وتدعو الدراسة إلى معالجة التغيير من خلال تقديم معايير تهدف إلى استمرارية الهوية وتأصيلها من خلال النمو العضوي واحترام الاستمرارية التاريخية.

تعتبر مدينة القدس بما تمثله من نواح روحية وإنسانية موقعاً حضرياً متميزاً ذا هوية عمرانية فريدة تم اكتسابها عبر التطور التاريخي للمدينة، حيث كانت هذه الهوية العمرانية نتاجاً لتفاعلات بنيوية المدينة (Morphology) بكل من النواحي السلوكية

وما تشملها من أنماط النشاطات الإنسانية التي تولدها المدينة، والمعاني الروحية والرمزية التي ترتبط بالمكان[1] (جدول رقم ١) فكانت القدس نموذجاً فريدا للمدينة الروحية والإنسانية، وقد تعرضت مدينة القدس في العقود الخمسة السابقة إلى سلسلة من الإجراءات والممارسات تناولت الجوانب السابقة في هويتها العمرانية، مما أفقد المدينة طابعها الروحي والإنساني، وأعطاها صبغة غربية تعكس مفاهيم القمع والتسلط، وتبين الدراسة مظاهر التغيير على النحو التالي:

جدول رقم (١): عناصر الهوية العمرانية

الهويه العمرانيه		
بنيوية المدينة	**النواحي السلوكية**	**المعاني الرمزية**
تفاعلات المحيط المبني والمحيط الطبيعي	أسلوب الحياة	الذاكرة البيئية
تشكيل الأرض	التركيب الاجتماعي	الإحساس بالمكان
النسق	العادات والتقاليد	العراقة
التسيج العمراني	الأعراف	المعتقدات
نمط النمو	القيم السائدة	الطقوس
النواحي الحسية	الالتزامات الاجتماعية (الفرد والمجتمع)	النواحي العاطفية
التنظيم	النمط الاقتصادي	الانتماء
إدراك	**استيعاب**	**تقييم**

أولاً: بنيوية المدينة.

ترتبط بنيوية المدينة بالتفاعلات ما بين المحيط المبني (Built Environment) وما يحتويه من عناصر بنائية وفراغية، وبين المحيط الطبيعي (Natural Environment)

للمكان[٢]، حيث ينتج عن هذه التفاعلات تشكيل الأرض (Landform)، والنسق (Form)، والنسيج العمراني (Urban Tissue) حيث شكلت هذه المدينة مثالاً للنمو العضوي (Organic Growth) الممتد من الأسفل إلى الأعلى، ضمن إطار عام يؤكد هيمنة الحرم القدسي الشريف ومبنى قبة الصخرة على المدينة، حيث شكل الحرام القدسي مرتفقاً (Podium) مرتبطاً بالأرض، يحتوي المدينة ويبرز قبة الصخرة كعنصر ذي أهمية كبرى في تشكيل خط السماء، حيث من الممكن رؤيتها من كل الاتجاهات عدا الناحية الشمالية وبشكل يبرز جزءاً كبيراً من المدينة ويميزه عن باقي الأجزاء، كما أن بساطة ونقاء تشكيل القبة وكمال تكوينها الهندسي أعطاها صورة يمكن تذكرها واسترجاعها بسهولة، وقد ساعد ذلك في تأكيد الطابع الكوني للمدينة[٣] (Cosmic Order).

كانت مباني المدينة الأخرى في القدس ذات مقياس سكني (Residential Scale) متراكب، ترتبط فيه المباني بالأرض وببعضها البعض، مكونة نسيجاً متضامناً (Compact Tissue) تغلب عليه الصلادة والفتحات الصغيرة الراسية التكوين والمزدوجة في كثير من الأحيان، وقد سمح التفاوت البسيط في ارتفاعات المباني- والذي لم يتجاوز الثلاثة طوابق إلا في حالات معدودة -سمح بربط أسطح المباني بطرقات المدينة، وبالقدرة على الوصول إليها من مستوى الشارع.

تخلل هذا النسيج مجموعة من العناصر الرأسية، كأبراج الكنائس ومنارات المساجد وأشجار الأرز والسرو الرأسية التكوين، والتي عملت كمعالم مميزة (Landmarks) في نسيج المدينة العمراني. شكلت هذه المعالم المميزة نظاماً فراغياً للتوجيه (Spatial Orientation System) أعطى المدينة درجة عالية من الوضوح في عين ساكنيها، كما ساهم تدرج طرقات المدينة في العرض والأهمية ودرجة

الخصوصية، في تدعيم هذا النظام الفراغي وتقويته، كما أعطت التنويعات الفضائية وتداخلات الضوء والظل والكثافة البنائية، شعوراً بالدفء والحنين انعكس إيجابياً على سكان المدينة وارتباطهم بها.

نمت القدس القديمة لتشمل مجموعة من القطاعات الجديدة خارج الأسوار، حيث شهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهور مجموعة من الأحياء العربية والتي تخللتها بعض الإنشاءات التابعة للكنيسة المسيحية المقدسية(٤)، والتي آلت إليها بالشراء أو من خلال الهبات العثمانية لأراضي الدولة، كما شهدت الفترة نفسها ظهور عدد من الأحياء اليهودية خارج الأسوار من الناحية الغربية(٥)، وقد كان نمو المدينة وحتى الاحتلال الإسرائيلي للقطاع الغربي من القدس عام ١٩٤٨ نمواً يحترم الاستمرارية في التطور، فكان نموا متناغماً مع النسق والنسيج والنمط العمراني للمدينة وإن كان حديثاً في طابعه.

بدأ تشويه هذا التناغم قبل احتلال القطاعات الجديدة من المدينة ببضع سنوات، حيث تطلبت عملية السيطرة اليهودية على المدينة تهجير السكان العرب من خلال الحرب النفسية وتخريب البنى التحتية للمدينة، وقد تزامن ذلك مع تدمير مجموعة من مباني القدس الجديدة شملت المنشآت العامة الحكومية والتجارية والسياحية والدور السكنية، مما دفع الكثير من العرب من سكان القطاعات الجديدة من المدينة إلى مغادرة بيوتهم، فتحولت هذه القطاعات إلى خرائب متناثرة وأحياء ودور مهجورة، تفصلها مجموعات كثيفة من الأسلاك الشائكة. وقد زال التناغم في بنيوية القطاعات الحديثة بصورة كاملة بعد سيطرة القوات الإسرائيلية على معظم هذه القطاعات عام ١٩٤٨، والتي كان العرب يمتلكون حوالي ٨٠٪ منها، فتحولت في غضون أشهر قليلة من قطاعات مختلفة إلى مناطق تواجد يهودي بحت، في حين بقيت البلدة القديمة (داخل

الأسوار) وبعض الأجزاء من القطاعات الجديدة خارج الأسوار تحت السيطرة العربية، وتم إنشاء جدار فاصل على طول خط الهدنة بين الجانبين العربي والإسرائيلي.

أدى العدوان الإسرائيلي عام ١٩٦٧ إلى وقوع باقي فلسطين تحت الاحتلال الإسرائيلي فأصبحت كامل القدس موضعاً لتطبيق القوانين الإسرائيلية عليها، فتم إزالة الجدار الفاصل بين شطري المدينة، وتم ربط القدس عملياً "بأرض إسرائيل" مباشرة، في حين أن الضم الرسمي للقدس كان في ١٩٨٠/٧/٣١ عندما تم إعلان القدس الموحدة عاصمة ومقراً لرئيس الدولة وللمحكمة العليا(٦)، وقد تعرضت مدينة القدس بقطاعاتها المختلفة القديمة والجديدة إلى سلسلة من الإجراءات التي أدت إلى حدوث تحولات كبيرة في بنيوية المدينة وعلى النحو التالي:

١- عزل المدينة عن محيطها الطبيعي:

تم إعلان القطاع الغربي من المدينة عاصمة لدولة إسرائيل في ١٩٤٩/١٢/١١ وتم تطبيق القوانين الإسرائيلية عليها(٧)، ومن ضمنها قانون أملاك الغائبين الذي سمح بمصادرة مساحات واسعة من أراضي المدينة والقرى المحيطة بها، ومن ضمنها قرية الشيخ بدر والتي تمت إزالتها بالكامل لإنشاء مجموعة من المباني الحكومية عليها(٨) كالكنيست ووزارة الخارجية. واكب ذلك نشاط عمراني ضخم، فتم إخلاء القطاعات الجديدة من غالبية سكانها العرب مسلمين ومسيحيين لإقامة مجموعة من المراكز الاستيطانية الجديدة لاستيعاب المهاجرين اليهود، وتم تخطيط هذه المراكز الاستيطانية بشكل يراعى المتطلبات الاستراتيجية لتحصين دولة الاحتلال من التحركات الجماهيرية والعمليات الفدائية وأية حروب مستقبلية، فكانت المباني عسكرية الطابع ذات جدران حجرية شاهقة مصمتة ومنغلقة، تعاني من عقدة

الاضطهاد، وبشخصية تمثل جميع معاني الانتهاك والعدوان والهيمنة. عملت هذه المراكز الاستيطانية على إحاطة المدينة من جميع الجهات بمجموعة متتالية من الأطواق (جدول رقم ٢)، أدت إلى عزل المدينة عن محيطها العربي وحجبها بصرياً من معظم الاتجاهات، وقد أدى ذلك إلى تغيير خط السماء في الاتجاه الغربي.

يمكن تصنيف المراكز الاستيطانية في ثلاثة أنواع رئيسية هي: المراكز الاستيطانية المكانية، والمراكز الاستيطانية الوظيفية والتي توفر فرص العمل للمستوطنين في المجالات السياحية والزراعية والصناعية والعسكرية، والمراكز الاستيطانية العقائدية، والتي تعتبر من أخطر الأنواع نظرا لاستهدافها الأحياء العربية القديمة، حيث شهد العقدان الماضيان ظهورا كثيفا للجماعات الدينية المتطرفة والهادفة إلى الاستيطان داخل الأحياء العربية الإسلامية والمسيحية داخل وخارج الأسوار، واستبدال المعالم الإسلامية بأخرى يهودية.

(جدول رقم ٢): الأطواق الاستيطانية حول مدينة القدس

الطوق الأول: حول المدينة
الحي اليهودي (داخل الأسوار)،رامات أشكول، جفعات همغتار، التلة الفرنسية/ الجامعة العبرية، بسكات زئيف، بسكات عومر، النفي يعقوب، راموت، ريخس شعفاط، تلبيوت الشرقية، وجيلو.
الطوق الثاني: مجال القدس الكبرى
معاليه أدوميم، مشور ادوميم، خطه E، كفالرادوميم، جبعات زئيف، هار شموئيل، جبعات بنيامين (آدم)، علمون، جفعون حدشاه،وهارآدار.
الطوق الثالث
البوابة الشرقية، هارحوماه (جبل أبو غنيم)، مشروع شارون، والبوابات ٢٦٠.

٢- الاعتبارات الأثنيه في النمو الحضري:

كان للأحياء اليهودية التي أقيمت خارج أسوار المدينة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بعد استراتيجي بهدف إلى تحقيق الغالبية السكانية اليهودية لاحقا، حيث تم ترسيم حدود بلدية القدس في عام ١٩٢١ إبان الانتداب البريطاني لتشمل هذه الأحياء[٩]، والتي ضمت للمدينة رغم بعدها النسبي عن الأسوار (حوالي ٧ كيلو مترات)، في حين تم استثناء التجمعات والأحياء السكنية العربية المتاخمة للمدينة من الناحيتين الشرقية والجنوبية[١٠] من الضم إلى حدود البلدية. كما واكب احتلال القطاع الغربي من المدينة في عام ١٩٤٨ توسعة حدود البلدية استناداً إلى اعتبارات اثنوجيوغرافيه، حيث كانت التوسعة مرتبطة بالوجود اليهودي، وذلك تحقيقا لسياسة التوازن السكاني التي أعطت الغالبية المطلقة لليهود، واستهدفت تحويل العرب إلى أقلية لا تزيد نسبتها عن ٢٤٪ من السكان في المدينة، فتم ضم التجمعات السكانية اليهودية للبلدية، كما تم ضم الأراضي التابعة للقرى العربية في حين تم استثناء التجمعات السكنية العربية من الضم، وذلك بغرض الوصول إلى أكبر مساحة ممكنة مع أقل عدد من السكان العرب. وقد اعتمدت التوسعة معايير متضاربة تتوافق مع ذلك الهدف، حيث اعتمدت طبوغرافية المواقع تارة والشوارع القائمة تارة أخرى كمرجعية لتحديد التوسع، لتصبح مساحة القدس الكبرى (Metropolitan Jerusalem) ٨٤٠ كيلو مترا مربعا في الوقت الحالي[١١]، أي ما يعادل ١٥٪ من مساحة الضفة الغربية.

أما في الجانب العربي وقبل وقوع كامل المدينة تحت الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧، فقد كانت توسعة الحدود البلدية خارج الأسوار محدودة، فلم تتجاوز البلدية العربية مساحة ٥،٦ كيلو متر مربع[١٢]. وبالرغم من المصادقة على المخطط الهيكلي الذي أوصى بزيادة حدود البلدية العربية إلى ١٣٥ كيلو مترا مربعا في عام ١٩٥٧[١٣]،

إلا أن ظروفا مختلفة حالت دون تنفيذ هذه التوصية، وقد كان لذلك أثران إيجابي وسلبي على المدينة، ففي الجانب الإيجابي تمت المحافظة على صورتها من الناحية الشرقية، فلم يتم إقامة أية إنشاءات ضخمة هناك تحجب الحرم الشريف وقبة الصخرة المشرفة، أما الأثر السلبي فتمثل في فقدان المدينة أغلبيتها السكانية العربية لاحقاً.

٣- تكريس تقسيم المدينة:

بعد الاحتلال الإسرائيلي لكامل المدينة في عام ١٩٦٧ تم إعداد مخطط جديد للمدينة اعتمد نموذجاً يبدأ من قسم التلال المحيطة بالمدينة -لأغراض أمنية- ويحجب المدينة القديمة(١٤)، وبما يخالف مفاهيم التخطيط العمراني المألوفة في المواقع الجبلية، مما أدى إلى تغيير تشكيل الأرض والامتداد الفراغي الموروث. وبالرغم من أن المخطط كان يستهدف توحيد المدينة ظاهريا، إلا أنه أدى إلى تكريس تقسيم المدينة من خلال إنشاء حزام أخضر يحيط بالبلدة القديمة بديلا للجدار الفاصل الذي تمت إزالته عام ١٩٦٧، ويفصل البلدة عن امتدادها الطبيعي. وقد استدعى ذلك إزالة جميع الأحياء التاريخية والمقابر المحيطة بأسوار البلدة القديمة، واستبدالها بما يعرف بمنتزه "وولفسون"(١٥).

كما اشتمل المخطط على إزالة مجموعة الأحياء القديمة داخل الأسوار، وإقامة مراكز استيطانية جديدة بدلاً منها، فأصبح كامل البلدة القديمة (داخل الأسوار) هدفا للمشاريع الاستيطانية، من خلال زرع ٢٦ وحدة يهودية داخل التجمعات العربية ذات الكثافة السكانية العالية، بهدف خنقها وتهجير واقتلاع سكانها منها بصورة تدريجية، مما أدى إلى خلخلة سكانية أصبحت بموجبها الأحياء العربية جيوباً صغيرة في بحر الأحياء اليهودية، يضاف إلى هذا الطابع الغريب لهذه المراكز الاستيطانية والذي

يشوه معالم المدينة، حيث تختلف مباني هذه المراكز في نسقها ونسيجها ونمطها عن ذلك السائد في البلدة القديمة.

٤- فرض واقع جيوسياسي جديد:

أولت حكومة الاحتلال مسألة السيطرة الأمنية على مداخل المدينة ومخارجها والطرق المؤدية إليها اهتماماً شديدا، فشرعت في إقامة مجموعة من الأنفاق تحت المدينة القديمة لربط المستوطنات في الناحية الشرقية بتلك في الناحية الغربية، وقد تم تنفيذ واحد من هذه الأنفاق حتى نهاية عام ٢٠٠٠. يضاف إلى ذلك مصادرة العديد من الأراضي العربية لأغراض إنشاء الطرق الالتفافية، إضافة إلى إزالة العديد من المواقع التاريخية القديمة لأغراض التنظيم، كما تم التركيز على تغيير الهوية العمرانية للبلدة القديمة والمناطق المحيطة بها حيث اشتملت الاقتراحات التخطيطية الخاصة بها على إزالتها بالكامل وإنشاء أحياء جديدة مترابطة مع بعضها البعض من خلال شبكة من الطرق تحت مستوى الأرض. ومن شأن ذلك تهجير السكان الأصليين وفرض واقع جغرافي جديد ذي بعد سياسي يربط الجيوب الاستيطانية داخل الأسوار ببعضها البعض ويحقق السيطرة الأمنية.

ثانياً: النواحي السلوكية

تشكل النواحي السلوكية جانباً رئيسياً في تشكيل الهوية العمرانية للمدينة، حيث تمثل العلاقات الإنسانية التي تولدها البيئة الحضرية والفعاليات والنشاطات التي تنتجها المدينة وتستوعبها، حيث يمكن وصف مدينة القدس كمسرح كبير تجري في فضاءاتها الحضرية فعاليات إنسانية متنوعة يؤديها عامة الناس، بشكل يعكس أنماط الحياة اليومية

وما يرافقها من نمو وتغير اجتماعي وثقافي، فكانت القدس بوتقة للحضارات المختلفة عبر العصور. وقد ظهر ذلك جليا في التنوع في أنماط عمارتها وألسنة وأشكال وملابس قاطنيها ومعروضات محلاتها التجارية. وقد شهدت فضاءات القدس الحضرية انحساراً شديداً في فعالياتها وأنماط نشاطاتها بعد الاحتلال، نتيجة للعزل الاجتماعي والتغير الحاد في النمط السكاني، ويمكن عزو ذلك إلى:

١– تغيير الواقع الديموغرافي للمدينة:

لم يكن تهجير الفلسطينيين من القدس حدثا مرحليا يرتبط بحربي ١٩٤٨ و ١٩٦٧، فقد منعت حكومة الاحتلال اللاجئين من حق العودة خلافاً للقرار رقم ١٩٤ الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١١-١٢-١٩٤٨[١٦]، في حين تم فتح باب الهجرة اليهودية وتوطين المهاجرين الجدد داخل وخارج أسوار البلدة القديمة. وقد جلب هؤلاء المهاجرون الجدد قيما ثقافية واجتماعية جديدة غربية الأصول في الغالب، وقد تعارضت هذه القيم مع القيم الشرقية السائدة و لم تستطع التأقلم معها، مما أدى إلى المصادمات اليومية بين السكان الأصليين والجدد، وإلى استفزاز السكان العرب من خلال الاعتداء على الحرمات والمساكن بغرض قلعهم ودفعهم للهجرة وبيع أراضيهم، تجنباً للاحتكاك بالمستوطنين الإسرائيليين، مما ساهم في تفريغ المدينة من سكانها العرب. وقد ظهر ذلك جليا بعد نجاح ارييل شارون في احتلال أحد المنازل العربية في طريق الواد داخل الأسوار، حيث ازدادت اعتداءات الجماعات الدينية اليهودية المتطرفة، ومن هذه الجماعات[١٧]: "عطيرت كوهانيم"، "توراه كوهانيم"، حركة إسرائيل الفتاة، "شوفوبانيم" وغيرها.

ومن أجل ضمان الغالبية السكانية اليهودية تم ربط "قانون الدخول إلى إسرائيل" للعام ١٩٧٤ بمجموعة من الأنظمة والتعليمات التي تصف الظروف التي تنتهي بموجبها الإقامة الدائمة في المدينة، مما أدى إلى فقدان آلاف المقدسيين لحقهم في الإقامة بسبب تواجدهم خارج المدينة بهدف العمل أو الدراسة، كما لم تصاحب عملية ضم أراضي القدس الشرقية ضما سكانيا، مما جعل المقدسين مقيمين وليس مواطنين، مما اثر على الحقوق المترتبة لهم من قبل حكومة الاحتلال، حيث أتاح ذلك المجال للسلطات الإسرائيلية لإلغاء إقامة العديد من السكان لأسباب غير متوقعة. وتبع ذلك إصدار قانون "إثبات مركز الحياة[١٨]" في عام ١٩٩٧، والذي ربط بين إقامة العرب في القدس وبين مكان السكن والعمل، فأعطى حق الإقامة لمن يسكن في حدود المدينة، واعتبار المواطن المقدسي الذي يعمل خارج القدس بحرد زائر في مدينته، مما يهدد حوالي ٤٠٪ من المقدسيين بالحرمان من الإقامة الدائمة في المدينة من خلال اعتبارهم زائرين وليس مقيمين، يضاف إلى ذلك تطبيق قانون أملاك الغائبين على مدينة القدس، مما أدى إلى مصادرة الأراضي والعقارات التي كان أصحابها غير متواجدين في المدينة عند الاحتلال.

٢- تعقيد إجراءات البناء والتطوير:

لم تعترف حكومة الاحتلال بحقوق الملكية الفلسطينية للعديد من الأراضي والعقارات باعتبارها أراضٍ مشاع (يشارك بها أكثر من مالك)، أو لوجود تسجيلات مغلوطة في المساحات[١٩]، وقد أدى ذلك إلى عدم إعطاء رخص بناء و ترميم في هذه الأملاك، وبالتالي إزالة أي مبنى تتم معالجته بدون أخذ هذه التراخيص، إضافة إلى إزالة أي مبنى يتم اتهام مالكيه أو قاطنيه بأعمال مخلة بالأمن. كما يحتاج الحصول على

رخصة بناء إلى حوالي ٩ سنوات من المتابعات المضنية وإلى تكاليف تصل في أغلب الأحيان إلى ٢٠ ألف دولار أمريكي، مما يعيق النمو العمراني العربي في المدينة.

يضاف إلى ذلك اعتبار الحد الأقصى لعدد الطوابق في الأحياء العربية ثلاثة طوابق، في حين أن ذلك يصل إلى الثمانية طوابق في الأحياء اليهودية[٢٠]، مما أدى إلى ارتفاع أسعار الأراضي في الأحياء العربية، واضطرار الراغبين بالتوسع إلى الخروج من المدينة.

٣- انحسار الفعاليات التجارية والاجتماعية:

كما تم تبني مخطط جديد للمركز التجاري للبلدة القديمة عمل على تقييد الفعاليات التجارية والحرفية التقليدية في المدينة، ففقدت غالبية أسواق القدس القديمة ميزتها التخصصية وقدرتها على استيعاب العديد من النشاطات، مما أدى إلى تغيير هويتها العمرانية وانحسار الفعاليات التجارية المتميزة فيها.

ثالثاً: المعاني الروحية والرمزية.

هناك أهمية خاصة للمعاني الروحية والرمزية التي ترتبط بها مدينة القدس وفضاءاتها الحضرية في تشكيل الهوية العمرانية للمدينة، فقد جعلها كونها موئلا للديانات السماوية مثالاً لتعايش الأديان والمذاهب والأعراق والألسنة والعادات ضمن الإطار العربي العام، وقد عمل الاحتلال الإسرائيلي على تشويه المعاني الروحية والرمزية التي تمثل هذا التعايش الحضاري، ومن الأمثلة على ذلك:

١- تشويه الرموز الدينية المسيحية:

يشمل ذلك الاعتداءات المتكررة على المقدسات والرموز الدينية المسيحية، ومن

ضمنها إزالة مجموعة من الأحياء على جانبي "طريق الآلام" التي يجري عليها العرب المسيحيون مسيرتهم السنوية احتفالاً بعيد القيامة، مما أدى إلى إضاعة حدود أجزاء من هذا الطريق، واضطرار المحتفلين لإقامة حواجز بشرية لتحديد معالم هذه الأجزاء المزالة.

٢- الاعتداء على الرموز الدينية الإسلامية:

قامت إسرائيل بالعديد من الاعتداءات على المقدسات والرموز الدينية الإسلامية، بهدف الاستيلاء على الحرم القدسي الشريف وإنشاء ما يدعى "بالهيكل الثالث" في موقع قبة الصخرة المشرفة (٢١)، وقد تم الكشف عن توصيات تهدف لتحقيق هذا الأمر على أرض الواقع. وفي سبيل ذلك قامت إسرائيل بحرق المسجد الأقصى في ١٩٦٩/٨/٢١ فاحترق ثلث مساحة المسجد(٢٢)، ومن ضمنها منبر صلاح الدين بما يمثله من معان ترمز إلى تحرير القدس من الصليبيين، إضافة إلى احتراق المحراب والقبة الخشبية والزخارف الجصية وغير ذلك.

كما تم إجراء العديد من الحفريات الأثرية من خلال مخطط منهجي يستهدف تجيير الفترات التاريخية السابقة (عربية ورومانية) للوجود اليهودي السابق في المدينة، وبما يشوه ويختصر الوجود العربي المتواصل فيها. فأجريت الحفريات تحت المسجد الأقصى للكشف عن ما يدعى "بحائط المبكى" – المسمى اليهودي "لحائط البراق الشريف". وقد تأثرت أساسات المسجد الأقصى بهذه الأعمال، مما يعرضه مع تكرار وتعمق تلك الحفريات إلى خطر الصدع أو الانهيار.

كما تم الاستيلاء على العديد من المعالم الدينية الإسلامية ومن ضمنها المدرسة التكترية الملاصقة للجدار الغربي للحرم الشريف واستخدامها ككنيس يهودي. وتزامن ذلك مع فتح خندق أسفل هذا الجدار –الذي يدعون أنه يشكل الجدار الغربي للهيكل

– وإقامة كنيس يهودي آخر داخله، مما أثر على الصلاحية الإنشائية للعديد من المباني المتاخمة أعطى ذريعة لإزالتها، كذلك تم هدم وإزالة العديد من المباني التاريخية من معاهد ومدارس ومساجد وأسواق وكنائس لهذا الغرض.

كما كان الوصول إلى ساحات المسجد الأقصى أبرز الفعاليات التي عملت حكومة الاحتلال على محاربتها، وذلك بإغلاق المدينة ومنع المصلين من دخولها في العديد من المناسبات، إضافة إلى الاعتداء على المصلين وجعلهم عرضه للحراب الإسرائيلية.

٣– تغيير الذاكرة التاريخية:

تم استبدال أسماء العديد من المعالم والشوارع والساحات العربية في مدينة القدس، وذلك بغرض تغيير الذاكرة التاريخية لهذه الأماكن وفرض هوية بيئية وثقافية جديدة تتوافق مع المفاهيم الدينية اليهودية. ومن أبرز هذه التغييرات تسمية الحرم الشريف بجبل الهيكل (Themple Mount)، وتسمية حائط البراق الشريف بحائط المبكى، واستبدال أسماء العديد من المعالم ومن ضمنها بوابات المدينة بمسيات جديدة (جدول رقم٣).

خاتمة وتوصيات:

يتضح من العرض السابق أن مدينة القدس تتعرض إلى أخطار كبيرة تستهدف تغيير هويتها العمرانية كمدينة روحية وإنسانية، وتحويلها إلى مدينة غريبة الطابع تعكس مفاهيم القمع والتسلط، حيث يلخص الجدول رقم ٤ التحولات العمرانية في مدينة القدس والقيم المصاحبة لها.

لا يمكن بحال من الأحوال نسبة هذه التحولات إلى أسباب النمو الحضري الطبيعي، ولكن إلى ممارسات الاحتلال الإسرائيلي ودورها في دعم مظاهر هذا التغيير وتشجيعه من خلال:

١- قوانين البناء والتنظيم المطبقة في المدينة.

٢- مصادرة الأراضي وعدم الاعتراف بحقوق التصرف بالملكية.

٣- ممارسات المستوطنين الإسرائيليين التي تعمل على استفزاز السكان العرب وإرهابهم.

٤- مشاريع الاستيطان الإسرائيلي داخل الأسوار وخارجها وتأثيرها على تشويه النسق والنسيج والنمط العمراني وخط السماء.

٥- تهويد المدينة والاستيلاء على الحرم القدسي الشريف وبناء الهيكل الثالث.

جدول رقم (٣): بعض المواقع العربية في القدس ومسمياتها اليهودية

الأسماء العربية	المسميات الجديدة للمواقع
الحرم القدسي الشريف	جبل الهيكل
حائط البراق	حائط المبكي
حارة الشرف	الحي اليهودي
باب عبد الحميد	باب الجديد
باب الزاهرة	باب هيرود
باب الأسباط	باب الأسود
باب الرحمة	الباب الذهبي
باب النبي داوود	باب صهيون
باب محمد/ حطى/ المغاربه	باب دونغ
طريق الواد	طريق حباي
عقبة الخالدية	طريق حشموناتيم
دير مار يوحنا	نؤوب دافيد
حوش الشاويش	بيت رعوت

ومن هنا لا بد من تقيم معايير قابلة للتطبيق في ضوء الواقع الحالي للمدينة، تهدف إلى استمرارية الهوية وتأصيلها من خلال النمو العضوي واحترام الاستمرارية التاريخية. ففي مجال بنيوية المدينة هناك ضرورة ماسة لإعداد مخططات هيكلية بديلة للمدينة لفرض الحقيقة المضادة، ومعالجة الأبعاد السياسية والعقيدية والجغرافية والاقتصادية والديموغرافية القائمة، ويشمل ذلك:

جدول رقم (٤): التحولات العمرانية في مدينة القدس والقيم المصاحبة لها وانطباعات السكان المتولدة عن هذه القيم

التحولات الناجمة	القيمة المصاحبة	الانطباعات المتولدة لدى الإسرائيليين	الانطباعات المتولدة لدى العرب
الأطواق الاستيطانية، الطابع العسكري، الجدران الحجرية الشاهقة والمصمتة، تغيير خط السماء	عزل المدينة عن محيطها الطبيعي عضويا وبصريا	العزلة والانغلاق، المعاناة من عقدة الاضطهاد، والخوف من المستقبل	الانتهاك، العدوان والهيمنة
ربط توسعة المدينة بالوجود اليهودي	تحقيق الغالبية السكانية اليهودية، الاعتداء على الحرمات	السيطرة الأمنية، والتطرف	الشعور بالتهديد بالحرمان من الإقامة
الحزام الأخضر	تكريس تقسيم المدينة	إمكانية الاستيلاء على الأراضي بسهولة	إمكانية الانسحاب الإسرائيلي من أجزاء من المدينة، وترك المطالبة بالقطاع العربي من المدينة
إنكار الوقف الذري	تعقيد إجراءات البناء والتطوير	اقتلاع السكان العرب وتحويل الأحياء العربية إلى جيوب صغيرة	السبيل هو ترك المدينة
الاستيطان داخل الأسوار	انحسار الفعاليات التجارية والاجتماعية	تهويد المدينة	عدم إمكانية التعايش السلمي
تحويل الطابع الروحي والإنساني للمدينة إلى طابع غربي	الاعتداء على الرموز الدينية	تهويد المدينة	تهويد المدينة
تغيير أسماء المواقع	تغيير الذاكرة التاريخية		تجيير الفترات التاريخية السابقة للوجود اليهودي

١- تقديم مقترحات تخطيطية لإعـادة التـوازن السـكاني في المدينـة وتذويـب الغالبيـة اليهودية من خلال تطوير مناطق التماس مع القطاعات الجديدة من المدينة.

٢- المحافظة على البلدة القديمة بما فيـها الحـرم القدسـي الشـريف، لمنـع أيـة إجـراءات تهدف إلى تغيير واقع المدينة العمراني والاجتماعي والاقتصادي.

أما في النواحي السلوكية فتدعــو الدراسـة إلى اتخاذ الإجـراءات الهادفـة إلى عـدم تفريغ السكان من المدينة، ومنها مراجعة سجلات الأملاك العثماني لاستصدار سندات ملكية لجميع العقارات التي لا تعترف إسرائيل بحقوق ملكية الفلسطينيين لها، إضافة إلى حماية الممتلكات الحالية من تهديدات المستوطنين.

أمـا في مجـال المحافظـة علـى الرمـوز الروحيـة والتاريخيـة المرتبطـة بالمدينـة، فتدعـو الدراسة إلى إعداد دراسات ميدانية معمارية وتاريخية وقانونية واجتماعية، يتم بموجبـها تحديـد المواقـع والمبـاني المـهددة، وتقديـم تصـور شـامل لعمليـة الحفـاظ علـى الـتراث الحضاري الإنساني من خـلال الإعمـار الطـارئ للمبـاني المـهددة، والإحيـاء العمرانـي الشامل للمدينة، وتحديد أولويات العمل وربطه بالحفاظ على المعيار الإنساني، والدفاع القانوني عــن حقـوق الأفـراد في ممتلكاتـهم في المدينـة، ويشـمل ذلـك تشـجيع ودعـم الباحثين والهيئات العلمية[٢٣] التي تعمل على تسجيل وتوثيـق وترميـم المبـاني في البلـدة القديمة.

المصادر

١- تم اعتماد عناصر تشكيل الهوية العمرانية استناداً إلى:

- Norberg-Sohulz, Christian, "Genius Loci: Toward a Phenomenolagy of Architecture", New York: Praeger, 1979.

٢- انظر على سبيل المثال :

- Bacon, Edmund, "Design of Cities", New York: Thames and Hudsan, 1982.
- Scully, Vicent,"Architecture: The Natural and the Manmade", London: Harvill. 1191.
3- Op cit, Norberg-Sochulz, 1979.

٤- التفكجي، خليل، الاستيطان الجغـرافي والديمغـرافي وأخطـاره في قضيـة القـدس، ورقـة عمل مقدمة للندوة العالمية لشؤون القدس، المؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس، عمان، ٢٠٠٠.

٥- المرجع نفسه.

٦- لجنة القدس، "وثيقة القدس"، الرباط: منظمة المؤتمر الإسلامي، ١٩٨٤ز

٧- المرجع نفسه.

٨- التفكجي، ٢٠٠٠.

٩- المرجع السابق.

١٠- التفكجي، خليل، التهويد المبرمج للبلدة القديمة لمدينة القدس، دائرة الخرائط والمساحة، بيت الشرق، القدس، ١٩٩٩.

١١- العبد، سميح، مخطط القدس الكبرى في المنظريـن الفلسـطيني والإسـرائيلي، ورقـة عمـل مقدمة للمؤتمر العالمي: القدس الآن: المدينة والناس: تحديات مستمرة، هيئـة المعمـاريين العرب، بيروت، ١٩٩٩.

١٢- التفكجي، ٢٠٠٠.

١٣- المرجع نفسه.

١٤- تم عرض هذا النموذج التخطيطي في:

- Sharon, Arieh, "Planning Jerusalem", Harvard Jerusalem Studio.

وتمت مناقشته في:

- Kutcher, Arthur, "The New Jerusalem: Planning and Politics:, London: Thames and Hudson, 1973.

١٥- لجنة القدس، ١٩٨٤.

١٦- المرجع نفسه.

١٧- التفكجي، ١٩٩٩.

١٨- التفكجي، ٢٠٠٠.

١٩- لجنة القدس، ١٩٨٤.

٢٠- انظر على سبيل المثال:

21- Coon, Anthony, "Town Planning Under Military Ovvupation", Aldershot: Dartmouth Publishing Company,1992.

٢٢- غوشة، عبد الله عاصم، الأخطار العمرانية على مدينة القدس، "المهندس الأردني"، السنة ٣٤، العدد ٦٧، آب ١٩٩٩، صزص ٤٩-٤٧.

٢٣- نجم، رائف يوسف، الحرم الشريف خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي، "أبحاث ندوة المدينة العربية"، تحرير : إسماعيل سراج الدين وسمير الصادق، الرياض: المعهد العربي لإنماء المدن، ١٩٨١، ص ص : ١٥١-١٦١.

٢٤- انظر على سبيل المثال:

- برنامج إحياء مدينة القدس القديمة المدعوم من الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي. انظر: طوقان، شادية، التطويع الوظيفي للمباني التاريخية في البلدة القديمة في القدس، ورقة عمل مقدمة للمؤتمر العالمي: القدس الآن: المدينة والناس: تحديات مستمرة، هيئة المعماريين العرب، بيروت ١٩٩٩.

- أعمال الدراسات التوثيقة التي أجراها:

- Borgoune, Mickle, "The Mamluk Jerusalem".

- Walls, Archie G., "Geometry and Architecture in Islamic Jerusalem:. Lonon: Scorpion Publishing Ltd., World of Islamic Festival Trust, 1990.

الحرم القدسي الشريف...

مدرسة للعمارة

المهندس عبد الله عاصم غوشه

كلية العمارة والفنون - جامعة البترا

الحرم القدسي الشريف... مدرسة للعمارة

﴿سُبْحَانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[الإسراء: ١].

١-١ مدينة القدس... التأريخ والنشأة:

مدينة القدس كتاب موثق على شكل عمران يشمل التاريخ والحرب وظهور الديانات وازدهار الامبراطوريات وصراع الحضارات، تاريخ على شكل أسوار وشوارع وأسواق ودور عبادة، فهو مركب ديناميكي لا يمكن فهمه دون الإلمام والتبصر في التطور التاريخي منذ نشأة المدينة وحتى يومنا هذا.

نشأت المدينة باسم (يبوس) نسبة إلى أهلها اليبوسيين العرب قبل (٥٠٠٠) عام تاركين أثاراً عظيمة، وظلت كذلك حتى استولى عليها داود عليه السلام عام (١٠٠٠)ق. م، وهذا الملك لم يدم أكثر من (٧٠) عاماً[١].

وتعاقبت الأمم على القدس من الهكسوس والفراعنة والآشوريين والبابليين بقيادة نبوخذ نصر الذي هدم هيكل اليهود، ثم جاء الفرس واليونان. وعندما حكم المدينة الرومان أطلقوا عليها اسم (ايلياء) وأنشأوا مشاريع عمرانية كالسور الحجري وقنوات المياه، وفي عهد تيطس تم هدم الهيكل الثاني، وعنما جاء هدريان عام (١٣٥)م جعل من مدينة القدس مدينة رومانية الطابع كبقية المدن الرومانية، وحرم على اليهود دخولها

وجعل الموت عقوبة من يدخلها، ثم سمح لهم بالمجيء يوما واحدا في السنة والوقوف عند جدار الجزء الغربي من المدينة، وهو ما يسمى بحائط البراق(٢).

حتى جاء الفتح الإسلامي عام ١٥ هـ ودخول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ القدس، وما هو معروف لدينا بالعهدة العمرية مع صفرونيوس. وفي الفترات الإسلامية المتعاقبة تم الاهتمام بالمدينة لما لها من أهمية دينية وروحية ابتداء من الأمويين وحتى العثمانيين.

١-٢ النسيج العمراني:

مدينة القدس منطقة صخرية جبلية ليست قريبة من طرق التجارة الرئيسية ولا يشقها نهر أو بحر، ومع ذلك فقد أرادها الله سبحانه وتعالى مدينة الأنبياء والرسل وبورك بها. والنسيج العمراني للمدينة يمثل المدينة العربية الإسلامية من حيث اعتبار المسجد الوحدة التخطيطية وهو النقطة المركزية الذي تنطلق منه محاور الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والشاهد العمراني على تطورها عبر العصور.

تقع في وسط مدينة القدس القديمة أهم الآثار والمواقع الإسلامية، المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة والعديد من المدارس التاريخية التي ترتبط بالأحياء السكنية والأسواق التجارية المتخصصة من حيث المهنة برباط عضوي وعلاقة متكاملة، بحيث يظهر التجانس مع البيئة الحضرية والثقافية والاهتمام بالمقياس الإنساني(٣).

يحيط بالمدينة سور حجري بني في عدة فترات وأهمها فترة سليمان القانوني الذي رمم السور وحصنه عسكريا وظل محتفظا بطابعه حتى يومنا هذا. وهنالك عدة بوابات للمدينة أشهرها باب العمود أو باب دمشق وسمي بهذا الاسم إلى نسبة لعمود روماني وضع عليه تمثال أقيم في الفترة الرومانية وبقي الاسم يومنا، بالإضافة للباب الذهبي

الذي بناه هيرودس ودخله الامبراطور هرقل، وباب الخليل الذي دخله الجنرال اللنبي عام (١٩١٧) معلنا سقوط مدينة القدس على يد الانتداب البريطاني وقوله كلمته المشهورة[٤]. (الآن انتهت الحروب الصليبية)، بالإضافة لبوابات الساهرة والجديد والمغاربة...الخ.

أن ما يميز القدس ليس النسيج العمراني للمدينة فهي كباقي المدن العربية الإسلامية كالقاهرة وحلب ودمشق..الخ، ولكن ما يميزها هو الحرم الشريف.

٢- الحرم الشريف:

تبلغ مساحة الحرم الشريف ١٤٠ دونما تقريبا، واسم المسجد الأقصى المقصود به جميع الحرم وليس المسجد الأقصى المعروف لدينا فقط، أي أنه يشمل كذلك مسجد قبة الصخرة والمنطقة المحيطة[٥]. وبدأت علاقة الإسلام بهذا الموقع الطاهر حين أسرى بالرسول ﷺ واصبح الإيمان بالإسراء والمعراج جزءا رئيسيا وهاما في عقيدة المسلم، بالإضافة لكونها قبلة المسلمين. قال ﷺ "فضلت الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفي مسجدي بألف صلاة، وفي بيت المقدس بخمسمائة صلاة".

٢-١ المفاهيم العمرانية والتخطيط للحرم الشريف:

أن ما يميز الحرم الشريف هو التراكم الحضاري والعمراني للحضارة الإسلامية، فهو يمثل العصور الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية، وبالتالي وبعد ما يزيد عن أربعة عشر قرنا نجد إن هذا الفراغ العمراني يمثل شاهدا على مفاهيم تخطيطية إسلامية متراكمة.

يتصل الحرم الشريف بالمدينة عبر طرق من خلال أبواب الحرم الشريف منها باب الأسباط وباب حطه وباب فيصل من الجهة الشمالية إضافة إلى سبعة أبواب من الجهة الغربية هي باب الغوانمه، باب الناظر، باب الحديد، باب القطانين، باب المطهرة، باب السلسلة وباب المغاربه.

أما أهم المفاهيم والأسس التخطيطية التي يمكن الاستفادة منها في تخطيط الحرم الشريف وعلاقته مع المدينة فهي ما يلي:

أولا: التكامل الوظيفي لمركز المدينة.

يمتاز الحرم بأنه منطقة جامعة ومركز رئيسي بالمدينة، حيث هنالك المساجد (الأقصى والصخرة والمرواني) والمدارس التاريخية والسبل والزوايا والمحكمة الشرعية وساحة المدينة، وبالتالي التكامل الوظيفي والعضوي بين أجزاء المدينة الروحية والمادية.

وترتبط منطقة الحرم بالإحياء السكينة والتجارية القديمة برباط متكامل ويتضح ذلك من تصميم أبواب الحرم وعلاقتها الفراغات المحيطة، بحيث يغدو الفصل بينهما أمرا صعبا، ذلك أن العمارة الإسلامية تتميز بالتخطيط متعدد الوظائف.

ثانيا: اختلافات الفراغات باختلاف المستويات.

أن اختلاف المناسيب ضمن منطقة الحرم الشريف (بسبب الطبيعة الجبلية للمنطقة) قد أعطى ميزة هامة للفراغات، فجاءت المصطبة الرئيسية المقام عليها قبة الصخرة ذات أثر كبير في تحديد نوعية الفراغات ضمن الحرم، فعند الصعود من خلال القناطر أو البوابات أو البوائك يشعر الإنسان بالانتقال والدخول من منطقة عامة إلى منطقة متميزة ضمن الفراغ المفتوح.

هنالك علاقة فلسفية ما بين الصعود من خلال البوابات إلى منطقة الصخرة

بعلاقة الإسراء والمعراج وصعود النبي ﷺ إلى السماء، وذلك بإعطاء الإنسان الشعور بالارتقاء نحو الفراغ الوسطي.

لقد كان للبوابات الفضل في ذلك، فيصف (Edmund Bacon) والذي يهتم بموضوع التحليل والإدراك البصري، أن البوابات قد عملت على تحديد الفراغ، ولو لم تكن موجودة لما استطعنا تحديد الفراغ[٦].

ثالثا: الإدراك البصري للفراغ الوسطي

لقد وجدت المآذن في المدن الإسلامية كنقاط مرجعية في سماء المدينة، وفي منطقة الحرم الشريف اختلفت المنهجية بوجود الساحة الكبيرة بالمنطقة، وجاءت قبة الصخرة كنقطة مرجعية في سماء المدينة تشاهد من خلال بوابات الحرم بمناظر ومشاهد مختلفة.

إن علاقة مسجد قبة الصخرة ذي الشكل الثماني مع البوابات علاقة متكاملة في تحديد اتجاه الإنسان الصاعد إلى منطقة المصطبة، وبالتالي فإننا نشاهد من كل بوابة منظرا مختلفا بفضل توقيع بعض العناصر المعمارية على المنطقة مثل قبة السلسلة وقبة يوسف وقبة المعراج، والاهتمام بإحدى هذه البوابات لتكون منبرا للتبليغ مثل منبر برهان الدين المطل على الجهة الجنوبية.

رابعا: البعد الفلسفي لعلاقة المحاور

أن ما يميز منطقة الحرم هو تنوع الوظائف والفراغات المختلفة، فحين الانتقال من فراغ لآخر تبرز الحاجة لمنطقة انتقالية مهمة، ضمن المحور الرئيسي نفسه (محور القبلة) فجاءت معالجة منطقة الكأس (المتوضأ) كنقطة انتقالية ضمن الحرم، فعمل ذلك على إغناء الفراغ الحضري.

وحين النظر إلى التسمية (المسجد الأقصى) والمقصود به (الأبعد) جاء جدار القبلة للمسجد مع نهاية سور المدينة كعنوان لنهاية الامتداد المادي والعمراني للمدينة، واستمرارية الامتداد الروحي نحو القبلة بمكة المكرمة.

خامسا: تنسيق الموقع

يمتاز الفراغ المفتوح الجيد بقدرة الإنسان على استيعابه بأبسط المرجعيات، وهذا ما يمتاز به الحرم الشريف فهنالك تنوع ما بين المناطق المنبسطة والمبلطة والمزروعة بأشجار الزيتون المباركة التي تعمل على إعطاء الساحات جوا لطيفا من أشعة الشمس المباشرة، فهنالك تنوع بالممرات المحاطة بالأشجار التي تعطي الإنسان التوجيه الصحيح.

٢-٢ الوصف المعماري لقبة الصخرة

أنشئ مسجد قبة الصخرة عام (٦٩٢)م على أعلى بقعة في الحرم الشريف، وقد أقامه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وهنالك عدة أسباب لإقامته حسب رأي المؤرخين:

١- لعلاقته بحادثة الإسراء والمعراج للنبي ﷺ.

٢- حيث شاهد عبد الملك بن مروان كنيسة القيامة أراد إقامة بناء إسلامي يكون أعظم من كنيسة القيامة حتى لا يفتن المسلمون بذلك، ولأن حضارة المنطقة بتلك الحقبة كانت متأثرة بعلاقة فخامة البناء وقوة الدولة، ونظرا لأن الدولة الأموية كانت في بداياتها أراد الخليفة الأموي تأكيد فخامة العمارة الإسلامية وقوتها.

٣- بعض المراجع تذكر أنه طيلة أيام الأمويين كان الناس يطوفون حول قبة الصخرة كالطواف حول الكعبة، وهذا الطرح ضعيف لأن من كتب حول ذلك كان في فترات لاحقة شهدت خلافا مذهبيا مع الأمويين.

تبلغ مساحة مسجد قبة الصخرة (١٧٥٠)م٢، وقطرها من الداخل (٢٠,٣)م وارتفاعها (٢٠,٤٨)م وطول الضلع الخارجي (٢٠,٦٠) وهي متكئة على اسطوانة تشمل (١٦) شباكا يرتكز على (٤) دعامات، والشكل العام للمسجد مثمن الشكل ويحقق النسبة الذهبية(٧).

اشترك في بنائها صناع من العرب والروم والبيزنطيين بإشراف رجاء بن حياة الكندي ويزيد بن سلام من القدس، وقد رصد عبد الملك بن مروان خراج مصر لسبع سنوات للانفاق على القبة.

٢-٣ المميزات المعمارية لمسجد قبة الصخرة

أولا: المجسم Model:

يقال إن مسجد قبة الصخرة هو أول بناء في التاريخ الإسلامي يقام له مجسم قبل تنفيذه من خلال رأيين:

الرأي الأول : أن قبة السلسلة ذات الشكل السداسي هي مجسم أقيم لعبد الملك بن مروان لكي يشاهده قبل تنفيذ قبة الصخرة(٨).

الرأي الثاني: أن قبة السلسلة عبارة عن خزانة الدولة أو محكمة أقيمت بعد بناء مسجد قبة الصخرة في عهد عبد الملك بن مروان.

أن فكرة المجسم سواء كانت قبة السلسلة أو غيرها فهي حقيقية نظرا لروعة تنفيذ قبة الصخرة وعلاقاتها الهندسية مع الفراغ المحيط.

ثانيا: الشكل الثماني

يعتبر التشكيل المعماري الجديد لمسجد قبة الصخرة ذو الشكل الثماني تطورا

عمرانيا مهما في التشكيل الهندسي للعمارة الإسلامية، وأن اختيار هذا الشكل كان أسلوبا شائعا في العمارة البيزنطية وفي بلاد الشام.

ثالثا: النسبة الذهبية

ما يميز مسجد قبة الصخرة هو استخدام النسبة الذهبية في العلاقة ما بين أضلاع المسجد والقبة، ولذلك جاء شكلها منسقا متوازنا رائعا.

رابعا: القبة المزدوجة:

تم استخدام قبتين للمسجد إحداهما خارجية والأخرى داخلية حولهما فراغ لحماية القبة من التسوس ومن عوامل الطقس وفروق درجات الحرارة ما بين الفراغ الداخلي والخارجي، وبالتالي طبق مفهوم العزل الحراري.

خامسا: البوابات

نجد أن لمسجد قبة الصخرة أربعة أبواب على الجهات الأربع، وأن لكل بوابة من الخارج شخصيتها ومعالجتها المعمارية المتميزة.

سادسا: الزخرفة

جدران المسجد من الخارج مقسمة إلى جزئين:

القسم العلوي: مصفح بالقيشاني.

القسم السفلي: مصفح بالرخام الأبيض.

أن طريقة الزخرفة الخارجية والداخلية تمثل الفن الإسلامي من حيث استخدام الأرابسك والخط والرسم النباتي، وتختلف عن الفنون الغربية التي كانت تهتم بالتصوير[٩].

سابعا: مواد البناء

كانت المساجد في صدر الإسلام تبنى من الخشب والطين والطوب، ويعتبر مسجد قبة الصخرة نقلة نوعية في اختيار المواد من رخام وحجر وهي متوفرة بالمنطقة.

٣-١ إعمار القبة عبر التاريخ

ما نراه حاليا لمبنى مسجد قبة الصخرة يمثل المسجد الحقيقي الذي بني في الأصل حسب آراء العلماء والمؤرخين مع بعض الإضافات التي حدثت نتيجة الزلازل والظروف المختلفة التي مرت على القدس.

لقد قام كل من الخليفة العباسي المأمون والحاكم بأمر الله الفاطمي وغيرهما بترميم المسجد خاصة بعد الزلازل التي ضربت المنطقة، بالإضافة للمماليك والعثمانيين خاصة سليمان القانوني والسلطان عبد الحميد.

وحين احتل الصليبيون القدس عام (١٠٩٩) حولوا مسجد قبة الصخرة إلى كنيسة وأقاموا على الصخرة المشرفة معبدا سموه "هيكل السيد العظيم" واتخذه الفرسان الصليبيون مقرا لهم. وعندما حرر صلاح الدين الأيوبي القدس عام (١١٨٧)م، أعاد البناء على ما كان عليه وزين قبة الصخرة من الداخل وأحضر المنبر المشهور للمسجد الأقصى[١٠].

وخلال القرن الماضي تمت ثلاث مراحل للأعمار بقيادة الهاشميين، وفيما يلي توضيح لذلك: [١١]

المرحلة الأولى: وتمت في بداية القرن العشرين حين قدم الشريف حسين بن علي طيب الله ثراه مبلغ (٢٤,٠٠٠) دينار ذهبي للإعمار.

المرحلة الثانية: وأنجزت هذه المرحلة عام ١٩٦٤ وتمثلت بما يلي:

- إعادة تكسية قبة الصخرة بالألمنيوم الأصفر.
- إعادة تكسية أروقة القبة بالألمنيوم الأبيض.
- إعادة ترميم الجدران الخارجية والجدران الداخلية بالإضافة للزخارف الداخلية وتقوية الأعمدة.

ومع مرور الوقت أخذت المياه بالتسرب إلى داخل القبة لأن التباشيم التي استخدمت للربط بين ألواح الألمنيوم بدأت تظهر عليها الشقوق نتيجة الظروف الجوية، كما أن ألواح الألمنيوم لا تقوى على مقاومة العوامل الجوية المختلفة، وبالتالي أصبحت الحاجة لمرحلة أعمار جديدة.

المرحلة الثالثة: أنجزت عام ١٩٩٤ وأهم ما جرى تنفيذه ما يلي:

- تم فك ألواح الألمنيوم الاصفر عن القبة وتركيب جمالونات خشبية جديدة معالجة ضد الرطوبة والتسوس.
- جرى تغطية الجمالونات بكسوة خشبية على كامل القبة وغطيت بعد ذلك بمواد عازلة للمياه والحرارة.
- تم تركيب كسوة القبة بألواح النحاس الأصفر بنسبة (٩٠٪) نحاس و (١٠٪) خليط من المعادن.
- جرى فك ألواح الألمونيوم الأبيض عن الأروقة وتغطيتها بألواح الرصاص بعد المعالجة الضرورية.

٣-٢ الفكر الصهيوني وخرافة الهيكل وحائط البراق:

ما زال الفكر الصهيوني ومحاولاته مستمرة للاستيلاء على الحرم الشريف والبحث عن أثريات الهيكل المزعوم، ومع ذلك لم تظهر أية دلائل بل على العكس ظهرت أثريات تؤكد وجود العديد من القصور الأموية في الحائطين الجنوبي والغربي لمنطقة الحرم[١٢].

أن حائط البراق هو موقع إسلامي فهو الجدار الغربي للمسجد الأقصى والحرم والمكان الذي ربط به البراق الشريف في حادثة الإسراء والمعراج وعلى الرغم من ذلك فهو يتعرض للعديد من الاعتداءات تحت شعار توسيع حائط المبكى وحفظ الأمن لليهود.

وهناك العديد من المخططات السياحية والمعمارية الصهيونية تصور الهيكل مكان المسجد الأقصى وقبة الصخرة في محاولة للاعتداء على قدسية الحرم ومشاعر المسلمين، وزرع ذلك في نفوس الأجيال الجديدة من الصهاينة.

الهوامش

١- فايز جابر، القدس ماضيها، حاضرها مستقبلها، دار الجليل للنشر (١٩٨٥) عمان- الأردن، ص ٢١-٣٠.

٢- المرجع السابق، ص ٣٥.

٣- رائف نجم، عمارة القدس، مجلة المهندس الأردني، عدد (٦٧) سنة (٣٤) آب ١٩٩٩ ص ٤٥-٤٦.

٤- محمد غوشة، بوابات القدس، عمان – الأردن، ص ١٩-٤٠.

٥- رائف نجم، المرجع السابق.

6- Edmund Bacon, Design of Cities, Thames and Hudson, (1982) London, page 17.

7- Alistair Duncan, The Noble Sanctuary, Longman Group Limited, (1972), London, Page 28.

8- Ibid – page 72.

٩- الدكتور عبد العلمي خضر، التطور العمراني لمدينة القدس، (١٩٨٢)، القصيم.

١٠- منظمة المؤتمر الإسلامي، وثيقة القدس، لجنة القدس، (١٩٨٤) المغرب.

١١- وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، الإعمار الهاشمي للمسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة، ١٩٩٤، عمان- الأردن صفحة ١٩-٤١.

١٢- أحمد القرعي، القدس من بن غوريون إلى ناتانياهو، مركز الدراسات العربي- الأوروبي، باريس (١٩٩٧)، صفحة ١٣٥.

توصيات الندوة

عقدت ندوة "القدس بين الماضي والحاضر" جلساتها يومي ٢١ و ٢٢ أيار من العام ٢٠٠١ في جامعة البترا بعمان، حيث قدمت أوراق عمل وبحوث جرى عرضها ومناقشتها كما هو مبين في جدول أعمال الندوة. وقد اتخذ المشاركون في ختام أعمالها التوصيات التالية:

١- التأكيد على دعم انتفاضة الشعب العربي في فلسطين والمحافظة على هويته وتوجيه التحية إلى الصامدين والمناضلين من أبناء شعبنا ماديا ومعنويا، شعبيا ورسميا.

٢- عقد ندوة سنوية بعنوان "القدس بين الماضي والحاضر" تعالج فيها الشؤون المقدسية المختلفة وآخر المستجدات المتصلة بالمدينة المقدسة.

٣- الدعوة إلى إنشاء مركز أبحاث خاص بالقدس.

٤- الدعوة إلى إنشاء مكتبة متخصصة بالقدس تضم كل ما كتب عن المدينة باللغة العربية واللغات الأوروبية بحيث تصبح مرجعا مركزيا معتمدا في شؤون القدس لجميع الباحثين والكتاب والإعلاميين وطلبة الدراسات العليا، على أن تتولى أمرها إحدى الجامعات الأردنية.

٥- الدعوة إلى تخصيص جائزة سنوية تقدم للأعمال المتميزة عن القدس.

٦- تخصيص مقرر عن القدس في مناهج الجامعات الأردنية ضمن إطار المتطلبات الجامعية، وذلك انبثاقا مما دعا إليه اتحاد الجامعات العربية.

٧- الدعوة إلى الاهتمام بالتراث المعماري والفني والثقافي لمدينة القدس للحفاظ على هويتها العربية.

٨- إنشاء موقع علمي متقدم على الإنترنت، باللغتين العربية والإنجليزية، عن القدس: تاريخها، وواقعها الراهن متضمنا الأبعاد الإنسانية في الصراع حولها، على أن يتم الاتصال بالمؤسسات المالية العربية لتمويل هذا الموقع، وحث القنوات الإعلامية الفضائية لتخصيص برامج عن القدس.

٩- تشجيع طلبة الدراسات العليا في الجامعات (للدرجة الماجستير والدكتوراه) على اختيار جوانب مختلفة من قضية القدس لتكون موضوعات لرسائلهم الجامعية.

١٠- نشر أعمال هذه الندوة في كتاب.

١١- تشكيل لجنة من المشاركين في هذه الندوة لمتابعة توصياتها كما يلي:

أ- تعرف اللجنة باسم "اللجنة الأكاديمية الأردنية لشؤون القدس".

ب- تكون مهماتها منحصرة في السعي لتنفيذ هذه التوصيات، وتتولى وضع التصورات الكاملة والبرامج والمخططات، كما تقوم بمخاطبة الجهات المعنية، من أجل ذلك، وتشكل ما تراه مناسبا من فرق عمل ولجان فرعية لتحقيق أغراضها.

ج- تستضيف جامعة البترا هذه اللجنة وتقدم لها التسهيلات الإدارية.

د- اختار المشاركون في الندوة معالي الأستاذ الدكتور محمود السمرة، رئيس جامعة البترا، ليكون رئيسا فخريا للجنة على أن تتولى الجنة التحضيرية للندوة مهمة تسمية أعضائها.

ه- يكون المشاركون في هذه الندوة بمثابة مرجعية عامة للجنة، فتعرض عليهم نتائج عملها وتتلقى الاقتراحات اللازمة لتطويره.

وأخيرا يوجه المشاركون في الندوة شكرهم وتقديرهم لجامعة البترا رئيسا وإدارة، كما يخصون بالتقدير اللجنة التحضيرية للندوة وقسم اللغة العربية في كلية الآداب ومركز الدراسات والعلاقات الخارجية للجهد المبذول لعقد هذه الندوة وإنجاحها والوصول بها إلى تحقيق أغراضها.

جامعة البترا

عمادة البحث العلم

منشورات جامعة البترا